تيسير التفسير

لقطب الأئمة

الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش

(ت: 1332هـ / 1914م)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة

الجزء العاشر

من أوَّل سورة المؤمنون إلى الآية 50 من سورة القصص

الطبعة الثانية

1439 هـ - 2018 م.


تيسير التفسير
الجزء العاشر



الطَّبعة الثَّانية
مزيدة ومنقَّحة
1439هـ / 2018م

سلطنة عُمان ـ ص.ب.: 668 مسقط، الرمز البريدي: 100
هاتف: 24641300 / 24641325، فاكس: 24641331
البريد الإلكتروني: info@mhc.gov.om
موقع الوزارة على الإنترنت: www.mhc.gov.om



لِقُطب الأَئمَّة

الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيّش

(ت: 1332هـ / 1914م)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة



من أوّل سورة المؤمنون إلى الآية 50 من سورة القصص



تَخرِيجُ ٱلأَحَادِيثِ وَوَضعُ ٱلتَّرَاجِمِ :

أ. أحمد بن حمّو كرّوم

أ. عمر بن أحمد بازّين

ٱلرَّقْنُ وَٱلفَهْرَسَةُ وَمُتَابَعَةُ ٱلطَّبْعِ :

أ. مصطفى بن إبراهيم طلاّي

تَدْقِيقُ ٱلنَّصِّ وَمُتَابَعَةُ ٱلطَّبْعِ :

د. مصطفى بن محمّد شريفي



23

تفسير سورة المؤمنون

مكِّـيَّة وآياتها 118 ـ نزلت بعد سورة الأنبياء

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝1 الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝2 وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝3 وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝4 وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝5 إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝6 فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝7 وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝8 وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝9 أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝10 الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝11﴾

خصال المؤمنين

﴿**قَد**﴾ لتحقيق الإفلاح الذي يتوقَّعه المؤمنون ﴿**اَفْلَحَ**﴾ دخل في الفلاح، كأصبح: دخل في الصباح، وأبشر: دخل بالبشارة، والفلاح: الفوز بالمقصود، وقيل: البقاء في الخير.

[قلت:] ومن الخطأ البيِّن تقدير القسم مع أنَّه لا دليل ولا محوج إليه يحوجنا. ﴿**الْمُومِنُونَ**﴾ بالله ورسوله وما جاء به، بشرط أن يأتوا بما في قوله تعالى: ﴿**اَلذِينَ هُم فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾ إلى قوله: ﴿يُحَافِظُونَ﴾ وما يتبع

ذلك، أو المؤمنون الموفُّون بذلك كلِّه وزيادة، فقولــه: ﴿الذِينَ هُمْ...﴾ مدح لهم، وهو أولى، لأنَّ الأصل إطلاق المؤمن على الموفِّي.

والخشــوع: التذلُّل مع خوف، ويزاد في الصلاة إذا فسِّــر الخشوع فيها بترك اشــتغال القلب والجوارح بغيرها ولو بأمر الآخــرة، وتنكيس الرأس أفضل للخضــوع، أو إقامته أفضل، لأنَّها إكمال للقيــام، وهو أصحُّ مع ضمِّ خشوع القلب إليها.

وعن أبي هريرة أنَّه رأى ﷺ مصلِّيا يعبث بلحيته فقال: «**لو خشع قلب هذا لخشــعت جوارحه**»[1]. وكان ﷺ يرفع بصره إلى الســماء فــي الصلاة فأنزل الله ﷻ: ﴿الذِينَ هُم فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِــعُونَ﴾ فكان ينكِّس رأسه، فاستدلَّ به على فضل النكس، وأجيب بأنَّ النكس في الحديث ترك الرفع إلى الســماء، ولو مع استواء القامة.

[فقه] وجاء عنــه ﷺ: «**لينتهينَّ أقوام عن رفع أبصارهم إلى الســماء أو ليتخطَّفنَّ**»[2]، فقيل: هذا شامل للأعمى، ولا شكَّ أنَّه لا يجوز له كما لا يجوز للمبصر، وفي الأثر: من رأى الســماء عمدا فسدت صلاته، ومن غمض عينيه عمدا بلا ضرورة فســدت صلاته، وجاء النهي عنه من طريق ضعيف، واليهود تفعله، واســتحبَّه بعض لأنَّه يحضر القلب. قالت أمُّ رومان والدة عائشة ؓ: رآني أبو بكــر أتميَّل في الصــلاة فزجرني حتَّى كدت أنصــرف عنها، وقال: سمعته ﷺ يقول: «**لايتميلنَّ أحدكم في الصلاة وليسكن**»[3].

---

(1) أورده **الهندي** في الكنز، ج 3، ص 144، رقم 5891.كما أورده **الآلوســي** في التفسير: مج 6، ص 3، وقال: أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول لكن بســند ضعيف. وا**بن المبارك** في الزهد، ص 213. من حديث أبي هريرة.

(2) رواه **مســلم** في كتاب الصلاة، (26) باب النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة، رقم 188 (429). ورواه **الطبراني** في الكبير، ج 9، ص 239، رقم 9173. من حديث عبد الله.

(3) لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ.

[فقه] وفي الحديث: «**الاختصار في الصلاة** ـ أي وضع اليد على الخاصرة ـ **راحة أهل النار**»[1] أي راحة في الصلاة لأهل النار في الآخرة، وهم اليهود، إذ لا راحة فيها.

وقدَّم ﴿فِي صَلَاتِهِمْ﴾ للفاصلة ولِيَلِيَ الإيمان، كما أطلق الإيمان عليها في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [سورة البقرة: 143].

[بلاغة] ويجوز أن يكون التقديم في مثل هذا للاعتناء بالمقدَّم، والتشويق للمؤخَّر لا للحصر، لأنَّه هنا بمعنى خاشعون في صلاتهم لا في غيرها، وليس هذا مرادا، وليس المعنى في الحصر: في صلاتهم لا في بعضها، لأنَّه لم يقل: في صلاتهم كلِّها، وعلى إرادته يحصل هذا المعنى ولو مع التأخير.

وعن عبادة بن الصامت موقوفا: «يوشك أن تدخل المسجد ولا ترى فيه خاشعا». وعن حذيفة موقوفا: «أوَّل ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون الصلاة وتنتقض عرى الإسلام عروة عروة». ويقال: الصلاة بلا خشوع جسد بلا روح.

﴿**وَالذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ**﴾ ما لا فائدة فيه من قول أو فعل أو شغل قلب، لا دِينِيَّة ولا دُنْيَوِيَّة، وقدِّم للفاصلة، وقيل: للحصر، أي عن اللغو لا عن الحقِّ ﴿**مُعْرِضُونَ**﴾ في عامَّة أوقاتهم لاشتغالهم بما ينفعهم، وللحذر عن الوقوع في المعاصي.

﴿**وَالذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ**﴾ أي فاعلون لتزكية أنفسهم بأداء الفرائض وترك المعاصي والتوبة منها، أو فاعلون لتزكية أموالهم بإعطاء ما لزم فيها، وذلك كما تقول: فعلت القيام، وذلك بمعنى المَصدَرِيَّة، أو فاعلون لأداء

---

(1) رواه **ابن حبَّان** في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يكره للمصلِّي وما لا يكره، رقم 2886. من حديث أبي هريرة.

الزكاة على تقدير مضاف، بمعنى نفس ما يعطى مـــن حقوق المال لا بمعنى المصدر، أو يتضمَّن «فَاعِلُونَ» معنى مـــؤدُّون، إذ لا مانع من أن تقول: فعلت الزكاة بمعنى: أدَّيتها.

﴿وَالذِينَ هُـــمْ لِفُرُوجِهِمْ﴾ قدِّم على قوله: ﴿حَافِظُـــونَ﴾ للفاصلة، واللام للتقوية، تقول: حفـــظ فلان فرجه، كما تقول حفظ مالــه، وذلك حفظ عن أن تكشـــف أو تمسَّ ولو من فوق الثوب، أو توصف [قلـــت:] أو يتمتَّع صاحبها بمسِّها أو نظرها.

﴿إِلَّا عَلَـــىٰٓ أَزْوَاجِهِمُۥٓ أَوْ مَا مَلَكَـــتْ﴾ المملوكات الإنـــاث ﴿اَيْمَانُهُمْ﴾ أيديهم اليمينات، لَمَّا كانت الأشـــياء المنتقلة تمســـك بالأيدي، وأفضلها اليد اليمنى، أطلق عليها أنَّها مالكة.

[نحو] و«عَلَى» متعلِّق بـ«حَافِظُونَ» المتضمِّن معنى: لا يرسلون فروجهم على أحد إلَّا على أزواجهم، أو مانعونها من كلِّ أحد إلَّا من أزواجهم، فصحَّ التفريغ لتضمُّن يحافـــظ معنى النفي. وعبَّر عن الإمـــاء بـ«مَا» لا بـ«مَن» لأنَّ المملوك جار مجرى غير العاقل كما يباع كما تباع البهائم.

﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ في الوطء لهنَّ وما دونه، كالكشف والمسِّ.

[فقه] واســـتثنت الآيـــة والحديث الحائض والنفســـاء حتَّـــى تطهر، أو المظاهر منها حتَّى يكفِّـــر، والمعتكف والمحرم والصائـــم. وذلك تعليل، أو جواب شرط مؤكَّد للاستثناء، أي فإن بذلوا فروجهم لهؤلاء فإنَّهم... إلخ.

[فقه] وحكم التسرِّي حكم التزوُّج فلا يجمع فيه بين محرمتين.

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾... إلخ عطف على الجملة قبله، و«وَرَاءَ» خارج عن الظرفيَّة مفعول بـــه، أي من طلب غير ذلك، أو مخالـــف ذلك، أو ظرف نعت لمفعول محذوف، أي أمرا ثابتا وراء ذلك ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ البعداء لابتغائهم

﴿هُمُ الْعَادُونَ﴾ الكاملون في مجاوزة الحدِّ، حتَّى كأنَّه لا عادي إلَّا هو، وذلك مبالغة بالحصر.

[فقه] وقد علمت عقاب من جاوزه ودخل في ذلك من يمسُّ فرجه من ذكر أو أنثى تلذُّذا أو يراه تلذُّذا أو يحكُّه إلى شيء، ونكاح المتعة بعد نسخه، وتسرِّي المرأة عبدها، وقد فعلته امرأة وشدَّد عليها عمر، وأزاح عنها الحدَّ لأنَّها تأوَّلت بتسرِّي الرجل سريَّته، ودخل في ذلك تزوُّج القادر على الحرَّة أمة، وغير القادر أمتين إلَّا إن لم تكفه الواحدة، ودخل في ذلك أن يهب الرجل لأحد فرج أمته بلا تمليك، ودخل الوطء قبل العدَّة أو الاستبراء والزنى والوطء في الدبر.

﴿وَالذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ شامل لِمَا فرض عليهم الله ولأمانات الناس في الأموال والسرِّ، وللجوارح، والقلب، والنذر والوعد واللقطة، والعقد والرهن ومال القراض **كلُّ ذلك يصدق عليه أنَّه أمانة وأنَّه عهد.**

وقيل: الأمانة من الناس، والعهد من الله فيما فرضه من فعل أو ترك. وجمعت الأمانة لأنَّها متنوِّعة جدًّا، والعهد دونها، وهو مصدر يصلح للقليل والكثير، وأصل الأمانة مصدر استعمل بمعنى ما ائتمن عليه.

وقيل: الأمانات من الله، والعهد ما ألزم نفسه، فالوفاء به كالتحلية ـ بالحاء المهملة ـ ولو وجب الوفاء به، ولذلك أخِّر عن الأمانات فإنَّهنَّ كالتخلية ـ بالمعجمة ـ وهي قبل التحلية.

﴿رَاعُونَ﴾ حافظون بالمراقبة ﴿وَالذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بأدائها في أوَّل وقتها ما وجدوا، وطهارتها وخشوعها وإتمام أركانها.

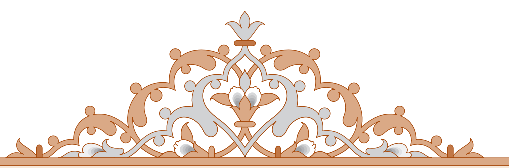
[قلت:] وفي بدء الأوصاف بالصلاة وختمها بها ما لا يخفى من تعظيم شأنها، وذكرها بالخشوع غير ذكرها بالمحافظة فلا تكرير، وكذا ذكر التأكيد لها بقوله: ﴿يُحَافِظُونَ﴾ بفعل التجدُّد، وسائر الفواصل بالاسم.

[فقه] [قلت:] ولا يحسن لمسافر مطمئنٍّ في بلد أن يجمع بين الصلاتين بلا أمر داع بل يصلِّي كلَّ صلاة في وقتها بلا جمــع، وهي ركعتان والمغرب ثلاث، ومن جمع بلا عــذر كمن ذبح بقرة خارج البلد ورجــع بالقصبة ـ آلة الذبح ـ وحدها.

﴿**أُوْلَئِكَ**﴾ الأعلون بصفاتهم ﴿**هُمُ الْوَارِثُــونَ**﴾ الحائزون لِمَا يحبُّون، الكاملون، وفسَّر ما يحوزون بقوله: ﴿**الذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ**﴾ وهي الجنَّة التي فوق سائر الجنَّات، والمشــتملة على ما فيهنَّ من أنواع الخير، وعلى ما لم يكن فيهنَّ، والذين لم يكونوا كذلك وتابوا دونهم في اسم الوارث، أو في المنازل.

[بلاغة] واختار لفظ الإرث لأنَّ الإرث أقوى أسباب الملك. ويجوز أن يراد بالموصوفين من أوَّل السورة إلى هنا السعداء مطلقا لأنَّ من لم يصدر منه تلك الأوصاف منهم لا يموت إلَّا تائبا، وكأنَّه مؤدٍّ لها كلِّها، وهم كلُّهم يرثون منازل الأشقياء في الجنَّة والأشقياء منازلهم في النار كما في الحديث.

﴿**هُمْ فِيهَا**﴾ الفردوس، يؤنَّــث ويذكَّر، وقيل: التأنيــث لتأويل الجنَّة، أو الطبقة العليا ﴿**خَالِدُونَ**﴾ لا يخرجون ولا يموتون.



﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿12﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿13﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿14﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿15﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿16﴾ ﴾

من أدلة وجود الله وقدرته

ـ 1 ـ

خلق الإنسان

﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا**﴾ ووالله لقد خلقنا الإنسان، وقيل: لا قسم بل عطفت جملة على جملة، قلت: لا بدَّ من هذا العطف ولوقدَّرنا القسم لوجود العاطف قبلَ واو القسم ﴿**الإِنسَانَ**﴾ الجنس غير آدم ﴿**مِن سُلَالَةٍ**﴾ شيء استخرج بسهولة، وهذا الوزن لِمَا يحصل من الفعل مقصودا كالسلالة والخلاصة، أو غير مقصود كالقلامة والكناسة، وهو وزن يدلُّ على القلَّة.

[نحو] ﴿**مِّن طِينٍ**﴾ «مِنْ» للابتداء كالأولى إن علِّق بـ«سُلَالَةٍ» على معنى مسلولة من طين، أو «مِن طِينٍ» بدل من قوله: ﴿مِن سُلَالَةٍ﴾ وإن علِّق بمحذوف نعت لـ«سُلَالَةٍ» فـ«مِنْ» للابتداء أو للتبعيض أو للبيان، وتلك السلالة الدم المتحوِّل نطفة.

وآدم غير مراد في الآية لأنَّه ليس من نطفة، ومعنى كون ذرِّيَّته من طين أنَّ أصلهم من طين وأصلهم هو، أعني آدم، وذلك الجزء الطينيُّ لا يخلو منه أحد

بالتوالد والتنقُّل، أو إنَّهم من طعام متولِّد من طين. ويجوز كون الإنسان آدم عليه السلام، وعليه فالهاء في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ عائدة إلى ولده الجنس للعلم به من المقام، أو للإنسان على الاستخدام مراد به الذرِّيَّة، أو يقدَّر مضاف، أي جعلنا ذرِّيته، أي ما سيصير ذرِّيَّة وإنسانا ﴿نُطْفَةً﴾ مفعول ثان، أو الجعل بمعنى الخلق أي خلقناه من نطفة ﴿فِي قَرَارٍ﴾ موضع القرار أي الثبوت، وأصله مصدر، وهو الرحم ﴿مَّكِينٍ﴾ متمكِّن، ووصفها بالتمكُّن وصفا للمحلِّ وهو هي بما للحالِّ وهو النطفة، أو هي نفسها متمكِّنة ماسكة لا تُمجُّ النطفة أو لا تنفصل لثقل حملها.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ صيَّرناها دما جامدا[1] ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ لحمة قدر ما يمضغ ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ﴾ كلَّها ﴿عِظَامًا﴾ مائتين وثمانية وأربعين عظما وهي عدد لفظ رحم بالجمل الكبير.

﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ﴾ المعهودة عهدا ذكريًّا ﴿لَحْمًا﴾ آخر غير لحم المضغة، خلق من الرحم، وهذا هو الظاهر من قوله: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ﴾ لأنَّ المتبادر أنَّها كلَّها صيِّرت عظاما ولا دليل على أنَّه صيَّر أكثرها وكسا العظام بباقيها.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ﴾ بإحداث الروح فيه سارية في أجزائه حتَّى ظفره وشعره ﴿خَلْقًا ـ اخَرَ﴾ حيوانا يتكلَّم ويسمع ويبصر ويفعل، ولبعد هذه الأوصاف عمَّا قبلها من الجمادات كان العطف بـ«ثُمَّ»، كما كان بها أوَّلا لبعد النطفة عن الطين، والعطف بالفاء في الباقي للترتيب دون اتِّصال، والمدَّة في ذلك كلِّه سواء، وتراخي «ثُمَّ» في الرتبة.

[فقه] واستدلَّ أبو حنيفة بقوله: ﴿خَلْقًا ـ اخَرَ﴾ على أنَّه من غصب بيضة فأفرخت عنده أنَّ فرخها له لأنَّه خلق آخر، وليس كذلك بل لصاحبها ولو كان

---

(1) يثبت العلم الحديث أنها ليست دمًا جامدًا. ينظر: ج9، ص384 (هامش). ويجب عرض ما ذكره المفسرون على حقائق العلم الحديثة. (المراجع).

خلقا آخر لأنَّه هو البيضة اســتحالت فرخا بإذن الله، وتحوُّلها لا يخرج به من ملكه، بل هو جزء من المغصوب.

﴿**فَتَبَارَكَ اللهُ**﴾ لم يقل فتباركنا للإشعار بأنَّ تلك الأفعال من شأن الأُلُوهِيَّة ﴿**أَحْسَــنُ الْخَالِقِينَ**﴾ نعت، لأنَّ إضافة اسم التفضيل محضة، لا كما قيل: إنَّها لَفْظِيَّة، لكونها عوضا مــن «من». والتمييز محذوف دلَّ عليــه «الْخَالِقِينَ» أي أحسنهم خلقا، والخلق هنا: التقدير أو التصوير، قال الله سبحانه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ﴾ [سورة المائدة: 110] أي تصوِّر، قال زهير:

ولأنْتَ تَفْرِي مــا خلقتَ وبعـ ـضُ القوم يخلق ثــمَّ لا يفري

[أصول الدين] أي تقــدّر لا بمعنى الإيجاد، لأنَّــه يختصُّ بالله، إلَّا على زعم المعتزلة أنَّهم خلقوا أفعالهم. ومعنى حسن خلقه للأشياء إتقانه، أو انتفاء القبح في فعله، وهو تعالى يخلق القبيح والحســن، لا كما قالت المعتزلة: إنَّه لا يخلق المعاصي.

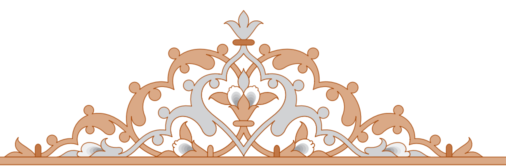
وروي أنَّه لَمَّا ســمع عمر الآية إلى قوله: ﴿خَلْقًا ـ اخرَ﴾ قال: فتبارك الله أحســن الخالقين، فنزلت، كما في الطبراني وأبي نعيم وابــن مردويه، وكان يفرح بذلك، وروي هذا عن معاذ، كما في الطبراني وابن مردويه.

وروي عن عبد الله بن سعيد بن أبي سرح **وهو المشهور**، وأنَّه ارتدَّ وهرب إلى مَكَّة، وقــال: أوحي إليَّ كما أوحــي إلى محمَّد، وردَّ بأنَّ الســورة مَكِّيَّة وارتداده بالمدينة، ويجاب بأنَّ السورة مَكِّيَّة ونزلت عليه بالمدينة الآية، فالآية مَدَنِيَّة كقوله ﷻ: ﴿حَتَّــىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ...﴾ إلى [قوله]: ﴿مُبْلِسُــونَ﴾ [سورة المؤمنون: 64 ـ 77] وباقي السورة مكيٌّ، ومات كافرا، وقيل: أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه.

﴿**ثُمَّ إِنَّكُم بَعْــدَ ذَٰلِكَ**﴾ المذكــور العالي الرتبة من الأفعــال العجيبة ﴿**لَمَيِّتُــونَ**﴾ تحقيقا ولا بدَّ ﴿**ثُــمَّ إِنَّكُمْ يَــوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ عنــد النفخة الثالثة

﴿ **تُبْعَثُــونَ** ﴾ للجزاء كما تقتضيــه الحكمة في خلقكم خلقــا آخر، ولم يزد توكيدا باللام اســتغناء بدلالة الأفعال على القدرة علــى البعث، وزاده في الموت إنهاضا إلى الإيمان والعمل قبل حدوثه، وتنزيلا لأحوالهم منزلة من ينكر الموت.

وفي الآية تســعة أطوار وذكر الموت في الثامن فقلَّما يعيش من ولد في الشهر الثامن من حمله.



﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ١٧ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ١٩ وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ٢٠ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢﴾

ـ 2 ـ

خلق السماوات وإنزال الأمطار وتسخير الأنعام

﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ**﴾ سبع سماوات، سمِّيت لأنَّ بعضها فوق بعض كطرق النعال، أو لأنَّها طرق الملائكة في الهبوط لمصالح العباد والصعود وطرق للكواكب، أو لأنَّها مختلفة الهيئات كالأعلام للثوب، أو في كلٍّ ما ليس في الأخرى.

﴿**وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ**﴾ المخلوقات المكلَّفة، أو مطلقا فمنها السماوات ﴿**غَافِلِينَ**﴾ عن مصالحهم وما يقولون ويفعلون ويعتقدون، وعن حفظها عن الزوال.

﴿**وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءَۢ**﴾ السحاب، أو إحدى السماوات إلى السحاب ثمَّ إلى الأرض، والله قادر أن ينزل في لحظة ماء من مسافة عشر مائة عام، على أنَّ غلظها خمس مائة، وكذا بين الأرض وبينها، ولم يقل: «منها» أي من الطرائق لأنَّ الإنزال من هذه السماء فقط لا منهنَّ جميعا.

[قصص] وقيـل: الماء سـيحون بهند، وجيحـون ببلخ، ودجلـة والفرات بالعـراق، والنيل بمصـر على جناحـي جبريل، واسـتودعها الجبـال كما قال: ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الاَرْضِ﴾ [قلت:] **ولا يحسـن تفسير الآية بهنَّ خصوصا.** ﴿**بِقَدَرٍ**﴾ بتقدير ما يليق، متعلِّق بـ«أَنزَلْنَا»، أو نعت لـ«مَاءً» ﴿**فَأَسْكَنَّاهُ فِي الاَرْضِ**﴾ جاء في الحديث: «**كلُّ ماء في الأرض نزل من السماء**» ولعلَّ ماء البحور المالحة ولا سيما المحيط هو من الماء الأوَّل الذي كان العرش عليه لم ينزل من السماء.

﴿**وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ**﴾ الباء للتعدية، أي على إذهابه، والنكرة في الإثبات عامَّة على سـبيل البدليَّة فهي للعموم من هذه الجهة، كالتي في النفي للعموم الشـمولي، فحصلت المبالغـة في الإثبات بـذاك، كما حصلت فـي النفي، فالحاصل: نذهبه أيَّ إذهاب شئنا.

﴿**لَقَادِرُونَ**﴾ كما قدرنا على إنزاله وإثباته.

[قصص] روي عنـه ﷺ: «أربعـة أنهار مـن الجنَّة سـيحان وجيحان عند المصيصة وطرسوس، والنيل والفرات، وأمَّا سيحون وجيحون ففي هند وبلخ»، وفي رواية: خمسـة، بزيادة «دجلـة»، وإذا خرج يا جوج وماجـوج رفعت هذه الخمسـة بشـرب ياجوج وماجوج مياهها، ورفع القرآن والعلـم كلُّه، والحجر الأسود، وهدِّمت الكعبة، ورفع مقام إبراهيم، وتابوت موسى بما فيه، فيفقد أهل الأرض خير الدنيا والآخرة. والمشهور أنَّ الحبشة هم الذين يهدمون الكعبة[1].

﴿**فَأَنشَـأْنَا لَكُم بِهِ**﴾ بسبب الماء وبواسـطته، والله هو الخالق وكلُّ شيء مبتدأ من الله، وقيل: أنشأنا عنده والفاء للسببيَّة والترتيب دون اتِّصَال ﴿**جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيـلٍ وَأَعْنَابٍ**﴾ قدَّمهمـا لكثرتهما وكثرة الانتفاع بهما، ولا سـيما في الحجاز والطائف والمدينة.

(1) لعلَّ في ثورة الزنج أو القرامطة سنة 317هـ ما يثبت هذا. راجع هامش الجزء الأَوَّل، ص 254.

﴿لَّكُم فِيهَا﴾ في الجنَّات ﴿فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ غير ثمرات النخيل والأعناب، تتنعَّمون بها زيادة على الغذاء الأصلي ﴿وَمِنْهَا﴾ أي من الجنَّات، أي من زروعها التي تحرث فيها ﴿تَاكُلُونَ﴾ في بطونكم، أو مجاز عن مطلق الانتفاع.

وأجيز عود مجرور «مِن» إلى النخل والأعناب أي تأكلون منهما الرطب والعنب والتمر والزبيب والدبس، فثمرتهما جامعة للتفكُّه والغذاء، ويطلق الفاكهة عليهما، وقيل: الفاكهة ما عداهما، وقيل: الثمار كلُّها فاكهة، وليس الدبس والخلُّ فاكهة.

﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على «جَنَّاتٍ»، وهي شجرة الزيت، خصَّت لاستقلالها بمنافع معروفة، وهي أوَّل شجرة نبتت بعد الطوفان، وتعمِّر ألف عام، وقيل: ثلاثة آلاف، وفي موضع الجامع الكبير في تونس شجرة منه فنسب إليها، وزعم بعض أهل تونس أنَّ «زيتونة» امرأة، وهو خطأ.

وعظَّمها بقوله: ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سِينَآءَ﴾، أو خصَّه لأنَّه منشؤها الأصلي، وهو جبل موسى الذي ناجى ربَّه فيه، ونزلت فيه التوراة بين مصر وأيلة، أو في فلسطين من أرض الشام، و«سيناء» شجرة، وقيل: بقعة، ويقال: مات الشجر بالطوفان، وأوَّل شجرة نبتت بعده شجرة الزيت، والشجر الثلاث أكرم الشجر وأفضلها، وأجمعها للمنافع.

[نحو] ومنع «سِينَاءَ» الصرف لألف التأنيث، أو للعَلَميَّة والعجمة، على أنَّه نبطيٌّ أو حبشيٌّ، ومعناه: الحسن أو المبارك، أو للعلَميَّة وتأنيث البقعة.

﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ مع الدهن، وذلك لأنَّه في ضمنها، أو الباء للتعدية أي تنبت الدهن، ولا بأس به، ولو كان إنبات الدهن غير معروف، والدهن: عصارة كلِّ ما فيه دسم.

﴿**وَصِبْغٍ لِّلَاكِلِينَ**﴾ يغمس فيـــه الخبز، فعصارة الزيتون يدهن بها ويغمس فيها ما يؤكل، كقولك: جاء زيد العاقل والعالم، أي الجامع بين العقل والعلم، وقيل: الدهن الزيت والصبغ الزيتون، سمِّي إساغة الخبز به صبغا، والمعروف أنَّ الصبغ المائع الذي يســـاغ به. وروي أنَّه ﷺ طبخ له لسان شاة بزيت فأكل منه، وقال ﷺ: «**كلوا الزيت وادهنوا به فإنَّه شـــفاء من سبعين داء منها الجذام وإنَّه يخرج من شـــجرة مباركة**»[1]. ويقـــال: الدهن به في البـــلاد الباردة ضارٌّ وكثرة دهن الرأس به خطر على البصر.

﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الَانْعَامِ لَعِبْرَةً**﴾ تذكرة لقدرة الله سبحانه، فسَّر منشأها بقوله: ﴿**نُّسـقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا**﴾ ألبانا، وذلك فـــي المجموع لا في الجميع، لأنَّ اللبن في الإناث خاصَّة، أو روعي الذكر أيضا لأنَّه ســـبب، واللبن في الضرع لكنَّه يتولَّد مِمَّا في البطن عن العلف، أو البطون: ما خفي فيه فهو الضرع.

﴿**وَلَكُم فِيهَـا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ**﴾ كأصوافها وأوبارها وأشـــعارها وما يتولَّد من لبنها ونتاجها كذا قيـــل، وفيه أنَّ النتاج هو هي إذا قـــوي، قيل: ومنها الحرث عليها، وأثمان الحمل عليها من مكتريها، وهذا في الجملة لأنَّ الغنم لا يحرث عليها ولا تكرى، ومنها أثمانها بالبيع، ومنها التزوُّج بإصداقها.

﴿**وَمِنْهَا تَاكُلُونَ**﴾ اللحـــم، أو الأكل مطلق الانتفاع. والتقديم للفاصلة، أو للحصر الإضافي، أي تأكلون منها لا مـــن الخيل والبغال والحمير، لكن ليس المقام للتعرُّض للحصر.

﴿**وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْـكِ تُحْمَلُونَ**﴾ يحملكم الله مـــع ما معكم من متاع التجر أو غيره عليها في الجملة، لأنَّ الحمل على الإبل لا على الغنم، وقلَّ

---

(1) أورده **الآلوســـي** في تفســـيره: مج 6، ص 23، وقال: أورده أبو نعيم فـــي الطب، من حديث أبي هريرة.

على البقر. ويجوز عود المجرور بـ«عَلَى» إلى «الَانْعَامِ» مرادا به الإبل لأنَّها المعتاد في الحمل على الاســتخدام، وفي قرنها بالفلك مناسبة لأنَّها سفائن البرِّ، قال ذو الرمة:

سـفينة بَرٍّ تحت خدِّي زمامها ....

ولا تفسَّر من أوَّل بالإبل، لأنَّ المقام لتذكير النعم امتنانا، فلا يخلُّ بالغنم والبقر بعدم إرادتهما مع كثرة منافعهما.

وخوَّف الله ﷻ قريشا على تكذيبهم بما وقع للأمم قبلهم إذ كذَّبوا، وبدأ بنوح لأنَّه أوَّلُ من أهلك الله قومه للتكذيب، وليناسب ذكر سفينته ذكر الفلك في هذه الآية فقال:

﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا نُوحًا اِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اِعْبُدُواْ اُ۬للَّهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ أَفَلَا تَتَّقُونَۖ (23) فَقَالَ اَلْمَلَؤُاْ اُ۬لذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَّتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ اَللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِےٓ ءَابَآئِنَا اَلَاوَّلِينَ (24) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍۖ (25) قَالَ رَبِّ اِنصُرْنِے بِمَا كَذَّبُونِۖ (26) فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ اِصْنَعِ اِ۬لْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَاۖ فَإِذَا جَآءَ اَمْرُنَا وَفَارَ اَلتَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اِثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ اِ۬لْقَوْلُ مِنْهُمْۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِے فِے اِ۬لذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَۖ (27) فَإِذَا اَسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى اَلْفُلْكِ فَقُلِ اِلْحَمْدُ لِلهِ اِلذِے نَجَّيْنَا مِنَ اَلْقَوْمِ اِلظَّٰلِمِينَۖ (28) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِے مُنزَلًا مُّبَٰرَكًا وَأَنتَ خَيْرُ اُ۬لْمُنزِلِينَۖ (29) إِنَّ فِے ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۖ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَۖ (30)﴾

القصَّة الأولى ـ قصَّة نوح عليه السلام

﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ إلى من في زمانه كلِّهم، وزعم بعض قومنا أنَّ رسالته غير عامَّة واحتجَّ بقوله: ﴿اِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ وأجيب بأنَّ المراد بقومه أهل زمانه بدليل أنَّهم أغرقوا جميعا، وما كان الله ليغرق ناسا بلا إرسال إليهم.

﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده لقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا اللَّهَ﴾ [سورة هود: 26 وفصلت: 14 والأحقاف: 21] ولأنَّ عبادة غيره معه إبطال لعبادته، فليس بمعبود، فلاق[1] أن يقال: اعبدوه، وأكَّد ذلك أو علَّله بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنِ اِلَهٍ

(1) الفعل من لاق الشيء بالشيء ناسبه، وحسن به.

﴿غَيْرُهُ﴾ نعت لـ«إِلَهٌ» المقدَّر الرفع على الابتداء، أو الفاعليَّة لـ«لَكُمْ»، و«مِنْ» صلة. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أتعرفون الله أنَّه الإله القادر على كلِّ شيء حتَّى إنَّ آلهتكم مخلوقة له فلا تتَّقون عذابه؟ أو أتشـــركون به فلا تتَّقون عذابه؟ وليس المقام محلًّا للامتنان بالنعم فضلا عن أن يقدَّر: أفلا تتَّقون زوال النعم؟.

﴿فَقَالَ الْمَلأُ﴾ الأشـــراف لعامَّتهم ﴿الذِينَ كَفَرُواْ مِـــن قَوْمِهِ﴾ احترازا عن الأشراف الذين آمنوا وهم قليل، ولم يعتبروهم لقلَّتهم، إذ قالوا: ﴿وَمَا نَرَايكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الذِينَ هُمُۥٓ أَرَاذِلُنَا﴾ [سورة هود: 27] أو عدُّوا من اتَّبَعَه أراذل ولو شريفا، أو اتَّبَعَه بعض الأشراف بعد قولهم: «وَمَا نَرَاكَ...».

﴿مَا هَذَآ إِلَّا بَشَـــرٌ مِّثْلُكُـــمْ﴾ جنســـا ووصفا فكيف يخصُّ عنكم بالنبوءة والرســـالة! ﴿يُرِيدُ أَنْ يَّتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يزيد عليكم في الشـــرف، أو يسودكم بالنبوءة والرسالة، ولَيْسَتَا له، وذلك مجرَّد دعوى أو إغراء على معاداته.

﴿وَلَوْ شَآءَ اللهُ﴾ الإرســـال إلينا، ولا بأس بهذا التقدير لوجود القرينة ولو لم يكن مـــن الجواب، ولا يجوز تقديـــره منه على القاعدة، أي ولو شـــاء الله الإنزال إلينـــا، لأنَّ نوحا عليه السلام لم يذكر الإنزال بل قال: إنِّي رســـول الله إليكم، وذلك إنكار لرســـالته، ويجوز أن يتعلَّق بقوله: ﴿اعْبُدُواْ اللهَ﴾ أي ولو شاء الله عبادته وحده ﴿لأَنزَلَ﴾ من الســـماء، وذلك لأنَّها معظم محلِّهـــم ﴿مَلَآئِكَةً﴾ بالرسالة أو بعبادته وحده.

﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ بما ذكر من انفراد الله بالعبادة، أو من إرسال البشر، أو ما سمعنا بنبوءة هذا، أي نوح، أو ما سمعنا باسمه، ولو كان نبيئا لوجدنا اسمه قبلنا، كما قال: ﴿فِي ءَابَآئِنَا الاَوَّلِينَ﴾ من أهل زمانه، ســـواء لفظ نوح أو غيره وقد عاش طويلا.

﴿إِن هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا رَجُلُۢ بِهِ جِنَّةٌ﴾ وسوســـة الجنِّ كقوله تعالى: ﴿مِنَ الجِنَّةِ والنَّـــاسِ﴾ [ســـورة الناس: 6] أو جنون فقال لذلك ما قـــال ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِ﴾

أمهلوه وانتظروا زوال الجنون والجنِّ عنه ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ لعلَّه يزول ذلك عنه، وذلك مكابرة وعناد، لِمَا رأوا من كمال عقله وسياسته.

وكأنَّه قيل: فبم أجابهم؟ فقال ﷻ: ﴿قَالَ﴾ آيسا من إيمانهم [لمَّا أوحى الله إليه] ﴿إِنَّهُ لَنْ يُؤمِنَ مِن قَوْمِكَ...﴾ [سورة هود: 36] ﴿رَبِّ انصُرْنِي﴾ عليهم بإهلاكهم كلِّهم ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الاَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [سورة نوح: 26] ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ بسبب تكذيبهم، أو لأجل تكذيبهم.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ عقب ذلك بسبب ذلك ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ملتبسا بحفظنا لها عن أن يفسدوها، وعن أن تزيغ في صنعها ﴿وَوَحْيِنَا﴾ إليك بكيفيَّة صنعها، قارنه ملك يعلِّمه الصنع، وتغطيتها بما لا ينفذه الماء كالقطران مع الجير.

﴿فَإِذَا جَآءَ﴾ قرب جدًّا، أو حضر ابتداؤه ﴿امْرُنَا﴾ عقب إتمامه، وهو واحد الأمور وهو العذاب، أو أَمْرُنا لك بالركوب فيه ﴿وَفَارَ﴾ نبع بالماء نبعا شديدا ﴿التَّنُّورُ﴾ الذي من شانه المناباة للماء [قيل:] تنُّور آدم عند نوح أخبرته امرأته لعنها الله بفورانه، فركبوا، [قيل:] وهو في موضع مسجد الكوفة عن يمين الداخل من باب كندة، أو في عين وردة من الشام، أو بالجزيرة قريبا من الموصل، أو في هند، أو التنُّور وجه الأرض، أو **فار التنُّور عبارة عن شدَّة الأمر كحمي الوطيس**، وشمَّرت الحرب عن ساق.

﴿فَاسْلُكْ﴾ أدخل ﴿فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ نوعي ذكر وأنثى ﴿اثْنَيْنِ﴾ فردين ذكرا وأنثى، مفعول به لـ«اسْلُكْ» ليتوالدا فلا ينقطع الجنس، فحمل ديكا وديكة ونعامة ذكرا وأنثى، وغير ذلك مِمَّا يلد البيض، وجملا وناقة، وهكذا، [قيل:] فلم يحمل بغلا وبغلة لأنَّهما لا يتوالدان، ويكفي حمل ما يلدهما، ولم يحمل ما يتولَّد من الماء أو العفونة كالذباب والدود والبق.

والآية صريحة في أنَّ قوله تعالى: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ متقدِّم على صنعه فيردُّ إليها قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ امْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾ [سورة هود: 40] إذ ظاهره بعد صنعه وهو كذلك، بأنَّ القول قبل صنعه يتحقَّق وينفذ بعد صنعه، أو ما هنا ـ وهو القول قبل الصنع ـ كالعدم بالنسبة إلى القول بعده لقوَّته، وهو ما في الآية الأخرى فكأنَّه قيل بعده، وأولى من هذا أنَّ القول وقع قبلُ وبعدُ تنبيها وتأكيدا.

﴿**وَأَهْلَكَ**﴾ أي من آمن بك، ولو من غير قرابتك، كما في [سورة] هود، والعطف على اثنين ولا يتوهَّم أنَّ الأهل من الزوجين، لأنَّ المراد اسلك فيها اثنين من كلِّ زوجين، وأهلك.

﴿**إِلَّا مَن سَبَقَ**﴾ في علمه تعالى وفي اللوح المحفوظ ﴿**عَلَيْهِ الْقَوْلُ**﴾ بالإهلاك ﴿**مِنْهُمْ**﴾ من القوم، والاستثناء منقطع لأنَّ المراد بالأهل من آمن به، وإن فسَّرنا الأهل بقرابته ومَن تحت حكمه كان المراد بـ﴿مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ زوجه وابنه الكافر، فيكون سائر من آمن به لم يذكر في هذه الآية اكتفاء بذكره في غيرها، ولدلالة استثناء من سبق عليه القول لأنَّ استثناءه لكفره.

[بلاغة] وأخَّر الأهل عن الاثنين من كلِّ زوجين، ولو قدَّمهم لطال الفصل بالاستثناء وما اتَّصلَ به من قوله: ﴿**وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ**﴾ ولأنَّ أهله يدخلون بأنفسهم، واختيارهم مع قوله تعالى: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ والاثنان من كلِّ زوج لا يدخلان باختيارهما بل بإدخال نوح.

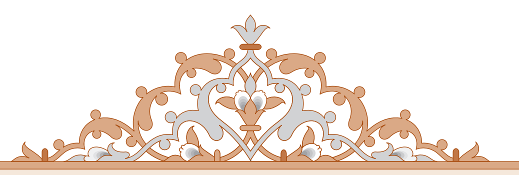
والمعنى: لا تكلِّمني فيهم بطلب إنجائهم، والمراد: لا تخاطبني فيهم، وأظهر ليذكر سبب إغراقهم وهو الظلم لأنفسهم وللمؤمنين، ولنوح ولدين الله إنَّهم مغرقون ولا بدَّ، أو مقضيٌّ عليهم بالإغراق فلا يتخلَّف.

[أصول الدين] ولا يقال: «خاطبــت الله»، لقلَّة الأدب فيه، ولعدم وروده، ولو قال: ﴿لَا تُخَاطِبْنِي﴾.

﴿**فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ**﴾ من المؤمنين ﴿**عَلَى الْفُلْكِ**﴾ أظهره مع تقدُّمه للفصل ولتعظيم الإنعام به ﴿**فَقُل**﴾ في دفع الضرِّ ﴿**الْحَمْدُ**﴾ الشــكر ﴿**لِلهِ الذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ بإهلاكهم، والتنجية أهمُّ من إهلاكهم، فلم يقل: الحمــد لله الذي أهلــك القــوم الظالمين، ولو كان الشــكر على إهلاكهم ليس من حيث إنَّه مصيبة، بل من حيث إنَّه رفع لشأن الدين وإزالة للضرِّ عن المؤمنين.

﴿**وَقُل**﴾ في جلب النفع ﴿**رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ**﴾ الظاهر أنَّــه معطوف على جــواب «إذا» فالظاهر أنَّ القول قبــل الخروج منها فالمنزل المبارك من الفلك، وهي واسعة ينزل في موضع حسن منها، والدعاء قبل دخولها أو في بدء دخولهــا، وإن كان بعد النزول في موضع منها فالمراد إدامة البركة، وقيــل: هذا دعاء أمر نوح أن يدعو به عنــد الخروج منها، فكان قتادة يقول: يندب للخارج من الســفينة أن يقول ذلك، **والثناء على المحســن جلب لإحسانه**. و«مُنزَلاً» مصدر ميميٌّ، أو اسم مكان ميميٌّ.

﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِــكَ**﴾ المذكور من صنع الســفينة وإنجائه مــع المؤمنين بها ﴿**ءَلَايَاتٍ**﴾ دلائل على ألوهيَّتنا وانفرادنا بها وقدرتنا ﴿**وَإِن**﴾ مخفَّفة، أي إنَّنا ﴿**كُنَّا لَمُبْتَلِينَ**﴾ الــلام للتأكيد وللدلالة على أنَّ «إنْ» غيــر نافية، وقيل: «إنْ» نافية واللام بمعنى إلَّا، أي ما كُنَّــا إلَّا مبتلين، **وهو مردود**، والمعنى: معاملين عبادنا بالآيات ليتذكَّروا معاملة المختبر، أو مصيبين قوم نوح بعذاب شديد.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿31﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿32﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿33﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿34﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿35﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿36﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿37﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿38﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿39﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿40﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿41﴾﴾

القصَّة الثانية ـ قصَّة هود عليه السلام

﴿**ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ**﴾ بعد إهلاك قوم نوح عليه السلام ﴿**قَرْنًا ـ اخَرِينَ**﴾ قوم هود عليه السلام ﴿**فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ**﴾ قال: ﴿فِيهِمْ﴾ لأنَّه نشأ فيهم كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ﴾ [سورة الرعد: 30] ﴿**رَسُولاً مِّنْهُمْ**﴾ هودا لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [سورة الأعراف: 69] ولمجيء قصَّتهم بعد قصَّة نوح في سائر السور.

وقيل: القوم الآخرون قوم صالح، والرسول صالح، لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ وهم المهلَكون بالصيحة، وقوم هود أُهلكوا بريح، وأجيب بِأَنَّ جبريل صاح عليهم منها.

﴿أَنُ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الَاخِرَةِ﴾ بالبعث أو بحساب الآخرة، أو بالحياة الثانية، وذكر الأولى في قوله تعالى: ﴿أَنشَأْنَا﴾. وقدَّم «مِن قَوْمِهِ» على النعت لطول الفصل لو أخَّره عنه وعمَّا في حيِّزه، ولئلَّا يفصل بين المتعاطفين لو جيء به بعد «الَاخِرَةِ»، وليس «الذِينَ» نعتا لـ«قَوْمِهِ» لقوله تعالى: ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ والمعروف نسبة الإتراف للملإ لا للقوم.

وقد يقال: لا نخصُّ الإتراف، وأيضا: قد لا نعطف «أَتْرَفْنَاهُمْ» بل نجعله حالا لـ«الْمَلأُ» أو لواو «كَفَرُوا» وهذا أبلغ في الذمِّ إذ وصفهم بالكفر في مقابلة الإحسان، إلَّا أنَّ الحال ضعيف لعدم وجود «قد» قبل «أَتْرَفْنَا».

﴿مَا هَذَآ﴾ هود أو صالح على ما مرَّ ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وقرَّروا المماثلة بما ذكر الله ﷻ عنهم بقوله: ﴿يَاكُلُ مِمَّا تَاكُلُونَ﴾ من جنس ما تأكلون ﴿مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ من جنس ما تشربون منه.

﴿وَلَئِن﴾ والله لئن ﴿اَطَعْتُم﴾ في الديانة ﴿بَشَرًا مِّثْلَكُمُۥٓ إِنَّكُمُۥٓ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ الجملة جواب القسم لتقدُّمه، مغنية عن جواب الشرط، و«إذ» ظرف متعلِّق بـ«خَاسِرُونَ» أي لخاسرون إذْ أطعتموه، بإسكان الذال، أو إذ تطيعونه، باستعمالها للاستقبال، أو إذا أطعتموه حذفت الجملة وعوِّض عنها التنوين.

﴿أَيَعِدُكُمُ﴾ استفهام إنكار للصحَّة ﴿أَنَّكُمُۥٓ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ أي كان بعض كلٍّ منكم ترابا وبعضه عظاما ﴿اَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ «أَنَّكُمْ» تأكيد لـ«أَنَّكُمْ» لفظيٌّ لا خبر لـ«أَنَّ»، و«مُخْرَجُونَ» خبر للأولى في تأويل مصدر بها مفعول لـ«يَعِدُ»، كقوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ﴾ [سورة الفتح: 20].

وفي الآية محذوف: أي إذا متُّم وكنتم ترابا وعظاما ومضت مدَّة، وهو كلام بحسب المتبادر والظنِّ، إنَّ الميِّت يكون ترابا وعظاما ولا بدَّ، مع أنَّه لا

يلزم، بل من الناس من يبقى كحاله حال الحياة، وقد لا يقدّر بل يكون المعنى: إنّكم مخرجون في حال كونكم ترابا وعظاما.

﴿**هَيْهَاتَ**﴾ اسم فعل ماض أي بَعُدَ ﴿**هَيْهَاتَ**﴾ توكيد لفظيٌّ، ولا فاعل له ﴿**لِمَا**﴾ اللام حرف جرٍّ للتأكيد و«ما» فاعل للأوّل ولو لم تعهد زيادة اللام في الفاعل لقراءة ابن أبي عبلة بإسقاطها، وقوله: ﴿**تُوعَدُونَ**﴾ صلة «ما» والرابط محذوف أي توعدونه. ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا**﴾ عطف سابق على لاحق، والأصل: نحيا ونموت، أو الحياة: الأولاد بعدهم والموت موتهم، وحياة الولد في حكم حياة الأب والأم، أو الموت: كونهم نطفا وأطوارا موتى، والحياة بعد.

﴿**وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**﴾ بعد الموت تأكيد لِمَا تقدَّم ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا**﴾ بالوحدانيّة والبعث والرسالة ﴿**وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُومِنِينَ**﴾ مذعنين له.

﴿**قَالَ**﴾ رسولهم هود أو صالح بعد إيّاسه من إيمانهم، واستقصائه جهده في جلبهم إلى الإيمان، متضرّعا إلى الله ﷻ ﴿**رَبِّ انصُرْنِي**﴾ عليهم وأهلكهم ﴿**بِمَا كَذَّبُونِ**﴾ لتكذيبهم، و«مَا» مَصدَرِيَّة، ويضعف جعلها موصولة واقعة على الإهلاك، أي انصرني بالإهلاك الذي كذّبون فيه، وكذا فيما مرَّ أو يأتي.

﴿**قَالَ**﴾ الله ﷻ: ﴿**عَمَّا قَلِيلٍ**﴾ «مَا» صلة لتأكيد القلّة، و«قَلِيلٍ» واقع على الزمان، ويجوز أن تكون «مَا» نكرة موصوفة بمعنى: عن زمان قليل، و«عَن» للمجاوزة، كأنّه قيل: بعد مضيِّ زمان قليل، متعلّق بـ«تُنصر» محذوفا، أو بـ«يُصْبِحُنَّ» من قوله: ﴿**لَّيُصْبِحُنَّ**﴾ بناء على أنَّ لام جواب القسم لا صدر لها، ولا سيما إن كان المتعلّق ظرفا كما هنا، أي والله ليصبحُنَّ عَمَّا قليل، أو بقوله: ﴿**نَادِمِينَ**﴾ عن التكذيب وقت نزول العذاب، أو بعد الموت، ويبعد أن يراد في الآخرة لدلالة «يُصْبِحُ» على ما قبلها ولو فسّر بـ«يصير».

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ وحدهـا إن كان ذلك في قوم صالح، والصيحة مع الريح، كما في الحديث إن كان في قوم هود إذ أهلكوا بريح صرصر عاتية، أو الصيحة انقلاب الزمان بالسوء قيل:

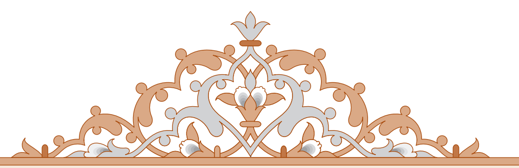
صاح الزمان بآل برمك صيحة خرُّوا لشـدَّتها علـى الأذقان[1]

فتصلح في قوم صالـح وتصلح في قوم هـود ﴿بِالْحَقِّ﴾ العدل من الله ﷻ، أو بالوعيد الذي لا بـدَّ أن يقع مضمونه، ويثبـت الذي في قوله: ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً﴾ كالورق والعيدان التي تحملها السيل ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أبعد الله القوم الظالميـن من رحمته، أو مـن كلِّ خير، أو من النجاة إبعادا.

فحذف «أبعد الله» وجعل «بُعْدًا» مكان «إبعادا» فهو اسـم مصدر، فنصب هذا الاسـم القوم، نيابة عن عاملـه، وقوِّي باللام. والأصـل: أبعدهم، وعبَّر بالظاهر ليصفهم بالظلـم الموجب للهـلاك، وقيل: بعدوا بعـدا، وإنَّ اللام للبيـان، أي ذلك للقوم، وهو ضعيف ولو شـهر، وهو إخبـار أو صيغة دعاء مجازيَّة، وقيل: «بُعْدًا»: إهلاكا ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [سورة هود: 95].

(1) البيت لأبي تمام. ينظر: **الخليفة النيسابوري**: تلخيص تاريخ نيسابور، ص36. ط. طهران.



﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿42﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿43﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿44﴾﴾

مصير الأمم المكذِّبة بعد نوح وهود عليهما السلام

﴿**ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ**﴾ بعد إهلاكهم ﴿**قُرُونًا ـ اخَرِينَ**﴾ أهلكناهم أيضا كقوم صالح إن كان ما مرَّ في قوم هود، وكقوم لوط وقوم شعيب ﴿**مَا تَسْبِقُ مِنْ امَّةٍ اَجَلَهَا**﴾ في الإهلاك ﴿**وَمَا يَسْتَاخِرُونَ**﴾ الواو للأمَّة لأنَّها أقوام.

﴿**ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا**﴾ «ثُمَّ» للترتيب الذكري بلا تراخ، لا لترتيب الحكم، وإلَّا فليس الرسل متأخِّرين عن الأمم كلِّها، والحاصل: أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين قد أرسلنا إلى كلِّ قرن منهم رسولا خاصًّا به. ولفظ «أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا» كتحصيل الحاصل، الجواب: إنَّ المعنى أرسلنا في الخارج من سبق في علمنا أنَّا سنرسله، أو أرسلنا من تأهَّل لأن يكون رسولا أو من أردنا إرساله ﴿**تَتْرَا**﴾ اسم مصدر، وهو التواتر بمعنى التتابع مع الفصل القليل، وقيل: الفصل مطلقا.

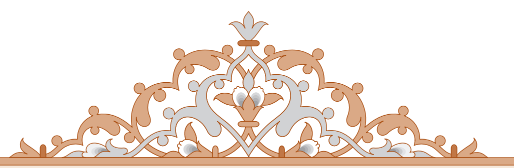
[نحو] والتاء الأولى عن واو كتراث وتجاه، وهو مفعول مطلق على حذف مضاف، أي أرسال متواترة، أو ضمِّن «أَرْسَلْنَا» معنى واترنا، أو حال من «رُسُل» على حذفه أيضا، أي ذوي تواتر، أو بمعنى الوصف، أي متواترين. وألفه للتأنيث، أو الإلحاق.

﴿**كُلَّ مَا جَآءَ امَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ**﴾ «كلَّ» ظرف لإضافته إلى المصدر الذي بمعنى الزمـان، لأنَّ «مَا» مَصدَرِيَّـة، أي كلّ جيْء أُمَّة رسـولها كذَّبوه، وهو متعلِّق بـ«كَذَّبُوهُ» كما تقول: جاء زيد كلَّ طلوع وكلَّ غروب.

والمجيء: التبليغ أو الملاقاة بالوحي، ولا يتوهَّم أحد أنَّ كلَّ رسول جاء الأمم كلَّها للعلم وللنصِّ على أنَّهم يموتون، فضلا عن أن يقال: أضيف رسول للأمَّة إزالة لذلك الوهم، بل أضيـف إليها لا إلى ضمير الجلالة ليقبِّح أحوال من جاءه رسول خاصٌّ به تعيَّن له.

﴿**فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا**﴾ في الإهلاك، وذلك فـي الجملة لأنَّه ليس كلُّ أمَّة قد كذَّبت فأهلكت، بـل كان كذلك كقوم نـوح أو ردَّ الضمير إلى الكلِّ بمعنى: من أهلك فقط.

﴿**وَجَعَلْنَاهُمُ**﴾ جعلنا أخبارهم ﴿**أَحَادِيثَ**﴾ جمع أحدوثة كأعجوبة بمعنى الحديث الذي يذكر تعجُّبا أو تلهِّيا، وقيل: اسم جمع لحديث كقطيع وأقاطيع، وخصَّه الأخفش بالشـرِّ ﴿**فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُومِنُونَ**﴾ هو مثل ما مرَّ، ولم يذكرهم بالظلم لأنَّه لم يذكر غلوَّهم، كما ذكر غلوَّ من تقدَّم فوصفهم بالظلم.



﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿45﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿46﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿47﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿48﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿49﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿50﴾﴾

القصة الثالثة والرابعة ـ قصّة موسى وهارون وعيسى عليهم السلام

﴿**ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ**﴾ تعرَّض ـ قيل ـ لأخوَّته إشارة إلى أنَّه تابع له في ما أنزل إليه ﴿**بِآيَاتِنَا**﴾ آياته التسع ﴿**وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾ حجَّة واضحة، من «أبان» اللازم، أو مظهرة للحقِّ من «أبان» المتعدِّي.

قيل: المراد به العصا، خصَّها بعد تعميم لزيادتها في الإعجاز، أو الآيات والسلطان هنَّ التسع، والعطف لتغاير المفهوم، لأنَّها أَدِلَّة وحجَّة، أو ذلك تجريد، أي تولَّد منهنَّ سلطان، كقولك: جاء زيد وأسد، تريد واحدا، وهو زيد، وعليهما فالإفراد لاتِّحاد المعنى.

ولا يجوز أن تكون الآيات التوراة، لأنَّها بعد إغراق فرعون، ويجوز أن يكون السلطان المعجزات، أو الآيات ما ذكر والسلطان قُوَّة موسى في الجدال بِالْحَقِّ.

﴿**إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ**﴾ خصُّوا بالذكر من سائر قوم فرعون لأنَّ إطلاق بني إسرائيل عن الاستعباد متعلِّق برأيهم، أو المراد مطلق قومه لا خصوص الأشراف فإنَّه قد ورد مستعملا كذلك ﴿**فَاسْتَكْبَرُواْ**﴾ عن الإيمان وعن إطلاق

بني إســرائيل وترك الطغيان ﴿اذْهَــبِ اِلَىٰ فِرْعَــوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [ســورة طه: 24] ﴿**وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ**﴾ عادتهم التكبُّر والتطاول بالظلم.

﴿**فَقَالُواْ**﴾ فيما بينهــم مناصحة، والعطف على «اسْــتَكْبَرُوا» ﴿**أَنُومِنُ لِبَشَــرَيْنِ**﴾ ثنِّي تلويحا إلــى قلَّتهما وانفرادهما عن قومهما، وإلَّا فالبشــر يطلق على الواحد فصاعدا ﴿**مِثْلِنَــا**﴾ لم يقل: مثليْنا كما قــال: ﴿تَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ [ســورة آل عمران: 13] لأنَّه في الأصل مصدر فأفرد تلويحا إلى شــدَّة التماثل، حتَّى كأنَّهم والبشــرين واحد ﴿**وَقَوْمُهُمَا**﴾ بنو إسرائيل ﴿**لَنَا**﴾ لا لهما، أو قدِّم للفاصلة ﴿**عَابِــدُونَ**﴾ خادمون في عمل الأجور والبناء وغير ذلك، أو عابدون لكبيرنا فرعون كما يعبــد الله، توهَّموا ذلك ولو لم يدَّع ذلك، كعادتــه في عدم إظهار ما يبطــن، حتَّى إنَّه عــارف بوجود الله وأنَّه المعبود وخالف ذلك.

والجملة حال من ضمير «نُومِنُ»، وحطٌّ لمرتبتهما عن مرتبة الرسالة بكون قومهما خدمة لهم، ولا يدرون **أنَّ مناط الرسالة صفاء القلوب بالنعوت العليَّة من البشــر لا عظم الشــأن الدنيوي**، كما قالت قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّــنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [ســورة الزخرف: 31] ولا تمنعها البَشَــرِيَّة، وقد يحتمل أن يريــدوا: إنَّهما لو كانا بشــرين وخالفاهم بشــيء مــن بدنهما لا يماثلانهم فيه لآمنوا، وهم كاذبون إذ لم يؤمنوا بالعصا ونحوها.

﴿**فَكَذَّبُوهُمَــا**﴾ أي فداموا علــى التكذيب ﴿**فَكَانُــواْ مِــنَ الْمُهْلَكِينَ**﴾ بالإغراق في «القلزم». والفاء للســببيَّة لا للاتِّصال، إلَّا باعتبــارِ: مَضَتْ مدَّة فكانوا، أو اعتبار: فحكم عليهم حكما خارجيًّا بالإهلاك.

﴿**وَلَقَدَ ـ اتَيْنَا مُوسَــى الْكِتَابَ**﴾ التوراة بعد إهلاكهم وإنجاء بني إسرائيل ﴿**لَعَلَّهُمْ**﴾ لعلَّ قومه بني إسرائيل، أو لقد آتينا قوم موسى الكتاب، أو موسى قومه، كما تسمَّى القبيلة باسم أبيها، ولو كان موسى ليس أبا لهم، وهو بعيد.

ولم يقل: ولقد آتينا موسى وهارون الكتاب، مع أنَّ الكلام قبلُ فيهما اقتصارا على من أنزل عليه تحقيقا، ولأنَّ إنزاله في الطور وهارون مع بني إسرائيل حين الإنزال لا في الطور ﴿**يَهْتَدُونَ**﴾ علما وعملا.

﴿**وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ**﴾ معا ﴿**ءَايَةً**﴾ واحدة إذ ولدته بلا أب، أو أفردت الآية لتقدير: جعلنا حال ابن مريم وأمَّه آية، أو جعلنا ابن مريم وأمَّه ذوي آية، أو جعلنا ابن مريم آية إذ تكلَّم صغيرا، وأحيى الموتى وأشفى المرضى كبيرا، وأمَّه آية إذ ولدته بلا أب، وإذ قالت في شأن الرزق: ﴿هُوَ مِنْ عِنِدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَّشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة آل عمران: 37].

[بلاغة] وقدِّم لأصالته في ما ذكر من الآية، وقدِّمت في ﴿وَجَعَلْنَاهَا وابْنَهَا...﴾ [سورة الأنبياء: 91] لأصالتها في الإحصان والنفخ.

﴿**وَءَاوَيْنَاهُمَآ**﴾ جعلناهما يذهبان ﴿**إِلَىٰ رُبْوَةٍ**﴾ مرتفع دون الجبل، وهي دمشق كما روي عن ابن عبَّاس ويزيد بن شجرة الصحابي[1] موقوفا، وعن أبي أمامة مرفوعا، وقيل: رملة فلسطين، قال مرَّة البهزي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الربوة الرملة**»[2] وقيل: بيت المقدس، وهو كبد الأرض، بينه وبين السماء ثمانية عشر ميلا كما روي عن كعب الأحبار، **ولا يصحُّ هذا القرب**، وقيل: مصر، ويقال: كلُّ قرية منها على ربوة لِئَـلا يغرقها النيل إذا زاد، وقيل: الإسكندريَّة، وليس كذلك.

[قصص] وشهر أنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ ولد في بيت لحم، أمرها الله عَزَّوَجَلَّ أن تذهب به

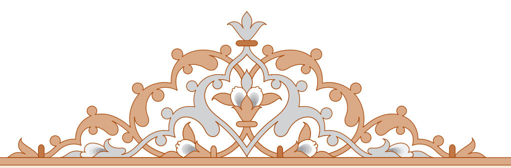
(1) يزيد بن شجرة الرهاوي، أبو شجرة: كان أمير الجيش في غزو الروم، أرسل أحاديث عن النبيء ﷺ، وروى عن أبي عبيدة، واستعمله معاوية، استشهد هو وأصحابه في البحر سنة 58هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء: ج1، ص314.

(2) أورده **الهندي** في كنز العمال، رقم: 2914، ج2، ص8. وقال: رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه، عن مرَّة البهزي.

إلى الربوة لِئَــلَّا يقتله هيــرودس، فذهب بهما يوســف النجَّــار، ولَمَّا مات هيرودس ردَّهما إلى بيت لحم، ولَمَّا اســتخلف ابنه أرشــلاوس خاف عليه، وذهب بهما إلى تخوم الجليل، وسكن مدينة تسمَّى ناصرة من أرض الشام.

﴿**ذَاتِ قَرَارٍ**﴾ اســتقرار للناس لحســنها وانبســاطها وزروعهــا وثمارها ﴿**وَمَعِينٍ**﴾ ماء معين أي جار.

[صرف] يقال: معن أي جرى، وأصله الإبعاد في الشيء، كما يقال: أمعن النظر، أو قد كثر، والميم أصل والياء زائد، أو ما على وجه الأرض تراه العين، فالميم زائدة، والياء أصل والأصل معيون.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿51﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿52﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿53﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿54﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿55﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿56﴾﴾

مبادئ التشريع في جميع الأمم واحدة والمصير واحد

﴿**يَآ أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ...**﴾إلخ مفعول لحال محذوفة محكية من «نا» من قوله: ﴿جَعَلْنَا﴾ أو قوله: ﴿ءَاوَيْنَا﴾، أي قائلين فيما مضى قبل عيسى لكلِّ رسول في زمانه: يا أَيُّهَا الرسول كل من الطيِّبات، فاقتد يا محَمَّد بهم في هذا الأكل، أو مفعول لقول مستأنف، أي قلنا فيما مضى لكلِّ رسول: يا أَيُّهَا الرسول كُلْ، أو مستأنف مراد فيه بالرسل سيِّدنا محَمَّد ﷺ تعظيما ولا يختصُّ ذلك في كلام العرب بالضمير، نحو: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [سورة المؤمنون: 99]، أو يقدَّر تعظيما كذلك: قائلين لعيسى: يا أَيُّهَا الرسل، لاتِّصال الآية بذكر عيسى عليه السلام. وكان يأكل من غزل أمِّه وهو أطيب كسب.

والأمر للإباحة نهيا عن الرهبانيَّة التي ابتدعها النصارى إذا قلنا المراد سيِّدنا محمَّد ﷺ، أو مطلق الرسل، وقلنا: «الطَّيِّبَات» في قوله: ﴿**مِنَ الطَّيِّبَاتِ**﴾ المستلذَّات. والشراب مستتبع للأكل، وإن قلنا: «الطَّيِّبَات» الحلال، فالأمر نهي عن أكل الحرام، وقوله: ﴿**وَاعْمَلُواْ صَالِحًا**﴾ أنسب به، ويجوز أن يكون أمرا بالشكر على المستلذَّات.

وفي حديث مرسل: «**إنَّ عيسى يأكل من غزل أمِّه**»[1] ولعلَّ هذا في صغره ثمَّ بعد يأكل من البريَّة. وروي أنَّ أمَّ عبد الله أخت شـدَّاد بن أوس بعثت لبنا إليه ﷺ عنـد إفطاره، فقال: «**من أين؟**» فقالت: من شـاتي، فقـال: «**أنَّى لك الشاة؟**» قالت: اشـتريتها من مالي، فشـرب منه، فقالت له من الغد: لم قلت ذلك؟ فقال: «**أمرت الرسل قبلي أن لا تأكل إلَّا طيِّبا ولا تعمل إلَّا صالحا**»[2]، وهذا نصٌّ في أنَّ الطيِّب الحلال، وأنَّ المشـروب كالمأكول. ولا ينافي ذلك ما روي أنَّه نهى أن يسـأل من أين الطعام؟ لأنَّ هذا تبليـغ وتحذير، والنهي تحذير عن التحرُّج.

وقدَّم الأكل لأنَّ به الحيـاة وفيها يكون العمـل، ولأنَّ الحلال يعين على إصلاح العمل، وإن فسِّر بالمستلذَّات كان تقديم الأكل أنسب بالقرار والمعين.

﴿**إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ أَيُّهَا الرسـل، ولعلَّ المراد بالـذات أممهم ﴿**عَلِيمٌ**﴾ فأجازيكم. ﴿**وَأَنَّ هَـذِهِ**﴾ أي هذه الملَّة التي هـي التوحيد وخصاله، ومكارم الأخلاق ﴿**أُمَّتُكُمْ**﴾ ملَّتكم، وإشـارة القرب لوضـوح صحَّتها، وفتحت «أنَّ» على تقدير لام التعليـل متعلِّقة بـ«اتَّقُونِ»، والفاء صلـة لا عاطفة إذ لا يتقدَّم معمول المعطوف على العاطف، ﴿**أُمَّـةً**﴾ حال من «أُمَّتُكُم» ﴿**وَاحِدَةً**﴾ متَّحدة لا تختلف، ولا يدخلها النسخ.

وقيل: الإشارة إلى الأمم، أي هذه جماعتكم جماعة متَّحدة فيما لا ينسخ، ويضعف العطف على «مَا» لضعف الإخبار بأنَّ الله عليـم بأنَّ هذه أمَّتكم أمَّة واحدة. وتقدير: «واعلموا أنَّ هذه...»إلخ عطفا على «اعْمَلُوا» خلاف الظاهر.

---

(1) أورده **السيوطي** في الدر، ج6، ص102. وقال: أخرجه عبدان في الصحابة عن حفص بن أبي جبلة وهو تابعي، أرسله عن النبي ﷺ.

(2) أورده **الآلوسي** في تفسـيره: مج 6، ص 40، وقال: أخرجه أحمد في الزهد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم، عن أمِّ عبد الله أخت شدَّاد بن أوس.

﴿وَأَنَــا رَبُّكُمْ﴾ لا ربَّ غيري، والجملة حال من المســتتر فــي «وَاحِدَةً» ﴿فَاتَّقُونِ﴾ نتيجة لِمَا قبله، وقيل: الخطاب فيه وفي «رَبُّكُمْ» للرسل وأممهم.

﴿فَتَقَطَّعُواْ﴾ بسـبب كفرهم، والواو للأمَّة بمعنى الجماعة أو للمضاف إليها المقــدَّر إن كان بمعنى الملَّــة، والتفعُّل للمبالغــة، والأصل: فقطعوا بالتخفيف، أو قطَّعوا بالشدِّ للمبالغة وزيدت التاء لزيادة المبالغة، أو الأمَّة أوَّلا الملَّــة، وضميرها الجماعة على الاســتخدام ﴿أَمْرَهُــم﴾ أَمْرَ دينِهم، مفعول به ﴿بَيْنَهُمْ زُبُــرًا﴾ قطعا فصار أديانا مختلفــة، والواجب أن يكون توحيدا. [و«زُبُــرًا»] حال من «أَمْــرَ» أو من الواو، أو مفعــول ثان لتضمُّن «تَقَطَّعُوا» معنى صيَّــروا، والمفرد زبور، بمعنى: فرقــة أو كتاب، أي كتبا، كأنَّهم كتبوا أديانهم.

﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ من أولئك المتقطِّعين ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الأمر الذي اختاروه ﴿فَرِحُونَ﴾ معجبون به، أخطأوا واعتقدوا خطأهم صوابا، وذلك أقبح شيء.

ودخل بالمعنى في الآية كلُّ مذهب زائغ، وإنَّما يقبل الله المذهب الخالي عن البدعة، وقد كان الناس لا يعرفون إلَّا القرآن والسنة والإجماع والاجتهاد لمن تأهَّل له، ثمَّ كانت المذاهب والتقليد.

[تاريخ] وإنَّما ظهر بعضها في آخر القرن الثاني، فإنَّ عمر الإمام مالك عام واحد حين مات إمامنا جابر بن زيد، إذ مات عام ستَّة وتسعين، ومالك ولد عام خمسة وتســعين ومات عام مائة وتسع وسبعين، وقيل: أدرك مالك البلوغ في زمان جابر، وعمر الإمام أبي حنيفة حين مات جابر خمسة عشر عاما لأنَّه ولد عام ثمانين من الهجرة، ومات عام مائة وخمسين، ولا وجود للشــافعي وأحمد في زمان جابر، لأنَّ الشــافعيَّ ولد ســنة مائة وخمسين، ومات سنة أربع ومائتين، وأحمد سنة مائة وأربع وَسِتِّينَ، ومات عام مائتين وأحد وأربعين.

[تاريخ] وما انتشر مذهب الإمام مالك في المغرب إلَّا سنة أربعمائة وخمسين بعد دخول العرب المغرب[1]، وقبل ذلك كان مذهبه في الحجاز، وانتشر مذهب الأوزاعي في أواسط المائة السادسة إلى أندلس، ودخل من أهل مذهب مالك أندلس يحيى بن يحيى الليثي[2] ويحيى بن بكر وفرغوس، وقد هرب الإمام الشافعي إلى مصر خوفا على القتل أو العذاب، وقيَّد المأمون العباسيُّ الإمام أحمد وضربه حتَّى غاب عقله ومات في سجنه، فعل ذلك بهم لقولهم بالرؤية وقِدَم القرآن **فأين الاتِّفاق على هؤلاء الأربعة؟** وقيل: **في أزمنة هؤلاء غير ما مرَّ.**

[تقدير أهل مصر للشيخ] وقد بيَّنه العلامة الشيخ محمَّد عبده لِلْحَقِّ، ودخل تونس وأشار عليهم أن يسألوا الفقير صاحب هذا التفسير في ما أشكل، وكذا عالم قبله مصري، وسبب ميل علماء مصر إليَّ مع تخالف المذهب وتباعد البلاد أنَّه أشكلت عليهم مسألة في الربا وأرسلوا إليَّ سؤالا في مضاب وجادلهم إنكليزي وأرسلوا إليَّ سؤالا، فأجبت لهم بما استحسنوا، وأيضا اطَّلَعوا على شرح النيل وغيره مِمَّا طبع في مصر من تآليفي.

﴿**فَذَرْهُمْ**﴾ دع يا محمَّد قومك قريشا، ولم يَتَقَدَّم هنا لهم ذكر، وسهَّله [أي عود الضمير لغير المذكور] خطابه ﷺ، وحصول ما للأمم من التفرُّق فيهم ﴿**فِي غَمْرَتِهِمْ**﴾ جهالتهم الشبيهة في الإهلاك بغمرة الماء على إنسان، أو شبَّههم بحال اللاعب في الماء، أو الكلام استعارة تمثيليَّة، وكلَّما أمكنت بلا

(1) يريد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بدخول العرب المغرب حملات قبائل بني هلال وسليم وذلك سنة 443هـ. راجع: ابن خلدون: ج 4، ص 131. وعبد العزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير، ج 2.

(2) يحيى بن يحيى بن كثير بن شلاوش، أبو محمَّد الليثي البربري المصمودي الأندلسي القرطبي، ولد سنة 152هـ، كان كبير الشأن، نال من الرئاسة والحرمة ما لم يبلغه أحد، روى عنه ولده أبو مروان عبيد الله، ومحمد بن وصالح، وبقي بن مخلد، وغيرهم، توفي سنة 234هـ. تهذيب سير الأعلام: ج 1، ص 390.

تكلُّف فهي أولى، وهذا إقناط من إيمانهم وسَّلاه بقوله: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يوم موت كلِّ واحد، أو يوم بدر المهلك.

﴿أَيَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ «مَا» اسم موصول، ولو وصلت بـ«أَنَّ» في الخطِّ لأنَّها كذلك في [مصحف] الإمام، لعود هاء «بِهِ» إليها، فلا تكون مَصدَرِيَّة. قدَّم المال مع أنَّ البنين أعزُّ لأنَّه المتجدِّد الدائم التجدُّد الكثير، ومرَّ غير ذلك.

[نحو] ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ الرابط محذوف أي به، وأجيز أن يكون الرابط «ال» نائبة عن الضمير، أي في خيراتهم، ولا يجوز أن يكون الرابط «خيرات» مرادا به المال والبنون من وضع الظاهر موضع المضمر إلَّا مع تقدير مفعول لأجله، أي نسارع لهم فيه حبًّا لهم.

﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ ليس الأمر كذلك لكن لا يشعرون ﴿إِنْ هُمُۥٓ إِلَّا كَالَانْعَامِ بَلْ هُمُۥٓ أَضَلُّ﴾ [سورة الأعراف: 179] وإنَّما ذلك استدراج.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٢﴾

صفات المسارعين في الخيرات

﴿إِنَّ الذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْــفِقُونَ وَالذِينَ هُم بِئَايَاتِ رَبِّهِمْ﴾ آياته المتلوَّة أو الدلائل، أي سبب الدلائل ﴿يُومِنُونَ﴾ كلَّما وقفوا على آية كما عبَّر عنه بمضارع التجدُّد ﴿وَالذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ وَالذِينَ يُوتُونَ﴾ يصيِّرون مالهم آتيا غيرهم ﴿مَـآ ءَاتَواْ﴾ مـا أرادوا أن يصيِّروه آتيـا غيرهم بالتصدُّق ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفة خوف إجلال من الله ﷻ أن لا يقبل منهم لخلل فيه ﴿اَنَّهُمُوٓ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ لأنَّهم راجعون إليه بالبعث فتنكشف الحقائق، أو وجلون من أنَّهم إليه راجعون لأنَّ في رجوعهم إليه انكشافها.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ العالي الرتب ﴿يُسَــارِعُونَ فِي الْخَيْـرَاتِ﴾ الجملة خبر «إِنَّ» والمراد: خيرات الآخرة، وقيــل: الدنيا والآخرة، لقوله تعالــى: ﴿فَئَاتَاهُمُ اللّٰهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الَاخِرَةِ﴾ [ســورة آل عمران: 148] وقوله: ﴿وءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وإِنَّهُ فِي الَاخِـرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [ســورة العنكبوت: 27] وهو ضعيف، لأنَّ الله ﷻ لا يمدحهـم بالمســارعة إلى الدنيـا. و«في» للإشــارة إلى أنَّهم متقلِّبون فيها لا أنَّهـم خارجون عنها يســارعون إليها، كما فـي قوله تعالى:

﴿سَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ...﴾ [سورة آل عمران: 133] ﴿**وَهُمۡ لَهَا**﴾ إليها متعلِّق بقوله: ﴿**سَٰبِقُونَ**﴾ غيرهم من الكُفَّار بأن نالوها دونهم، ويجوز أن يراد بـ«الۡخَيۡرَٰتِ» الطاعات، أو سابقون غيرهم من السعداء فهم نائلون ما دون تلك الدرجات، كما قال:

﴿**وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا**﴾ طاقتها من العبادة فمن لم يبالغ في العبادة فدرجته دون درجة من بالغ، ومن لم يطق المبالغة نال بنيته ما نال المبالغ، كما ينال المتيمِّم لعذر ما ينال الغاسل، والمصلِّي قاعدا أو مضطجعا لعذر ما ينال المصلِّي قائما.

﴿**وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ**﴾ شامل لِمَا في صحف المكلَّفين، كما قال الله ﷻ: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة الجاثية: 29] واستعار النطق للإظهار واشتقَّ منه «يَنطِقُ» بمعنى يظهر ﴿**يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ**﴾ هو ما طابق الواقع، وقيل: الكتاب القرآن، ويبعده لفظ «لَدَيۡنَا» ﴿**وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ**﴾ بنقص الثواب أو زيادة العقاب عَمَّا يستحقُّونه بأعمالهم المكتوبة، أو زيادة عمل سوء لم يعملوه، أو نقص عمل طاعة قد عملوه، أو بتكليف ما لا يطيقونه.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿63﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿64﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿65﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿66﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿67﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿68﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿69﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿70﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿71﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿72﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿73﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿74﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿75﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿76﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿77﴾﴾

استنكار أعمال الكفَّار ومشركي العرب وسبب ذلك

﴿**بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا**﴾ إضراب لانتقال الكلام ورجوعه إلى الكفرة بأنَّهم في جهالة من هذا الذي ذكرنا من أنَّ أعمالهم مكتوبة عندنا ليعاقبوا عليها، أو من هذا القرآن، وقيل: الإشارة إلى ما عليه أولئك السابقون، وقيل: إلى الدين، وقيل: إلى النبيء ﷺ، **والأوَّل أولى**. ﴿**وَلَهُمْ أَعْمَالٌ**﴾ سيِّئة كثيرة ﴿**مِّن دُونِ ذَالِكَ**﴾ غير ذلك المذكور من كون قلوبهم في غفلة، وصفها

بقوله: ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ وهي أنواع كفرهم ومعاصيهم، ومنه الطعن في القرآن، كذا قيل، وفيه أنَّه لا يتبادر أنَّ الغمرة عمل.

أو ﴿دُونِ﴾ بمعنى: تحت ذلك، وهي المعاصي التي ليست بإشراك، وهذا أولى، ويبعد ما قيل: إنَّ الآية في المؤمنين المذكورين تحيَّروا هل تقبل أعمالهم؟ وهل أدَّوا الفرائض؟ ولهم أعمال طاعة أخرى نفل، ويردُّه قوله: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ**﴾ فإنَّ المعنى إنَّهم لا يزالون على تلك الأعمال حتَّى ينزل عذابهم، وذلك في الكفَّار، ومعنى ﴿عَامِلُونَ﴾ مستمرُّون على عملها.

[نحو] ولام «لَهَا» لتقوية اسم الفاعل، وقدِّم «لها» للفاصلة وبطريق الاهتمام بذكر قبائحهم. و«حَتَّى» حرف ابتداء لا تخلو عن غاية، وهي تدخل على الجمل كما دخلت هنا على جملة أداة الشرط وما بعدها من شرط وجواب مقرون بـ«إِذَا» الفجائية، وهما قوله: ﴿**إِذَا هُمْ يَجْئَرُونَ**﴾. والمترفون: المنعَّمون.

والجؤار: الصُّراخ جزعا، والعذاب: قتلهم في بدر وأسرهم، صرخوا عند القتل وعند الأسر، أو ذلك في المجموع: المترفون قتلوا والباقون جأروا على قتلى بدر شهرا في مكَّة، وجزَّت نساؤُهم شعورهنَّ، ويأتين بفرس القتيل أو راحلته ويسترنها بالستور وينحن حولها، ويخرجن بها إلى الأزقَّة، ثمَّ تركوا ذلك خوف الشماتة.

أو العذاب: الجوع فإذا جاع المترف فغيره أولى بالجوع، قال ﷺ: «**اللهمَّ اشدد وطأتك على مضر، اللهمَّ اجعلها عليهم سنينا كسنين يوسف**»[1] فأجاب الله دعاءه حتَّى أكلوا الجلود والجيف والعظام والدم، وذلك قبل الهجرة على الصحيح، وقيل: بعدها، وجمع بأنَّه وقع مرَّتين.

(1) رواه **البخاري** في كتاب الاستسقاء، باب دعاء النبيء: «اللَّهُمَّ اجعلها...»، رقم 961. ورواه **مسلم** في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت... رقم 675. من حديث أبي هريرة ﵁.

وروي أنَّهم ســألوه ﷺ فدعا فزال بعد سبع ســنين، وقيل: المراد عذاب الآخرة، ورجِّح بأنَّه الذي يتضرَّعون فيه إلى الله ﷻ فلا يقبل، ولعلَّ هذا أصحُّ لقوله تعالى: ﴿**لَا تَجْئَرُواْ الْيَوْمَ**﴾ إلى قولــه: ﴿تُهْجِرُونَ﴾، فإنَّ هذا مقول لهم في الآخرة وأمَّا يوم بدر فلم يتضرَّعوا، وأمَّا الجوع فلم يجبهم ﷺ بالردِّ فيه.

وهذا على أنَّ الجؤار صياح بتضــرُّع لا مطلق صياح. وذكر «الْيَوْمَ» مبالغة في أنَّ جؤارهم لا ينفعهم، وزيادة في الإقناط، والجملة مفعول لقول محذوف على لسان الحال كقوله:

امتــلأ الحــوض وقــال قطني مهلا رويدا قد مــلأت بطني[1]

أو كلام يرســل الله به ملكا أو يخلقه الله حيث شاء فيســمعونه، كما قال: ﴿اِخْسَئُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ...﴾ [سورة المؤمنون: 108].

﴿**إِنَّكُم**﴾ لأنَّكم ﴿**مِّنَّا**﴾ متعلِّق بـ«تُنصَر» من قوله: ﴿**لَا تُنصَرُونَ**﴾ لخروج «لَا» النافية عن الصدر لأنَّها لــم تعمل عمل «إنَّ»، وللفاصلة، وللتوسُّــع في الظروف؛ و«مِنْ» للابتداء، أي لا يأتيكم نصر مِنَّا ينجيكم مِمَّا أنتم فيه لتكذيبكم، كما قال:

﴿**قَدْ كَانَتَ ـ ايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ**﴾... إلــخ، أي: لأنَّه قد كانت آياتي تتلى عليكم... إلخ، وهذا التعليل يمنع أن تكون «مِــنْ» بمعنى عن، أو «تُنصَرُونَ» بمعنى: تمنعون، علــى معنى لا ينصركم عَنَّا ناصــر، أو لا يمنعكم مِنَّا مانع، وكذا يمنعه أنَّ الجؤار ليس إلى غيره فيمنعهم غيره المذكور كأصنامهم.

﴿**فَكُنتُمْ**﴾ عند تلاوتها ﴿**عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُــمْ**﴾ مؤخّرات الأرجل، وهو تأكيد في المعنى لقولــه: ﴿**تَنكِصُونَ**﴾ ترجعون، أي ترجعــون إلى وراء في الطريق الأوَّل، كقولهم: رجع عوده علــى بدئه، أو النكوص: مطلق الرجوع إلى وراء، وهو استعارة تبعيَّة للإعراض عن سماعها أشدَّ الإعراض.

(1) أورده كثير من المفسرين واللغويين ولم ينسبوه. ينظر مثلا: **ابن سيده**: المخصص، ج4، ص236.

﴿**مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ**﴾ أي بما يتلى وهو القرآن، أو بتاليه عليهم ﷺ، والباء بمعنى عن ﴿**سَامِرًا**﴾ حال من الواو اسم جمع كجامل وباقر أي متحدِّثين به حول البيت ليلا، يعيبونه بأنَّه سحر وشعر وكذب وأساطير، أو بأنَّه ﷺ كاذب، وأصل السمر التحدُّث في ظلِّ القمر، وقيل: ظرف بمعنى الليل المظلم، ويردُّه أنَّ المراد تكرُّر تحدُّثهم، أو «سَامِرًا» مفرد في الإثبات أريد به الكثير، كقولك: جاء رجل، تريد: رجالا.

﴿**تُهْجِرُونَ**﴾ خبر ثان لـ«كَانَ» أوحال ثان، أي تفحشون، يقال: هجر وأهجر: أتى بفحش، أو تدخلون في القطع [أي المقاطعة] والكلام القبيح، وفي هجر المريض إذا هذى، وكلامهم في شأن الحقِّ مثله، وذاك أنَّهم قطعوا القرآن والنبيء ﷺ والبيت إذ لم يعمروه بحقٍّ.

﴿**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ الْقَوْلَ**﴾ أنكصوا واستكبروا؟ أو أأعرضوا فلم يدَّبَّروا القرآن فيعلموا أنَّه معجز، حقٌّ من الله ﷻ؟ أو ألم يخافوا أن يقع عليهم ما وقع على غيرهم من العقاب قبلهم؟.

﴿**أَمْ**﴾ وهو لانتقال الكلام من التوبيخ بما سبق إلى التوبيخ بغيره ﴿**جَآءَهُم مَّا لَمْ يَاتِ ءَابَآءَهُمُ الاَوَّلِينَ**﴾ أي بل أجاءهم من الكتاب ما لم يجئ آباءهم فاستبعدوه حتَّى وقعوا فيما هلك به من قبلهم من الكفر؟ أو أجاءهم ما لم يأت آباءهم المؤمنين الذين آمنوا بما آتاهم فنجوا؟ كإسماعيل عليه السلام، وعدنان وقحطان ومضر وربيعة وقس والحارث بن كعب، وأسد بن خزيمة، وتميم بن مر وتبع وضبَّة بن أدٍّ وكان على شرطة سليمان بن داود عليه السلام، كما في حديث قال ﷺ: «**إنَّهم مسلمون لا تسبُّوهم وما شككتم في شيء فلا تشكُّوا في تبع إنَّه مسلم**»[1].

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره: مج 6، ص 51 خبرا وليس حديثا.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ﴾ إضراب انتقالي إلى توبيخ آخر، بمعنى: أنَّه من قد عرفتموه بالأمانة من صغره وتلقِّبونه بالأمين.

[سيرة] ومن ذلك حديث اتِّفَاقهم على أنَّه من جاء أوَّلا من زقاق كذا فهو الذي يضع الحجر في موضعه، فخرج فقالوا: هذا الأمين جاء.

[سيرة] وحديث خطبة أبي طالب في رؤساء قريش إذ قال: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرِّية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ معد وعنصر مضر، وجعلنا حضَنَةَ بيته، وَسُوَاسَ حرمه، وجعل لنا بيتا محجوجا، وحرما آمنًا، وجعلنا الحكام على الناس، ثمَّ إنَّ ابن أخي هذا محمَّد بن عبد الله لا يوزن برجل إلَّا رجح به، فإن كان في المال قِلٌّ فإنَّ المال ظلٌّ زائل وأمر حائل، ومحمَّد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالي كذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل»[1].

﴿فَهُمْ لَهُ﴾ لدعواه ورسالته ﴿مُنكِرُونَ﴾ بسبب عدم معرفتهم له، لو لم يعرفوه، وتوبيخ آخر هو قوله:

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ فذلك توبيخان متعلِّقان بالقرآن، وتوبيخان متعلِّقان به ﷺ، ليس الأمر كما زعموا ﴿بَلْ جَآءَهُم بِالْحَقِّ﴾ الصدق الثابت وهو دين الإسلام الذي في القرآن ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ قيل: معناه كلُّهم، كما وردت القلَّة بمعنى نفي الكلِّ.

[قلت:] والأولى بقاء الأكثر على ظاهره، لأنَّ من قريش من لم يكره الحقَّ لذاته بل يحبُّه ويخاف من قومه، وكذا يبقى على ظاهره إن ردَّ الضمير إلى الناس مطلقا لكنَّه خلاف الظاهر، أو اعتبرنا من سيؤمن من قريش في عصره ﷺ. و«ال» في «الْحَقِّ» للعهد الذكري، ولم يضمر إظهارا لذمِّهم، أو للجنس.

(1) أورده أحمد بن محمَّد **القسطلاني**، المواهب اللدنِّيَّة بالمنح المحَمَّدِيَّة، ج 1، ص 192.

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ و«ال» للحقيقة وهو مطلق ما يجيء به محمَّد ﷺ مع قطع النظر عن أنَّه القرآن، أو التوحيد، لأنَّ القرآن الذي هو كما نعرفه، أو التوحيد لا يتصوَّر أن يكون موافقا لهواهم لأنَّه غير هواهم، ونسبة الِاتِّبَاع إلى الحقِّ مجاز في الإسناد، أو يقدَّر مضاف أي صاحب الحقِّ، وهو الله ﷻ، أو محمَّد ﷺ، أو الحقُّ الله ﷻ، كما قاله أبو صالح وابن جريج، وقتادة.

﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالَارْضُ﴾ الأرضون ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ خربوا وقامت الساعة، أو فسدت وفسد العقول دون قيام الساعة.

﴿بَلَ اَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ الباء للتعدية، أي جعلنا ذكرهم آتيا، وهو القرآن، فإنَّه فخر لهم كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [سورة الزخرف: 44] أو الذكر هو الذي لو لم يأتهم لقالوا: ﴿لَوَ اَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الَاوَّلِينَ...﴾ [سورة الصافَّات: 168] جعله الله القرآن.

وعن ابن عبَّاس: الذكر الوعظ كما قرأ قالون: ﴿ذِكْرَاهُمْ﴾ بالألف، والواجب عقلا وشرعا على العاقل أن يقبل ما هو له من الله شرف.

وفرَّع ورتَّب على نكوصهم واستكبارهم وإهجارهم وغير ذلك مِمَّا ذكر بقوله: ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ لا عن غير ذكرهم، وأظهر الذكر ولم يضمر له تعجيبا منهم، وزيادة في ذمِّهم، وتنزيلا لهم منزلة من لا يعرف صلاحه كالمجنون، والدَّابَّة في بعض أحوالها، أو ذمًّا لهم بأنَّ الدَّابَّة تعرف صلاحها وهم لا يعرفون صلاحهم.

﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ﴾ بل أتسألهم في زعمهم ﴿خَرْجًا﴾ عطاء مستمرًّا على أداء الرسالة فلم يؤمنوا بذلك، أنت لا تسألهم عن ذلك ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ لأنَّ عطاء ربِّك ﴿خَيْرٌ﴾ وهو مالك في الدنيا والآخرة لكثرته وعظمه وصفائه ودوامه، وعدم منَّة الخلق عليه، وأكَّد الخيريَّة بقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ومن هو خير من غيره يكون رزقه خيرا من رزق غيره.

﴿**وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ دين يظهر للعاقل أنَّه كالطريق المستقيم في الأرض، الخالي عن الاعوجاج، الموصل إلى المطلوب بلا تكلُّف لا يطاق.

﴿**وَإِنَّ الذِينَ لَا يُومِنُونَ بِالَاخِرَةِ**﴾ فلا يتحرَّزون عن مضارِّها وهم قريش لأنَّ الكلام فيهم، أو العموم فيدخلون أوَّلاً ﴿**عَنِ الصِّرَاطِ**﴾ دين الله المذكور في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُم...﴾ ﴿**لَنَاكِبُونَ**﴾ مائلون.

﴿**وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ**﴾ فعلنا مقدِّمات الكشف في قوله: ﴿**وَكَشَفْنَا**﴾ أو الرحمة: الكشف فسترت به ﴿**مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ**﴾ هو تعذيبهم بالقتل والإفضاء بهم إلى عذاب الآخرة في قبورهم بإرجاعهم إلى الدنيا.

﴿**لَلَجُّواْ**﴾ تمادوا ﴿**فِي طُغْيَانِهِمْ**﴾ هو الإشراك بالله ﷻ وعداوة رسوله ﷺ والمؤمنين ﴿**يَعْمَهُونَ**﴾ حال، متردِّين في الضلال.

أو يراد بالضرِّ ما هم فيه من شدَّة الخوف من القتل والسبي بعد بدر، [قلت:] ولا يجوز تفسيره بالجوع في سبع سنين، ولا بالجوع الذي أصابهم بمنع ثمامة عنهم ميرة اليمامة، لأنَّ «لَوْ» للنفي والجوع زال.

[سيرة] كان ﷺ يصلِّي عند البيت فألقي عليه سلاء جزور حال سجوده، فدعا عليهم بالقحط سبع سنين كسني يوسف، وفي ذلك قيل بعد بدر:

سلوا عنهم يوم السلا إذ تضاحكوا فصار بكاء عاجلا لم يؤجَّل[1]

ومكث شهرا بعد الهجرة يدعو بعد رفع رأسه من الركعة الثانية من الفجر، بعد «سمع الله لمن حمده»: «**اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين بِمَكَّةَ، اللهمَّ اشدد وطأتك...**» إلخ، وقد يفعل ذلك بعد الرفع من ركوع الركعة الأخيرة من العشاء.

(1) نسبه **الصالحي**، في سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد إلى قصيدة لاميَّة، للعلامة ابن جابر. ينظر: ج4، ص65.

[سيرة] وأسرت سريَّة محمَّد بن مســلمة ثمامة بن أثال وأسلم بعد ثلاثة أيَّام وخرج معتمرا ولبَّى فــي بطن مَكَّة وهو أوَّل من دخلهــا ملبِّيا، ولذا قال بعض قومه وهم بنو حنيفة:

ومنَّا الــذي لبَّى بمَكَّــةَ معلنا   برغم أبي سفيان في الأشهر الحرم

فزجرته قريش على إسلامه، فأجابهم بأنَّ دين محمَّد خير دينٍ ﷺ، وقال: والله لا تصل إليكم حبَّة من اليمامة حتَّى يأذن رسول الله ﷺ، فضرَّهم بالجوع حتَّى أكلــوا العلهــز[1]، فكتبــوا إليه ﷺ: «ألســت تزعم أنَّــك بعثت رحمة للعالمين، وقد قتلت الآباء بالســيف والأبناء بالجوع، إنَّك تأمر بصلة الرحم وقد قطعت أرحامنا؟» فكتب ﷺ إلى ثمامــة رضي الله عنه: «خلِّ بين قومي وميرتهم» ففعل، وقيل: جاءه أبو سفيان فقال ذلك، ويجمع بأنَّهم كتبوا وجاء بكتابهم.

﴿**وَلَقَدَ اَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ**﴾ الجوع ســبعا، أو جوع قطع الميرة، أو قتل بدر ﴿**فَمَا اسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ**﴾ خضعوا للتوحيد والعمل الصالح، ما انتقلوا من كون الكبر إلى كون الخضوع، كاســتحجر الطين: صار كحجر، يقال: كِنتَ له، أي خضعتَ.

﴿**وَمَا يَتَضَرَّعُونَ**﴾ إلى الله عز وجل بالإيمان، أي ليس من عادتهم التضرُّع وتجدُّده.

﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم**﴾ يوم القيامة ﴿**بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ**﴾ هوَّل عليهم بفتح باب شــديد، وهو من أبلغ تخويف، والمراد بالباب نوع العذاب لقوله: ﴿**إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُــونَ**﴾ أو الباب على ظاهره، فتكون الهاء للعذاب الشــديد، والإبلاس: الإيَّاس أو التحيُّر أو الحزن، وقيل: العذاب الشديد: قتل يوم بدر، وقيل: فتح مَكَّة، وقيل: الجوع.

---

(1) قال ابن الأثير: هو شيء يتَّخذونه في ســني المجاعة يخلطون الدم بأوبار الإبل ثمَّ يشوونه بالنار ويأكلونه، قيل: وكانوا يخلطون فيه القرذان. ابن منظور: لسان العرب، مَادَّة: «علهز».

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿78﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿79﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿80﴾ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿81﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿82﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿83﴾ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿84﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿85﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿86﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿87﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿88﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿89﴾ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿90﴾﴾

إثبات البعث بالأدلة التي يشاهدونها

﴿**وَهُوَ الذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ**﴾ قدَّمه لكثرة منافعه، فإنَّه يسمع ما يبصر فكأنَّه أبصره، وأفرد لأنَّه مصدر، ولأنَّه يدرك به نوع واحد، وهو الأصوات بخلاف الأبصار والأفئدة، فإنَّ البصر للأضواء والألوان والأشكال، والفؤاد لأنواع التَّصوُّر والتصديق فأخَّرهما وقال: ﴿**وَالَابْصَارَ**﴾ لتعتبروا بها في الخلق ﴿**وَالَافْئِدَةَ**﴾ لتتفكَّروا وتستدلُّوا.

﴿**قَلِيلاً**﴾ شكرا قليلا ﴿**مَّا**﴾ صلة لتأكيد القلَّة، وأجيز أن تكون نافية على أنَّه لا صدر لها إذ قدَّم المفعول المطلق مِمَّا بعدها عليها، كأنَّه قيل: ما

﴿تَشْكُرُونَ﴾ أيُّها الكفار ولو شكرا قليلا خالصا، وعلى أنَّها صلة اعتبر لفظ شكرهم إذا تكلَّموا به، مثل أن يقولوا: الحمد لله.

﴿وَهُوَ الذِي ذَرَأَكُم فِي الَارْضِ﴾ خلقكم ونشركم ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون للجزاء، فما لكم لا تستعدُّون لذلك بالإيمان والشكر؟.

﴿وَهُوَ الذِي يُحْيِي﴾ ما حيي ﴿وَيُمِيتُ﴾ ما مات ﴿وَلَهُ﴾ لا لغيره ﴿اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ تعاقبهما، أو اختلافهما زيادة ونقصا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أأهملتم أنفسكم؟ أو ألا تتفكَّرون فلا تعقلون أنَّا قادرون على كلِّ ممكن؟ ومنه البعث.

﴿بَلْ قَالُواْ﴾ أي لم يعقلوا بل قالوا ﴿مِثْلَ مَا قَالَ الَاوَّلُونَ﴾ الكفرة من آبائهم، كأنَّه قيل: ماذا قالوا؟ فقال: ﴿قَالُواْ أَ.ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ بعض الجسم الواحد ترابا ﴿وَعِظَامًا﴾ وبعضه الآخر عظاما. الجواب محذوف تقديره: نحيى ﴿اِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ من قبورنا بعد هذا الإحياء فيها.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـذَا﴾ أي البعث ﴿مِن قَبْلُ﴾ قبل محمَّد ﷺ، متعلِّق بـ«وُعِدْنَا» ومعنى وعدهم بهذا قبله أنَّ الأنبياء مخبرون للأمم قبلهم وآبائهم، وهم داخلون في ذلك لأنَّهم عليهم السلام يقولون: «كلُّ من يموت يبعث»، أو وعدنا محمَّد الآن ووعد الأنبياءُ آباءنا من قبل.

[نحو] أو «مِن قَبْلُ» حال من «آبَاؤُنَا». والجملة من مقولهم، وكذَّبوا بمضمونها إذ ليس مرادهم: وعدنا الله، لكن يجوز أن يريدوه على طريق الحكاية عنه ﷺ.

﴿إِنْ هَـذَآ﴾ ما هذا الكلام في إثبات البعث ﴿إِلَّآ أَسَاطِيرُ الَاوَّلِينَ﴾ ما كتبوه أو كتب عنهم، ولا حقيقة له.

[صرف] أساطير جمع أسطورة كأعجوبة وأحدوثة، وهو وزن لِمَا يستعظم، ولا يختصُّ بما يتلهَّى به، فقد قالوا: أطروفة، ويقال: أنكوحة لِمَا

يستعظم منهما، وهذا أولى من أن يقال: هو جمع الجمع الذي هو أسطار، لأنَّ الأصل جمع المفرد لا جمع الجمع.

﴿قُل لِّمَنِ الۡاَرۡضُ وَمَن فِيهَا﴾ من العقلاء وغيرهم، غلَّب العقلاء وهذا بمنزلة: أخبروني بمن ملكها وما فيها، فأغنى عن جواب الشرط في قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ والسين في قوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلّهِ﴾ هما لله لتأكيد القول، لا للاستقبال فإنَّهم في الحال وقبله يقولون: «إنَّهما لله». وليس المراد أنَّه تعالى فرض عليه ﷺ أن يذهب في الحال، أو يجمعهم فيقول لهم: «لمن الأرض ومن فيها»؟ فإنَّهم يعلمون ضرورة بِمُجَرَّدِ عقولهم أنَّهما لله ﷻ، وكذا فيما بعد.

﴿قُلَ اَفَلَا تَذَّكَّرُونَ﴾ قد اعترفوا بذلك، فقل لهم: أتعلمون أنَّهما لله وأتقولون: هما لله فلا تذَّكَّرون أنَّ خالقهما أوَّلاً قادر على البعث، وفي بادئ الرأي أنَّ البعث أسهل من الخلق الأوَّل.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلّهِ﴾ جواب بالمعنى كقول الشاعر:

إذا قيل: من ربُّ المزالف والقرى ... وربُّ الجياد الجرد قيل: لخالد[1]

إذ لم يقل: قيل خالدٌ، أي هو خالد. والجواب على اللفظ: ربُّهنَّ الله، أو هو الله، كما قرئ: ﴿سَيَقُولُونَ اللّهُ﴾ بدون لام الجرِّ وبالرفع.

وذلك على أنَّهم عارفون بوجود السماوات والعرش العظيم، أو على فرض أنَّهم إن عرفوا بوجودهما أضافوهما لله ﷻ، وكرَّر لفظ «رَبُّ» تعظيما لشأن العرش ﴿قُلَ اَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أتعترفون بذلك فلا تحذرون عقابه على كفركم وتؤمنون؟

(1) لا يعرف قائل هذا البيت. قال عنه ابن عاشور في التحرير والتنوير أول من ذكره: القرطبي، وصاحب «مطلع المعاني ومنبع المباني» حسام الدين محمد بن عثمان العليابادي السمرقندي، «ولعلهما أخذاه من تفسير الزجاج ولم يعزواه إلى قائله ولعل قائله حذا به حذو استعمال الآية». التحرير، ج18، ص110.

﴿**قُلْ مَــنۢ بِيَدِهِ مَلَكُــوتُ كُلِّ شَــيْءٍ**﴾ الملك العظيم، أو مــا غاب منه والخزائن ﴿**وَهُوَ يُجِيرُ**﴾ يمنع من يشاء مِمَّن يشــاء ﴿**وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ لا يمنع عنه من أراد عذابه. و«علــى» بمعنى من، أو ضمِّن «يُجَارُ» معنى النصر ﴿**سَيَقُولُونَ لِلهِ**﴾ أي ملكوت كلِّ شيء والإجارة لله وحده، وذلك جواب على المعنــى، وجواب اللفظ أن يقولوا: بيــد الله، ولعلَّ قطع الجواب عن اللفظ تلويح من الله عنهم بأنَّ الأمر لا يحتاج إلى السؤال عنه.

﴿**قُلْ فَأَنَّىٰ**﴾ كيف؟ أو من أين؟ ﴿**تُسْحَرُونَ**﴾ تصرفون عن الإيمان صرفا كصرف الســحر. وفي هذه الســؤالات والفواصل ترقٍّ. وردَّ قولهم «أســاطير الأوَّلين» بقوله: ﴿**بَلَ اَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ**﴾ بالثابــت من البعث والتوحيد ﴿**وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ في ادِّعاء الولادة لله سبحانه والشركة.

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝91 عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝92﴾

نفي الولد والشريك لله تعالى

[أصول الدين] ﴿**مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَّلَدٍ**﴾ لأنَّ ما يلد جسم متحيِّز حادث والله ليس كذلك، ولا عرضا تعالى، والولد لمن يموت والله لا يموت ولمن يحتاج والله لا يحتاج، ولمن تصحُّ له المماثلة له سبحانه.

﴿**وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن اِلَهٍ اِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ**﴾ «إذًا» حرف جواب وجزاء، واللام في جواب قسم، أي: والله إذًا لذهب، ومعنى «إذًا» اعتبار ثبوت إله معه، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنَ اَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [سورة الروم: 51] وشهر تقدير «لو» فاللام في جوابها، أي: لو كان معه آلهة إذا لذهب، ومعنى ﴿لَذَهَبَ...﴾ لامتاز كلٌّ بما ملك عن الآخر واستقلَّ به.

﴿**وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ بالتغالب كما بين الملوك، واللازم وهو ذهاب كلٍّ بما خلق وعلوُّ بعض على بعض باطل.

[أصول الدين] فتعدُّد الإلَـهِ باطل للزوم أُلُوهِيَّة الجميع أو أُلُوهِيَّة ما عدا واحد منهم، وهو خلاف المفروض.

﴿**سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ عن وصفهم، أو عن الأمر الذي يصفونه به، فحذف الرابط المجرور، وقد قال بعض بجواز حذفه بلا شرط إذا ظهر المعنى.

﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾ بدل من لفظ الجلالة على إجازة الإبدال في الوصف، وهو الصحيح، وقيل: نعت ولو كانت إضافته لمعموله، ومَن عَلِمَ كلَّ غائب وشاهد فهو الإله وحده، إذ لا يُتصوَّر لآلهة أن يعلم كلٌّ منها ما علم الآخر من نفسه.

﴿**فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ عن الإشراك أو عَمَّا يشركونه، والكلام جرى مجرى الإنشاء، فالفاء تفريعيَّة، أو محض إخبار فهي عاطفة على «عَالِمُ» كأنَّه قيل: عَلِمَ الغيبَ والشهادةَ فتعالى عَمَّا يشركون.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ۝٩٣ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٩٤ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ۝٩٥ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾

إرشادات للنبيء ﷺ

﴿**قُلْ**﴾ يا محمَّد ﴿**رَّبِّ**﴾ يا ربِّ ﴿**إِمَّا تُرِيَنِّي**﴾ «إنْ» الشـرطيَّة و«مَا» التي هي صلة للتأكيـد ﴿**مَا يُوعَدُونَ**﴾ من العذاب الدنيوي، بأن سـيكون وأنا حيٌّ وقد أعلمه الله أنَّه ينتقم منهم، ولم يخبره بأنَّـه يقع في حياته أو بعدها، ﴿**رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي**﴾ فيهم، بأن يعمَّني العذاب معهم في الدنيا، كما جاء في الحديث: «**إنَّ عذاب الدنيا قد يَعُمُّ من لم يستوجبه وإنَّهم يبعثون على نياتهم**»[1]، وكقوله تعالى: ﴿واتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً...﴾ [سورة الأنفال: 25].

وجعل بدل «فيهم» قوله: ﴿**فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ ذمًّا لهم بالظلم الموجب للعذاب، قال الحسن: أخبره الله تعالى أنَّ له في أمَّته نقمة ولم يخبره متى هي، فأمر أن يدعو بهذا الدعاء. ويجوز أن يسأل النبيء ﷺ وعلى آله ربَّه ما علم أنَّه يفعله، وأن يسـتعيذ مِمَّـا علم أنَّه لا يفعلـه إظهارا للعبوديَّـة، وتواضعا لربِّه سبحانه، ومن ذلك استغفاره إذا قام من مجلسه سبعين مرَّة.

(1) ورد ما يقرب من معناه عند البخاري، كتاب البيوع. باب ما ذكر في الأسـواق، رقم: 2012. من حديث عائشة.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ﴾ أي نحضره وأنت حيٌّ فتراه، وقد وقع وهو ما وقع فيهم يوم بدر من قتل وأسر، وإحزان الأحياء منهم بذلك، ويضعف أن يفسَّر بفتح مكَّة، اللهمَّ إلَّا أن يكون أشدَّ في قلوبهم من شأن بدر، ولم تقع بهم داهية بعد الفتح وبعد موته ﷺ، فضلا عمَّا قيل: لا نعذِّبهم وأنت فيهم، أو أخَّرناه، لأنَّ بعضا أو عقبه يؤمن.

﴿ادْفَعْ﴾ عنك وعن المسلمين والمظلوم وعن الدين ﴿بِالتِي﴾ بالخصلة التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ من سائر الخصال الحسنة، ككلمة الشهادة والوعظ والسلام، والإحسان إلى المسيء، ونحو ذلك إذا كان لا يفضي إلى إهانة الدين أو المروءة ﴿السَّيِّئَةَ﴾ الخصلة القبيحة، كالشرك والشتم والمنكر.

ويجوز أن يفسَّر ذلك بأشد في الحسن من السيِّئة في القبح، كقولك: الخلُّ أحمض من العسل، أو العسل أحلى من الخلِّ، بمعنى أنَّ أحدهما أشدُّ في شأنه من الآخر فيه، فيتصوَّر الاستواء، كما قال أشعب الهازل: «كنت أنا والأعمش في حجر فلان، فما زال يعلو وأسفل حتَّى استوينا» أي في غاية خيره وشرِّي!.

ويجوز خروج «أَحْسَنُ» عن قيد التفضيل فيعمَّ كقوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [سورة الرعد: 22] فيشمل ما ذكر ويشمل الإحسان إلى المسيء في الجملة، لا في مقابلة إساءته والصفح عنها وحكم الآية مِمَّا يستمرُّ ولا ينسخ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ بوصفهم إيَّاكَ، أو بما يصفونك به من السوء فنعاقبهم، ففوِّض إليَّ ولا تحزن.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ من وسوستهم الباعثة إلى مخالفتك الشبيهة بنخس الدَّابَّة لتمشي أو تسرع، والجمع لتعدُّد الهمزة من الشيطان الواحد وتنوُّعها ولتعدُّد الشياطين ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ﴾ كرَّرهما لكمال الاعتناء ﴿أَنْ يَّحْضُرُونِ﴾ في حالٍ مَّا من الأحوال، كالقراءة والصلاة والغضب

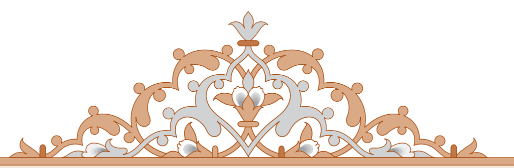
والنوم والموت وغير ذلك، ويقال: «اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من النزغ عند النزع» أي الموت، قال عمرو بن شعيب[1] عن أبيه عن جدِّه: كان رسول الله ﷺ يعلِّمنا أن نقول عند النوم من الفزع: «**بسم الله أعوذ بكلمات الله التَّامَّة من غضبه وعقابه وشرِّ عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون**»[2].

---

(1) عمرو بن شعيب بن محمَّد بن عبد الله بن عمرو بن العاص، الإمام المحدِّث فقيه أهل الطائف ومحدِّثهم، وكان يتردَّد إلى مَكَّة وينشر العلم، وهو تابعيٌّ من الطبقة الخامسة، وثَّقه النسائي وابن معين، توفي سنة 118هـ بالطائف. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 182.

(2) رواه **أبو داود** في كتاب الطب، باب: كيف الرقى، رقم 393. **والترمذي** في كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، رقم 352. من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه. ورواه الإمام **مالك** في موطَّئه، كتاب الشعر، باب: ما يؤمر به من التعوُّذ، رقم 704. من حديث خالد بن الوليد.





﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿99﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿100﴾﴾

تمني الإنسان الميت الرجوع إلى الدنيا ليعمل صالحا

﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ احَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّيَ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ**﴾ حالهم الاستمرار على متابعة الوساويس إلى أن يموتوا فيقولوا: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ...﴾ فاستعذ يا محمَّد أن لا تكون كذلك، وهذا أولى من أن يكون من كلامه ﷺ هكذا فلا أكون كالكفَّار الذين تهمزهم الشياطين وتحضرهم ﴿حتَّىٰٓ إذَا...﴾.

ويجوز تعليق هذا الكلام بقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ بمعنى: يدومون على وصفه ﷺ بما لا يليق. ﴿حتَّىٰٓ إذَا...﴾، وما بينهما معترض لتأكيد الإغضاء الذي تضمَّنه ﴿ادْفَعْ بِالتِي...﴾. ويبعد تعليقه بـ«يَصِفُونَ» الأوَّل أو «يُشْرِكُونَ» أو «لَكَاذِبُونَ» لطول الفصل. وردُّوا واو الجماعة إلى الواحد سبحانه تعظيما له حين لا ينفع كقوله:

ألا فارحمون يا إله محمَّد[1] ....

وقوله:

وإن شئتِ حرَّمت النساء سواكم ....

---

(1) تضافرت كتب التفاسير على إيراد البيتين، ولكن لم ينسبوهما، إلَّا البيت الأول فقد عزاه الشنقيطي إلى حسان بن ثابت أو غيره. ينظر: أضواء البيان، ج5، ص355.

بكسر تاء شئت للأنثى الواحدة عظَّمها حتَّى كأنَّها جماعة ذكور؛ أو الواو للملائكة، أي يا ملائكة ربِّ أرجعون.

أو «رَبِّ» استغاثة بالله و«ارْجِعُونِ» خطاب للملائكة، كقوله ﷻ: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا واسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ [سورة يوسف: 29] وَيَدُلُّ له ما روته عائشة ﵂ أنَّه قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ المؤمن إذا عاين الملائكة قالوا له: أنرجعك إلى الدنيا؟ قال: إلى دار الهموم والأحزان بل قدوما إلى ربِّي، وأمَّا الكافر فيقولون له: أنرجعك؟ فيقول ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾**»[1].

ولا يختصُّ طلب الرجعة عند الموت بالمشرك، فعن ابن عبَّاس: أنَّ مانع الزكاة وتارك الحجِّ المستطيع يسألان الرجعة عند الموت، وعن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ: «**إذا حضر الإنسان الموت جمع له كلُّ شيء يمنعه عن الحقِّ فيجعل بين عينيه فعند ذلك يقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّيَ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾**»[2].

وهذا يدلُّ على أنَّ المراد بـ«مَا تَرَكْتُ» في الآية المال ونحوه من الدنيا، وقيل: الإيمان، [قلت:] والأولى التعميم في كلِّ واجب من فعل أو ترك، والترجِّي راجع لذلك، وقيل: العمل فقط لتحقيق إيمانه إن رجع، كقولك: لعلِّي أقرأ على الصناعة، أي أتعلَّمها وأقرأ بها، والمعنى: أعمل صالحا في الإيمان، أي أومن في الدنيا وأعمل صالحا في ذلك الإيمان.

قال الله ﷻ: ﴿**كَلَّآ إِنَّهَا**﴾ أي هذه القولة أو هذا الكلام، وعليه فالتأنيث لتأنيث الخبر ﴿**كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا**﴾ لا يتركها ولا يتمنَّى غيرها، وإطلاق الكلمة على الكلام لغة حقيقة، وقيل: مجاز مشهور.

---

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره: مج 6، ص 63. وقال: أخرجه ابن جرير الطبري وابن المنذر عن ابن جريج، ولم يثبت عنده كحديث بل قال: زعموا أنَّ رسول الله ﷺ قال لعائشة...

(2) أورده **الآلوسي** في تفسيره: مج 6، ص 64. وقال: أخرجه الديلمي عن جابر بن عبد الله.

﴿وَمِنْ وَّرَآئِهِم﴾ أمامهم، أو هو على ظاهره، لأنَّ البعث شـــيء لازم لهم يتبعهم ﴿بَرْزَخٌ﴾ حاجز يمنعهم عن الرجوع ﴿اِلَـــىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ زيادة إقناط من الرجوع، أي لا بدَّ من هذه الموتة التي متُّم إلَّا أنَّ بينهما برزخا، ولا يتبادر أنَّ المعنى: حاجز بينهم وبين العذاب التامِّ الذي هو أشدُّ من عذاب القبور.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ (101) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ (106) رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ (107) قَالَ اخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّـٰحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ (111)﴾

حال أهل النار في الآخرة

﴿**فَــإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ**﴾ نفخ إســرافيل في القرن نفــخ البعث أو نفخت الأرواح في الأجساد، على أنَّه جماعة مفرده صورة، ويدلُّ له قراءة ضمِّ الصاد وفتح الواو، وقراءة كسرها وفتح الواو، والمأصدق واحد، لأنَّ النفخ في القرن يؤدِّي إلى الأجساد ﴿**فَلَآ أَنسَــابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ**﴾ لا يعتبرونها ولا تنفعهم كما اعتبروها في الدنيــا وتداعوا بها إلى الشــرك وغيره، كأنَّها لــم تكن وكأنَّهم أجانب، فذلك استعارة، أو يقدَّر نعت أي لا أنساب نافعة.

ويلتحق بذلك الموحِّدون كما جاء عن ابن مســعود: يبرز الرجل والمرأة للأوَّليــن والآخرين، وينادى عليه هــذا فلان أو فلانة من لــه عليه حقٌّ فليأته فيحب الوالد أو الولد أو الزوج أن يكون له عليه حقٌّ.

وعنه ﷺ: «**كلُّ نسب ينقطع يوم القيامة إلَّا نسبي**»[1] وذلك فيمن آمن به، لكن جاء أنَّه خاطب بنته فاطمة وعمَّه العَبَّاس وعمَّته صفيَّة فقال: «**اعملوا لأنفسكم فإنِّي لا أغني عنكم، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم**»[2] فمن أتى من نسبه بالأعمال الصالحة والتوبة نفعه نسبه في زيادة الدرجات. و«يَوْمَ» متعلِّق بما تعلَّق به «بَيْنَ» أي ثابتة، أو ثبتت أو بـ«بَيْنَ»، لنيابته عنه.

﴿**وَلَا يَتَسَآءَلُونَ**﴾ يومئذ من أنت؟ ومن أيِّ قوم؟ ومن أيِّ بلد؟ لشغلهم عن ذلك بشدَّة الهول، ولا يتساءلون عن الأنساب طمعا في النفع لانتفاء النفع، أو لا يتساءلون بالأرحام في النفع كما في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿تَسَّآءَلُونَ بِهِ والَارْحَامِ﴾ [سورة النساء: 01] في قراءة الجرِّ وليس من ذلك قولهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [سورة يس: 52] مع أنَّه قد لا يكون سؤالا من بعض لبعض، ولا قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [سورة الصافَّات: 27] بالواو لا بالفاء فإنَّه في النار مع أنَّه ليس طلبا لدفع سوء.

﴿**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ**﴾ جمع موزون، أي أعماله الموزونة من اعتقاد وفعل وقول، بل القول فعل، أي اعتبرت بالعدد والجودة، أو جمع ميزان بمعنى هذا الاعتبار ﴿**فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ في ذلك اعتبار لفظ «مَنْ» ومعناها، وكذا في قوله:

﴿**وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ...**﴾ إلخ جمع عمل موزون، أو ميزان كذلك، والخفَّة عبارة عن تلاشيها بالكفر، أو أعماله السيِّئة بمعنى عدم الاعتداد

---

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره: مج 6، ص65. وقال: أخرجه البزار والطبراني والبيهقي وأبو نعيم والحاكم والضياء في المختارة، عن عمر بن الخطَّاب.

(2) رواه الشيخان بلا زيادة: «لا يأتيني...». **البخاري**: كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب، رقم: 2602. **مسلم**: كتاب الإيمان. باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾. من حديث أبي هريرة. وورد عند بعض المفسرين بتلك الزيادة ولم يخرِّجوها. منهم: **الرازي** في تفسيره، ج4، ص71.

بها إلَّا من حيث العقاب، وقيل: إنَّ المشــرك لا تعدُّ ســيِّئاته له بل يدخل النار بدون ذلك.

﴿**فَأُوْلَئِكَ الذِينَ خَسِــرُواْ أَنفُسَــهُمْ**﴾ ضيَّعوها وهلكــت، ولم ينتفعوا بها و«الذِينَ» خبر ﴿**فِي جَهَنَّمَ خَالِــدُونَ**﴾ خبر ثان، أو خبر مؤخَّر و«الذِينَ» نعت. و«فِي جَهَنَّمَ» متعلِّق بـ«خَالِدُونَ».

﴿**تَلْفَــحُ وُجُوهَهُــمُ النَّــارُ**﴾ خبر آخر، أو حــال، أو مســتأنف، واللفح: الإحراق، وهو أشدُّ من النفح بالحاء المهملة، قال ﷺ في هذه الآية: «**تلفحهم فتسيل لحومهم على أعقابهم**»[1] رواه أبو الدرداء.

﴿**وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**﴾ ذاهبة شفاههم العليا إلى فوق، والسفلى إلى تحت، وفي الحديث عن أبي ســعيد الخدري عن رســول الله ﷺ: «**تبلغ العليا وسط الرأس والسفلى السرَّة**»[2] وقيل: الكلوح التعبس.

ويقال لهم توبيخا: ﴿**أَلَمْ تَكُنَ ـ ايَاتِي تُتْلَــىٰ عَلَيْكُمْ**﴾ في الدنيا ﴿**فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ قَالُواْ**﴾ اعترافا ﴿**رَبَّنَا غَلَبَتْ**﴾ اســتولت ﴿**عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا**﴾ بمعنى التعب والعذاب، و[شــقوتنا] التي كانــت باختيارنا ما يوجبها من الإشــراك والمعاصي الناشــئين عن اتِّباع الهــوى، وقيل: المراد هــذا الموجب، إطلاقا للمســبّب على الســبب، **ولا يصحُّ**، وقيل: الشــقوة ما قضــى الله من الكفر والمعاصي، وإســناد الغلب إليها تشــبيه بمن يتحقَّق منه الغلب، ففي الكلام استعارة مكنيَّة تخييليَّة.

﴿**وَكُنَّا قَوْمًــا ضَآلِّينَ**﴾ عن الحــقِّ باختيارنا، فما ظلمتنا ﴿**رَبَّنَــآ أَخْرِجْنَا**

---

(1) أورده **السيوطي** في الدر المنثور بلفظ: «أعصابهم»، وقال: أخرجه ابن مردويه، والضياء عن أبي الدرداء. ج6، ص117.

(2) رواه **الترمذي** بلفظ قريب، في كتاب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة طعام أهل النار، رقم: 2512. من حديث أبي سعيد الخدري.

مِنْهَا ﴾ من النار إلى الدنيا ﴿ **فَإِنْ عُدْنَا** ﴾ إلى ما كُنَّا عليه بعد الإخراج ﴿ **فَإِنَّا ظَالِمُونَ** ﴾ لأنفسنا ظلما آخر أشدَّ من الظلم الأوَّل الذي قبل الموت.

﴿ **قَالَ** ﴾ الله ﷻ إقناطا لهم أشدَّ إقناط ﴿ **اخْسَئُوا فِيهَا** ﴾ ذلُّوا فيها ذلَّ الكلب، شبَّههم بالكلاب، ودلَّ على ذلك بنسبة ما للكلب إليهم، وهو الخسء، يقال: خسأت الكلب فخسأ، ففي ذلك استعارة مكنيَّة، واخسئ استعارة تبعيَّة تصريحيَّة.

﴿ **وَلَا تُكَلِّمُونِ** ﴾ في الإخراج، كما يدلُّ عليه ما قبل، وأمَّا ما بعد فقيل: يمنع التفسير بـ«لا تكلِّمون» في رفع العذاب وليس كذلك، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ...﴾ [سورة غافر: 11] فيجيبهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُۥ....﴾ [سورة غافر: 12]، و يقولونَ ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا...﴾ [سورة السجدة: 12]، فيجيبهم: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ...﴾ [سورة السجدة: 14]، ويقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [سورة إبراهيم: 44]، فيجيبهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم...﴾ [سورة إبراهيم: 44]، ويقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا...﴾ [سورة فاطر: 37]، فيقول: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [سورة فاطر: 37]، ويقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾، فيقول: ﴿اخْسَئُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

﴿ **إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُّمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ** ﴾ فقيل: إنَّ بين كلِّ كلام وجواب ألف سنة يلهجون فيها بسؤال، ويروى أنَّه لا كلام لهم بعد قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فتطمس أفواههم وأنوفهم فيتنفَّسون في أجوافهم.

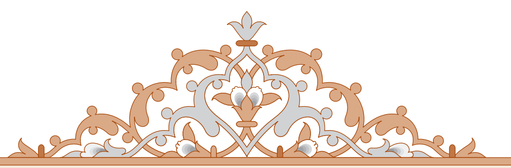
«إِنَّهُ...» تعليل جملي، كان في الدنيا فريق هم مؤمنو كلِّ عصر اتَّخذهم فيه المشركون [كذلك]، وقيل: الصحابة، وقيل: أهلُ الصفَّة، والسخريُّ: الهزء، أي

ذوي سـخر، أو مسـخورا بهم، و﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ﴾ أنساكم سـخركم الذي تسخرونه وتشتغلون به، و﴿ذِكۡرِي﴾ ذكركم إيَّاي بالعذاب، أو ذكري في أوليائي.

والإنساء: الترك البتَّة لا بعد ذكرهم، لأنَّهم لم يكونوا يذكرونه بالعقاب، أو الإنساء: الإزالة عن الحافظة، وهو أبلغ في الإعراض، وإسناد الإنساء إلى الفريق إسناد إلى السبب، وكذا إلى السخر بهم، والضحك، مع الاتِّخاذ سخريًّا غاية استهزاء فجازاهم بما هو غاية، بأن قال: ﴿اخۡسَـُٔواْ...﴾.

و﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصبرهم، أو بالصبر الذي صبروه، أو بصبر عظيم صبروه، أي بسبب ذلك و﴿أَنَّهُمۡ هُمُ الۡفَآئِزُونَ﴾ مفعول ثان لـ«جَزَيْتُ»، أو يقدَّر الباء. والفوز: هو النجاة من النار ودخول الجنَّة، ولا يتبادر: جزيتهم بكلِّ ما يحسن لفوزهم في الدنيا بالتوحيد.





﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (114) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (117) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (118)﴾

التنبيه إلى قصر مدَّة اللبث في الدنيا وعقاب المشركين ورحمة المؤمنين

﴿**قَالَ**﴾ الله بواسطة الملك، أو بخلق الكلام حيث شاء، توبيخا لأهل النار، لا لأكابر أهل النار كما قيل، إذ لا دليل عليه ﴿**كَمْ**﴾ ظرف زمان متعلّق بقوله: ﴿**لَبِثْتُمْ فِي الْاَرْضِ**﴾ المعهودة أرض الدنيا إذ كنتم فيها وطلبتم الآن العود إليها ﴿**عَدَدَ سِنِينَ**﴾ تمييز لا بدل من «كَمْ»، لأنَّه لو جعل في موضع «كَمْ» لم يبق استفهام.

﴿**قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا اَوْ بَعْضَ يَوْمٍ**﴾ كساعة أو لحظة، استقصروا مدَّة أعمارهم بالنسبة إلى طول الخلود الذي تيقَّنوا به، ولأنَّها أيَّام سرور بالنسبة إلى ما هم فيه من العذاب، ولو كانت فيها شدائد، ولأنَّها انقضت فكأنَّها يوم أو بعض يوم، ﴿**فَاسْئَلِ الْعَآدِّينَ**﴾ الحاسبين المتمكِّنين من العدِّ كأهل الجنَّة، وكالملائكة إذ هم العادُّون لأعمار الناس وأعمالهم.

﴿**قَالَ**﴾ تصديقا لهم ﴿**إِن**﴾ ما ﴿**لَّبِثْتُمُۥ إِلَّا قَلِيلاً**﴾ لبثا قليلا، أو زمانا قليلا ﴿**لَّوَ اَنَّكُمْ**﴾ لو ثبت أنَّكم ﴿**كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ ما يصلح لكم، أو تعلمون في الدنيا

مدَّة اللبـث علما نافعا لعملتم بموجـب قصرها، وهو التوحيـد والطاعة، ولم تغترُّوا عن هذا اليوم، وكأنَّهم لم يعلموا، **فإنَّ من لم يعمل بما علم كجاهله.**

وقيل: ذلك سؤال عن مدَّة لبثهم في القبور، ويردُّه ما روي أنَّ الله تعالى يقول لأهل الجنَّة: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الَارْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾؟ فيقولون: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا اَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فيقول: «**لنعم ما أنجزتم في اليوم أو بعض اليوم، أخلدوا في رحمتي وجنَّتي**» ويقول لأهل النار: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الَارْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾؟ فيقولون: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا اَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فيقول: «**لبئس ما فعلتم في اليوم أو بعض اليوم اخلدوا في غضبي وناري**»(1).

﴿**أَفَحَسِبْتُمْ**﴾ ألم تعلموا ما قال لكم الرسل فحسبتم ﴿**أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ**﴾ بلا تكليف ﴿**عَبَثًا**﴾ عابثين، أو ذوي عبث، أو لأجل العبث، وهو ما خلا عن الفائدة مطلقا، أو عن الفائدة المعتدِّ بها ﴿**وَأَنَّكُمُوٓ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾ للحساب والجزاء.

﴿**فَتَعَالَى اللهُ**﴾ عن العبث وهو من أفعال المخلوق ﴿**الْمَلِكُ الْحَقُّ**﴾ وغيره [إنَّما هو] في صورة مالك، إذ ما ملكه من الله عارية في يده، ينفعه به شيئا فشيئا وهو الخالق له، ولما ملك، كسيِّد جعل شيئا في يد عبده ويحاسبه ﴿**لَآ إِلَـهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**﴾ فهو ربُّ ما سواه بالأولى، وصفه بالكرم ووصف بالحسن كما قال: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: 58]، ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ [سورة الإسراء: 23]، ويقال: فرس كريم، ولا يختصُّ الكرم بالجود، ويحتمل أن يراد الجود. وجرَّ للجوار، أو المراد: الكريم ربُّه، أو شبَّهه بشخص جواد لأنَّه ينزل منه الخير، أو كناية عن أنَّ الله جواد.

﴿**وَمَنْ يَّدْعُ**﴾ يعبد ﴿**مَعَ اللهِ إِلَهًا ـ اخَرَ**﴾ يعبدهما جميعا، أو يعبد غير الله مع وجود الله ﴿**لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ**﴾ الجملة نعت «إِلَهًا»، أو حال، وكلاهما لازم

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره: مج 6، ص 70 مرفوعا وبدون تخريج.

مؤكِّد لا قيد، إذ لا يوجد إله سواه ثابت ببرهان يحترز عنه، وهذا أولى من أن تجعل الجملة معترضة.

﴿**فَإِنَّمَا حِسَابُهُ**﴾ جزاؤه، عبَّر بالسبب أو الملزوم عن المسبَّب أو اللازم ﴿**عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**﴾، وفي هذه الجملة تسلية لرسول الله ﷺ عمَّا أصابه من الضرِّ من الكفرة، وفي قوله ﷻ: ﴿**وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ**﴾ استدعاء النجاة والسرور، اغفر لي ولمن اتَّبَعني، وجميع المسلمين، وارحمنا وأنت أفضل من كلِّ راحم.

قال الصدِّيق رضي الله عنه: يا رسول الله علِّمني دعاء أدعو به في صلاتي فقال: «**قل: اللهمَّ إنِّي ظلمت نفسي ظلما كثيرا وإنَّه لا يغفر الذنوب إلَّا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنَّك أنت الغفور الرحيم**»[1]. وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه: قرأ في أذن المصاب: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ...﴾ إلى آخر السورة فبرئ فقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو أنَّ رجلا موقنا قرأ بها على جبل لأزاله**»[2]. وقال محمَّد بن إبراهيم بن الحارث التميمي عن أبيه: بعثنا رسول الله ﷺ في سريَّة وأمرنا أن نقول إذا أصبحنا وإذا أمسينا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ...﴾ إلى: ﴿...لَا تُرْجَعُونَ﴾ ففعلنا فغنمنا وسلمنا.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم



(1) رواه **البخاري** في كتاب الصلاة، باب الدعاء قبل السلام، رقم 799. ورواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم: 2078. من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(2) أورده **الآلوسي** في تفسيره، وقال: أخرجه الحكيم الترمذي وابن المنذر وأبو نعيم في الحلية وآخرون، عن ابن مسعود.

24

تفسير سورة النور

مدنيَّة وآياتها 64 ـ نزلت بعد سورة الحشر



ميزة سورة النور والأحكام الإلهية فيها

﴿**سُورَةٌ**﴾ هذه سورة، أو مِمَّا يتلى عليكم سورة، أو مِمَّا يوحى إليكم لا مِمَّا أوحي لأنَّها لَمَّا توح، وجاز على معنى: أريد إيحاءه، أو على الإنشاء، كَبِعْتُ مرادا به إنشاء البيع، وإنزال البعض مبدأ إنزال الكلِّ، كحبل حضر طرف وغاب باقيه.

﴿**اَنزَلْنَاهَا**﴾ أي بدأنا إنزالها، أو يعتبر أنَّ إمساك الطرف إمساك للكلِّ ﴿**وَفَرَضْنَاهَا**﴾ فرضنا أحكامها، وذلك من مجاز الحذف، أو أسند الفرض إليها إسنادا لِمَا للمدلول إلى الدالِّ، فهو مجاز لغويٌّ، من معنى إسناد ما للمظروف إلى الظرف، فإنَّ اللفظ ظرف للمعنى ودالٌّ عليه. والفرض لغة: قطع الشيء الصلب، والمراد الإلزام.

﴿**وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءايَاتِۭ بَيِّنَاتٍ**﴾ دالَّات على الأحكام المفروضة، فالظرفيَّة ظرفيَّة الكلِّ لبعضه، وإن أريد بالآيات آيات السورة كلِّها

فالظرفيَّة باعتبار الـكلِّ، على كلِّ واحد من أجزائـه؛ أو الآيات البيِّنات: آيات التوحيد، ويناسـبه قوله تعالـى: ﴿**لَّعَلَّكُمْ تَذَّكَّرُونَ**﴾ تتَّعظون، فتختارون التوحيد على الإشـراك، ويؤدِّي ذلك بكم إلى اتِّقاء المحارم والإذعان إلى الأحكام.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾

الحكم الأول والثاني:
حدُّ الزنى وحكم الزناة

﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي**﴾ قدِّمت لأنَّها أدعى للزنى إذا وافقت وأشدُّ اشتهاء، ولو صاحت أو امتنعت جدًّا، أو هدَّدته بالشكوى لم يقدر عليها. أي مِمَّا يتلى عليكم حكم الزانية والزاني، أو من فرائض السورة حكم الزانية والزاني؛ وفرَّع على ذلك بيانه بقوله: ﴿**فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**﴾ عطف إنشاء على إخبار أو جواب شرط: إن قلتم: ما حكمهما؟ فاجلدوا... إلخ.

[لغة] والجَلْد: ضرب الجلد أي اضربوا جلد كلِّ واحد فذلك من الأفعال المأخوذة من اسم العين، كرأسته: ضربت رأسه، وبطنته: ضربت بطنه، وظهرته: ضربت ظهره، أو أصبت ذلك بأمر مَّا، وعصوته: ضربته بالعصا. ولا يلزم من ذلك أن يباشر الضرب الجلد، بل يشمل الضرب من فوق ثوب فيجب أن لا يكون غليظا مانعا من الألم.

[فقه] ولا يعرَّى من جسده ما تحت سرَّته ومقابلها من ظهره لأنَّ ذلك عورة، فيضرب على ظهره أو مقعدتيه، وعليهما ثوب، ولا يضرب في ثقبة دبره، وما استدار عليها، ولا في ذكره، ولا حيث يضرُّه، كالرأس والوجه

والبطن والصدر، ممدودا أو قائما أو قاعدا أو نحو ذلك، والمرأة قاعدة، وعنه ﷺ: «**إذا ضرب أحدكم فليتَّق الوجه**»[1].

[فقه] وسواء الموحِّد والمشرك والحرُّ والعبد إلَّا أنَّ العبد والأمة يجلدان خمسين، ويرجم المشرك المحصن كالموحِّد المحصن، وكذا الإناث، ولا يرجم العبد والأمة، لأنَّهما مال ولأنَّهما لا يحصنان ولو تزوَّجا، وقوله ﷺ: «**أقيموا على العبد نصف الحرِّ**»[2] [في غير الرجم] والرجم لا يتنصف. وعنه ﷺ: «**أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم أحصنوا أم لم يحصنوا**»[3] بمعنى تَزَوَّجوا أم لم يتزوَّجوا. وعن ابن عبَّاس: «لا تجلدوا الأمة إلَّا إن أحصنت بزوج»، والظاهر أنَّ العبد كذلك، **والصحيح الجلد لهما مطلقا.**

وفي هذه السورة أو سورة الأحزاب، قولان، [آية منسوخة]: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتَّة نكالا من الله والله عزيز حكيم» نسخ لفظه لا حكمه.

[فقه] والجلد والرجم بالإقرار وبشهادة أربعة شهود رأوا بأعينهم غيوب الحشفة، وجاز لهم النظر لإقامة الحدِّ، وقيل: إذا وجدا في لحاف جلدا. ورجم ﷺ يهوديا ويهودية زنيا بعد أن قرئت عليه آية الرجم التي وضع عليها ابن صوريا يده، وذلك إبكات لهم لا لكونه لا يعلم حكمهما، فإنَّه علمه من

(1) رواه بهذا اللفظ **أبو داود**، في كتاب الحدود: باب في ضرب الوجه في الحدِّ، رقم: 4495. و**مسلم** بلفظ: «إذا قاتل أحدكم أخا..» كتاب البر، باب النهي عن ضرب الوجه، رقم: 6819. من حديث أبي هريرة.

(2) لم نقف عليه حديثا مرفوعًا إلى النبي ﷺ. بل هو من فعل الصحابة رضوان الله عليهم. ينظر: **مالك**: الموطأ، كتاب الأشربة، باب الحد في الخمر، رقم 3118، ج5، ص1234.

(3) رواه **أبو داود** في كتاب الحدود، باب في إقامة الحدِّ على المريض، رقم 4473. و**أحمد** في كتاب ومن مسند علي ؓ، رقم 738، من حديث علي كرَّم الله وجهه. بدون لفظ: «أحصنوا أم لم يحصنوا».

القرآن. وســـواء في الجلد الثيِّب والثيِّبة، والبكر والبكرة. ولا يجلد ولا يرجم مجنون ولا صبيٌّ ولا ذو شبهة.

﴿**وَلَا تَاخُذْكُـــم بِهِمَـــا رَأْفَةٌ فِي دِيـــنِ اللهِ**﴾ في إقامة حـــدِّه بنقص عدد الضرب أو تخفيفه بلا إيلام ﴿**إِن كُنتُمْ تُومِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الَاخِرِ**﴾ الموعود بالجزاء على إقامة الدين وتركها، والخطـــاب للمؤمنين لكن لوَّح إلى أنَّهم إن أخذتهم الرأفة فكأنَّهم لم يؤمنوا.

﴿**وَلْيَشْـــهَدْ**﴾ يحضر وجوبا، وهو الصحيح لظاهر الأمر، وهو الواقع من الصحابة، ولأنَّه أشـــدُّ على مـــن زنى وأردع، وليشـــهر الحكـــم، وقيل: ندبًا ﴿**عَذَابَهُمَـــا**﴾ جلدهما ﴿**طَآئِفَةٌ مِّـــنَ الْمُومِنِينَ**﴾ اثنان فصاعدا وهو المشـــهور لمالك، أو ثلاث فصاعدا وهو الصحيح، أو عشرة، أو أربعة وهو قول لمالك.

﴿**الزَّانِي لَا يَنكِحُ**﴾ لا يتزوَّج ﴿**إِلَّا زَانِيَـــةً**﴾ مثله زنى بها غيره لا هو ﴿**اَوْ مُشْـــرِكَةً**﴾ أســـوأ منه ولو غير كتابيَّة ﴿**وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ**﴾ لا يتزوَّجها ﴿**إِلَّا زَانٍ**﴾ بغيرها مثلها، وقيل: لا يطأها لأنَّها خبيثة فهو لا يتزوَّجها ولا يطأها وهو صحيـــح، إلَّا أنَّه يقتضي أنَّ الزانيـــة لا يزني بهـــا إلَّا زان والزاني لا يزني إلَّا بزانية ﴿**اَوْ مُشْرِكٌ**﴾ أسوأ منها.

[فقه] ومعنى المســـألتين أنَّ اللائق ذلك بالمناسبة، **فالعفيف من الرجال أو النســـاء يتحرَّج عن نكاح غير العفيف**، وإن وقع تـــزوُّج من عفَّ بغيره لم يفرَّق بينهما، وجاز إن تاب من لم يعف، وذلك كقولك: الســـلطان لا يكذب، أي لا يليق أن يكذب، وذلك كقول الشاعر:

أَيُّهَـــا المنكـــح الثريَّا ســـهيلا ... عَمْـــرَك اللهُ كيـــف يلتقيـــان؟
هـــي شـــامية إذا ما اســـتقلَّت ... وســـهيل إذا اســـتقلَّ يمانـــي[1]

---

(1) البيتان لعمر بن أبي ربيعة، وثريا اســـم امرأة شامية، وسهيل هو ابن عبد الرحمن بن عوف، تزوجها ونقلها إلى مصر. ينظر: **المبرد**: الكامل، ج2، ص174.

ويقال في الأمثال: «وافق شـــنٌّ طبقه». وليس المراد جواز كلٍّ ذلك شرعا بل لياقة فإنَّ المشـــرك لا يتزوَّج المســـلمة إجماعا ولو كتابيًّا، والسورة مَدَنِيَّة وقد نســـخ قبل الهجرة جواز تزوُّج المســـلمة بالمشـــرك مطلقا، والموحِّد لا يتزوَّج المشركة غير الكتابيَّة إجماعا.

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ أي الزنى ﴿عَلَى الْمُومِنِينَ﴾ وغيرهم، وخصُّوا بالذكر لشرفهم، ولأنَّهم المنتفعون بالشرع، أو الإشـــارة إلى نكاح من عفَّ بمن لم يعـــفَّ، فيـــراد بالتحريـــم الكراهـــة الشـــديدة فقـــط، لعـــدم اللياقة وبـ«الْمُومِنِينَ» كاملو الإيمان.

[سبب النزول] وكان مرثد بن أبي مرثد يحمل الأسارى من مَكَّة إلى المدينة فانتهى إلى ظلِّ حائط في ليلة مقمرة لوعد لأسير يحمله، فرأته عناق فقالت: مرثد؟ قال: نعم قالت ـ وهي زانيـــة ـ: مرحبا وأهلا بت عندنا الليلـــة، فقال: إنَّ الله حرَّم الزنى، فصاحت: يا أهل الخيام هذا حامل أسراكم فهرب وتبعه ثمانية، ودخل غارا ولم يروه، ورجعـــوا ورجع إلى الرجل فحمله، وقال: يا رســـول الله أتزوَّج عناق؟ ولم يجبه، حتَّى نزل: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً...﴾ الآية، والمناســـبة المذكورة ـ كما أنَّها شَرعِيَّة، لِئَلَّا يفسد من لم يعفَّ منهما على من عفَّ ـ عَقلِيَّةٌ، إِلَّا أَنَّهَا غير لازمة، وكم خبيث يتحرَّج جدًّا عن تزوُّج الخبيثة، وبالعكس.

[فقه] وقيل: إنَّ تزوُّج المسلمة بالكافر باق على الجواز بعد الهجرة إلى سنة ستٍّ منها، وفي سنة ستٍّ نزل التحريم، كما قال ابن حجر، وصحَّ أنَّه ﷺ زوَّج بنته زينب رضي الله عنها لأبي العاصي بن الربيع قبل البعثة، وهو كافر، وهاجرت ونزلت الآية فهاجر وأسلم فأبقاهما ﷺ على النكاح الأوَّل.

[فقه] ونكاح الزانيـــة إن لم تظهر التوبة محرَّم إلـــى الآن، وإن زنى أحد الزوجين فســـد نكاحهما، وقيل: لا إلَّا أنَّه يأثم الآخر بالبقاء معه، وذكر بعض أنَّ الزنى عيب فإن ظهر به ولو كان قبل العقد فلها البقاء أو الفراق.

وفي الحديث: «**لا ينكح الزاني المجلود إلَّا مثله**»[1]، وفسَّر به الحسن الآية مقيّدا لها بالمجلودية، وأُتي عليٌّ بزان فجلده وفرَّق بينه وبين زوجه، وقال: لا تتزوَّج إلَّا مجلودة مثلك، وانظر لِمَ لَمْ يرجمه؟ فلعلَّه عبد أو له شبهة فعافاه عن الرجم إلى الجلد.

وعن ابن مسعود والبراء بن عازب: إنَّه من زنى **بامرأة لا تحلُّ له أبدا**. وسئلت عائشة عن رجل زنى بامرأة ثمَّ تزوَّجها فكرهت ذلك، وروي أنَّه سئل ابن عبَّاس عنه فقال: «لا بأس أوَّله سفاح وآخره نكاح، والنكاح مباح فلا يحرِّمه السفاح»، وقال: «هو كمن أكل من نخلة صباحا واشتراها مساء»، وفي بعض الكتب: سئل رسول الله ﷺ عَمَّن زنى بامرأة ثمَّ تزوَّجها فقال: «**أوَّله سفاح وآخره نكاح**»[2].

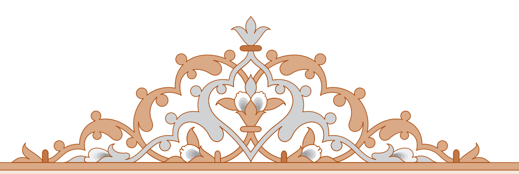
وعن سعيد بن جبير والضحَّاك في قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً اَوْ مُشْرِكَةً﴾: إنَّ الزاني لا يزني إلَّا بزانية مثله، وهو رواية عن ابن عبَّاس، وقيل: الآية منسوخة لأنَّ رجلا سأل رسول الله ﷺ: إنَّ امرأتي لا تردُّ يد لامس، فقال: «**طلِّقها**»، فقال: إنِّي أحبُّها، قال: «**أمسكها**»، وهو حديث ضعيف السند.

وسئل بعض الصحابة عن رجل تزوَّج مزنيَّته قال: هذا شرٌّ من الأوَّل. وقد حرَّم بعضٌ نكاح الزانية على من لم تزن به، وعلى من زنت به ولو تابت، والصحيح جوازه لمن لم تزن به إن تابت، واحتجَّ من حرَّمها بقوله ﷻ: ﴿وَأَحَلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَالِكُمُۥٓ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ [سورة النساء: 24] أي زانين، فنكاح المسَافِحَة باطل.

---

(1) رواه **أبو داود** في كتاب النكاح، باب: قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾، رقم 2052. ورواه **أحمد** في مسند المكثرين من الصحابة، رقم 8101. من حديث أبي هريرة.

(2) رواه **سعيد بن منصور** في سننه، كتاب الرجل يفجر بالمرأة ثُمَّ يتزوَّجها، رقم 889. ورواه **الدارقطني** في كتاب النكاح، باب المهر، رقم 268 أثرا عن ابن عبَّاس.



﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ④ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ⑤﴾

الحكم الثالث:

حد القذف

﴿**وَالذِينَ**﴾ منصوب على الاشتغال بـ«اجْلِدُوا» محذوفا، والفاء صلة، والاشتغال من باب التوكيد اللفظيِّ، كأنَّه قيل: واجلدوا الذين ﴿**يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ**﴾ أي غير أزواجهم، لقوله تعالى: ﴿وَالذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ...﴾ اجلدوهم ثمانين جلدة.

[بلاغة] والرمي مجاز استعاريٌّ عن الشتم، تشبيها بالضرب بالحجر أو السهم، والمراد: الرمي بالزنى، كما يدلُّ له ذكر المحصنات وذكر الزنى قبلُ، وقوله: ﴿**ثُمَّ لَمْ يَاتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ**﴾ فإنَّه يدلُّ أنَّه لو أتوا بأربعة شهداء لنجوا وعوقبت بحدٍّ، والأربعة شرط في الزنى لا غيره.

والمراد بـ«الْمُحْصَنَاتِ» النساء المحصنات، ويلحق الرجال المحصنون بهنَّ، قياسا جليًّا وبالحديث، ولا يقدَّر: الفروج المحصنات، لأنَّه لا يتبادر رمي الفروج، ولو قدَّرنا: النفوس المحصنات، لشملت الآية الرجال. والإحصان: العفَّة عن الزنى مع البلوغ والحرِّيَّة، قيل: والإسلام.

وخصَّ الذكور في جانب الرامي إذ قال: ﴿الذِينَ يَرْمُونَ﴾ والإناث في جانب المرمي إذ قال: ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ اعتبارا للواقعة، لأنَّ الآية نزلت في امرأة عويمر، أو في قصَّة الإفك، والرامي فيهما ذكر والمرمي أنثى.

[فقه] والعفَّة تثبت بإقرار القاذف، أو شاهدين، أو شاهد وشاهدتين، وقيل: يحدُّ قاذف الذمِّيِّ لقوله ﷺ: «**من قذف ذمِّيًا حدَّ يوم القيامة بسياط من نار**»[1].

﴿**فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً**﴾ إن كانوا أحرارا، وإن كان القاذف عبدا أو أمة فأربعين. والسوط ذو الرأسين تعدُّ الضربة به ضربتين، في المائة وفي الثمانين وفي الأربعين وغير ذلك.

[فقه] ولا يحدُّ قاذف امرأة لها ولد لا يعرف له أب، ولا قاذف الأخرس، ولا المجنون القاذف، ولا السكران، إلَّا إن سكر بمحرَّم، ولا المكره على القذف، قيل: ولا القاذف في دار الحرب، والحربيُّ الداخل دار الإسلام فقذف فيها أحدا.

[فقه] ولا حدَّ في التعريض بالقذف خلافا لعمر وعلي، كقولك لرجل: ما أنا بزان، أو ما أُمِّي زانية، تشير إلى أنَّه زان أو أمَّه زانية، وإن شهد أربعة فسَّاق بصدق القاذف في قذفه فلا حدَّ عليه ولا عليهم، ولا على المقذوف.

[فقه] وإن حدَّ القاذف فعاد إلى كلامه الأوَّل حدَّ، وقيل: لا كما قيل: حدَّ أبو بكرة في قذفه المغيرة، وعاد إلى ذلك القذف في المجامع يقول فيها: المغيرة زان، فأراد عمر حدَّه فمنعه عليٌّ فامتنع.

---

(1) أورده **الهيثمي** في المجمع: ج 6، ص 280. وا**بن عدي** في الكامل في الضعفاء: ج 6، ص 217.

﴿وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَـهَادَةً اَبَدًا﴾ مدَّة حياتهم مطلقا، وقيل: تقبل إن شهدوا قبل الشـروع في الجلد، أو قبل تمامه، وقيل: تقبل قبل الشروع، وقيل: ما لم يقم أكثره ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِـقُونَ﴾ الكاملون في الفسق حتَّى كأنَّه لا فاسق سواهم، وذلك لصيغة الحصر.

[بلاغة] وأشير بصيغة الحصر لبعدهم عن الحقِّ وفسقهم عند الله، وعند الخلق، أمَّا عند الله فلأنَّهم أتوا بما لا يعذرون فيه بدون أن يهيِّئوا من يصدِّقهم ولو صدقوا في الواقع، ولا سـيما إن كذبوا، وَأَمَّا عند الخلق فلعدم بيان لهم، ويحتمل أنَّ المراد أنَّ الحكم الشرعيَّ أن تحكموا عليهم بالفسق لعدم الشهادة.

﴿إِلَّا الذِيـنَ تَابُواْ مِنۢ بَعْـدِ ذَٰلِكَ﴾ الأمر الهائل البعيـد عن الحقِّ وعن المروءة وهو القذف، ندموا وصرَّحوا بأنَّهم كاذبون فليسـوا فاسـقين، ويقام عليهم الحدُّ ولو تابوا، وقيل: لا إن تابوا، وفي قبول شـهادتهم إن تابوا قولان ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ ما أفسدوا بطلب الحلِّ مِمَّن قذفوا.

[فقه] وإن مات [المظلوم] اسـتغفروا له إن كان متولًّى، أو نفعوه بصدقة أو كَفَّارَة أو قراءة أو نحو ذلك من أنواع الأجر، وإن كان غير متولًّى نفعوه بما ذكر، وضمنوا مطلقا ما ضاع بقذفهم من الأمـوال، أو ضرٍّ من بدن، وإن كان طفلا أو مجنونا فلا حـلَّ منهما لكن يضمن ما ضاع ويُنفـع بالمال أو بِالقُوَّةِ [أي الرعاية والعناية].

[فقه] وإن حُدَّ مشرك على القذف وأسلم قبلت شهادته لأنَّ الإسلام جبٌّ لِمَا قبله، وإن حدَّ عبد ثمَّ عتق لم تقبل عنه، وفي البخاري: جلد عمر رضي الله عنه أبا بكرة وشبل بن معبد ونافعا لقذفهم المغيرة ثمَّ استتابهم، وقال: من تاب قبلت شهادته، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لأنَّ الله غفور رحيم.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (7) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (10)﴾

الحكم الرابع:
حكم اللعان أو قذف الرجل زوجته

﴿**وَالذِينَ يَرْمُونَ**﴾ بالزنى أو بأنَّ الولد ليس منِّي، سواء كانوا أحرارا أو عبيدا، مسلمين أو مشركين ﴿**أَزْوَاجَهُمْ**﴾ بالغات عاقلات موحِّدات أو كتابيَّات، مدخولا بهنَّ أو غير مدخول بهنَّ، غير مطلَّقات أو مطلَّقات رجعيًّا، حرائر أو إماء، خلافا لقوم في المشركين والمملوكين.

﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ**﴾ أربعة على زناهنَّ ﴿**اِلَّآ أَنفُسُهُمْ**﴾ سمَّاهم شهداء مع أنَّهم مدَّعون لأنفسهم إيذانا من أوَّل الأمر بأنَّ لشهادتهم طرفا من القبول، كما أضافها إليهم بشرط تكرُّرها كما قال: ﴿**فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمُۥٓ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**﴾... إلخ.

[نحو] و«أَرْبَعَ» مفعول مطلق، والمعنى: فالواجب أو فالحكم شهادة، أو شهادة أحدهم واجبة أو كافية. والباء متعلِّق بـ«شَهَادَةُ» لأنَّه المعتمد، أو بـ«شَهَادَاتٍ» لقربه واتِّصاله، والمراد: لَمِنَ الصَّادِقِينَ في دعوى زناها، والمراد بالأحد الزوج، لأنَّ الزوجة في قوله: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا﴾ و﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾

معمول لـ«شَــهَادَةُ» يتعدَّى إليه بالباء، أو بـ«على» فتفتح «إنَّ» فعلّق عن ذلك باللام، وكسرت لتضمُّن الشــهادة معنى العلم، أو الجملة جواب «شَهَادَةُ» إذ كانت بمعنى القسم.

[فقه] واللعان شهادات متعدِّدة مؤكَّدة بالأيمان، مقرونة باللعن والغضب، قائمة مقام حدِّ القذف في حقِّ الرجل، ومقام حدِّ الرجم في حقِّ امرأته.

﴿**وَالْخَامِسَةُ**﴾ الشهادة الخامسة ﴿**أَن لَّعْنَتُ اللهِ**﴾ شهادة أنَّه لعنة الله ﴿**عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾ في نسبة الزنى إليها، واسم «أَنْ» المخفَّفة ضمير الشأن، أو القصَّة، أو ضمير الأحد.

﴿**وَيَدْرَؤُاْ**﴾ يدفع ﴿**عَنْهَا**﴾ أي الزوج المقذوفــة، ﴿**الْعَذَابَ**﴾ الحبس، أو الرجم وهو المتبادر، كمن أدُّعي عليــه بلا بيّنة فإنَّه يلزمــه اليمين، وإن أبى أعطى [أي ما ادُّعي عليه] ﴿**أَن تَشْــهَدَ**﴾ في تأويل مصدر فاعل «يَدْرَأُ» ﴿**أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ**﴾ في متعلّقه ما مرَّ ﴿**إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾ في نسبة الزنى إليها.

﴿**وَالْخَامِسَةُ**﴾ الشهادة الخامسة ﴿**أَن**﴾ إنَّه أي الشأن، أو إنَّها أي القصَّة، أو المرأة ﴿**غَضِبَ اللهُ عَلَيْهَآ**﴾ أي شهادة أن غضب، ولم يفصل بقد لأنَّه ولو كان إخبارا لكنَّه ملوِّح للإنشاء ﴿**إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ في دعوى زناها.

والمراد بـ«الصَّادِقِينَ» و«الْكَاذِبِيــنَ» في الموضعين الصادقون والكاذبون في مطلق أقوالهم، أو في دعوى الزنى. وعبَّر في جانبها بالغضب تغليظا لأنَّها مَادَّة الفجور، ولاعتيادهنَّ اللعن فقد تتهاون به.

[سبب النزول] ونزلت آيات اللعان بســبب هلال بن أميَّــة أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، إذ رمى زوجه فلاعن بعد نزولها، وقيل: بســبب عاصم بن عديٍّ، وقيل: بســبب عويمر بن نصر العجلاني، إذ قــال: وجدت على بطن امرأتي خولة شــريك بن ســمحاء فكذَّبَتْهُ، وذلك في الرمي، وبسبب تعجُّب

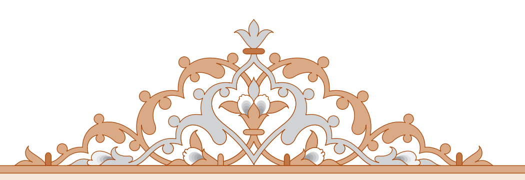
سعد بن عبادة، وقوله: إنَّه لا يأتي الرجل بمن يشهدون إلَّا وقد قضى الرجل حاجته وذهب؟.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ﴾ تفضُّله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بأمور حسنة لائقة بكم ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ إنعامه ﴿وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ﴾ يقبل التوبة جدًّا، أو كثير القبول لها ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله.

[نحو] والمصدران من خبري «أنَّ» معطوفان على «فضل» أو «رحمة» أي وتوبته وحكمته، والجواب محذوف على طريق المبالغة حتَّى كأنَّه لا يفي به لفظ، تقديره: لكان ما يكون، أو كان ما لا يطاق، أو لهلكتم دينا ودنيا، ومن ذلك استبقاؤهما بالشهادات.

فلو أخذ بقول الرجل ولا سيما أنَّه أعرف بزوجه وأنَّه لا يفتري عليها لاشتراكه معها في الفضيحة لرجمت، ولو أخذ بإنكارها لحدَّ فنجوا من ذلك وستر عليهما وفسح لهما لعلَّ الكاذب يتوب قبل الموت.

[فقه] والفرقة تقع بنفس تلاعنهما، وهي تطليقة بائنة عند بعض، والصحيح أنَّها تحريم مؤبَّد، وبه نقول، وعليه زفر وأبو يوسف والشافعي، وقيل: لا تقع الفرقة حتَّى يفرِّق القاضي بينهما.



﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِۓٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِے تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿11﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُومِنُونَ وَٱلْمُومِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿12﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَاتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿13﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِے ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِے مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿14﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿15﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿16﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا اِن كُنتُم مُّومِنِينَ ﴿17﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿18﴾ اِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِے ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ فِے ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿19﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿20﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَّتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَامُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنَ اَحَدٍ اَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّے مَن يَّشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿21﴾ وَلَا يَاتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُوتُوٓاْ أُوْلِے ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِے سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَّغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿22﴾﴾

الحكم الخامس:

حادثة الإفك وبراءة عائشة رضي الله عنها

﴿إِنَّ الذِينَ جَـآءُو بِالإِفْكِ﴾ الكذب العظيم، وهو قذف عائشة وصفوان بالزنى ﴿عُصْبَةٌ﴾ جماعة وأصله: الجماعة المتعصِّبون قلُّوا أو كثروا، وكثر في العشرة إلى الأربعين وهنا خمسة أو أربعة أو سِتَّة، كما سترى إن شاء الله.

﴿مِّنكُمْ﴾ أَيُّهَا المؤمنون، ولو كان فيهم منافق بإضمار الشرك وهو عبد الله بن أُبي بن سلول، لأنَّه في الظاهر مؤمن أي من أهل ملَّتكم فشمل النبيء ﷺ وعائشة وأبويها.

أو ﴿مِنكُمْ﴾ أَيُّهَا الناس المدَّعون النصرة لرسول الله ﷺ: عبد الله بن أُبي المذكور وحمنة بنت جحش أخت أمِّ المؤمنين زينب رضي الله عنها، وزوج طلحة بن عبيد الله، ومسطح بن أثاثة، وحسَّان وغيره، ولم يعدَّه بعض، قيل: وزيد بن رفاعة ولم يَصِحَّ فيه نقل، وقيل: خطأ.

وكذَّب حسَّان من عدَّه في هؤلاء وبرَّأ عائشة رضي الله عنها في أبيات توجد في ديوانه منها:

«حصان رزان ما تُـزَنُّ بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
حليلة خير الناس دينا ومنصبا ... بنبيِّ الهدى ذي المكرمات الفواضل
عقيلة حيٍّ من لؤي بن غالب ... كرام المساعي مجدهم غير زائل
مهذَّبة قد طيَّب الله خيمها ... وطهَّرها من كلِّ سوء وباطل
فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتم ... فلا رفعت سوطي إليَّ أناملي
فكيف وودِّي ما حييت ونصرتي ... لآل رسول الله زين المحافل؟
له رُتَبٌ عال على الناس كلِّهم ... تَقَاصَرَ عنه سورة المتطاول
فإنَّ الذي قد قيل ليس بلائط ... ولكنَّه قول امرئ بي ماحل»[1]

(1) ابن هشام: السيرة، ج1، ص 334.

ولَمَّا قال البيت الأوَّل قالت: لكنَّك لست كذلك.

[سيرة قصَّة الإفك] أقرع ﷺ بين نسائه في غزوة بني المصطلق سنة ستٍّ، فأصابتها القرعة فخرج بها، وَلَمَّا قربوا من المدينة في رجوعهم خرجت عن الجيش لحاجة الإنسان، فرفعوا الهودج على البعير يَظُنُّونها فيه لخفَّتها بالصغر، ولخفَّة النساء حينئذ بقلَّة الأكل، ورجعت إلى المحلِّ ففقدت في رجوعها عقدا من جَزَع ظفار فاشتغلت بطلبه، ثمَّ وصلت المحلَّ فلم تجد أحدا وانتظرت رجوعهم، ونامت غلبة، وقد تخلَّف صفوان بن المعطَّل عن الجيش، فبلغ المحلَّ فوجدها، وقد عرفها قبل نزول الحجاب، فخمرت وجهها، قالت: والله ما كلَّمني ولا كلَّمته إلَّا أنَّه قال: «إِنَّا لله وَإِنَّا إليه راجعون»، وأناخ راحلته فوطئ على يديها فركبت وقادني، فوصل الجيش في الظهيرة فتولىَّ الإفك ابن أُبي بن سلول، وخاض الناس معه، ومرضت شهرا ولا أدري ما يقال، وخرجت للبراز ولا كنيف يومئذ في الديار مع أمِّ مسطح، فعثرت بذيلها، فقالت: تعس مسطح، فقلت: أتسبِّين شاهد بدر؟ فقالت: ألم تسمعي ما قال؟ قلت: لا، فأخبرتني وذهبت إلى أبويَّ بإذنه ﷺ لأتحقَّق الأمر، قالت أُمِّي أمُّ رومان زينب بنت دهمان: لا وضيئة عند رجل لها ضرائر إلَّا كثرن عليها، فبكيت ليلتي وما نمت فدعا ﷺ عليًّا وأسامة، فقال أسامة: هي أهلك ولا نعلم إلَّا خيرا، وقال عليٌّ: النساء كثيرة سواها، ولكن سل الجارية بريرة، وروي أنَّه ضربها وقال: اصدقي رسول الله ﷺ، وأنَّه قال له: قد قال الناس ولك طلاقها، [قلت:] وهو كلام لا بأس به، وأخطأ عبد الملك من بني أمية إذ نسبه إلى الإفك بهذا، فسألها أي الجارية، فقالت: والله ما علمت إلَّا أنَّها حديثة السنِّ تنام عن العجين فيأكله الداجن، فجاء الوحي ببراءتها، فقالت أمُّها: قومي إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا والله لا أحمد إلَّا الله سبحانه.

﴿**لَا تَحْسِبُوهُ**﴾ أي الإفك ﴿**شَرًّا لَّكُم**﴾ تنحطُّ به رتبكم، والخطاب لمن خوطب بـ«مِنكُمْ» والتسلية حاصلة في الجملة لأهلها، وقيل: الخطاب هنا

لأهلها وهم: عائشة وأبواها والنبيء ﷺ، وهو أنسب، لأنَّ الشرَّ ينفى عَمَّن يتوقَّعه في مثل هذا المقام، لإثبات الخير خير المصيبة في قوله عز وجل: ﴿**بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ تثابون عليه في الآخرة، ترفع به درجاتكم إذ نزل في القرآن ببراءتها عشر آيات كما قالت.

وعن سعيد بن جبير: خمس عشرة آية، وقرأ إلى: الخبيثِينَ، والصواب أن يعد إلى: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الآية: 26]. قالت رضي الله عنها: ما ظننت أن ينزل فيَّ قرآن يتلى، ورجوت أن يرى ﷺ رؤيا.

﴿**لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنهُم**﴾ من الذين جاءوا بالإفك ﴿**مَّا اكْتَسَبَ**﴾ «مَا» واقعة على «الإِثْمِ» كما بيَّنه بقوله: ﴿**مِنَ الِاثْمِ**﴾ فيقدَّر مضاف أي: جزاء ما اكتسب، أو عبَّر بالسبب أو الملزوم وهو الإثم عن المسبَّب واللازم وهو الجزاء، أو «ما» واقعة على الجزاء، و«مِن» للسببيَّة أو للآلة، وذلك أنَّ الناس الخائضين في الإفك متكلِّم به وراض به، وضاحك ومبتسم، ومبالغ فيه كما قال سبحانه:

﴿**وَالذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ**﴾ معظمه، وهو عبد الله بن أُبي، كان لعنه الله يجمع الناس ويذكر لهم الإفك ويشيِّعه وينافق ويبالغ في عداوة رسول الله ﷺ، وبذلك قال أكثر المفسِّرين والمحدِّثين، وهو المشهور عن عائشة، وهو أوَّل من أذاعه، وعنها: هو وحمنة، قيل: هو وحسان ومسطح، فـ«الذِي» على القولين للجنس.

﴿**مِنْهُمْ**﴾ من الجائين بالإفك ﴿**لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ في الدنيا والآخرة، جلد ابن أُبي في المسجد حدَّين، وقيل: حدًّا واحدا، وله الدرك الأسفل من النار، وحسَّانا وحمنة ومسطحا حدًّا وجيعا، ووجئوا في أعانقهم، وقيل: لم يحد أحدا ولهم عذاب الآخرة.

وقيل: المراد في الآية عذاب الآخرة، وهو قول من قال: لم يحدُّوا، وروي أنَّه كان حسان يدخل عليها، فقيل: كيف يدخل عليك وهو الذي



تولَّى كبر الإفك؟ فقالت: وأيُّ عذاب أشـــدُّ من العمى والكسع بالسيف؟ وروي أنَّهــا تضــع له وســادة وتقول: لا تــؤذوا حسَّــانا إنَّــه كان ينصر رســول الله ﷺ، وظاهر كلامها أنَّه لا عذاب عليه في الآخرة، فالعذاب في الآية على التوزيع، منهم من يعــذَّب في الدنيا والآخرة، ومنهم من يعذَّب في الآخرة، ومنهم من يعذَّب فــي الدنيا، ومن عــذاب الدنيا: الافتضاح بالوحي ببراءتها.

[سيرة] ومراد عائشة بالكســع أنَّه ضرب صفوان حسَّــانا بالسيف على رأسه إذ قذفه، فقال:

تلقَّ ذباب الســيف مِنِّي فإنَّني غلام إذا هوجيت لست بشاعر

يعني لا أنتقم بالشعر بل بالسيف، فجرَّه ثابت بن قيس بن شماس بحبل مجموع اليدين إلى عنقه، فلقيه عبد الله بن رواحة فأخبره بضربه، فقال: أطلقه، فقال ﷺ لصفوان: لم ضربته؟ قال: لأنَّه قذفني، فقال لحسان: أحسن يا حسَّان، فقال: وهبت هذه الجناية لك يا رســول الله، فعوَّضه بيرحاء وسرين أمة قبطية ولدت له عبد الرحمٰن.

﴿**لَّوْلَآ**﴾ تحضيض ﴿**إِذْ**﴾ متعلِّق بـ«ظَنَّ» بعده ﴿**سَــمِعْتُمُوهُ**﴾ أي الإفك، أو الكلام الذي في نفس الأمر إفك، وهو أولى لأنَّه لا يتحقَّق أنَّه إفك إلَّا بعد إخباره تعالى. والخطاب لمطلق المؤمنيــن أو الخائضين غير الذي تولَّى كبره ﴿**ظَنَّ الْمُومِنُونَ وَالْمُومِنَــاتُ**﴾ لم يقل: ظننتم لينبِّههم بــأنَّ الإيمان مانع عن التوقُّف عن السرعة إلى ردِّ الإفك، كما قال: ﴿**بِأَنفُسِهِمْ**﴾ تنبيها على أنَّ قذف المؤمــن والمؤمنــة قذف أنفســهم، كمــا قــال: ﴿وَلَا تَلْمِــزُواْ أَنفُسَــكُمْ﴾ [ســورة الحجرات: 11] وقال: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَــكُمْ﴾ [ســورة البقرة: 85] في بعض أوجه تفسير الآيتين ﴿**خَيْرًا**﴾ براءة من السوء، وذلك أبلغ من تقدير: بمثل أنفسهم؛ وقيل: ﴿أَنفُسِهِمْ﴾: عائشة وصفوان.

﴿وَقَالُواْ هَذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر لا يتصوَّر في شأن زوج خير الخلق على الإطلاق، بنت خير الخلق بعد الأنبياء، وصحبه ﷺ في الهجرة، وذكر في قوله ﷻ: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ﴾ [سورة التوبة: 40] ولوجوب سلامة النبوءة عمَّا ينفر عن الاتِّباع.

﴿لَّوْلَا جَآءُو﴾ أي الخائضون ﴿عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ إلى قوله: ﴿الْكَاذِبُونَ﴾ مستأنف من كلام الله ﷻ في زيادة ذمِّ الإفك، وفي براءة عائشة وصفوان، أو من جملة القول المحضض عليه بالعطف على الظنِّ المحضّ عليه، فهو من مقول «قالوا»، وكأنَّه قيل: هلَّا قالوا: «لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ»، لأنَّ الزنى لا يحكم فيه إلَّا بأربعة شهداء.

﴿فَإِذْ لَمْ يَاتُواْ بِالشُّهَدَآءِ﴾ الأربعة، لم يقل: «بهم»، ليزيد تقرير لزوم الشهادة ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ البعداء ﴿عِندَ اللهِ﴾ في علمه وحكمه، لأنَّ الكلام في الخائضين في عائشة وصفوان خصوصا.

وإن قلنا هذا من جملة المقول احتمل أن يراد بـ﴿عِندَ اللهِ﴾ الشريعة، وهي أنَّهم تعبّدوا بأن يحكموا على من قال ذلك بالكذب، ولو صدق عند الله، والحمد لله على أن لم يصدقوا عند الله بل كذبوا أعظم كذب، وكأنَّه لا كذب إلَّا كذبهم كما عبَّر بصيغة الحصر إذ قال: ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ ولو لم يذكر لفظ الحصر أيضا بـ«أُوْلَئِكَ» و«الْكَاذِبُونَ». وما قيل هنا من أنَّ خصوص السبب لا ينافي عموم الحكم يصحُّ، لأنَّ الكلام في شيء مخصوص وهو عائشة ومن خاض فيما رميت به، وإنَّما يحكم في العموم بالقياس على ما ورد في شأنها.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ﴾ تفضُّله ﴿عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ لكم ﴿فِي الدُّنْيَا وَالَاخِرَةِ﴾ تنازعه فضل ورحمة، وذلك بالستر في الدنيا والإمهال لتتوبوا وقبول توبة التائب فيدخل الجنَّة وينجو من النار ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ بسبب ما أفضتم من الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مستأصل كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون وأصحاب مدين، فلفضله ورحمته لم يصبكم في الدنيا إلَّا عذاب

دون ذلك، أو لم يصبكم فيها عذاب. والخطـاب في الموضعين لغير ابن أُبي، لأنَّه لا رحمة له في الآخرة، ويجوز أن يعمَّه الخطاب لأنَّ باب التوبة مفتوح له.

﴿**إِذْ**﴾ متعلِّق بـ«مَسَّ» وجاز بـ«أَفَضْتُمْ» ﴿**تَلَقَّوْنَهُ**﴾ تتلقَّونه، يأخذه بعضكم عن بعض بالسؤال، والهاء عائدة إلى «مَا»، وجاز عودها إلى الكلام المأفوك ﴿**بِأَلْسِنَتِكُمْ**﴾ بعض عن بعض ﴿**وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ**﴾ ذكر الأفواه مبالغة في تشدُّقهم، كما يقال: قاله بملء فيه، كأنَّهم قالوا بكلِّ الفم لا بمخارج الحروف فقط.

أو ذكرها مقابلة للحجَّة، أي بأفواههم لا بحجَّة، أو للقلب، أي قالوا بأفواههم لا بقلوبهم، إذ لا علم لهم في ذلك بل جهالة. و«بِهِ» متعلِّق بـ«عِلْمٌ» ولو كان مصدرا إذ ليس مرادا به الفعل، والباء للإلصاق متعلِّق بـ«لَيْسَ» أو بـ«لَكُمْ» وبما ناب عنه من الاستقرار على أنَّها بمعنى في.

﴿**وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا**﴾ لا عقاب فيه ﴿**وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ**﴾ وفيه عقاب عظيم.

﴿**وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا**﴾ أي بما قيل في عائشة أو في نوعه، وعن عائشة: «**القذف بالزنى يهدم عمل مائة سنة**»(1) ﴿**سُبْحَانَكَ**﴾ تعجُّب، أمرهم الله به أن يقولوه، أو تعجيب، وأصله للاستعمال في تنزيه الله عمَّا لا يليق به، كما يقال: «لا إله إلَّا الله» في التعجُّب.

ويجوز بقاؤه على الأصل، بمعنى تنزيه الله ﷻ عن أن يجعل لنبيئه ما يعاب وينفر عنه، وهو فجور الزوج حاشاها، وليس العلم بذلك من شرط النبوءة، فلا يقدح في نبوءته أنَّه لم يعلم ببراءتها، لأنَّه يسألها وغيرها: هل فعلت؟ وما هالها؟ وإنَّما يقدح في النبوءة أن يكون غير أمين، وأمَّا اشتراط عدم المنفِّر فشرعيٌّ عادي، مع أنَّه يمكن أن يعلم بأنَّه شرط بعد إبراء عائشة.

---

(1) أورده **الهندي** في كنز العمال بلفظ: «قذف المحصنة...» وقال: أخرجه البزار والطبراني في الكبير. من حديث حذيفة. رقم: 8102. ج3، ص600.

وأمَّا حزنه فطبعيٌّ، وسؤاله كذلك، وقلقه على أن يجهل ذلك الإفك غير منفِّر للقلوب، وإنَّما هو بشر يخطر في قلبه ما اعتقد أنَّه لا يكون، كخوفه من قيام الساعة عند شدَّة الريح، مع اعتقاده أنَّها لا تقوم في حياته.

وجاز أن تكون امرأة النبيء كافرة كامرأة لوط وامرأة نوح، لأنَّ النبيء يبعث إلى الكُفَّار والكفر عندهم غير منفِّر، بخلاف الفجور.

وقوله: ﴿**هَـٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**﴾ إلى قوله: ﴿اِن كُنتُم مُّومِنِينَ﴾ من جملة المقول، أو يحتمل أن يكون قوله: ﴿**يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَدًا اِن كُنتُم مُّومِنِينَ**﴾ من كلام الله متعلِّقا بقوله: ﴿وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ﴾.

وقال ذلك جماعة من الصحابة قبل نزوله كأسامة بن زيد وأبي أَيُّوب كما رواه سعيد بن المسيّب، وقال عمر ﵁ لرسول الله ﷺ: «أنا قاطع بكذب المنافقين لأنَّ الله عصمك من وقوع الذباب على جلدك ـ لأنَّه يقع على النجس فيتلطَّخ به ـ فإذا عصمك الله من ذلك فكيف لا يعصمك من صحبة من تكون متلطِّخة بمثل هذه الفاحشة»؟. وقال عثمان: «إنَّ الله ما أوقع ظلَّك على الأرض لِئَلَّا يضع إنسان قدمه على ذلك، فكيف يمكِّن أحدا من تلويث عرض زوجك»؟. وكذا قال عليٌّ: «إنَّ جبريل أخبرك أنَّ على نعلك قذرا وأمرك بإخراج النعل عن رجلك بسبب ما التصق به من القذر، فكيف لا يأمرك بإخراج زوجك لو تلطَّخت بفاحشة»؟.

وروى ابن مردويه عن عائشة أنَّ امرأة أبي أَيُّوب قالت: يا أبا أَيُّوب ألا تسمع ما يقال؟ فقال: ﴿مَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَـٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ وذلك لحسن الظنِّ، أو لعلمهما بأنَّ شرط النبوءة السلامة من منفِّر، ولا بعد في علمهما ما لم يعلمه من هو أعلم ﷺ، وقال أبو أَيُّوب لزوجه: أتزنين أنت؟ قالت: لا، فقال: إنَّ عائشة خير منك وأباها خير من أبيك وزوجها خير مِنِّي، فكيف يصحُّ ذلك؟!.

ومعنى «يَعِظُ» ينصح و﴿أَن تَعُودُواْ﴾ على تقدير اللام أو في أو عن أو حذر أن تعودوا، يعظكم في شأن العود، أو ﴿يَعِظُكُمْ...﴾ بمعنى يزجركم عن العود. وذكر الإيمان على معنى أنَّ القاذف كمن لم يؤمن.

﴿**وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الَايَاتِ**﴾ الدَّالة على الأحكام والآداب والتوحيد ينزِّلها مبيَّنة ظاهرة، كقولك: وسعت الدار، أي بنيتها واسعة ﴿**وَاللهُ عَلِيمٌ**﴾ بكلِّ شيء من الخلق وأحوالهم ﴿**حَكِيمٌ**﴾ في أقواله وأفعاله، ومنها تخصيص من يخصُّ للنبوءة. وذكر لفظ الجلالة في المواضع للتأكيد وللإشعار بعلَّة الأُلُوهِيَّة في ذلك كلِّه وفي العلم والحكمة خصوصا.

﴿**اِنَّ الذِينَ**﴾ المراد الجنس، فيدخل الخائضون في شأن عائشة، أو هم المراد ويلتحق بهم مثلهم ﴿**يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ**﴾ الخصلة الشنيعة، الزنى أو الرمي به، وفي ذكر الحبِّ مبالغة لإدخال المحبِّ لانتشارها محبَّة تدخل تحت الاختيار ولو لم يقصد إليها بذكر أو سؤال أو سماع أو جارحة، وقيل: المراد بالحبِّ لازمه وهو الإشاعة.

﴿**فِي الذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ أي المحصنين والمحصنات بأن تقع فيهم، وخصَّهم بالذكر لأنَّهم العمدة، أو تنشر فيهم نسبتها إلى بعضهم ﴿**لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا**﴾ كالعمى والشلل والحدِّ ﴿**وَالَاخِرَةِ**﴾ بالنار إلَّا إن تاب وتخلَّص من التباعة فله عذاب الدنيا فقط.

[فقه] وإنَّما يكون الحدُّ كفَّارة للتائب لا للمصرِّ، ولم يخطر هذا في قلب أبي هريرة [عندما سئل] إذ قال: «لا أدري الحدود كَفَّارَة أو لا» أو أراد: لا أدري ما عند الله من التوبة، فتكون الحدود كفَّارة ومن عدم التوبة فلا تكون كَفَّارَة.

﴿**وَاللهُ يَعْلَمُ**﴾ أحوالكم وكلَّ شيء ولو في القلب، كحبِّ شيوع الفاحشة ويعلم الصلاح في التغليظ بالحدود ﴿**وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ إلَّا ما علَّمكم الله.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ لعوجلتم بعذاب مستأصل، أو عذاب أعظم مِمَّا أصابكم من الحدِّ أو غيره على ما مرَّ، والخطاب لمسطح وحسَّان وحمنة عند ابن عبَّاس، وقيل: لغير ابن أُبي ونحوه من المنافقين.

وقيل: لغيرهم ولهم على معنى: **أنَّ من شأن الله الرأفة والرحمة وقبول التوبة إلَّا إن اختار أحد لنفسه السوء**، وعن ابن عبَّاس: «من خاض في حديث الإفك وتاب لم تقبل توبته»، يعني أنَّ الله حكم بشقاوتهم، وتوبتهم غير خالصة، أو لا يختم لهم بها، ومراده ابن أُبي ونحوه، وهذا أولى من أن يقال: أراد التغليظ.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُواْ خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ لا تسلكوا طرقه في الفعل والترك، فإنَّها تفضي إلى شرِّ الدنيا والآخرة، شبَّه ما أمر به الشيطان بآثار الأقدام في الأرض ﴿وَمَنْ يَّتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ لم يقل: ومن يتبعها، لزيادة التحذير منه ومن خطواته وذمِّها، والجواب محذوف وكأنَّه غير محذوف لنيابة علَّته عنه، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَامُرُ بِالْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ﴾ تقديره يهلك أو يقع في القذف، لأنَّه يأمر بالفحشاء كالقذف، والمنكر وهو ما ينكره الشرع مطلقا.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ ببسط التوبة والتوفيق إليها وحدِّ الحدود المكفِّرة ﴿مَا زَكَىٰ﴾ طهر من الذنوب ﴿مِنكُم مِّنَ اَحَدٍ اَبَدًا﴾ و«مِن» الأولى للابتداء مُتَعَلِّقة بـ«زَكَى» أو بيانية مُتَعَلِّقة بحال محذوفة. ﴿مِنَ اَحَدٍ﴾ الفاعل هو المجرور بمن الصلة.

﴿وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَّشَآءُ﴾ بالتوفيق إلى التوبة وبقبولها ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ﴾ عليم بكلِّ كلام، ومنه ما أظهروه من التوبة في القذف ﴿عَلِيمٌ﴾ بكلِّ شيء ومنها إخلاص التوبة وعدمه.

[صرف] ﴿وَلَا يَاتَلِ﴾ يفتعل من الألية بمعنــى الحلفة، فالألف بدل من الهمزة التي هي فــاء الكلمة، والتاء تاء الافتعال، والــلام عين الكلمة، والياء المحذوفة للجازم لام الكلمة، ويدلُّ لذلك قــراءة «لا يتأل» بوزن يتفعل لكن حذفت الألف بعد اللام للجازم، وأصله ياء بمعنى لا يحلف.

[سبب النزول] حلف الصدِّيق رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح، وكان من المهاجرين الأَوَّلِينَ، وشهد بدرا وكان يتيما في حجره، وابن خالته، وقيل: ابن أخته، قيل: وعلــى رجل آخر كان أيضا يتيما فــي حجره للخوض في إفك عائشــة، وقطع جماعة من المؤمنين منافعهــم عَمَّن خاض فيه، فنزل: ﴿وَلَا يَاتَلِ...﴾ إلى: ﴿...رَحِيمٌ﴾.

[صرف] وزعم بعض أنَّه «يفتعل» من الأَلْوِ بفتح الهمزة وإســكان اللام، أو الأُلُوِّ بضمِّها وضمِّ اللام وشدِّ الواو.

﴿**أُوْلُــواْ الْفَضْلِ مِنكُمْ**﴾ الزيادة في الدين ﴿**وَالسَّــعَةِ**﴾ الوســع في المال كالصدِّيق رضي الله عنه ﴿**أَنْ يُّوتُواْ**﴾ علــى أن لا يؤتوا، أو يقصروا في أن يؤتوا ﴿**أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ أي من اتَّصَفَ بهؤلاء الصفات وجمعها، كمســطح المســكين المهاجر القريب للصدِّيــق، أو من فيه إحدى هؤلاء الصفات فكيف من جمعهنَّ؟.

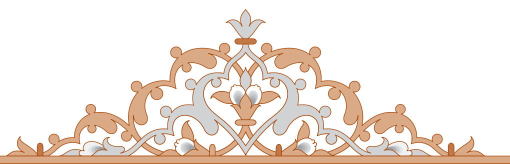
﴿**وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُواْ**﴾ يعرضوا عن الإساءة الصادرة منهم كأن لم تكن ﴿**أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَّغْفِرَ اللهُ لَكُمْ**﴾ كما تحبُّون مغفرة الله؟ اغفروا لمن أســاء فيثيبكم، أو ألا تحبُّــون أن يغفر الله لكم في مقابلــة العفو والصفح عَمَّن أســاء بالإنفاق عليه؟ ﴿**وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ فافعلوا مــا يفعل من المغفرة والرحمة العظيمتيــن، فقال الصدِّيق: «بلى والله يا ربَّنــا إِنَّا لنحبُّ أن تغفر لنا» فأعاد الإنفاق على من قطع عنه الإنفاق، وأعــاد المؤمنون النفع إلى من قطعوه عنه.

ويروى أنَّه كان ينفق على مسطح ضعفي ما كان ينفق عليه، وروي أنَّه قال: يا خالي والله الذي أنزل على محمَّد براءتها ما تكلَّمت بشيء، فقال الصدِّيق: لكن ضحكت وأعجبك ما قيل، فقال: لعلَّ بعض ذلك كان.

[فقه] ولا كفَّارة عليهم في الحنث بالعود إلى الإنفاق كما جاء في الحديث: «**من حلف على شيء ورأى غيره خيرا منه فليفعل ما هو خير فذلك كفَّارته**»[1] لكن لعلَّ المراد أنَّ فعله له جبر لِمَا أراد فوته لا كَفَّارَة اليمين، فإنَّه لازمة له كما في رواية: «**فليفعل الذي هو خير وليكفِّر عن يمينه**»[2]، ولعلَّ المراد في الآية بالايتلاء العزم الشديد بدون يمين وأنَّهم لم يحلفوا.

(1) رواه **أبو داود** بلفظ قريب، كتاب الأيمان والنذور، باب اليمين في قطيعة الرحم، رقم: 3276، ج3، ص224.

(2) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 8، ص 66 ـ 67.



﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُومِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (26)﴾

الجزاء الأخروي للقاذفين

﴿**إِنَّ الذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِـلَاتِ**﴾ عمَّا رمين به لا يخطر ببالهنَّ فعله لطهارة قلوبهنَّ عنه ﴿**الْمُومِنَاتِ**﴾ بكلِّ ما يجب الإيمان به فعلا أو تركا، والمراد: مدح عائشة بهذه الصفات وذمُّ من قذفها ولم يتب، لا مطلق من وجدت فيه هذه الصفات على أنَّهنَّ قيود، لأنَّ القاذف ملعون في الدنيا والآخرة ولو قذف غير المحصنة وغير الغافلة أو المشركة.

ومرَّ أنَّه روي أنَّه لا توبة لمن قذف عائشة وكذا سائر أزواجه، من قذف واحدة لا تقبل توبته، وحملت هذه الآية على العموم، وقيل: تحمل على أزواجه، إلَّا أنَّ هذه الرواية تحتمل أن يراد بها الزجر أو الحمل على أن لا يوفَّقوا للتوبة النصوح.

وقيل: المراد عائشة، عبَّر عنها بالجمع تعظيما، ولأنَّ من قذف واحدة من أزواجه كأنَّه قذف أزواجه كلَّهنَّ.

ولقد برَّأ الله أربعة بأربعة، يوسف بشاهد من أهلها، وموسى [قيل] بحجر فرَّ بثوبه ليرى أنَّه لا برص به وغير منتفخ البيضتين، ومريم بإنطاق ولدها، وعائشة بهؤلاء الآي العظام، وهنَّ أعظم إبراء.

﴿**لُعِنُواْ فِي الدُّنْيَا**﴾ بألسنة المؤمنين من الإنس والجنِّ والملائكة ﴿**وَالآخِرَةِ**﴾ بألسنة الملائكة ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ في الآخرة.

[فقه] والصحيح لظاهر الآيات قبول توبة من قذف زوجا من أزواج النبيء ﷺ كما تقبل توبة من قذف غيرهنَّ من المحصنات الغافلات المؤمنات. وقيل: هذه الآية في مشركي مكَّة إذا هاجرت مؤمنة قالوا: هاجرت لتزني، والصحيح ما تقدَّم.

﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمُۥٓ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ «يَوْمَ» متعلِّق بـ«لَهُمْ» لنيابته عن ثابت، أو ثبت محذوفا، أو بالمحذوف، أو بـ«عَذَابٌ» ولو موصوفا لظهور المعنى، وللتوسُّع في الظروف، ولا دليل على تعليقه بمحذوف، حذف للتهويل مؤخَّرا هكذا: يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يظهر أهوال لا يحيط بتفصيلها كلام، وإنَّما يقبل من دعوى الحذف ما يحتاج إليه ودلَّ عليه دليل، وإلَّا فلا، ولو اشتمل على نكتة.

كلُّ عضو يشهد بما فعل ولا ينافي هذا قوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [سورة يس: 65] لجواز أن يكون الختم في موضع والنطق في موضع، أو النطق لقوم والختم لآخرين، النطق دلالة الحال أو النطق نطق اللسان دون مخارج الحروف من الفم والحلق، كما نطق له ذراع له ﷺ بأنِّي مسموم.

[بلاغة] والنطق يناسب القاذفين والخائضين بألسنتهم. وتقديم «عَلَيْهِمْ» على الفاعل مسارعة إلى ذكر أنَّ الشهادة ضارَّة لهم مع ما فيه من التشويق إلى المؤخَّر، وهكذا يعتبر التقديم لنكتة وللتشويق إلى المؤخَّر حيث يصحُّ ذلك.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فـ«إذ» هنا للاستقبال، أو يقدَّر يوم شهدت عليهم بالماضي لتحقيق الوقوع.

وإضافة «يوم» و«حين» ونحوهما إلى «إذ» للبيان، وهو متعلِّق بقوله: ﴿يُوَفِّيهِم﴾ لا بدل من «يَوْمَ» لأنَّه نفسه، إلَّا أنَّ الأوَّل ذكر معه المضاف إليه والثاني ذكر معه ما نوِّن تعويضا عنه، ومثل ذلك توكيد لفظيٌّ لا بدل.

ومعنى التوفية: الإعطاء بالوفاء، والمعنى: يعطيهم على الوفاء ﴿اللهُ دِينَهُم﴾ جزاءهم ﴿الْحَقَّ﴾ الذي يجوز أن يثبت ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ أي يومئذ بدليل الأوَّل ﴿أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ الظاهر بظهور حكمه وأفعاله، وأقواله، أو المظهر ما خفي من الأحكام والحِكَمِ.

﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ بالمعاصي وعدم العفَّة من النساء ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ كذلك من الرجال، على حدِّ ما مرَّ في قوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً...﴾ ﴿وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ كذلك، أو الكلمات الخبيثات تثبت للخبيثين من الرجال والنساء، يذمُّهم الله والمسلمون بها كاللعنة والغضب من الله.

أو الكلمات الخبيثات للخبيثين من الرجال والنساء تصدر منهم على المؤمنين، وفي هذين الوجهين تغليب الذكور في الخبيثين ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ بالطاعة والعفَّة ﴿لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ ورسول الله أطيب الأطيبين، فلا يجعل الله زوجه إلَّا طيِّبة، ومن قذفها فقد ضلَّ وخالف الصواب، «إنَّ الطيور على أشباهها تقع».

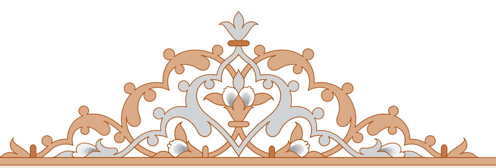
أو الكلمات الطيِّبات للطيِّبين من الرجال والنساء مدحا من الله ومن المؤمنين لهم، كرحمهم الله ورضي عنهم، أو الكلمات الطيِّبات للطيِّبين من الرجال والنساء تصدر منهم للمؤمنين، كالمدح والتبرئة من السوء والدعاء بالخير، وفي هذين الوجهين تغليب الذكور في الطيِّبين.

﴿**أُوْلَئِكَ**﴾ الطيّبون أهل البيت النبوي رجالا ونساء، ودخلت عائشة أوَّلا، أو النبيء ﷺ وعائشة وصفوان رضي الله عنهما، وقال الفراء: النبيء ﷺ وعائشة إطلاقا للجمع على اثنين.

﴿**مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ**﴾ مِمَّا يقول أهل الإفك، أو يقول الخبيثون ﴿**لَهُم مَّغْفِرَةٌ**﴾ عظيمة لذنوبهم، ولا يخلو الإنسان من ذنب ﴿**وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ الجنَّة، كما قال في أزواجه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: 31] وهو الجنَّة.

[سيرة: مناقب عائشة] وما غلَّظ في القرآن لأحد ما غلَّظ لعائشة، وكانت تفتخر على ضرَّاتها بذلك وبنزول الآيات في مدحها وبراءتها، وبنزول جبريل بصورتها في حريرة بيضاء عليه ﷺ، حين أمر بتزوُّجها وبأنَّه تزوَّجها بكرا، وبأنَّه أتاه الوحي وهو معها في لحاف، وبأنَّها أحبُّ نسائه إليه، وأنَّها رأت جبريل، وأنَّه ﷺ قبض في بيتها، وأنَّ رأسه في حجرها، وأنَّه دفن فيه ولم يله أحد غيرها وغير الملك، وحفَّتْه الملائكة في بيتها، وأنَّ أباها خليفته وصديقه، وأنَّها خلقت طيِّبة ووعد لها رزق كريم ومغفرة، ومن ذلك حديث «فضلها على النساء كفضل الثريد على الطعام».

[دعاء الفرج] قالت: هجرني القريب والبعيد حتَّى الهرَّة، أنام جائعة ظامئة، ولا يعرض عليَّ طعام أو شراب، فرأيت فتى [في المنام] قال: ما لك؟ قلت: حزينة لما يقال، قال: قولي يفرِّج الله عنك: «يا سابغ النعم، ويا دافع النقم، ويا فارج الغمم، ويا كاشف الظلم، يا أعدل من حكم، يا حسب من ظلم، يا وليَّ من ظلم، يا أوَّل بلا بداية، ويا آخر بلا نهاية، يا من له اسم بلا كنية، اللهمَّ اجعل لي من أمري فرجا ومخرجا» فانتبهت ريَّانة شبعانة قد أنزل الله تعالى براءتي، **وهو دعاء للفرج**.



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿27﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿28﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿29﴾﴾

الحكم السادس:
الاستئذان لدخول البيوت وآدابه

[سبب النزول] ويناسب الإحصان فرض الاستئذان، قالت امرأة: يا رسول الله، يفاجئني في بيتي داخل على حال لا أحبُّ أن يراني فيها أحد، فنزل قوله تعالى:

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَانِسُواْ﴾... إلخ من فيها ولو غير ملَّاكها. فسَّر ابن عبَّاس ﵄ الاستئناس بالاستئذان، لأنَّ الاستئناس طلب الإيناس، وهو العلم أو الإبصار، والإبصار طريق إلى العلم، فالإيناس طلب العلم، والمستأذن يطلب أن يعلم هل يؤذن له؟.

أو الاستئناس: طلب الأُنس ـ بضمِّ الهمزة ـ ضدُّ الوحشة، ومريد الدخول كالمستوحش من خفاء الحال، هل يؤذن، فإن أذن له حصل له الأنس.

أو الاستئناس: طلب معرفة هل في البيت إنس ـ بكسر الهمزة ـ أو من هو أي ناس، أو واحد ليأذن له.

[صرف] وهو اشــتقاق من اســم العين، كـ«عانه»: أبصــره بعينه، وأنف مسرج: اشتقاقا من السراج، وهو ضعيف لهذا الاشتقاق، ولأنَّ ذلك أنَّه يدخل بلا إذن، ولا تقاوِم الضعيفين مناسبةُ «فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا».

أو حتَّى تطلبوا علم أهل البيــت بأنَّكم تريدون الدخول فيأذنوا، أو يتركوا بأن تسبِّحوا أو تحمدوا أو تكبِّروا طلبا للإذن.

أو تؤنســوا أهل البيت بإعلامهم بالتســبيح ونحوه كالتنحنح، أو تؤنسوا أهل البيت من أنفســكم بالاســتئذان ونحوه، فيأذنوا أو يتركــوا كما جاء به الحديث، وتؤنسوا أنفسكم بأنَّه قد علم بكم، وهو ضعيف.

[فقه] ﴿وَتُسَــلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ وكلٌّ من الاســتئذان والتسليم واجب، وذكر ابن جزي الكلبي الأندلســي[1]، أنَّ وجوب الاستئذان أعظم من وجوب الســلام، وكلاهما واجب، كما فسَّــر كلامه محشِّــيه أبو عبــد الله الغرناطي. والاستئذان قبل التسليم، وقيل: بعده لحديث: «**السلام قبل الكلام**».

قال عطاء: ســمعت أبا هريرة يقول: إذا قال الرجل: أَأَدخلُ؟ فقل: لا حتَّى تجيء بالمفتاح، فقلت: المفتاح السلام عليكم؟ قال: نعم. وحمل بعضهم هذا الحديث على ســلام الملاقاة، وعلى كلِّ حال لا بدَّ من وقوعه قبل الدخول، وأمَّا قول أبي هريرة: «لا يؤذن لمن يستأذن حتَّى يسلِّم»، فمعناه فرض السلام، وأنَّه لا يؤذن له إن لم يسلِّم.

[فقه] وَممَّــن يقدِّم الســلام ابن عمــر، وكان عمر يقول: الســلام على رسول الله أيدخل عمر؟ واختار بعض أنَّه إن رأيت أحدا أو قرب فقدِّم السلام

---

(1) ابن جزي محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن عبد الله بن يحيى، ابن جزي الكلبي، أبو القاســم: فقيه مالكيٌّ عالم بالأصول والتفســير واللغة، من أهل غرناطة، من شــيوخ لسان الدين بن الخطيب ولد ســنة 693هـ وفقد وهو يحرض الناس يوم معركة طريف سنة 741هـ. من كتبه «التسهيل لعلوم التنزيل» في التفسير، أربعة أجزاء، مطبوع. معجم المفسِّرين، ج 2، ص 181.

وإلَّا فالاستئذان. ولا يستأذن أكثر من ثلاث إلَّا إن تحقَّق أنَّ من في البيت لم يسمع، قال الطبراني عن أبي أمامة عنه ﷺ: «**من كان يؤمن أنِّي رسول الله فلا يدخل على أهل بيت حتَّى يستأذن ويسلِّم**»[1] وإذا تفسَّح الباب أو لم يكن باب استأذن من جانب لِئَلَّا يرى ما في داخله.

[فقه] ومن دخل بلا إذن أو نظر داخل البيت بعينيه هلك، وإن فقأ عينه أحد من داخل البيت هدر دمه، كما قال ﷺ للناظر في بيته: «**لو علمت أنَّك تنظرني لطعنت في عينك بهذه المدرى**» وهو على ظاهره، لقول أبي هريرة عنه ﷺ: «**لو أنَّ امرأ اطَّلَعَ عليك بغير إذن ففقأت عينه بحصاة لم يكن عليك حرج**»[2] واختار بعض **أنَّ ذلك بمعنى أن يفعل به ما لا يعود معه إلى النظر في البيوت**، كما أمر بلالا بقطع لسان عبَّاس بن مرداس حين مدحه وأراد إعطاءه.

﴿**ذَٰلِكُمْ**﴾ المذكور من الاستئذان والتسليم، أو ذلك الدخول بهما ﴿**خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ منفعة لكم، ضدُّ السوء، أو أفضل من الدخول بلا إذن، فقد يشاهد ما لا يرضى ربُّ البيت، وبلا سلام، كما تقول الجَاهِلِيَّة: «حييتم صباحا» أو «حييتم مساء» فيدخلون.

[بلاغة] ووجه التفضيل أنَّ الجَاهِلِيَّة يعدُّون ما يفعلون حسنا، ويعدُّون الانتظار مذلَّة؛ أو اسم التفضيل خارج عن بابه.

﴿**لَعَلَّكُمْ**﴾ فرض ذلك لعلَّكم ﴿**تَذَكَّرُونَ**﴾ أو لتتذكَّروا فتَعْمَلوا بموجبه.

[فضل السلام] وأجر المسلِّم سلام الدخول أو سلام الملاقاة أكثر من سلام الرَّادِّ، لأنَّه ابتدأ فله فضل السبق، وكلٌّ من البدء والردِّ فرض عند

(1) رواه **الطبراني** في الكبير: ج 8، ص 104، رقم 7505. **والهيثمي** في المجمع، ج 1، ص 89. مع زيادة في أوَّله. من حديث أبي أمامة.

(2) رواه الشيخان بلفظ قريب. **البخاري**: كتاب الديات، باب من اطلع في بيت قوم فقؤوا عينه، رقم: 6506. **مسلم**: كتاب الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره، رقم: 5769. من حديث أبي هريرة.

الدخول، وأمَّا سلام الملاقاة فسـلام البادئ أفضل عند بعض، لأنَّه بدأ به فله فضل السبق، وفضل أنَّه سـبب الردِّ الواجب، وقيل: الرَّادُّ أفضل لوجوب الردِّ والواجب أفضل.

[فقه] ويجب السلام عند الدخول على الصبيِّ في البيت، ولو كان لا يجب على الصبيِّ الردُّ، وأمَّا سـلام الملاقاة على الصبيان فزعـم بعض أنَّه لا ينبغي، فقيل: لأنَّه لا يجب عليه الردُّ، وليس بشيء، والحقُّ أنَّه يسلِّم عليهم استحبابا إن كانوا يعقلون، وعدم وجوب الردِّ عليهم لا يبطل السنَّة الواردة في عموم السلام.

وأيضا في السـلام عليهم تعليم، قال ﷺ: «**بعثت معلِّما**»[1] قال أنس: كان رسـول الله ﷺ يسـلِّم علينا ونحن صبيان، ويبعثني خصوصا في حاجته، وكذا كان ابن عمر يسلِّم على الصبيان، وكذا قال عمر بن عنبسة: يسلِّم علينا ابن عمر ونحن صبيان، والصواب عنبسـة بن عمار لا عمر بن عنبسة، وعن ابن سيرين أنَّه كان يسلِّم عليهم بلا إسماع لهم، وروي أنَّ الحسن لا يسلِّم على الصبيان.

﴿**فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا**﴾ إذ لا يجوز التصرُّف في مال بلا إذن من مالكه فإنَّه كالغصب ﴿**حَتَّىٰ يُوذَنَ لَكُمْ**﴾ بأن يحضر من له الإذن، ولو عبدا أو أمة إن اطمأنَّ النفس أنَّهما أذنا بإذن من مالك الإذن.

﴿**وَإِن قِيلَ لَكُمُ**﴾ من جهـة من في البيت، هو أو غيره عنه، باللسـان أو بالإشـارة أو بلسـان الحال، أو بعدم الإذن بعد الاسـتئذان ثلاثا ﴿**ارْجِعُواْ**﴾ بمعنى: لا تدخلوا ﴿**فَارْجِعُـواْ**﴾ ولا تلحُّوا، ولو بالمقام عنـد الباب ﴿**هُوَ**﴾ الرجـوع ﴿**أَزْكَىٰ**﴾ أطهـر ﴿**لَكُمْ**﴾ من المكـث على الباب إلحاحا وخسَّـة ورذالة، أو أنفع لدينكم ودنياكم.

---

(1) رواه **ابن ماجه** في كتاب المقَدِّمَة، باب فضل العلماء والحثِّ على طلب العلم. ورواه **الدارمي** في كتاب المقدِّمة، باب في فضل العلم والعالم، رقم 352. من حديث عبد الله بن عمرو.

[فقه] وأمَّا أن ينادي مرَّة واحدة ويقعد جانبــا من الباب بقدر ما لا يثقل على صاحب البيت، أو يقعد بدون اســتئذان رجــاء لحاجته بأن يراه صاحب البيــت إذا خرج فلا بــأس، وكان ابــن عبَّاس تلفحه الشــمس عنــد أبواب المهاجرين والأنصــار لطلب العلم، فيخرج صاحب البيــت أو يراه فيقول له: يا ابن عم رســول الله ﷺ لو أخبرتني بمكانك؟ فيقول: هكذا أمرنا أن نطلب العلم. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اَن تَدْخُلُواْ﴾ في أن تدخلوا بلا اســتئذان ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْــكُونَةٍ﴾ مِمَّا خلي لمن يتمتَّع به موقوفــا أو مملوكا ﴿فِيهَــا مَتَاعٌ﴾ تمتُّع ﴿لَّكُمْ﴾ من حرٍّ أو برد أو حفظ متاع، وبيع وشــراء واغتسال وطهارة وقضاء حاجة الإنسان.

[سبب النزول] ومن بعض ذلك العمــوم ما روي أنَّه لَمَّا نــزل: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ...﴾ قال الصدِّيق ﷺ: كيف يا رسول الله بتجَّار قريش المختلفين من مَكَّة والمدينة والشام وبيت المقدس ولهم بيوت معلومات على الطريق؟ فكيف يستأذن ويسلِّم فيها ولا أحد فيها؟ فنزل: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ...﴾.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ من دخول البيوت للفساد أو للاطِّلاع على العورات أو للسرقة، ومن الدخول بالعين وسائر المعاصي فيعاقبكم.

﴿قُل لِّلْمُومِنِينَ يَغُضُّواْ مِنَ اَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اَللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُل لِّلْمُومِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنَ اَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوَ ءَابَآئِهِنَّ أَوَ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوَ اَبْنَآئِهِنَّ أَوَ اَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوِ اِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيَ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيَ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتَ اَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ اِلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي اِلْإِرْبَةِ مِنَ اَلرِّجَالِ أَوِ اِلطِّفْلِ اِلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ اِلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُواْ إِلَى اَللَّهِ جَمِيعًا اَيُّهَ اَلْمُومِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)﴾

الحكم السابع: غضُّ البصر وستر الزينة

﴿قُل﴾ يا محمَّد ﴿لِّلْمُومِنِينَ﴾ وغيرهم، وخصَّهم بالذكر لشرفهم ولأنَّهم المنتفعون بالشرع، [قلت:] والأنسب في المشرك أن ينهى أوَّلا عن الإشراك، ولو كان مخاطبا بفروع الشرع فعلا وتركا ﴿يَغُضُّواْ مِنَ اَبْصَارِهِمْ﴾.

[نحو] [يغضوا] مجزوم بلام الأمر محذوفة، وذلك قائم مقام «قل لهم: غضُّوا» قائم مقام «لتغضُّوا» بلام الأمر والخطاب، أو مجزوم جوابا للشرط هكذا: «قل للمومنين في شأن الغضِّ إن قلت لهم يغضُّوا»، أو مجزوم في جواب أمر محذوف: «قل لهم غضُّوا يغضُّوا». و«مِن» للابتداء بمعنى: يستعملوا الغضَّ من أبصارهم، أو يتوثَّقوا من أبصارهم، ولا مفعول لـ«يغضُّوا»، وأجيز أن تكون للتبعيض مفعولا لـ«يَغُضُّوا» على أن يراد

بالبعض [المفاد من «من» التبعيضية] البصر الذي يشارف النظر لِمَا لا يحلُّ، أو المفعول «أبصار» و«مِن» صلة ولو في الإثبات ومع المعرفة على قول.

[سيرة] مرَّ رجل في طريق من طرق المدينة فنظر إلى امرأة ونظرت إليه، واستقبله الحائط وهو يمشي وينظر إليها، فصادم حائطا وشقَّ أنفه فقال له: «والله لا أغسل الدم حتَّى آتي رسول الله ﷺ فأخبره بأمري»، فأتاه فقال: «**هذا عقوبة ذنبك**» فنزل: ﴿قُل لِّلْمُومِنِينَ يَغُضُّواْ مِنَ اَبْصَارِهِمْ...﴾[1].

وقال ﷺ: «**لا تتبع النظرة النظرة فإنَّ لك الأولى وليست لك الآخرة**»[2]، فيحتمل أنَّ النظرة الآخرة النظر ثانيا عمدا والأولى بلا عمد، أو النظر بالقلب بعد الأولى بالعين. وقدَّم غضَّ البصر على حفظ الفروج لأنَّ النظر بريد الزنى ورائد الفجور.

﴿**وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ**﴾ عن أن يراها أو يمسَّها أو يتمتَّع بها غير الأزواج والسراري، وعن الزنى وعن أن يتمتَّعوا بمسِّها أو النظر إليها، وعن أن يصفوها لغيرهم.

[فقه] ولم يكن هنا «مِن» التبعيضية كما كانت في الأبصار، لأنَّ النظر أوسع، ألا ترى أنَّه يجوز النظر بلا شهوة إلى ما فوق سرَّة المحرمة، ولو برضاع وتحت ركبتها كما قال أبو مسور ﵀، والزمخشري وابن حجر، وكذا الأمة المعروضة للبيع، وإلى وجه الأجنبيَّة وكفَّيها إن لم تكن فيها زينة، وقيل: مطلقا، وفي ظاهر قدميها وباطنهما روايتان المشهور المنع، وقيل: إلى الباطن لا الظاهر؛ أو التبعيض باعتبار أنَّه يحلُّ النظر إلى بعض الأجنبيَّة، وقيل: لم تكن «من» التبعيضية هنا، لأنَّ المراد بحفظ الفروج هنا سترها، وفي سائر القرآن منع الزنى.

﴿**ذَلِكَ**﴾ المذكور من الغضِّ والحفظ ﴿**أَزْكَىٰ لَهُمُ**﴾ زكي لهم وطهارة من الريبة دينا ودنيا، ومن الزنى الذي فيه مضار دِينِيَّة ودنيويَّة، وأجيز إبقاؤه على

---

(1) أورده **الهندي** في الكنز، رقم: 4538. وعزاه إلى ابن مردويه، عن علي.

(2) رواه **الترمذي** في كتاب الأدب، باب نظرة المفاجأة، رقم: 2777، من حديث بريدة.

باب التفضيل أي أزكى من كلِّ نافع وكلِّ مبعد عن الريبة، أو أنفع من الزنى والنظر الحرام، لأنَّ فيهما نفعا دنيويًّا طبعيًّا.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ولو بقلوبهم بتمنِّي الزنى فيعاقبهم [إن اقترفوا].

﴿وَقُل لِّلْمُومِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنَ اَبْصَارِهِنَّ﴾ مثل ما مرَّ ويحلُّ لهنَّ ما ردَّ الركبة أسفل، والسرَّة فوق من الأجانب والمحارم والنساء بلا شهوة ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ مثل ما مرَّ. وسحاق النساء زنى.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ ما يتزيَّنَّ به من الحليِّ إذا كان في المحلِّ الذي لا يرى، فلا يحلُّ النظر إلى ما يعلِّقن بالأذن أو يلبسنه الذراع، أو الرجل أو العنق أو الشعر، ولو لا يرى نفس تلك الجوارح فلا يبدين هؤلاء للأجانب، وإن نزع عن الجسد جاز إبداؤه والنظر إليه بلا شهوة.

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ جرت العادة بظهوره كالكحل في العين والنقط في الوجه بالأسود والأحمر أو غيرهما، والتحمير والتبييض، والخاتم في الإصبع والخضاب في الكفَّين، وفي رواية: الذراعان ليسا بعورة، ولا تثبت عندنا ولا عند جمهور قومنا.

[فقه] وتقدَّم أنَّ الوجه والكفَّين عورات إذا كان فيهنَّ زينة، وعليه فممَّا ظهر منها: الثوب الحسن الداثر، والجلباب، كما روي عن ابن مسعود، وعنه: الثياب، كما هو الزينة في قوله ﷻ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ [سورة الأعراف: 31] وعن ابن عبَّاس: «الكحل والخاتم والقرط والقلادة» أي إذا كان لا يظهر موضع القرط والقلادة، وكذا في قول الحسن: إنَّه الخاتم والسوار. **وستر الوجه مطلقا هو السنَّة.**

﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ يغطِّين ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ جمع خمار، وهو ما يستر الرأس من المرأة، من الخمر وهو الستر ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ مخارج الرؤوس والأعناق من الجبَّة والقميص، من الجَبِّ بمعنى القطع، وذلك لأنَّه يبدو من ذلك أعلى الصدر،

فأمرن بستره وكن يغطِّين رؤوســهنَّ بالخمر مســدلات من خلفهنَّ، فيبدو العنق وأعلى الصدر، وسارعت نساء المهاجرين إلى ضرب الخمر حين نزلت الآية.

[لغة] وأمَّا تســمية ما يخاط في أعلى الجبَّــة أو القميص لحفظ الدراهم مثلا جيبا فمجاز مرسل في الأصل، علاقته الجوار، أو الحلول في الأصل، ثمَّ صار حقيقة عرفيَّة عامَّة.

وهؤلاء الآيات دالَّات على خطر البصر، فإنَّ الاســتئذان من النظر وستر الفرج لِئَلَّا يرى، وإبداء الزينة محرَّم لِئَلَّا ترى، وأمر الرجال والنســاء بالغضِّ وأمرن بضرب الخمر على الجيوب، والناس يستصغرون النظر ويتهاونون به:

كلُّ الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
والمرء مــا دام ذا عيــن يقلبها ... في أعين العين موقوف على الخطر
كم نظرة فعلت في قلب فاعلها ... فعل الســهام بلا قوس ولا وتر
يســرُّ ناظره مــا ضــرَّ خاطره ... لا مرحبا بسرور عاد بالضرر[1]

وليس في ذلــك تضييق كلِّي عليهنَّ وعليكم لأنَّ لكم ولهنَّ فســحة بغير ذلك للضرورة وعدم وجود المانع في قوله تعالى:

﴿**وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ**﴾ إلى قوله: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَــآءِ﴾ والبعولة جمع جمع لبعــل، أو جمع، وهم أزواجهنَّ، قدِّموا لأنَّه لم يحجر عليهم شــيء منهنَّ، ولو نظر من زوجــه داخل فرجها، وكره بعضهم النظر إلــى فرجها، حتَّــى إنَّ للزوج ضربها على تــرك الزينة، ولأزواجهنَّ خلقن للتمتُّع والولادة.

﴿**أَوَ ـ ابَآئِهِنَّ**﴾ شــامل للأجداد مــن جهة الأب أو الأمِّ مــا علوا، قدِّموا لأنَّهم لا يفتنون ببناتهم اشتهاء، وما وقع نادر شاذٌّ خارج عن المروءة المعتادة.

(1) ذكر هذه الأبيات بعض الأدباء والمفسرين ولم ينسبوها. منهم **الآلوسي**، في روح المعاني، ج18، ص139.

﴿أَوَ ـ ابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ وأجدادهم من جهة الأب أو الأمِّ وإن علوا، قدِّموا لأنَّ لهم غيرة على أزواج أبنائهم أن يشاركوهم في نسائهم، بنظر الشهوة أو المسِّ بها وما فوق ذلك ﴿أَوَ اَبْنَآئِهِنَّ﴾ شامل لبني الأبناء وإن سفلوا، ولبني البنات وإن سفلوا أو سفلن، وأخِّروا مع أنَّهم أشدُّ بعدا عن اشتهائهنَّ وما يترتَّب عليه مثل الأب ليتَّصل الكلام على البعولة والآباء وآباء البعولة لا يفصل بالبنوَّة.

﴿أَوَ اَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ من غيرهنَّ من النساء شامل لبني أبناء البعولة، وبني بنات البعولة وإن سفلوا وسفلن ﴿أَوِ اِخْوَانِهِنَّ﴾ من الأب والأمِّ أو من أحدهما، أخِّرت جهة الأخوَّة لأنَّها دون البنوَّة في البعد عن الاشتهاء والعمل به.

﴿أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ﴾ وإن سفلوا الشامل لبني بنات إخوانهنَّ وإن سفلوا وسفلن ﴿أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ وإن سفلوا شامل لبني بنات أخواتهنَّ وإن سفلوا وسفلن.

[صرف] واستعمل «بني» في الإخوة دون «أبناء» لأنَّه أوفق في العموم، وكثرة الاستعمال مع عدم اتِّحاد صنف القرابة فيما بينهم، ألا ترى أنَّه يقال: بنو آدم وبنو تميم لا أبناء إلَّا ما شذَّ، فقد يجتمع لها ابن أخ شقيق وابن أخ للأب وابن أخ للأم وأبناء أخ شقيق وأبناء إخوة أشقَّاء وأبناء أخ أو أخت، وأبناء أخ أو إخوة لأب أو لأم، **والرضاع في ذلك كلِّه كالنسب.**

[فقه] ودخلت الأعمام والأخوال في المحارم بِالسُّنَّةِ، ولأنَّهم في معنى الإخوان لأنَّ الجدَّ في معنى الأب فابنه في معنى الأخ، ولأنَّ الأعمام آباء والأخوال كالأمَّهات كما في الحديث والاستعمال، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [سورة الأنعام: 74] [قلت:] ولئلَّا يتوهَّم أنَّ أبناءهم مثلهم كما في سائر الآية، وهذا مِمَّا وفِّقت لاستخراجه وكثر ذلك والحمد لله، إلَّا أنِّي لا أذكر أنَّ كذا من مستخرجاتي إلَّا قليلا، ما شاء الله لا قُوَّة إلَّا بالله.

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ أي المؤمنات غير الفواسق اللّاتي يصفن فلا يبدين لهنَّ ولا للمشركات إلَّا ما يبدين للأجانب، كما روي عن عمر في المشركة إذ لا تتحرَّج عن الوصف.

[فقه] وقيل: إنَّ المراد جميع النساء واستثناء السلف الفواسق والمشركات استحباب، وقول عمر ﵁: «لا يحلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تبدي للمشركة ما تبدي للمؤمنة غير هذا»، ولكن ورد دخول الذمِّيَّات على أُمَّهَات المؤمنين، قلت: لكن لم يرد أنَّهنَّ رأين منهنَّ ما لا يراه الأجانب.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتَ اَيْمَانُهُنَّ﴾ من الإماء ولو كوافر ومن العبيد ولو ملكت جزءا منهنَّ أو منهم فقط، وقيل: لا حتَّى تملك العبد كلَّه، أو الأمة المشركة كلَّها.

وقال سعيد بن المسيب: ﴿مَا مَلَكَتَ اَيْمَانُهُنَّ﴾ هنَّ الإماء، وأمَّا عبدها فلا يحلُّ لها إبداء الزينة له، ويردُّه أنَّه تخصيص بلا دليل، وأنَّه لو أريد الإماء فقط لقيل أو إمائهنَّ، فيكون نصًّا، وكذا ما قاله أَئِمَّة أهل البيت أنَّه يجوز لها أن تبدي لعبدها ما تبدي للنساء.

وكانت عائشة ﵂ تمتشط وعبدها ذكوان يراها، وقالت: «إذا وضعتني في القبر وخرجت فأنت حر».

[فقه] والمكاتب عندنا حرٌّ من حينه وعليه دين، فلا تبدي له، وأتى ﷺ فاطمة ﵂ بعبد وهبه لها وعليها ثوب إذا غطَّت به رجليها انكشف رأسها أو رأسها انكشف رجلاها، فتحرَّجت فقال ﷺ: «**لا بأس أنا أبوك وهذا مملوكك**» وجعل بعض عبد الزوج كمحرم لها لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتَ أَيْمَانُكُمْ﴾ [سورة النساء: 3]، والمذهب أنَّه أجنبيٌّ إلَّا إن ملكت جزءًا منه.

﴿أَوِ التَّابِعِينَ﴾ للناس يصيبوا من فضل طعامهم الذين لا يصفون للرجال ﴿غَيْرِ﴾ نعت ﴿أُوْلِي الِارْبَةِ﴾ الحاجة إلى التمتُّع بالنساء ﴿مِنَ الرِّجَالِ﴾ وهم

البلَّه الذين لا يشتهون النساء، وغير البلَّه الذين لا يشتهون، لا المجنون والشيخ الفاني والخصيُّ إذ قد يبقى فيهم بعض اشتهاء، أو يحضر تارة منهم اشتهاء، ولو تحقَّق أنَّهم لا يشتهون لحلَّ الإبداء لهم.

[فقه] ولا يبدين لمن يصف، ولو ظهر أنَّه لا يشتهي لأنَّ الوصف محذور شرعا، بل قد يكون وصفه لبعض اشتهاء فيه.

وجد ﷺ مخنَّثا عند بعض نسائه يصف امرأة بِأَنَّهَا تقبل بأربع وتدبر بثمان، فقال: «**قد عرف ما هناك فلا يدخلنَّ عليكنَّ**»[1] وأخرجه من المدينة فكان يدخلها كلَّ جمعة يستطعم.

﴿**أَوِ الطِّفْلِ الذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَآءِ**﴾ لم تطَّلع قلوبهم على عوراتهنَّ بالاشتهاء، أو لم يقووا على الجماع لعدم تعلُّق قلوبهم به، يقال: قوي على الشيء اطَّلَعَ عليه، أو قدر عليه.

[فقه] وفي المراهق في المذهب قولان: بعض يحكم عليه بحكم البالغ، وبعض لا يحكم عليه به، وهو الصحيح، وكذا قولان عند الشَّافِعِيَّة، **والمنع أحوط**، فإن كان يصف لم يبدين له، ولو تحقَّق أنَّه لا اشتهاء له ولا يصف جاز الإبداء له.

[صرف] والطفل: يطلق على ما فوق الواحد كالواحد، كما في الصحاح، فتحمل عليه الآية، وقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [سورة غافر: 67] فلا حاجة إلى كون النعت بالجمع لـ«ال» الجنسيَّة، ولا إلى تقدير يخرج كلُّ واحد طفلا على حدِّ ما قلنا في: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ [سورة يوسف: 31] أعتدت لكلِّ واحدة، ونقول: معنى قول بعض إنَّه مفرد وضع موضع الجمع أنَّه موضوع لغة بمعنى الجمع تارة لا مفرد استعمل بمعنى الجمع، وذلك كما قيل: إنَّه مصدر في الأصل فجاز استعماله في القليل والكثير.

---

(1) رواه الشيخان وغيرهما. **البخاري**: كتاب النكاح، باب ما ينهى من دخول المتشبهين بالنساء... رقم: 4937. من حديث أمِّ سلمة.

ومعنى العورات: ما يستقبح انكشافه منهنَّ لا خصوص الفرجين.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ الأرض ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ بصوت الخلخال بما تعلَّق به من نحو جزع أو بما في جوفه من ذلك.

أو لا يضربن رجلا برجل وفيهما خلخالان يصوِّتان بالتقائهما، وكنَّ يفعلن ذلك ليعلم الرجال أنَّهنَّ ذوات رجال حرائر فيخلَّى لهنَّ الطريق، ولا يتكلَّم لهنَّ، والسامع يتعلَّق قلبه بذلك ويوهم أنَّ لهنَّ ميلا إليهم.

[قلت:] والمدار على الميل حتَّى إنَّه لا يجوز الاستماع لكلامهنَّ إذا كان مشهيا، وقد قال ﷺ في سهو الإمام: «**التسبيح للرجال والتصفيق للنساء**»[1].

[قلت:] وكيف يحلُّ للرجل النظر إلى زوج أخيه؟ وكيف يأمر أبوهما أو أمُّهما بذلك؟ وكيف يرضى أحد الزوجين بذلك؟!.

[فقه] وفي ذكر الزينة في مواضع من هذه الآية إشارة إلى أنَّها مباحة للنساء، وأنَّها من شأنهنَّ كما قال الله ﷻ: ﴿أَوَ مَنْ يُّنَشَّؤُاْ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [سورة الزخرف: 18] وسواء أكان لهنَّ أزواج أم لم يكونوا، ولا تقصد الرئاء. ولا يحلُّ لهنَّ الحرير والذهب في الإحرام بحجٍّ أو عمرة، وأجيز الحرير للرجل في الحرب، وكذا يسنُّ للرجل التزيُّن بلا إسراف قيل:

تجمل بالثياب ولا تبال ... فإنَّ العين قبل الاختبار
فلو جعل الثياب على حمار ... لقال الناس يا لك من حمار

[فقه] ولا يجوز لباس الحرير بأنواعه للرجل، وكذا ما صوِّر بصورة الحرير من حلفاء وغيرها لأنَّ فيه التخنُّث كالحرير، وكان ابن عمر يقطع علم الحرير من العمامة، وكذا قال جابر بن عبد الله: كُنَّا نقطع أعلام الحرير، وذلك

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب الجمعة، باب التصفيق للنساء، رقم 1145. ورواه **مسلم** في كتاب الصلاة، باب تسبيح الرجل وتصفيق المرأة... رقم 422. من حديث أبي هريرة.

أنَّه ﷺ نهى عن الحرير فاستوى فيه القليل والكثير، وعن أبي أمامة أنَّه أجاز ﷺ ثلاثة أصابع[1]، وعن عمر إجازة الإصبع والإصبعين والثلاث، لأنَّ القليل في حدِّ العفو.

وأجيز تفريشه، ولا يجوز ما فيه صورة من ثياب، لأنَّه ﷺ خرق سترا على باب عائشة رضي الله عنها عليه طيور، وقال: «**إنَّ الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب أو تمثال**»[2] ولعلَّ ذلك ندب، وأجاز بعض ما كان كذلك رقما، ويجوز الاتِّكاء على ما فيه ذلك.

﴿**وَتُوبُواْ إِلَى اللهِ جَمِيعًا اَيُّهَ الْمُومِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ فإنَّكم لا تخلون من ذنب فيما بينكم وبين الله، وفيما بينكم بالقلب أو مع الجارحة، ولا سيما في الكفِّ عن الشهوات فقد تظلم غيرك من جهة ويظلمك من أخرى، وكان ﷺ يقول: «**يا أَيُّهَا الناس توبوا إلى الله، فإنِّي أتوب إليه كلَّ يوم مائة مرَّة**»[3].

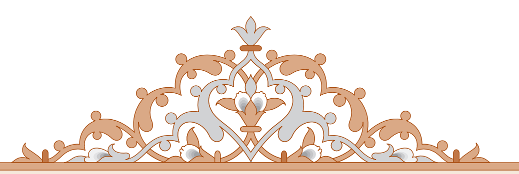
[قلت:] ويجب أو يتأكَّد أو يستحبُّ ـ أقوال ـ أن يتوب المذنب من ذنبه إذا تذكَّره ولو فعله قبل إسلامه.

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب اللباس والزينة. باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء، رقم: 5538. من حديث عمر.

(2) رواه **مسلم** في كتاب اللباس والزينة. باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة، رقم، 5641ـ5642. من حديث أبي طلحة.

(3) رواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم 2702.



﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٣٤﴾

الحكم الثامن والتاسع والعاشر:
تزوج الأحرار ومكاتبة الأرقاء والابتعاد عن الزنا

[فوائد النكاح] ﴿وَأَنكِحُواْ﴾ تحصينا عن الزنى ومقدِّماته، فإنَّ الوطء بالحلال يزيل تعلُّق القلب بالزنى، ويزيل وسواس القلب ويسكن الغضب، وينفع من بعض الفروج فيمن كان طبعه الحرارة، ويصفِّي القلب، ويقال: كلُّ شهوة تقسي القلب إلَّا الجماع، فإنَّه يصفيه، ولذلك تفعله الأنبياء، وذلك كلُّه للرجل والمرأة.

﴿**ٱلۡأَيَٰمَىٰ**﴾ جمع أيِّم، وهو من لا زوج له من الرجال أو النساء، سواء كان له أو لها زوج من قبل وافترقا بوجه أم لا، وقيل: حقيق فيمن كان له وفارقه، مجاز فيمن لم يكن له، ويناسبه قوله ﷺ: «**الأيِّم أحقُّ بنفسها من وليِّها والبكر تستأذن في نفسها وإذنها صماتها**»[1] إذ قابلها بالبكر، ويجوز أنَّه

(1) رواه **الربيع** في كتاب النكاح، باب [24] في الأولياء، رقم 511. و**مسلم** في كتاب النكاح (9) باب استئذان الثيِّب في النكاح بالنطق... رقم 66 (1421)، و**أبو داود** في كتاب النكاح، =

اســتعمل في الحديث في واحد مــن معنيين وضع لهما، كمــا تقول: الزوج والمرأة، مع أنَّ المرأة تسمَّى زوجا حقيقة كالرجل.

[صرف] وهو «فيعل» جمع على «فعالى» شــذوذا، لأنَّ «فيعلا» لا يجمع على «فعالى» بل على «فعايل»، بالياء لأصالتها في المفرد، فقال بعض: أصله «أيايم» بالياء أخِّرت وفتحت الميم تخفيفا فقلبت ألفا لتحرُّكها بعد فتح.

﴿**مِنكُمْ**﴾ حال، و«مِنْ» للتبعيض، أو متعلِّق بـ«أَنكِحُوا» و«مِن» للابتداء، أي زوِّجوهم منكــم لا من العبيــد والإماء، وأهــل الكتاب مــا وجدتم، أو زوِّجوهم أزواجا ثابتين منكــم ﴿**وَالصَّالِحِينَ**﴾ في الديــن أو للنكاح والقيام بحقوقه ﴿**مِنْ عِبَادِكُمْ**﴾ مماليككم الذكور ﴿**وَإِمَآئِكُمْ**﴾ والخطاب للسادات.

[فقه] والأمر هنا لمطلق الزجر عن العزم والقصد إلى ترك الإنكاح البتَّة، وهذا المعنى صالح للوجوب، كما إذا طلبــت المرأة التزوُّج من كفئها فيجب على الوليِّ تزويجها، سواء أكانت ثيِّبا، وهي من تزوَّجت قبل وفارقت، زالت عذرتها أو لم تزل، أم بكرا وهي من لم تتزوَّج ولو زالت عذرتها.

[فقه] و[المعنى] صالح لعدم الوجوب كالتوسُّط في التزويج بالأمر به، وبالإعانة فيه، كتزويج السَّــيِّد عبده أو أمته، وقيل: يجــب تزويجهما عليه إذا طلبا، وهو مذهبنا المشــهور وعليه فالأمر للوجوب، على أنَّ المراد بالأيامى الإناث يجب على أوليائهــنَّ تزويجهنَّ إذا طلبن كفأهــنَّ أو لم يطلبن، وكان عدم التزوُّج فسادا لهنَّ، إلَّا إن أَبَيْنَ فلا جبر ولو كان الأيامى فقراء.

﴿**إِنْ يَّكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ**﴾ الضمير للأيامى فلا يقول الوليُّ: لا أزوِّجك لأنَّــك لا تجدين مالا، ولا تقل للرجل: لا تتــزوَّج لأنَّك فقير؛ أو

= باب في الثيِّب، رقم 2098. **والترمذي** في كتاب النكاح (18) باب ما جاء في استئمار البكر والثيِّب، رقم 1108، من حديث ابن عبَّاس.

الضمير للأيامى والعبيد والإماء، والمعنى: إن تعلَّلتم بأن لا تتزوَّجوا الإماء والعبيد لأنَّه لا مال لهم، وأنَّه إن متُّم بقوا فقراء، أو أعتقتموهم بقوا فقراء، أو بقولكم: لا مال لنا وهم معنا فقراء بفقرنا فإنَّ الله تعالى يغنيهم من فضله.

قال ﷺ: «**ثلاثة حقٌّ على الله تعالى عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله**»[1]. وشكا إليه رجل الفقر فأمره بالتزوُّج وقال: «**التمسوا الرزق بالنكاح**»[2] وقال عمر: «ابتغوا الغنى في الباءة»، وقال الصدِّيق بالمعنى: «أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى»، وقرأ: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وذلك أنَّ الزوج تعينه بكسبها وكذا ينفعه أهلها وأحبابها، وشاهدت رجالا قامت بهم أزواجهم، والولد أيضا يعين وهو يحصل بالتزوُّج ويزيد اهتمامه واجتهاده في الكسب للنفقة عليها فيحصل له رزق، وإن قيل: وجدنا بعضا تزوَّج ولم يستغن، فقد قال الصدِّيق: أطيعوا الله فيما أمركم به ينجز لكم ما وعد.

﴿**وَاللهُ وَاسِعٌ**﴾ ذو سعة في المال لا يعجزه إغناء الخلق كلِّهم، ولا ينفدُ ما عنده ﴿**عَلِيمٌ**﴾ بالمصالح، لا يقال هنا: عليم بمن يبسط له ومن يقدر، لأنَّ قولك ينافي قوله: ﴿**يُغْنِهِمُ اللهُ**﴾.

﴿**وَلْيَسْتَعْفِفِ**﴾ أي يكفّ النفس عن الزنى ومقدِّماته بالصوم كما في الحديث، وبما أمكن كالجوع وكالاشتغال بالعبادة، وعن كسب المال الحرام للتزوُّج ﴿**الذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا**﴾ أسبابه أو ما ينكح به من المال.

---

(1) رواه **الترمذي** في كتاب الجهاد (20) باب ما جاء في المجاهد والناكح والمكاتب وعون الله إيَّاهُم، رقم 1655، مع تقديم وتأخير. **والنسائي** في كتاب النكاح (5) باب معونة الله الناكح الذي يريد العفاف، رقم 3218، من حديث أبي هريرة.

(2) أورده **السيوطي** في كتابه جمع الجوامع: ص4143. وأورده **الآلوسي** في تفسيره: مج 6، ص149. وقال: أخرجه الثعلبي والديلمي عن ابن عبَّاس.

[صرف] نكاح: كركاب بمعنى ما يركب، أو امرأة منكوحة ككتاب بمعنى مكتوب، ولا ينافيه قوله ﷻ: ﴿**حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾ لأنَّ المعنى عليه: حتَّى يغنيهم من فضله بوجودها، أو بوجود مال يتزوَّجها به.

[فقه] وإن خاف الزنى لو لم يتزوَّج، والجور بمنع الإنفاق عليها إن تزوَّج، تزوّج وعالج الإنفاق، كذا قال بعض قومنا، [قلت:] وعدمه أولى عندي، بل أوجب، لقوله ﷺ: «**فليصم فإنَّ الصوم له وِجاء**»[1]، وحقُّ المخلوق كالإنفاق مقدَّم، وإن كان لا يجده فليترك التزوُّج.

﴿**وَالذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ**﴾ مصدر كاتَب يكاتب، يطلبون أن يقع الكتب بينكم، بأن تبيعوا لهم أنفسهم فيكونون أحرارا بثمن. تكتبون: إنَّه يؤدِّي كذا وقت كذا، وكذا وقت كذا، وجاز لوقتين فصاعدا، أو لوقت، أو نقدا، فإن لم يجدوا التزوُّج قبلُ وجدوه إذا كوتبوا.

[فقه] وهم أحرار من حينهم، عليهم دين لمكاتبهم، وأمَّا قوله ﷺ: «**المكاتب عبد ما بقي عليه [من كتابته] درهم**»[2] ففيما إذا قال السَّيِّد: إذا أعطيتني كذا فأنت حرٌّ، وإلَّا فهو كسائر المبيعات يملكها من اشتراها من حين البيع.

﴿**مِمَّا مَلَكَتَ اَيْمَانُكُمْ**﴾ من عبيد أو إماء. وفي «الذِينَ» تغليب الذكور.

[سبب النزول] وأوَّل من كاتب عبد الله بن صبيح، سأل سيِّده حويطب بن عبد العزَّى المكاتبة فأبى، فنزلت الآية، ويقال: أوَّل من كاتبه المسلمون عبد لعمر رضي الله عنه يسمَّى أبا أميَّة.

ولفظ الكتابة إسلاميٌّ لا يعرف في الجَاهِلِيَّة.

---

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 1، ص 349.

(2) رواه **أبو داود** في كتاب العتق، باب في الكتاب يُؤَدِّي بعض كتابته... رقم 3926، من حديث عبد الله بن عمرو.

﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ الفاء في خبر المبتدأ لشـبهه باسـم الشرط في العموم، أو صلة على أنَّ «الذِينَ» منصوب على الاشتغال لِئَلَّا يخبر بالأمر. والأمر للندب على الصحيح، وقيل: للوجوب كما قال أنس: سـألني سيرين الكتابة فأبيت فشكا إلى عمر فأقبل عليَّ بالدرَّة وتلا: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ...﴾ وقال: كاتبه أو لأضربنَّك بالدرَّة، وهو ظاهـر الأمر، لأنَّ أصله الوجوب، وإن لم يطلبوا المكاتبة فلا وجوب ولا ندب.

و«خير» أمانة وقدرة على الكسب، كما فسَّره ﷺ بهما، وفي رواية: إن علمتم حرفة، فيزاد على هذه الرواية: أمانة، كما في الرواية الأولى، لأنَّ الحرفة لا تنفعه مع الخيانة، فإنَّه معها يماطله أو لا يعطيه البتَّة، ولم يشترط بعضهم الأمانة.

وفسَّـر بعضهم الخير بالمال، وفيه أنَّـه لو كان كذلك لقيـل: إن علمتم عندهم خيرا، وأجيب بأنَّ المراد: قدرة على الكسـب، فعبَّر بما هو المقصود الأصليُّ، وفيه تكلُّف.

وقيل: **الصلاح، وهو وجيه**، فإن لم يعرف الصلاح لم يجب ولم يندب إليه، لأنَّه قد لا يفي بالمال، ويناسبه قول بعض: إنَّه أن لا يَضُرَّ المسلمين بعد الكتابة.

﴿وَءَاتُوهُم﴾ يا ساداتهم ندبا، كما يؤمر الإنسان بالصدقة النافلة، وبالحطِّ للبعض عن غريمه، وَعَمَّن اشـترى عنـه إن كان ذا احتياج، وقال الشَّـافِعِيَّة: وجوبا ويردُّه أنَّه عقد معاوضة، فما الحطُّ عنه إلَّا كالحطِّ عن المشتري.

﴿مِّن مَّالِ اللهِ الذِي ءَاتَاكُمْ﴾ ما تيسَّـر، وعنه ﷺ: «**ربع ما كوتب به فيردُّه إلى السَّـيِّد**»[1] والحطُّ أولى من الإيتاء، ثمَّ الردُّ وهو إيتاء، وأولى، لأنَّه إنجاز ولأنَّه لو أعطاه لتبادر أن يصرفه لحاجته ولا يردُّه، ولأنَّه المأثور عن الصحابة.

(1) رواه **الحاكم** في المستدرك، كتاب التفسير تفسير سـورة النور، رقم 638/3501 بلفظ «يترك للمكاتب الربع»، من حديث عليّ.

قال بذلك عليٌّ، وهو راوي هذا الحديث، وهو المشهور، وعليه الأكثر مِمَّن حدَّ، وابن مسعود بالثلث، وابن عمر بالسبع، وقتادة بالعشر.

وقيل: الخطاب للولاة، وأنَّ الإعطاء لهم مِمَّا لهم من الزكاة والغنائم. وأضاف المال إلى الله تسهيلا لصرفه وتذكيرا بأن يعطوا كما أعطاهم.

﴿**وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَاتِكُمْ**﴾ إماءكم، سمَّاهنَّ فتياتكم وإماءكم وسمَّى العبيد عبادكم، ومثله عبيدكم، والكلُّ جائز لنا.

واختار لنا رسول الله ﷺ الفتى والفتاة إذ قال على سبيل الكراهة لا التحريم: «**لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي ولكن: فتاي وفتاتي**»(1)، كره لفظ العُبُودِيَّة لغيره تعالى.

﴿**عَلَى الْبِغَآءِ**﴾ الزنى ﴿**إِنَ اَرَدْنَ تَحَصُّنًا**﴾ عبَّر بـ«إن» الشكِّيَّة لا بـ«إذا» التحقيقية لقلَّة التحصُّن في الإماء، حتَّى كأنَّه مِمَّا يشكُّ فيه هل يقع؟ ولا مفهوم لها، لأنَّ الإكراه لا يتصوَّر مع عدم إرادة التحصُّن ولا حيث لم يثبت إرادة التحصُّن ولا عدمها، وإنَّما يتصوَّر مع إرادة التحصُّن، فكان الكلام على ذلك، فإنَّ الإكراه على الزنى وهي تحبُّه كتحصيل الحاصل، كيف وتحريم الزنى مطلقا موجود!.

﴿**لِّتَبْتَغُواْ**﴾ لتكسبوا من زناهنَّ ﴿**عَرَضَ**﴾ مال ﴿**الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا**﴾ وأولادها، كانوا في الجَاهِلِيَّة يملكون الإماء للزنى، فيأخذون أجرته ويملكون أولادهنَّ ويجاملون بهنَّ الأضياف والأحباب.

[سبب النزول] وكان لعبد الله بن أُبي بن سلول ستُّ جوار ضرب عليهنَّ خراجا للزنى، معادة ومسيكة وأمامة وعمرة وأورى وقتيلة، وأمر معادة

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق، رقم 2414. **ومسلم** في كتاب الألفاظ من الأدب، باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة... رقم 15 (...) من حديث أبي هريرة.

بالذهاب إلى ضيفه لذلك، فشــكت إلى الصدِّيق ﵁ ، فأخبر رســول الله ﷺ فنهاه عن إرســالها للزنى وعن إباحته، فصاح: «من يعذرنا مــن محمَّد يغلبنا على مماليكنا» وشكت أميمة ومســيكة إليه ﷺ أيضا، وحصل له من إحداهنَّ أولاد، ولَمَّا حرم الزنى تركته وضربها، وقالــت: والله لا أزني، فنزل في ذلك كلِّه قوله ﷻ: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَاتِكُمْ﴾...الآية.

﴿وَمَــنْ يُّكْرِهُّنَّ﴾ على الزنــى ﴿فَإِنَّ اللهَ مِــنۢ بَعْدِ إِكْرَاهِهِــنَّ﴾ عليه في الجَاهِلِيَّة ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ له ولها إذ أسلما، «والإسلام جبٌّ لِمَا قبله» ومن لم يسلم منهما فلا معفرة له ولا رحمة، وقيل: المراد غفور رحيم لهنَّ، لأنَّ فرض الكلام في امتناعهنَّ عن الزنى لتحريمه فهنَّ التائبات دون ساداتهنَّ.

[نحو] ولا بدَّ من عود الضمير عند قوم من النحاة من الجواب إلى اســم الشــرط الواقع مبتدأ، وهنا محذوف تقديره: من بعد إكراههــم إِيَّاهُنَّ، حذف وأضيف المصدر إلى المفعول، وســوَّغ ذلك أنَّه قد تقدَّم إسناد الإكراه إليهم في قوله: ﴿وَمَنْ يُّكْرِهُّنَّ﴾ وكأنَّه قيل: فإنَّ الله من بعــد إكراهه المعهود إيَّاهَا، فليس كقولك: هند عجبنا من ضرب زيد، أي من ضربها زيدا.

﴿وَلَقَدَ انزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ في هذه الســورة أو في القــرآن ﴿ءَايَاتٍ مُّبَيَّنَاتٍ﴾ موضحات في الأحــكام والحدود لم نجعــل فيهنَّ خفاء، ويجــوز أن يكون المراد مبيَّنا ـ بفتح الياء ـ فيهنَّ الأحكام والحدود، فكان الحذف والإيصال.

﴿وَمَثَــلاً مِّنَ الذِينَ خَلَــوْاْ مِن قَبْلِكُــمْ﴾ كلاما يجري مجــرى المثل في الحسن، إذ قيل في عائشة ما قيل في يوسف ومريم فبرَّأها كما برَّأهما.

﴿وَمَوْعِظَةً﴾ تنزجرون بها مثل: ﴿لَا تَاخُذْكُــم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ...﴾، ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَــمِعْتُمُوهُ﴾ [ســورة النور: 12 و16] ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ خصَّهم بالذكر لأنَّهم المتأثِّرون بها.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿35﴾﴾

الله منور السماوات والأرض بدلائل الإيمان وغيرها

﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ أي الظاهر فيهنَّ كظهور النور في الظلمة وإظهاره غيره في الظلمة بإيجادهنَّ وإيجاد ما فيهنَّ، والتصرُّف في الكلِّ والإبقاء والإفناء، وإرسال الرسل وإنزال الكتب، والهداية لمن فيهما إلى صلاح الدين والمعاش ولولا فعله ذلك كنَّ مظلمات ظلمة حسِّيَّة وعقليَّة كعدم الشمس ونحوها، وكالجهل والجور.

أو المعنى: ذو نور السماوات والأرض، ونورهنَّ هو الحقُّ والهدى، كما قيل: ﴿نُورُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ﴾: هاديهما، أي هادي من فيهما، وقد قال الله ﷻ: ﴿يُخرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [سورة البقرة: 257] أي من الباطل إلى الحقِّ وقال: ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَّشَآءُ﴾ وأضاف النور إلى السماوات والأرض للدلالة على سعة إشراقه وإضاءته، كأنَّهنَّ أضأن به إضاءة حسِّيَّة مالة لهنَّ.

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ بمعناه المذكور، وعن ابن عبَّاس: النور هنا القرآن وذلك كقوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [سورة النساء: 174] وقيل: محمَّد ﷺ

﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ كنور مشكاة، أي النور الذي فيها، وضوء المشكاة أقوى لأنَّه يجتمع منعكسا بخلاف الضوء في بسيط من الأرض.

[بلاغة] وذلك تشبيه للمعقول بالمحسوس، وهي فسحة في نحو حائط غير نافذة، وهو عربيٌّ أصله مشكوة قلبت الواو ألفا لتحرُّكها بعد فتحة، وقيل: حبشيٌّ عرِّب، وقيل: روميٌّ عرِّب. وفي الآية تشبيه الأعلى بالأدنى.

قال أبو تمام يمدح المأمون:

إقدام عمرو في سماحة حاتم　　في حلم أحنف في ذكاء إيَّاس

فقيل له: إنَّ الخليفة فوق من مثَّلته بهم فقال:

لا تنكروا ضربي له من دونه　　مثلا شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقلَّ لنوره　　مثلا من المشكاة والنبراس

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [سورة الرحمن: 58].

﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ سراج كبير، وقيل: فتيلة ﴿الْمِصْبَاحُ﴾ المذكور ﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾ صافية زهراء ﴿الزُّجَاجَةُ﴾ المذكورة ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ منسوب إلى الدرَّة الصافية المنيرة.

[صرف] أو إلى الدُّرِّيءِ بهمزة قلبت ياء، وأدغمت فيها الياء، من الدرء بمعنى الدفع، يدفع الظلمة، ولكن «فُعِّيل» ـ بضمِّ الفاء وكسر العين مشدَّد وإسكان الياء ـ قليل، ورد منه: ذُرِّية وسُرِّية وعلِّية ومرِّيق لحب العصفر والفرس السمين، ومرِّيخ لِمَا في داخل القرن. وقيل: أصله درُّوء كسبُّوح قلبت الضمَّة كسرة للثقل، فالواو ياء والهمزة ياء، وكذا قيل في ذرِّية وسرِّية قلبت الضمَّة كسرة والواو ياء. وقيل: السُّرِّية نسب إلى السِّر بالكسر، بمعنى النكاح أو الإخفاء، فضمَّ شذوذا، كما قيل: في ذرِّية نسب إلى الذرِّ إذ خرجوا من آدم كالذرِّ، وضمَّ شذوذا.

﴿**يُوقَدُ**﴾ أي المصباح، فالجملــة خبر ثان للمصباح، أو حال مفصول، أو مستأنفة ﴿**مِن شَجَرَةٍ**﴾ من زيت شجرة بواســطة فتيلة ﴿**مُّبَارَكَةٍ**﴾ كثَّر الله فيها المنافع وأنبتها في الأرض التي بارك فيها للعالمين، وبارك فيها سبعون نبيئا، منهم إبراهيم عليه السلام ﴿**زَيْتُونَةٍ**﴾ شجرة الزيت، بدل من «شَجَرَةٍ»، أو عطف بيان منها على جوازه في النكرات.

قال ﷺ: «**اِئتَدموا بالزيــت وادَّهِنُوا به فإنَّه من شــجرة مباركة**»[1] قالت عائشــة رضي الله عنها: «كان رســول الله ﷺ يأمر بأكل الزيت والادهان به والسعوط، ويقول: **إنَّه من شــجرة مباركة**» وعنه ﷺ يأكل الخبز به، وعنه: «**إنَّه مصحة من البواســير**»، وروي أنَّه أكل لســان شــاة مطبوخ بالشــعير وفيه الزيت والتوابل.

[نحو]﴿**لَّا شَــرْقِيَّةٍ**﴾ عطف على محذوف، أي متوسّطة لا شَرْقِيَّة، وقيل: مجموع «لا» ومدخولها نعت «شَــجَرَةٍ» ظهر الإعراب فيما بعدها، وقيل: هي اسم بمعنى غير مضاف لِمَا بعده، نعت «شَجَرَةٍ»، أي غير شَرْقِيَّة.

﴿**وَلَا غَرْبِيَّةٍ**﴾ فهي متوسّطة في البستان ضاحية للشمس لا تحجب عنها، وذلك أجود وأكثر لزيتها.

وقيل: ليســت من شجر الغرب ولا من شجر الشــرق بل من شجر وسط الأرض وهو الشام، وزيته أجود زيت.

وقيل: ليســت في موضع تصيبه الشــمس خَاصَّةً، ولا في موضع يصيبه الظــلُّ خَاصَّةً، بل فــي موضع يصيبانه، تصيبه الشــمس عنــد طلوعها وعند غروبها، فهي شَرْقِيَّة غَرْبِيَّة، وقيل: في وسط البستان.

---

(1) رواه **الحاكم** في مستدركه، كتاب الأطعمة، رقم: 7142. عن عمر.

وقيل: من شـــجر الجنَّة لا في الدنيا، وما في الدنيا غربيٌّ أو شرقيٌّ لا بدَّ، أي لا في شـــرق الأرض ولا في غربها. ﴿**يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْــهُ نَارٌ**﴾ لشدَّة صفائه.

[نحو] الواو الداخلة على «لَـوْ» وإن الوصليتين عاطفة على محذوف، مقابل لِمَا بعدهما، ولو كان لا يذكر، ولا بـأس أن تقول لنا معطوف عليه، محذوف أبدا، وهو هذا الباب، أي لو مَسَّــته نار ولو لم تمسسه نار. ويقال: ترتُّب الجزاء على المعطوف عليــه يغني عن ذكره، حتَّى إنَّ ذكره كالتكرار، ولا وجه لجعلها حالية، لأنَّه لا خارج للشرط، يُقيِّده به فضلا عن أن تكون حالية، وليســت حاليــة مؤكِّــدة لصاحبهــا أو عاملها، وعــن قولهم: واو الاســتئناف وواو الاعتراض، لأنَّ الاعتراض ليس من معاني الحروف ولا الاســتئناف كما زعمــوا. ولا يصحُّ جعــل الجملتين حالا كمــا قيل، لأنَّ الشرطية تعطِّل ذلك.

﴿**نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ**﴾ أي هــو نور عظيم ثابت على نــور عظيم، والمراد: النور المذكور في قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّــمَاوَاتِ وَالَارْضِ**﴾ والمعنى: نور متضاعف مــن غير تحديــد، ومعنى الاســتعلاء بـ«عَلَــى» الصحبة والترادف بلا غاية.

﴿**يَهْدِي اللَّهُ**﴾ هداية توفيق لا هداية بيان فقط ﴿**لِنُورِهِ مَنْ يَّشَــآءُ**﴾ هدايته بالتوفيق وإخــلاص العمل ﴿**وَيَضْــرِبُ اللَّهُ الَامْثَالَ لِلنَّاسِ**﴾ شــأنه في القرآن ضرب الأمثال أي وضعها للإفهام، لأنَّ فيها دخلا عظيما في الإرشاد، **كما برز في الآية المعنى المعقول في صورة المحسوس**، لا يخفى أنَّ دلائل الله كالقرآن كالنور في الوضوح والإيضاح.

﴿**وَاللَّهُ بِكُلِّ شَــيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ من كلِّ من يســتحقُّ الهداية التوفيقيَّة، ومن لا يستحقُّها، وما يعقل وما يحسُّ وما يظهر وما يبطن.

﴿فِي بُيُوتٍ اَذِنَ اَللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْاَصَالِ (36) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اِللَّهِ وَإِقَامِ اِلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ اِلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ اِلْقُلُوبُ وَالْاَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اُللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَّشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38)﴾

من صفات المؤمنين المهتدين بنور الله تعالى

﴿فِي بُيُوتٍ اَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالَاصَالِ رِجَالٌ﴾.

[نحو] «فِي بُيُوتٍ» نعت لـ«مِشْكَاةٍ»، أو من باب الاشتغال. والاشتغال أبدا من باب التوكيد، أي يسبِّح في بيوت، والشاغل «ها» من قوله: ﴿فِيهَا﴾، كقولك: في الدار جلست فيها، وبزيد مررت به، وذلك من تأكيد الحدث، وإن أريد تأكيد غيره جعلنا «فِي بُيُوتٍ» متعلِّقا بـ«يُسَبِّحُ» المذكور، و«فِيهَا» توكيدا لقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾، وفي المثال [السابق]: تعلَّق «بزيد» بـ«مررت» المذكور، ونجعل «به» تأكيدا لـ«زيد».

[نحو] ولا يعترض بأنَّ الضمير ضعيف لا يؤكِّد الأقوى، لأنَّا نقول: باب التوكيد أوسع، يصدق بذكر أدنى شيء يستغنى عنه، بل التوكيد والمؤكَّد الجارُّ والمجرور لا المجرور وحده، ولا تتوهَّم أنَّ الحرف ومجروره بدل من الحرف ومجروره بل تأكيد، كقولك: في الدار في الدار، وبزيد بزيد، لأنَّ الضمير بمنزلة مرجعه، ولا تقلِّد ما يخالف ذلك ويبعد تعليقه بـ«يُوقَدُ».

والمـــراد بـ«بُيُوتٍ» بيوت مخصوصة، وهي المســـاجد الإِســـلاَمِيَّة في الأمم الســـالفة، وهـــذه الأمَّـــة ومقابلها مســـاجد الكفر، وبيوت الســـكنى ونحوهـــا، لا خصوص مواضع الســـجود، مـــن القدس والمســـجد الحرام ومسجد المدينة ومسجد قباء.

ومعنى ﴿اَذِنَ اللّهُ أَن تُرْفَعَ﴾: أمر بتعظيمهـــا، كصيانتها من دخول الجنب والحائض والنفســـاء والأقلف والسكران بمحرَّم، وعن مسِّـــهم إِيَّاهَا ولو من خارج، واســـتنادهم عليها من خارج، ودخول الصبيـــان والمجانين، وإدخال الميِّت، قال ﷺ: «**جنِّبوا مســـاجدكم صبيانكم ومجانينكم، وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وســـلَّ سيوفكم، واتَّخذوا على أبوابها المطاهر وجمِّروها في الجمع**»[1].

وقيل: رفعها بناؤها، كقوله تعالى: ﴿أَمِ السَّمَآءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [ســـورة النازعات: 27ـ28] وقـــال ﷻ: ﴿وَإِذْ يَرْفَـــعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِـــنَ البَيْتِ﴾ [سورة البقرة: 127].

ولا يسرف في تزيين المســـجد بالنقش، وليس ذلك من رفعه المأمور به، ومن الإســـراف نقش جامع قرطبة بالذهب. وقيل: مكتوبا بـــه القرآن كلُّه في ســـواريه، وهي نحو تســـع مائة ســـارية من الرخام الفائق. وإنفاق الوليد بن عبد الملك في عمارة جامع دمشق مثل خراج الشام ثلاث مرَّات فيما قيل.

[قصص] وروي فيمـــا قيل: إنَّ ســـليمان بالغ في تزييـــن بيت المقدس وعمارته، وأقام في عمارته كذا وكذا ألف رجل في ســـبع سنين، ووضع آجرة من الكبريت الأحمر على رأس قبَّة الصخرة، تغزل النساء في ضوئها ليلا على اثني عشر ميلا!.

---

(1) رواه **ابن ماجه** في كتاب المســـاجد والجماعات (5) باب ما يكره في المســـاجد، رقم 750. من حديث واثلة بن الأسقع.

وفعل النبيء ليس إسرافا. وليس إسرافا بناء عثمان مسجد النبيء ﷺ بالساج، وكذا بالغ عمر بن عبد العزيز في تزيينه ونقشه ولم ينههما أحد، وعنه ﷺ: «**ما ساء قوم قطُّ إلَّا زخرفوا مساجدهم**»[1].

وعن ابن عبَّاس: «أمرنا أن نبني المساجد جمَّاء» وجاءت الأنصار بمال فقالوا: يا رسول الله زيِّن به مسجدك فقال ﷺ: «**إنَّ الزينة والتصاوير للكنائس والبيع**» بيِّضوا مساجد الله تعالى[2].

[من آداب المسجد] ومن شأن المسجد أن يعمَّر صفُّه الأوَّل حتَّى يفرغ ثمَّ الثاني وهكذا، وإذا دخل رجل قصد يمين المحراب من الصفِّ الأوَّل، والثاني يساره، والثالث مقابله، والرابع حيث شاء، ولا يجزي عمارة في موضع من غير الصفِّ الأوَّل عن موضع في الصفِّ الأوَّل، فإذا كان في اليمين أحد في غير الأوَّل وجاء آخر قصد اليمين من الأوَّل، لأنَّ المعتبر في التقديم هو الأوَّل حتَّى يتمَّ في صلاة الصفِّ، وإن كانت فيه محاريب اعتبر الذي يصلِّي فيه الإمام في الحال. وقال ﷺ: «**من رأيتموه ينشد شعرا في المسجد فقولوا له: فضَّ الله تعالى فاك ثلاث مرَّات، ومن رأيتموه ينشد ضالَّة في المسجد فقولوا: لا وجدتها ثلاث مرَّات**»[3] ويستثنى شعر العلم والحكمة والوعظ والمدح النبوي.

قال ﷺ: «**إذا وجد أحدكم القملة في المسجد فليصرَّها في ثوبه حتَّى يخرجها**»[4]. ويمنع من دخول ذي البصل والثوم والكراث والبخر والصنان

---

(1) رواه **ابن ماجه** في كتاب المساجد والجماعات (2) باب تشييد المساجد، رقم 741.

(2) لم نقف على تخريجه.

(3) رواه **الطبراني** في الكبير: ج 2، ص 104، رقم 1454. **والهيثمي** في المجمع، ج 2، ص 25. مع زيادة: «ومن رأيتموه يبيع ويبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك» كذلك قال لنا رسول الله ﷺ.

(4) أورده **السيوطي** في الدر، وعزاه إلى ابن أبي شيبة وأحمد. عن رجل من الأنصار. ج6 ص204.

في المســـاجد، واتِّخاذها طريقا، والمكث فيها، أو المــرور بلا ركعتين، ومن تعظيمها: تقديم اليمنى دخولا واليسرى خروجا.

قال بعض الصحابة: إذا طلع شيء من الصدر أو نزل من الرأس ولم يبزقه في الأرض ولا في ثوبه بل بلعه احتراما للمســجد أدخل الله في جوفه الشفاء وأخرج منه الداء، وهل له البصاق في الصلاة في أرض المسجد يسارا وتحت قدمه؟ قيل: نعم، ويصلح ذلك بعد الســلام، وقيل: لا إلَّا في ثوبه، وعن أبي هريرة مرفوعا: «**إن لم يجد موضعا في المسجد فليبصق في ثوبه وليحكَّه**»[1].

[لغة] و«الغُدُوُّ» مصــدر بمعنى الزمان، و«الآصَــال» جمع أصل بمعنى أصيل كعنق وأعناق، أو جمع أصيل كشريف وأشــراف على خلاف القياس، والغدوُّ من أوَّل النهار إلى الــزوال، والأُصْل من الزوال إلى الصبح، وعن ابن عبَّاس: الغدوُّ وقت الضحى، وأنَّ صلاة الضحى من هذه الآية.

وخصَّ الرجال بالذكر لأنَّهم أحقُّ بعمارة المساجد، قال ﷺ: «**خير مساجد نســائكم قعر بيوتهنَّ**»[2]. ﴿**لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ**﴾ معاوضة بِأَيِّ وجه ﴿**وَلاَ بَيْعٌ**﴾ تخصيص بعد تعميم، أو التجارة: المعاوضة بالربح، والبيع: المعاوضة مطلقا، فهو تعميــم بعد تخصيــص، أو التجارة: الشــراء لأنَّه مبدأ لهــا، أو التجارة: الجلب، فلا تخصيص ولا تعميم.

وفي الآيــة مدح لمن يجمــع بين العبادة والكســب، ويجــوز أن يكون المعنى: من لا يتَّجر ولا يبيع فضلا عن أن يلهيهم ذلك، كأهل الصفَّة، **والأوَّل أولى لأنَّه ظاهر العبارة**، وأهله الفاعلون له أكثر، وهو قول الحسن البصري إذ

---

(1) لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ، وفي معناه مــا رواه **ابن خزيمة**، باب الأمر بإعماق الحفر للنخامة في المسجد، رقم: 1310. من حديث أبي هريرة.

(2) رواه **البيهقي** (الكبرى) كتاب الصلاة (762) باب خير مساجد النساء قعر بيوتهنَّ، رقم 5360. و**الحاكم** في مستدركه كتاب الصلاة، ج 1، ص 327، رقم 756 (73)، من حديث أمِّ سلمة.

قال: كانــوا يتَّجــرون ولا تلهيهم تجارة عــن ذكر الله تعالى، قلــت: بل الآية تشملهما بمعنى أنَّها إمَّا أن تكون ولا تشغلهم وإمَّا أن لا تكون.

﴿**عَن ذِكْرِ اللهِ**﴾ بتلاوة القــرآن وغيرها ﴿**وَإِقَامِ الصَّلَــوٰةِ**﴾ في أوَّل وقتها بالطهارة والخشوع والإخلاص.

[صرف] والأصل: «إقوام» نقلت فتحة الواو إلى القاف فحذفت للســاكن بعدها، ولم تعــوض التاء عنها لقيام الإضافة مقامهــا، وقيل: بجواز ترك التاء ولو بلا إضافة.

﴿**وَإِيتَآءِ الزَّكَوٰةِ**﴾ جزءا من المال مخصوص من الحبوب الســتِّ والنقد والأنعام لبلوغ النصاب، فطاعتهم لا تختصُّ بالمســجد، وذكرت الزكاة على عادة الله ﷻ في قرنها بالصلاة، وكذا خوفهم لا يختصُّ به.

﴿**يَخَافُونَ**﴾ أينما كانوا ﴿**يَوْمًــا**﴾ هول يوم، أو عذاب يوم، والجملة نعت رجال، أو حال من الهــاء ﴿**تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالَابْصَــارُ**﴾ نعت «يَوْمًا» وهو يــوم القيامة، تضطرب فيه القلــوب والأبصار بتوقُّع النجــاة وخوف الهلاك، والنظر يمينا وشمالا إذ لا يدرون من أين يؤتون، ولا في أيِّ يد يعطون كتبهم، وبعلم ما لم يعلموا مشــاهدة، ورؤية ما لم يروا ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الَابْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [سورة الأحزاب: 10] وكأنَّه قيل: تتقلَّب فيه القلوب ببلوغها إلى الحناجر، والأبصار بالشخوص والزرقة.

أو تتقلَّب القلوب إلى الإيمان بعد الكفر، والأبصار إلى العيان بعد إنكاره للطغيان، ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [سورة ق: 22].

﴿**لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ**﴾ متعلِّق بـ«يُسَبِّحُ» أو بعلم يعمُّ تلك الأفعال، أي يعملون ذلك ليجزيهم الله ﴿**أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ**﴾ ولا يتعلَّق بـ«يَخَافُونَ» لأنَّ الخوف غير اختياريٍّ فلا يعلَّل بذلك إلَّا على معنى فعــل مقدِّماته، أو تجعل اللام للعاقبة

إذا علّقت به. و«مَا» اسم، أو مَصدَرِيَّة، أي أحسن جزاء الأعمال التي عملوها، أو جزاء أعمال عملوها، أو جــزاء عملهم، وذلك هو الحســنة على ما نووا، وعشر إلى سبعمائة وأكثر على ما عملوا، والنية عمل أيضا بالقلب.

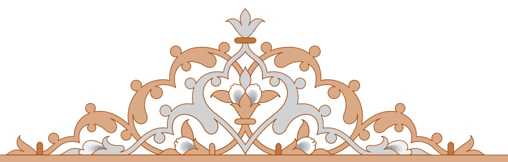
﴿**وَيَزِيدَهُم مِّــن فَضْلِهِ**﴾ ما لا يعلمه إلَّا الله ولم يخطــر ببال أحد، لا في مقابلة أعمالهــم وقد علمــوا أنَّ لله زيادة وقــد عملوا لها، لكــن لا يعلمون حقيقتهــا، أو علموا بعضا دون بعض وقــد رجوها، قال الله تعالــى: ﴿لِلذِينَ أَحْسَــنُواْ الْحُسْــنَىٰ وَزِيَــادَةٌ﴾ [ســورة يونس: 26] وقال تعالى: «**أعــددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[1].

﴿**وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَّشَــآءُ بِغَيْرِ حِسَــابٍ**﴾ أي يرزقهــم، وأظهر في موضع الإضمار إعلاما بأنَّه يعطيهــم على أعمالهم فضلا منه لا اســتحقاقا بها، كما روي أنَّه يحاســبهم على نعمه حتَّــى يتَّضح لهــم أنَّ عبادتهم لــم تف بها، فيخبرهم أنِّي أعطيكم فضلا منِّي.

[تذكرة] ومن قارب فــراغ عمره ويريد أن يســتدرك ما فاته فليشــتغل بالأذكار الجامعة فتصير بَقِيَّة عمره القصيرة طويلة، مثل أن يقول: ســبحان الله عدد الحصى، أو ســبحان الله عدد ذَرَّات الأجســام والأعراض، وكذا من فاته كثرة الصيام والقيام يشــتغل بكثرة الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله، فإنَّه إن فعل في جميع عمره كلَّ طاعة ثمَّ صلَّى عليه صلاة واحدة رجحت تلك الصلاة الواحدة على كلِّ ما عمله في جميع عمــره من الطاعات، لأنَّك تصلِّي على قدر وســعك، وهو يصلِّي على حســب ربوبيَّته فكيف صلوات؟ ومن صلَّى عليه صلاة واحدة كفاه الله تعالى همَّ الدنيا والآخرة.

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجَنَّة، رقم 3027، من حديث أبي هريرة.



﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿39﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿40﴾﴾

حال الكافرين في الدنيا وخسرانهم في الآخرة

﴿**وَالذِينَ كَفَرُواْ أَعْمَالُهُمْ**﴾ ما يعملونه مِمَّا هو طاعة شَرعِيَّة وما يدَّعونه عبادة وليس عبادة، كفكِّ العاني، وسقاية الحاجِّ، وعمارة البيت، وإغاثة الملهوف، وقري الضيف، وكلطخ البيت بدم الذبائح التي يتقرَّبون بها، ودخول البيوت من غير أبوابها إذا أحرموا، وقولهم: «لبَّيك اللَّهُمَّ لا شريك لك إلَّا شريكا تملكه وما ملك».

﴿**كَسَرَابٍ**﴾ من سَرْب الماء بمعنى جريانه، لأنَّه بخار رقيق يصعد من قيعان الأرض تصيبه الشمس، فيرى من بعيد كأنَّه ماء سارب أي جار، أو ما ترقرق من الهواء وقت شدَّة الحرِّ في الفيفاء المنبسطة، أو شعاع يرى نصف النهار وقت شدَّة الحرّ ﴿**بِقِيعَةٍ**﴾ في أرض مستوية منبسطة لا في هوائها فقط، نعت «سَرَابٍ» ﴿**يَحْسِبُهُ**﴾ يظنُّه.

[لغة] وقيل: الظنُّ أن يخطر الشيئان الجائزان، أو الأشياء الجائزات في القلب، ويرجح أحدهما أو أحدهنَّ. والحسبان: الحكم بواحد دون خطور الآخر، دون أن يصل درجة العلم، ويطلق أيضا على معنى دعوى وصولها.

﴿الظَّمْئَانُ﴾ العطشان ﴿مَآءً﴾ وكذا الريَّان يحسبه ماء إلَّا أنَّه خصَّ الظمآن لأنَّه المتشــوِّف للماء، والجملة نعت آخر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُ﴾ أي جاء الظمآن الماء المحســوب أو الســراب ﴿لَمْ يَجِـدْهُ﴾ أي لم يجد ما حســبه ماء وهو السراب ﴿شَيْئًا﴾ محسوســا ولا معقولا فضلا عن أن يكون ماء، ولو كان في نفس الأمر شيئا وهو البخار المتصعد مثلا، ألا ترى أنَّه يرى من بعيد؟ فلا بدَّ أنَّ له أصلا كما أنَّ للحلقة الحاصلة من إدارة الشعلة بسرعة أصلا وهو الشعلة.

﴿وَوَجَدَ اللَّهَ﴾ مقــدور الله وهو الإهلاك ﴿عِندَهُ﴾ عند الســراب، أي يجد حساب الله عند السراب.

﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ أعطاه حساب عمله كاملا فيعذِّب العذاب المتوقِّف عليه كاملا، ولا يثابون على ما ظنُّوه من الأعمال نافعــا وعبادة في الجملة، لا يوم القيامة، لأنَّه لا يؤمن به، ولكن إذا بعث طمع أن ينفعه ذلك، أو فرض أنَّه إن صحَّــت القيامة نفعنــي فيهــا ذلــك ﴿يَحْسِــبُونَ أَنَّهُــمْ يُحْسِــنُونَ صُنْعًا﴾ [سورة الكهف: 104]، ومثل ذلك في المؤمن قوله تعالى: ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء: 110] أي يجد مغفرته ورحمته.

وقيل: نزلت الآية في عتبة بــن ربيعة بن أميَّة كان يترهَّب فــي الجَاهِلِيَّة ويلبس المســوح، وَلَمَّا جاء الإســلام كفر به. روت صحابة أنَّ الكُفَّار يبعثون يوم القيامة وردا عطاشــا فيقولون: أين الماء؟ فيمثل لهم السراب في الساهرة فيحسبونه ماء فينطلقون إليه فيجدون الله تعالى عنده فيوفِّيهم حسابه، تجرُّهم الزبانية إلى النار وتسقيهم الحميم والغساق. والكلام استعارة تمثيليَّة. ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب عن حساب.

﴿أَوْ كَظُلُمَــاتٍ﴾ «أو» لتقســيم أعمالهم، أو للتنويــع، أو للتخيير، وجه التقسيم أنَّ حســناتهم بعضه كســراب وهو ما كان طاعة لا تنفعهم لشركهم، وكذا لا ينفعهم ما ليس طاعة، وبعضها كظلمات وهو المعصية التي تقرَّبوا بها

إلـى الله ﷻ؛ أو أعمالهم مطلقا كالسـراب فـي الآخرة لعدم النفـع لقوله: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ...﴾ وكالظلمات في الدنيا لخلوّها من نور الحقّ لقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ...﴾ أو شـبَّهها بالسـراب في الدنيا حال المـوت، وبالظلمات في القيامة، كما روي «**الظلم ظلمات**»[1] والتقسيم باعتبار الوقتين.

[بلاغة] ووجه التنويع أنَّ بعضا كسـراب وبعضـا كظلمات، ولا عقاب على ما هو حسـنة، ووجه التخيير ـ علـى جوازه في غير الطلـب ـ أنَّك إن شـبَّهتها بالسـراب أصبت أو بالظلمات أصبت، نحو: زيـد وعمرو كلاهما محتاج، تكرم زيدا أو تكرم عمرا.

﴿**فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ**﴾ ذي لجٍّ، واللجُّ: معظم مـاء البحر وكذا اللجَّة، والأوَّل أولى، لأنَّ الأصل عدم الحذف ولـو اتَّحَدَ المعنى، وفي النسـب إلى اللجَّة حذف التاء ولو كان قياسيًّا شهيرا. ﴿**يَغْشَـاهُ مَوْجٌ**﴾ يغشى هذا البحر جزء منه متحرِّك، فالمغشيُّ أكثر البحر، والغاشـي بعضه وهو الموج ﴿**مِّن فَوْقِهِ**﴾ فوق الموج ﴿**مَوْجٌ**﴾ آخر، مبتدأ وخبـر، والجملة نعت «مَوْجٌ»، أو «مِن فَوْقِهِ» نعت و«مَوْجٌ» فاعل لقوله: ﴿مِن فَوْقِهِ﴾، والمراد تعـدُّد الأمواج، ويجوز أن يكون الموج بالمعنى المصدري فالمغشي كلُّ البحر.

﴿**مِّن فَوْقِهِ**﴾ أي فوق هذا الموج الثاني ﴿**سَـحَابٌ**﴾ سـاتر لضوء النجوم والقمر، كأنَّها بلغت السحاب.

﴿**ظُلُمَاتٌۢ**﴾ هي ظلمات، أو ذلك ظلمـات ﴿**بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ**﴾ كقوله تعالى: ﴿**نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ**﴾ [الآيـة: 35] ﴿**إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ**﴾ من ثيابه أو من حيث هي إلى جهة السماء قرب عينيه ﴿**لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا**﴾ لم يقرب أن يراها فضلا عن أن يراها، فليس يكاد زائدة.

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب المظالم (8) باب الظلـم ظلمات يوم القيامة، رقم 2447. و**الترمذي** في كتاب البر والصلة (83) باب ما جاء في الظلم، رقم 2030، من حديث ابن عمر.

[نحو] وجملة «إِذَا» وشـرطها وجوابها نعت «ظُلُمَاتٌ»، وإنَّما الممنوع أن يكون خبـرا أو حالا أو صلـة أو نعتا أداةُ الشـرط، والشـرط أو كلاهما مع الجواب الذي هو أمر أو نهي أو نحوهما، والرابط محذوف أي إذا أخرج فيها يده. ونفي «كاد» نفيٌ، وإثباتها إثبات.

والنفي في الماضي لا يوجب الإثبات في المسـتقبل، وكذا العكس، وإذا اسـتعمل لم يكد يكون مع أنَّه كان، فمعناه أنَّه وقع بعْدَ مَـا بَعُد من الوقوع، وذلك إن كان دليل الوقوع، ولو قيل هنا: المراد لم يرها إلَّا بعد امتناع شـديد لقيل: أي دليل على ذلك؟.

وشـرط الرؤية أن يكون الرائي في ضوء أو يكـون مَرئِيُّهُ مضيئا ككوكب وكنار في بعيد، وأنت في ظلمة، وأمَّا عدم رؤية النجوم نهارا فلذهاب ضوئها بضوء الشمس عَنَّا، ولو كانت نهارا على حالها ليلا.

﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا**﴾ هـدى ﴿**فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾ هدى من أحد له، أو من لم يكن له هدى في الدنيا فهو يوم القيامة في ظلمة، أو من لم ينوِّره الله يوم القيامة بعفوه لتوفيقه في الدنيا فلا نور له يوم القيامة، أي لا رحمة له.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿41﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿42﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَٰرِ ﴿43﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَٰرِ ﴿44﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿45﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿46﴾﴾

الأدلَّة الكونيَّة على وجود الله وعظيم قدرته

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ وَالطَّيْرُ صَآفَّاتٍ﴾ الاستفهام تقرير بما وقع، وهو أنَّه ﷺ عالم بالوحي قبل نزول الآية، أو بالمكاشفة بأنَّ من في السماوات والأرض والطير تسبّح له تعالى، أو الخطاب لمن يصلح على العموم، أو له ﷺ والمراد جميع المكلَّفين، وعليهما فالتقرير بما يشاهدون ويفهمون من الأحوال.

[بلاغة] والرؤية بمعنى العلم، استعارة من الإبصار بالعين لعلاقة الإدراك، أو مجاز مرسل لعلاقة اللزوم، أو التسبُّب، وقيل: حقيقة في الآية جمع بين الحقيقة والمجاز، إذ جمعت التسبيح بالألسنة والتسبيح بغيرها مِمَّا يعلمه الله من الجمادات، أو من حيوانات لا تسبِّح بلسانها.

أو جمعت التسبيح بالنطق وبلســان الحال، وذلك على أنَّ «مَن» في الآية مستعملة لغير العقلاء معهم تغليبا.

ويجوز أن يراد عموم المجاز وهو الخضوع الموجود في تســبيح اللسان وغيره، وإن أريد بـ«مَن» العقلاء فقط فالتســبيح حقيق، فيقــدَّر للطير عامل مجازي، أي: ويســبِّح الطير، وإن كان تســبيحها كما ورد في بعض فتسبيحها داخل في تسبيح العقلاء أعني أنَّه لا يقدَّر عامل.

و﴿صَافَّاتٍ﴾: واقفة في الجوِّ، أي من شــأنها، ولا يختصُّ التسبيح بحال كونها صافَّــات، وفيها دلالة عظيمــة على قدرة الله تعالــى إذ تقف في الهواء وتجري فيه بقبض الأجنحة وبسطها مع أنَّها أجسام ثقال.

﴿**كُلٌّ**﴾ مِمَّن في السماوات والأرض والطير، وخصَّ الطير هنا وفيما قبل لأنَّها ليســت في الأرض بل في الجو، ولو كانت في جهة الأرض، لَكِنَّهَا من الأرض وتســكن فيها، فبهذا الاعتبار خصَّها مع أنَّها مِمَّــا في الأرض، لتميُّز شــأنها بالتصرُّف في الهــواء، [قيل:] وفيــه أيضا طير خلقــت فيه ولا تصل الأرض، وقيل: كل واحد من الطير.

﴿**قَدْ عَلِمَ**﴾ الله ﴿**صَلَاتَــهُ**﴾ صلاة كل واحد له تعالــى، أي عبادته له، أو دعاءه ﴿**وَتَسْبِيحَهُ**﴾ تسبيح كُلِّ واحد له تعالى، وهذا أوفق للأصل وهو إضافة المصدر لفاعله، وموافقة صلاته في ذلك لإضافته للفاعل، ولو رجعنا الضمير في «تَسْبِيحَهُ» لله وحذفنا ضمير الفاعل لخالف ذلك.

ويجوز عود ضميــر «عَلِمَ» إلــى كُلِّ واحد مِمَّا ذكر، بمعنــى أنَّها تصلِّي وتسبِّح وهي تعلم أنَّها تفعل ذلك.

﴿**وَاللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ**﴾ بما يفعل من في الســماوات والأرض والطير كما علم صلاتهم وتســبيحهم ﴿**وَلِلَّهِ**﴾ وحده لا لغيره ولا مع الشــركة ﴿**مُلْكُ**

﴿**السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ**﴾ هما وما فيهما ذاتا وصفة، إيجادا وإبقاء وإفناء وإعادة، ما كان على يد مخلوق وما لم يكن على يده.

﴿**وَإِلَى اللهِ**﴾ لا إلى غيره ﴿**الْمَصِيرُ**﴾ بالفناء والبعث لما يبعث.

﴿**أَلَمْ تَرَ**﴾ بعينيك، أو ألم تعلم ﴿**أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا**﴾ يدفعه برفق وسهولة، وقيل: الإزجاء سوق الثقيل برفق وسهولة، وغلب في سوق الشيء اليسير، أو ما لا يعتدُّ به، ومنه: بضاعة مزجاة، أي مدفوعة للرغبة عنها، فالسحاب شيء هيِّن بالنسبة إلى ما هو أكبر منه بقدرة الله عَجَّلَ، وهو مفرد.

والمعنى: يدفع سحابا إلى سحاب فيكون سحابا واحدا، كما قال: ﴿**ثُمَّ يُوَلِّفُ بَيْنَهُ**﴾ أي بين أجزائه، كلُّ سحاب جزء، أو السحاب جماعة، وعليه فـ«ثُمَّ» للترتيب الذكري، أي ثمَّ نذكر لكم أنَّا جمعناه من سحابات متعدِّدة ﴿**ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا**﴾ متراكبا بعضه فوق بعض، حاصل ذلك أنَّه تَتَّصِلُ سحابة بطرف سحابة ثمَّ تعلوها ويأتي بأخرى تَتَّصِلُ بها، وبأخرى تَتَّصِلُ بهذه وتعلوها وهكذا.

﴿**فَتَرَى الْوَدْقَ**﴾ المطر ﴿**يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ**﴾ جمع خلل، وهي فتوقه ومخارجه الحادثة بالتراكم والعصر، والمفرد: خَلَل، كشجر وأشجار، وجبل وجبال، وقيل: مفرد كحجاب، ويدلُّ له قراءة: «مِنْ خَلَلِهِ» بفتح الخاء وإسقاط الألف، فالمراد الجنس. وفي العطف مبالغة في سرعة الخروج باتِّصاله بحصول التركيم.

﴿**وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ**﴾ «مِن» للابتداء، والسماء السحاب، لسموه أي علوه، والبرد: مسبب للطبقة الباردة العالية، أو السماء جهة العلوِّ ﴿**مِن جِبَالٍ**﴾ قطعا تشبه الجبل ﴿**فِيهَا**﴾ نعت «جِبَالٍ»، وقيل: المراد الكثرة، كما يقال: لفلان جبال من الذهب.

[نحو] و«مِـن» للابتداء أيضـا، و«مِن جِبَـالٍ» بدل بعض من قولـه: ﴿مِنَ السَّمَآءِ﴾، وإن لم تعتبر بعضيَّتها فبدل اشتمال، والعائد «هاء» من «فِيهَا»، و«فِيهَا» نعت «جِبَالٍ» والمفعول محذوف تقديره: شيئا. ﴿مِن بَرَدٍ﴾ أي شيئا ثابتا من برد.

[نحو] و«مِن» هذه للتبعيض أو للبيان، أي شـيئا هو برد؛ أو «مِن» مفعول مضاف لـ«بَـرَدٍ»، أي بعض برد في قـول بعض، أو «مِـنْ» الثانية مفعول به كذلك، فتكون الثالثة بيانيَّة، أو زائدة ومدخولها مفعول، والثالثة تبعيضيَّة لها أو بيانيَّة على جواز زيادتها في الإثبات.

والبرد: الماء المتحجِّر من البرودة ضدّ الحرارة، أو مِن بردَهُ بمعنى قشَّره فإنَّه يفسد نبات الأرض، وقيل: السـماء إحدى السبع فيها جبال من برد ينزل منها ما شاء الله بسرعة أو على الدوام والترسل شيئا فشيئا.

﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ بما ينزل من البرد ﴿مَنْ يَّشَآءُ﴾ في نفسه أو ماله أو فيهما، يتضرَّر به الحيوان والشجر والنخل والحرث ﴿وَيَصْرِفُهُ عَن مَّنْ يَّشَآءُ﴾ فينجو من مضرَّته، ويجـوز ـ على ضعف ـ عود الهاءين للـودق، وهو منفعة ﴿يَكَادُ سَنَا﴾ ضوء ﴿بَرْقِهِ﴾ برق السحاب المذكور.

وأصل الكلام: فيه برق يكاد سنا برقه، فحذف للعلم والمشاهدة بالبرق، ومن زعم أنَّ الودق البرق فقد ذكر البرق، وهو مـردود ﴿يَذْهَبُ بِالَابْصَارِ﴾ يخطف ضوء العيون الذي يبصر به، أو نفس ما طبع فيه النظر من العيون، أو نفس العيون مبالغة، جمع بصر بمعنى بصر الوجـه، والباء للتعدية كأنَّه قيل: يُذهب الأبصارَ، بالنصب وضمِّ المثناة.

﴿يُقَلِّـبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَـارَ﴾ بالإتيان بأحدهما بعد الآخـر، والزيادة في أحدهما والنقص من الآخر، والضوء في النهار دائما والظلمة في الليل أحيانا، والحرِّ والبرد وظهور الكواكب في أحدهما دون الآخر.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من التقليب والإزجاء وما بعده، وإشـارة البعد مع قرب المشـار إليه لعلوِّ مرتبة ما ذكر، ولا بعد في أَوَّل ما ذكر لأنَّه كشيء متَّصل ﴿لَعِبْـرَةً﴾ تفكُّرا يتوصَّل به إلى معرفة وجـود الله تعالى وكمال قدرته ﴿لِّأُوْلِي الَابْصَارِ﴾ جمع بصر بمعنى بصيرة القلب.

[بلاغة] وفيه مع الأبصار المتقدِّم الجناس، كقولـه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّـاعَةُ﴾ مع قوله: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [سـورة الروم: 55] ولو فَسَّرناه بإبصار الوجه لوضوح الدلالة لكان شبه الإيطاء في القوافي.

﴿وَاللَّهُ خَلَـقَ كُلَّ دَآبَّـةٍ﴾ كلَّ حيوان ينتقل: الإنـس والجن والملائكة والطير والسـمك والأنعـام والوحش والبغـال والحمير والخيـل والفيل والخشـاخش وسـائر ما فيه الروح، ألا ترى أنَّ السـمك لا يمشـي على الأرض بل يسبح في الماء، والطير إذا نزلت مشت في الأرض ﴿مِنْ مَّآءٍ﴾ [قيل:] خلق الله جوهرة وخلق فيها تمييزا فذابت ماء من خشـية الله، وخلق من ذلك الماء النار والهواء والنور، وخلـق الملائكة من هذا النور، وقيل: من الريح، والجنَّ من النار، وآدم من طين مشتمل على ماء، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [سـورة الأنبياء: 30] وعيسى خلق من جزء من أمِّه كما خلق حوَّاء من آدم، وذلك ذكر خلـق من أنثى وأنثى خلق من ذكر، وهـي ـ أعني مريم ـ مِمَّـن خلق من ماء، والله نفخ فـي ذلك الجزء الروح. وإن أريـد بالماء أصل التكوين من ماء التناسـل مع الاختلاف في الأحوال فلا يشمل الملائكة.

﴿فَمِنْهُم﴾ من الدوابِّ، وقوله: «هم» تغليب للعقلاء ﴿مَّنْ يَّمْشِي﴾ ينتقل، مجاز لعلاقة الإطلاق والتقييد، أو اسـتعارة للفظ المشـي للانتقال، ولا مانع من أن يقال: المشي حقيقة في الانتقال في الأرض مثلا، وفيه استعمال «مَن» لغير العاقل، وذلك تغليب لجانب العاقل المذكور مع غيره بعد.

﴿عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ كالحيَّات والسمك ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَّمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطائر، وفي الجنِّ أصناف منها ذو رجلين يطير ومنها ما لا يطير وغير ذلك، وكذا في الملائكة أصناف وفي قوله: ﴿هُمْ﴾ وقوله: ﴿مَنْ﴾ تغليب للعاقل.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَّمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام والحمير والبغال والخيل والوحش، ولم يذكر ما يدبُّ على رجل واحدة وهو يشبه الإنسان، وما يدبُّ على أكثر من أربع كالعناكب وأمِّ الأربع والأربعين، لأنَّ ذلك شاذٌّ، ولأنَّه ليس في الكلام حصر، ولقوله: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من الأجسام والأعراض والأشكال والطبائع والقوى، وفي قوله: ﴿هُمْ﴾ وقوله: ﴿مَنْ﴾ تغليب لجانب العاقل فيما قيل للمناسبة.

ولا دليل لمن قال: ما يمشي على أكثر من أربع معتمده على أربع فألغي الزائد، ثمَّ ظهر أنَّ التغليب في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ فقط والباقي جار عليه.

[أصول الدين] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الممكنات ﴿قَدِيرٌ﴾ وأمَّا غير الممكن مِمَّا يناقض صفات الأُلُوهِيَّة فمستحيل بالذات لتحقُّق الأُلُوهِيَّة، وإلَّا ناقضها، وما لا يناقض فلجعل الله ﷻ له مستحيلا، فلا يتصوَّر أن يكون غير مستحيل.

﴿لَّقَدَ اَنزَلْنَآ ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ لِمَا يليق بالحكمة بيانه.

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي﴾ بالتوفيق ﴿مَنْ يَّشَآءُ﴾ هدايته به ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يوصل إلى المقصود وهو الجنَّة، ومن خالفه كفر ولو قال بلسانه: لا إله إلَّا الله محمَّد رسول الله ﷺ.

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (48) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (52) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (53) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (54)﴾

بعض خصال المنافقين وهروبهم من الحق، وما يجب أن يكون عليه المؤمن الحقيقي

[سبب النزول] كما روي أن بشر المنافق خاصمه يهودي إلى رسول الله ﷺ، وخاصمه بشر إلى كعب بن الأشرف، ثمَّ وافقه إلى رسول الله ﷺ، فحكم لليهودي، فحاكمه بشر إلى عمر، فقال اليهودي: قد حكم لي النبيء ﷺ ولم يرض، فقال لبشر: أكذلك؟ فقال: نعم، فقال: مكانكما، فدخل بيته فخرج بسيفه فقتل به بشرا، وقال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله تعالى ورسوله ﷺ، ونزل جبريل عليه السلام فقال: إنَّ عمر فرَّق بين الحقِّ والباطل، ولقِّب لذلك بالفاروق.

فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي المنافقون ﴿ءَامَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ولا مانع من أن يقال إلى: ﴿الْفَآئِزُونَ﴾.

وقيل: نزلت في المغيرة بن وائل اقتسم أرضا هو وعليٌّ، فكان لعليٍّ ما لا يصيبه الماء إلَّا بمشقَّة، فقال لعليٍّ: بع لي سهمك فاشتراه فندم لقلَّة ما يناله من الماء ولأنَّها سبخة، وقال له: خذ أرضك فإنَّ الماء لا ينالها، فقال له علي: قد علمت حالها واشتريتها، فخاصمه عليٌّ إلى النبيء ﷺ، فقال: لا إنَّ محَمَّدًا يبغضني فأخاف أن يحيف عليّ، فنزلت الآيات في ذلك.

فنقول: وقعت القصَّتان جميعا فنزلت بعدهما. وإذا اتَّحد الفاعل فنزل القرآن بالجمع كهذه الآية فلعموم الحكم ولو خصَّ السبب، أو لأنَّ مع الفاعل من ساعده على فعله.

[قلت:] وإذا فعل الفاعل فعلة ونزل القرآن بصيغة التكرار فلأنَّ من شأن ذلك الفاعل أن يكرِّره ولو لم يكرِّره لأنَّه أصرَّ، أو يحمل المضارع على طريق حكاية الحال الماضية لتكون كالأمر به المشاهد لا على التكرير.

﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي الله والرسول في الأمر والنهي ﴿ثُمَّ﴾ لتراخي الرتبة ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾ يعرض عن الإطاعة المدعاة أو عن مضمون قول ﴿ءَامَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ والطاعة ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَالِكَ﴾ المذكور من القول والادِّعاء، وإشارة البعد إلى القريب إعظام له في التحريم، وكذا قوله: ﴿وَمَآ أُوْلَئِكَ﴾ المنافقون القائلون آمنَّا بالله وبالرسول الذين منهم الفريق المتولِّي ﴿بِالْمُومِنِينَ﴾ المعهودين بالإخلاص والثبات. ويجوز عود واو «يَقُولُونَ» للمؤمنين، فيكون «أُوْلَئِكَ» للفريق المتولِّي، فيكون «ثُمَّ» للاستبعاد، كأنَّه قيل: كيف يدخلون في زمرة المؤمنين الموفِّين مع نقضهم؟!.

﴿وَإِذَا دُعُواْ﴾ دعاهم خصمهم، والواو للمؤمنين مطلقا أو للمنافقين ﴿إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ﴾ الرسول، وهو أقرب في الذكر والمباشر للحكم،

وحكمــه حكم الله، [قلــت:] وأكره عود الضميــر إلى الله والرســول بتأويل المدعو إليه، لأنَّ الأصل عدم التأويل، ولأنَّ فيه تســمية الله والرسول بضمير واحد، كما يفعل بغيرهما ولو ســهَّله أنَّ لفظ الآية الدعاء إلى الله ورســوله، ﴿**بَيْنَهُمْ**﴾ وبين خصومهم.

﴿**إِذَا فَرِيــقٌ مِّنْهُــم مُّعْرِضُونَ**﴾ عن الإجابــة إلى الحكم لعلمهــم أنَّ الحقَّ عليهم، وأنَّــه ﷺ يحكم به، لأنَّــه لا يحكــم بالجهل ولا يحيــف، وقيل: هذا الإعراض إذا اشــتبه عليهم الأمر، وإنَّ في هذا زيادة مبالغة في ذمِّهم، قلت: بل الذمُّ أبلغ إذا عرفوا أنَّ الحقَّ عليهم إذ تعمَّدوا الإعراض عن نفس الحقِّ، فالأولى أن يحمل إعراضهم على العموم بأن اشتبه عليهم أو علموا أنَّهم مبطلون.

﴿**وَإِنْ يَّكُن لَّهُم**﴾ لا لغيرهم ﴿**الْحَقُّ**﴾ عبَّر بـ«إِنْ» الشــكِّيَّة لقلَّة أن يكون الحقُّ لهم، وكأنَّه مِمَّا لا يتحقَّق ﴿**يَاتُواْ إِلَيْهِ**﴾ إلى الحكم أو إلى الرسول ﷺ، متعلِّــق بـ«يَاتُوا» أولى من تعليقــه بقوله: ﴿**مُذْعِنِينَ**﴾ على أنَّــه قدِّم للفاصلة وعلى تضمين «مُذْعِنِينَ» معنى: مســرعين، أو تضمين «إِلَى» معنى اللام، لأنَّ الأصل عــدم التضمين والتقديــم، نعم تقديمــه للحصر يفيد أنَّــه لا يَقبَلون الذهاب إلى غيره لعلمهم أنَّه لا يحكم إلَّا بالحقِّ وشكِّهم في غيره ﷺ.

﴿**أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**﴾ إشراك؟ ﴿**أَمِ ارْتَابُواْ**﴾ بل هل ارتابوا في نبوءته مع وضوح صحَّتها؟ ﴿**أَمْ يَخَافُونَ**﴾ بل أيخافون ﴿**أَنْ يَّحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ**﴾ يميل عن الحكم بالحقِّ إلــى الحكم بالجور ﴿**بَلُ اوْلَئِكَ هُــمُ الظَّالِمُونَ**﴾ لا ريبة لمشاهدتهم دلائل النبوءة وأمانته ولا حيف، فتعيَّن أنَّ في قلوبهم مرضا؛ ويجوز أن تكون «أَم» متَّصلة، أي أرأوا منه تهمة فزالت ثقتهم به؟.

﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُومِنِينَ إِذَا دُعُواْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْۥٓ أَنْ يَّقُولُواْ سَــمِعْنَا**﴾ كلامكم في الدعاء إلى حكم الله ورســوله، وما ألغيناه كما يلغى ما يكره، كأنَّه لم يذكر وفهمناه لا كما يلغى القول الذي كره حتَّى قد لا يفهم.

﴿وَأَطَعْنَا﴾ في مضمونه من الذهاب إلى حكم الله ورسوله، و«قَوْلَ» خبر «كَانَ»، ومصدر «أَنْ يَّقُولُوا» اسمها، أي ما كان قولاً للمؤمنين إلَّا قولهم: سمعنا وأطعنا.

[بلاغة] وتقديم الخبر على طريق الاهتمام والحصر بـ«إِنَّمَا»، وذلك مقابلة لإعراض المنافقين، والكلام على ما قبل الحكم لا على ما بعده، كما قيل: إنَّ المعنى: سمعنا قول النبيء ﷺ وأطعنا أمره. ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ العالون رتبا لقولهم: سمعنا وأطعنا ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطلوب، الناجون من المحذور.

﴿وَمَنْ يُّطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأمر والنهي كائنا من كان ﴿وَيَخْشَ اللهَ﴾ يخفه خوف إجلال على ما مضى من ذنوبه ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ يحذر عقابه بالمخالفة، أو يحذر مخالفته بعد ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ لا غيرهم ﴿هُمُ الْفَآئِزُونَ﴾ بالنعيم والنجاة الدائمين.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ﴾ حلفوا، قيل: أصله من القسامة، وهي قسمة الحلف على المتَّهمين بالقتل، على أنَّ القسامة بذلك المعنى في كلام العرب قبل الشرع ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ مفعول مطلق لـ«أَقْسَمُوا» أي إقسام جهد إقسامهم، أو لحال محذوف، أي: يجهدون جهد أيمانهم، أو جاهدين جهد أيمانهم، أي يبلغون أو بالغين جهدها أي طاقتها بالتغليظ، ونسبة الطاقة إليها مجاز، وذلك بأن زادوا على: «واللهِ»، وهذا هو المتبادر، وعن مقاتل: «من حلف بالله فقد اجتهد في اليمين».

﴿لَئِنَ اَمَرْتَهُمْ﴾ بالخروج إلى الجهاد ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ إليه، وهذا هو المتبادر المستعمل، لا ما قيل: المراد الخروج من الأموال. والأصل: «لنخرجنَّ» بالنون، لأنَّهم يقولون: «والله لنخرجنَّ»، بالنون لا «ليخرجنَّ» بالياء، لكن ذكر ذلك عنهم بالمعنى.

﴿**قُل لَّا تُقْسِمُواْ**﴾ على الخروج ﴿**طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ**﴾ طاعتكم طاعة معروفة بأنَّها كاذبة بين الناس، أو الواجب عليكم طاعة صادقة لا كاذبة، أو طاعة معروفة بالصدق أليق بكم من اليمين.

وقيل: مبتدأ وخبر على إرادة الجنس، كقولك: تمرة خير من جرادة، أي طاعتكم لا تخفى، وهذا لا يتبادر تفسيرا للآية، ولو وافق الحديث، كما روي عن جندب: «**ما أسرَّ عبد سريرة إلَّا ألبسه الله رداءها**»[1]، وكما روي عن رسول الله ﷺ: «**لو أنَّ أحدكم يعمل في صخرة صمَّاء ليس لها باب ولا كوَّة لخرج عمله لإنسان كائنا من كان**»[2]. ﴿**إِنَّ اللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ بجوارحكم وألسنتكم وقلوبكم، من المعاصي وخداع المؤمنين.

﴿**قُلْ**﴾ للمنافقين المذكورين ﴿**أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ**﴾ كرَّر للتأكيد، ولأنَّه أمر بطريق التكليف بالشرع، والأوَّل بطريق الردِّ ﴿**فَإِن تَوَلَّوْاْ**﴾ خطاب بحذف إحدى التاءين للمنافقين الذين أمر ﷺ أن يقول لهم: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، غير داخل في القول، وإلَّا قال: عليَّ ما حمِّلت.

والمراد: تولوا عن الإطاعة، أو عن تبليغك، أو عن قولك؛ وحذف للعلم بأنَّه مسارع في ذلك، فلم يبق إلَّا أن يقال: هل تولَّوا أو قبلوا؟.

﴿**فَإِنَّمَا عَلَيْهِ**﴾ الجملة قامت مقام الجواب، أي لم يضرَّه تولِّيكم لأنَّه إنَّما عليه ﴿**مَا حُمِّلَ**﴾ أي حمَّله، كلَّفه الله، حمله مع ثقله لشدَّة العمل وشدَّة الوحي عليه ﷺ، أو المراد بتحميله أمر الله إيَّاهُ به، فعبَّر بالتحميل مشاكلة لقوله: ﴿**وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ**﴾ أي حمِّلتموه، كلِّفتم به مِمَّا يثقل عليكم لأنَّه عمل

---

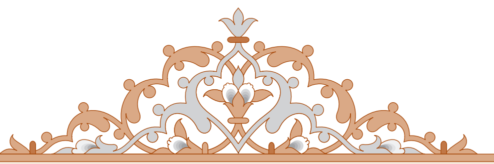
(1) رواه **الطبراني** في الكبير: ج 2، ص 171، رقم 1702. و**الهيثمي** في المجمع: ج 10، ص 225، مع زيادة لفظ: «إن خيرا فخير، وإن شرًّا فشر» في آخره، من حديث جندب بن سفيان.

(2) رواه **الحاكم** في المستدرك، كتاب الرقاق: ج 4، ص 349، رقم 7877، من حديث أبي سعيد الخدري.

حادث عليكم، مخالف لأغراضكم، وهــو حامل لِمَا حمل فينجو ويفوز، وإن لم تتحمَّلوا أهلكتم أنفسكم.

وقدِّم هذا الترهيب لأنَّه أليق بمزيد عتوِّهم لملابستهم ما يوجب العقاب، بخلاف ترك التولِّي فأخَّره في قوله: ﴿**وَإِن تُطِيعُوهُ**﴾ في أمره مع أنَّه المقصود بالذات، ليكون نتيجة للترهيب، والهاء لرســول الله ﷺ لأنَّه المباشر وأقرب، وأجيز أن يكون لله ﷻ لأنَّ أمر الرســول أمر من الله، ﴿**تَهْتَــدُواْ**﴾ والاهتداء: الوصول إلى كلِّ خير والنجاة من كلِّ سوء، ﴿**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ**﴾ محمَّد ﷺ، و«ال» للعهد الذكري، وهو المتبادر، أو لجنس الرســل المعهود في الأذهان، فيكون كالبرهان والاحتجاج عليهم، كأنَّه قيل: هــذا ما جرت عليه عادتنا في الأمم ورسلهم، فهكذا على محمَّد ﷺ وهكذا عليكم.

﴿**إِلَّا الْبَلَاغُ**﴾ تحصيل البلاغ، أو هو اسم مصدر، أي ما على الرسول إلَّا التبليغ لكلِّ ما لا بدَّ منه ﴿**الْمُبِينُ**﴾ الواضح أو الموضِّح لِمَا خفي.



﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (57)﴾

وعد الله المؤمنين بالتمكين لأعمالهم الصالحة

﴿**وَعَدَ اللهُ**﴾ في علمه وفي اللوح المحفوظ ﴿**الذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ**﴾ يا محمَّد وأصحابه، فمروا الكُفَّار والمنافقين مواجهة وتصريحا، ولا تخافوا مضرَّتهم، فإنَّها لا تحصل البتَّة أو لا تفيدهم شيئا فإنَّ الوعد بالاستخلاف وعد بالإحياء والنصر، وذلك أيضا امتنان.

ووسَّط «مِنكُمْ» بين «آمَنُوا» وبين قوله: ﴿**وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ**﴾ ولم يؤخِّره كما أخَّره في قوله: ﴿وَعَدَ اللهُ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الفتح: 29] لتعجيل ذكر مسرَّة المؤمنين، فإنَّ الآية سيقت لذلك، وأيضا الإيمان هو الأصل الذي ينبني عليه الاستخلاف، وهو مستلحق للعمل الصالح إذا تحقَّق، ولا شكَّ أنَّ المراد الإيمان المحقَّق فالعمل الصالح فرعه، فأخَّره.

[فقه] فإن فسق الإمام وأصرَّ بعد الاستتابة عزل وإن عاند قتل كما ورد في الحديث.

[سبب النزول] قال أُبيُّ بن كعب: لَمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة والمهاجرون، رمتهم العرب عن قوس واحد، والتزموا السلاح ليلا ونهارا خوفا من العرب، وقالوا: هل نعيش حتَّى نبيت آمنين؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ **لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الاَرْضِ**﴾ إلى قوله: ﴿الْفَاسِقُونَ﴾، وقيل: الخطاب في «مِنكُمْ» للمنافقين المقسمين جهد أيمانهم مقرِّر لقوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ ويردُّه أنَّه ما مضى منهم إيمان محقَّق، ولا استقبل، ولا قال: وعد الله الذين آمنوا منكم إن كان منكم من آمن أو يؤمن.

وزعم بعض أنَّ الخطاب لكلِّ من آمن في أيِّ مكان وفي أيِّ زمان، في زمان الرسول وبعده. والجملة جواب القسم وهو وعد الله لأنَّه عزيمة وتحقيق، فهو بمنزلة: والله ليستخلفنَّهم، وبمنزلة أقسم بالله ليستخلفنَّهم، وقيل: التقدير: وعد الله الذين آمنوا... أن يستخلفهم، وأقسم ليستخلفنَّهم في الأرض. وهي مشارق الأرض ومغاربها، لقوله ﷺ: «**زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمَّتي ما زوي لي منها**»[1].

﴿**كَمَا اسْتَخْلَفَ**﴾ استخلافا ثابتا كاستخلافه ﴿**الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ كبني إسرائيل ملكوا الشام بعد هلاك فرعون والقبط، وقيل: ومصر على أنَّهم رجعوا إليها، أو ملكوها وهم في الشام، وكالمؤمنين بعد هلاك عاد، وبعد هلاك ثمود، وهلاك قوم لوط.

﴿**وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ**﴾ وهو دين الإسلام اختاره لهم، وأنعم عليهم به يثبته لهم، ويجعله لهم كمكان لساكنه، فإنَّ أصل التمكين جعل الشيء مكانا لشيء، أو جعل الشيء في مكان، وقد جعلهم الله في الإسلام كإسكان الرجل أهله في دار.

---

(1) تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج 8، ص 205.

﴿**وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ**﴾ من أعدائهم خوفا مطبوعا في البشر، ولو كانوا مؤمنين موقنين ﴿**أَمۡنًا**﴾ عظيما في الدنيا يزول معه الخوف من أعدائهم البتَّة، يوَرِّثهم الأرض ويجعلهم فيها خلفاء، كما أورث بني إسرائيل مصر والشام.

كانوا في مَكَّة خائفين عشر سنين، ولَمَّا هاجروا كانوا في المدينة يصبحون في السلاح ويمسون في السلاح، حتَّى قال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فنزلت الآية، وقال ﷺ: «**ما بقي إلَّا قليل فيكون أحدكم في ملإٍ محتبيا لا حديد معه**»[1] وكذا قال لعديٍّ: «**لئن حييت لترينَّ الظعينة ترحل من الحيرة حتَّى تطوف بالبيت لا تخاف إلَّا الله تعالى، ولتفتحنَّ كنوز كسرى، وترى الرجل يخرج بملء كفِّه ذهبا وفضَّة ولا يجد من يقبل عنه**» قال عديٌّ: لقد شهدت ذلك وكنت فيمن فتح كنوز كسرى[2].

وجاء: «**إنَّ الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثمَّ تكون ملكا**»[3] فكانت خلافة الصدِّيق سنتين، وعمر عشرا، وعثمان اثنتي عشرة، وعليٍّ ستًّا، قال بعض: وتسعة أشهر.

أو ﴿لَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِم﴾ في الدنيا من عذاب الآخرة أمنا منه في الآخرة. ﴿**يَعۡبُدُونَنِي**﴾ مطمئنِّين لا قلق لهم من جهة أعدائهم لتدميرهم. والجملة حال من «الذِينَ» الأوَّل، أو من هاء «لَيُبَدِّلَنَّهُمْ»، أو هاء «لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ»، وعلى أنَّ الأمن في الآخرة تكون مستأنفة لتعليل الأمن، أو الاستخلاف وما معه.

﴿**لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـًٔا**﴾ من الأصنام وغيرها، أو لا يشركون بي إشراكا ﴿**وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ**﴾ المذكور من الاستخلاف والتمكين والتبديل ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ**

(1) أورده **السيوطي** في الدر. وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم، عن أبي العالية. ج6، ص215.

(2) رواه **البخاري**، كتاب المناقب، باب علامات النبوة، رقم: 3400. عن عدي بن حاتم.

(3) رواه **الترمذي** في كتاب الفتن، رقم: 2226. عن سفينة.

هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ كاملو الفسق حتَّى كأنَّه لا فاسق إلَّا هم، وذلك بالارتداد، من أولئك المخلصين أو من غيرهم، أو بالبقاء على النفاق بعد انتشار الإسلام في غيرهم.

[أثر عن جابر] أو الفسق: النفاق بالجارحة، وهو فعل الكبيرة مع التوحيد، قال جابر بن زيد: «جلست مع حذيفة وابن مسعود ﭭ فقال حذيفة: ذهب النفاق ـ أي نفاق إضمار الشرك ـ إنَّما كان النفاق على عهد رسول الله ﷺ، وإنَّما الفسق: الكفر بعد الإيمان، فضحك ابن مسعود أي استغرابا لذلك، ثمَّ قال: بم قلت ذلك؟ قال حذيفة: بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ...﴾ فسكت ابن مسعود ﭬ أي رضي بما قال حذيفة، لأنَّه موضع سرِّ رسول الله ﷺ».

[قلت:] والآية حجَّة على صحَّة خلافة الأئمة الثلاثة والرابع عليٌّ، فهم أربعة، وأبطلت دعوى الشيعة أنَّ الإمام بعده ﷺ هو عليٌّ، وهو نفسه مقرٌّ بإمامة الثلاثة قبله، ومن ذلك أنَّه استشاره عمر في قتال فارس بنفسه، فقال: «نصرة هذا الدين بوعد الله لا بالكثرة ﴿وَعَدَ اللهُ الذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ...﴾ إن مت أو أصبت تفرَّق الإسلام كخرز انقطع سلكه فقد لا يجتمع، والعرب كثير بالإسلام والاجتماع وأنت القطب والعرب تدور عليك كالرحى، وإن انتقلت انتقضت العرب من أقطارها بعدك، فيكون ما وراءك أهمَّ إليك مِمَّا بين يديك، وقالت العجم: هذا أصل العرب إن قطعناه استرحنا فيشتدُّ اجتهادهم، وإنَّما قاتلنا من قبل بالنصر من الله ﷻ».

﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾ يسوغ العطف على ﴿وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾ فهو داخل في القول، ولو كثر الفصل لأنَّ ذلك الفصل له مناسبة، والأولى العطف على محذوف مفرع على قوله: ﴿وَعَدَ اللهُ...﴾ هكذا: فآمنوا واعملوا الصالحات، وأقيموا الصلاة، وهذه الفاء

في جواب شرط، أي إذا كان الوعد ذلك فآمنوا، أو لمجرَّد السببيَّة لا العطف، أو يقدَّر كذلك: فلا تكفروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول في كلِّ ما يأمركم به، أو في سائر ما يأمركم به بعد الصلاة والزكاة.

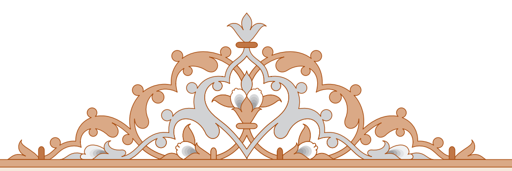
﴿**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ في الدنيا والآخرة، وأكَّد الوعد السابق بتوهين الكفرة في قوله ﷻ: ﴿**لَا تَحْسِبَنَّ الذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ**﴾ غالبين الله عمَّا أراد من إهلاكهم وغيره ﴿**فِي الَارْضِ**﴾ في أيِّ موضع كانوا.

الخطاب لكلِّ من يصلح له، وهو من يحسب أنَّ الكفرة يسبقون الله فيما أرادوا لضعف إيمانه أو جهله أو إضماره الشرك، وليس لرسول الله ﷺ على سبيل التعريض لغيره، لأنَّ الحمل على مثل هذا فيما فيه أنَّ الخطاب له، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة القصص: 87].

﴿**وَمَأْوَايهُمُ النَّارُ**﴾ موضع رجوعهم، ولا يجوز أن يكون مصدرا، لأنَّه لا يصحُّ إلَّا بتقدير مضاف، أي موضع رجوعهم، وهذا المعنى موجود في جعله اسم مكان بلا احتياج إلى تقدير مضاف، فلا حاجة إلى جعله مصدرا بلا دليل.

[نحو] والجملة حال من «الذِينَ» وهو أولى لسلامته من التأويل والحذف، من قول سيبويه بعطف الإخبار على الطلب بلا تأويل، أو بتأويل الطلب بالإخبار، أي هم غير معجزين، ومن عطفه على محذوف، أي هم مقهورون في الدنيا بالإهلاك ومأواهم النار، أو هم مغلوبون ومأواهم النار فيها، وإنَّما قدَّرت المحذوف بلا فاء لِئَلَّا يحتاج إلى الكلام عليها.

﴿**وَلَبِيسَ الْمَصِيرُ**﴾ هي، أي ووالله لبئس، والواو أولى، لأنَّها الأصل في القسم، ومتَّفق على جواز القسم بها ولو تلتقي واوان هي والعاطفة قبلها المذكورة، ولا سيما أنَّها محذوفة.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (58) وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (59) وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (60)﴾

الحكم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر:
حالات الاستئذان في داخل الأسرة
وتخفيف الثياب الظاهرة عن العجائز

﴿**يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ الرجال والنساء تغليبا كغالب القرآن، ولا ينصت إلى دعوى أنَّ الخطاب لهم وأنَّهنَّ ملحقات بالقياس، ولو كان سبب النزول امرأة، إذ لا يجب التعرُّض لمن هو سببه، ولا سيما أنَّه قيل أيضا: سببه الرجل، ولعلَّهما معا السبب.

[سبب النزول] روي أنَّ أسماء بنت أبي مرثد ـ بمعجمة مثلَّثة أو بشين معجمة ـ دخل عليها غلام كبير لها، وَقْتَ كَرِهَتْ، فقالت: يا رسول الله يدخل علينا غلماننا وخدمنا وقت نكره!.

وروي أنَّــه ﷺ بعث فــي الظهيرة غلاما مــن الأنصار اســمه مدلج إلى عمر رضي الله عنه فدقَّ الباب ودخل عليه واســتيقظ وقد انكشــف منه ما لا يحبُّ أن يرى، فقال: لو نهى الله تعالى آباءنا وأبناءنا وخدمنا! فذهب مع الغلام إليه ﷺ فوجدها نزلت.

وعن السدِّي: كانوا يطؤون نساءهم في هذه الساعات فيغتسلون فيخرجون إلى الصلاة، فنزلت الآية ناهية عن دخول هؤلاء فيهنَّ إلَّا بإذن، فقد يقال: نزل في ذلك كلِّه خطابا لهم: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ...﴾.

[فقه] ﴿لِيَسْتَاذِنكُمُ الذِينَ مَلَكَتَ اَيْمَانُكُمْ وَالذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ وجوبا على الصحيح، أطفالا أو بلَّغا، ذكورا أو إناثا، ولا بأس بخطاب الطفل ولو على الوجوب، إلَّا أنَّه لا عقاب عليه إن خالف، وفي المراهق قولان.

ويقال: الخطاب للمالكين في المعنى، كأنَّــه قيل: لا تتركوهم أن يدخلوا بلا إذن، ولا حاجة إلى هذا. والأمر للغائب.

[فقه] وفي الحديث: «**مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر**»[1]. وأمره إيَّاهُم بأمر الأطفال بالصلاة أمر منه تعالى، وإذا خرجت النطفة من ذكر أو أنثى أو حاضت أو حبلت أو تكعَّب لها ولو ثدي واحد فبلوغ.

[قلت:] والحقُّ أنَّ ثلاث شــعرات سود غلاظ في إبط أو عورة من ذكر أو أنثى بلوغ، كما قال عثمان وجرت عليه الصحابة أنَّ الإنبات بلوغ.

[سيرة] وكما جاء عن عطية القرظي، ولو كان غير معروف، إذ جاء عن غيره أيضا أنَّه استحيَى ﷺ من لم ينبتوا وأنا منهم، وقتل من أنبت وذلك في حرب قريظة، واختلاف الروايات بلا تناقــض لا بأس به، كما روي في هذا أنَّه ﷺ أمر بقتل من جرت عليه المواسي. ودعوى أنَّه أمر بقتل المنبت لقوته

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 3، ص 123.

لا لأنَّ الإنبــات بلوغ تكلُّف، لأنَّ مــن لم يبلغ غير مكلَّــف فكيف يعاقب بالقتل. ولا دليل علــى أنَّ قتله دفع لضرِّه عن المســلمين، لا تكلُّف بل لا دليل على خلافه.

[فقه] وقد تبلغ الأنثى في الســنة الســابعة وتحمل، وقد تبلغ الأنثى أو الذكر في التاســعة، وإذا لم توجد علامة فالأنثى لثلاث عشرة، والذكر لأربع عشــرة، أو هي لها وهو لخمس عشرة، أو هما لخمس عشــرة، ومشهور أبي حنيفة أنَّها لســبع عشرة، وأنَّه لثماني عشــرة، لأنَّ ابن عباس فسَّر رشد اليتيم بها، ويــردُّه أنَّ ذلك في تمكينه مــن ماله. وليس «مِنكُمْ» قيدا بالإســلام بأن يكونوا أولاد المسلمين بل المراد مقابلة المماليك في الآية.

﴿**ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**﴾ ثلاث استئذانات في كلِّ وقت من الأوقات الثلاثة، لأنَّهنَّ مظنَّة انكشــاف وخلوة، فإن لم يؤذن لهم فلا يدخلوا، كما جاء على الإطلاق قوله ﷺ: «**الاستئذان ثلاث**»[1].

[نحو] فهــو مفعول مطلــق، فقوله: ﴿**مِــن قَبْلِ صَــلَاةِ الْفَجْــرِ**﴾ متعلِّق بـ«يَسْتَاذِن»، وقيل ثلاثة أوقات فهو ظرف، وعليه الجمهور، فـ«مِن قَبْلِ» بدل «ثَلَاثَ» أو «مَرَّاتٍ»، أي وقتــا ثابتا ـ بالنصب أو بالجــرِّ ـ قبل صلاة الفجر، والجرّ على الإبدال من «مَرَّاتٍ».

[نحو] ﴿**وَحِينَ تَضَعُــونَ ثِيَابَكُم**﴾ عن أبدانكم، بالنصــب على الظرفية عطفا على «مِن قَبْلِ»، لأنَّ المعنى: وقتا من قبل، أو على إبدال «مِن قَبْلِ» من «مَرَّاتٍ» بمعنى: أوقات، فـ«حِينَ» مجرور مبنــيٌّ ولو أضيف لمضارع معرب كقوله تعالى: ﴿**هَذَا يَوْمَ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ**﴾ [سورة المائدة: 119].

---

(1) رواه **مســلم** في كتــاب الأدب (7) باب الاســتئذان رقــم 34 (...). **والترمــذي** في كتاب الاستئذان (3) باب ما جاء في الاستئذان ثلاثة، رقم 2690 مع زيادة. من حديث أبي سعيد.

﴿مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ حال من «حِينَ»، و«مِنْ» للبيان، وهو وقت انتصاف النهار، وهو شدَّة الحرِّ في الجملة؛ أو متعلِّق بـ«تَضَعُ» على أنَّه للتعليل فيقدَّر مضاف، أي: لأجل حرِّ الظهيرة، أو الظهيرة: نفس الحرِّ فلا تقدير. ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَآءِ﴾ عطف على «مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ» كما هو أشدُّ مناسبة لقوله: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ أو على «مِنَ الظَّهِيرَةِ» إذا جعلنا «مِنْ» للبيان، وهذه فذلكة لِمَا قبلها للتأكيد، أي: هنَّ ثلاث عورات. والعورة: الخلل، من العار بمعنى المذمَّة. سمَّى الأوقات عورات مبالغة في ذكرهنَّ، أو يقدَّر مضاف أي: ثلاث أوقات عورات، أو هنَّ أوقات ثلاث عورات.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ﴾ لوم وعتاب، لأنَّ الداخلين البلَّغ الذكور والإناث مماليك للمدخول عليهم كذلك، والذين لم يبلغوا يدخلون على كلِّ أحد بلا إذن في غير تلك الأوقات، وأمَّا المملوك والمملوكة البالغات فلا وجه لدخولهما بلا إذن على غير مالكهما في وقت مَّا إلَّا لضرورة.

﴿بَعْدَهُنَّ﴾ في الأوقات المتخلِّلة بين كلِّ اثنين منهنَّ، ولو قيل: «قبلهنَّ» لكان المعنى كذلك، واختار البعديَّة لأنَّ المعروف أن يحدَّ الشيء وينهى عَمَّا بعده.

﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم﴾ علَّة للَّيسية[1]، أي هم طوَّافون، أو لأنَّهم طوَّافون عليكم ﴿بَعْضُكُمْ﴾ يطوف بعضكم ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي أنتم تدخلون عليهم أيضا، أو يقدَّر: أنتم طوَّافون خطابا للمماليك والسادة والأطفال، ولا ضعف فيه، فيكون بدلا من «أنتم»، أو من المستتر في «طَوَّافُونَ»، أو مبتدأ لـ«طَوَّافُونَ».

﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما بيَّن الله لكم ما ذكر ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ قبل هذا البيان وبعده ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ عظيم العلم بأحوالكم وغيرها ﴿حَكِيمٌ﴾ عظيم الحكمة فيما شرع لكم من المصالح وفي جميع أفعاله.

---

(1) أي للنفي في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ...﴾.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الَاطْفَالُ مِنكُمُ﴾ يا معشر المسلمين الأحرار، وليس قيدا بل لأنَّ الكلام معهود في ذلك، فإنَّ الطفل من الكافر أو الطفل العبد إذا بلغ استأذن في غير بيت يبيت فيه مسكنا له للمسلمين أو الكافرين، ﴿الْحُلُمَ﴾ أي العقل الذي يعرف بعلامات البلوغ.

﴿فَلْيَسْتَاذِنُواْ﴾ على أهل بيت أرادوا دخوله ولم يكن مسكنا لهم لغير آبائهم أو لآبائهم.

[فقه] وأوجب ابن مسعود وابن عبَّاس وابن جبير استئذان البالغ والأب والأخ ونحوهم من الذكور والإناث على الأمِّ والأخت ونحوهما، ولو في بيت سكناهم مع هؤلاء إلَّا الزوجين والسيِّد والسرِّيَّة، ونقل عن ابن عبَّاس وجوب الاستئذان بينهم أيضا، وليس يصحُّ.

﴿كَمَا اسْتَاذَنَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ذكروا قبلهم في السورة من البلَّغ، في قوله تعالى: ﴿يآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا﴾ ولا يتبادر أن يكون المعنى: كما استأذن الذين بلغوا قبلهم، ولو كان الأمر كذلك، ولكن قد فسَّر بعضهم الآية به ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُۥٓ ءَايَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ليس تكرارا محضا للتأكيد، بل ذكره لشأن من بلغ الحلم.

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَآءِ﴾ جمع «قاعد» بلا تاء كحائض وطامث لاختصاصه بمعناه في النساء، بأن تقعد عن الحيض ولا تقوم في شأنه لعدمه، أو عن التزوُّج إذ لا طمع لهنَّ في الأزواج لكبرهنَّ، أو عن كثرة الحركة لذلك، والكبر سبب لانقطاع الحيض ولقلَّة الحركة وعدم اللياقة للتزوُّج.

فقال الله ﷻ: ﴿الَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ تزوُّجا، والواو حرف هو آخر المضارع وهو مبنيٌّ على سكون الواو الميِّت، والنون ضمير هو فاعل، ولشبه «الَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا» باسم الشرط في العموم قرن بالفاء خبر موصوفه،

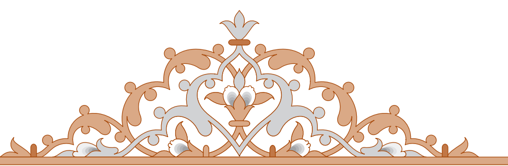
وهو ما بعد الفاء من قوله: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ﴾ في أن يضعن، أو بأن يضعن عنهنَّ ﴿ثِيَابَهُنَّ﴾ التي لا تنكشف العورة بوضعها، وهي كلها عورة إلَّا ما استثني لكلِّ أحد أو لمحارمهنَّ، وهي غير الثياب التي تلي أبدانهنَّ وشعورهنَّ، والشعر أيضا من البدن لا يظهرن الشعر والعنق والساق، ولكن يظهرن الوجه والكفَّ و[لا يظهرن] الثياب الحسنة التي تحت الثياب الأخر.

﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖ﴾ التبرُّج إظهار الزينة بقصد، وهو لازم لا متعدٍّ، لا يقال: تبرَّجت المرأة زينتها، بنصب «زينتها» على المفعوليَّة، وإنَّما التعدِّي في نفسه إذ كان بمعنى الإظهار لا إلى متعلّقه.

[لغة] وَسمِّيَ البرج برجا لظهوره، وسفينة بارج: ظاهرة لا غطاء عليها. والباء للتعدية أو الآلة أو الصحبة. والزينة: ذراعها أو ساقها أو نحو ذلك أو ما تعلَّق بهنَّ كالجواهر التي يتزيَّنَّ بها، وزينة عَامَّة عموما شموليًّا لتقدُّم النفي عليها.

وقد تظهر منها زينة، [قلت:] ولا بأس إذا لم تقصد صرف العين إليها كخمار مجود وذراع أو عضد أو ساق لا يشتهى، وقد تحمل عليه الآية بعدم وجود زينة لها فضلا عن أن تظهرها.

﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ﴾ عن وضع ثيابهنَّ ﴿خَيۡرٞ لَّهُنَّ﴾ من وضعها فقد يشتهي إنسان ما لا يشتهيه الناس، كما قيل: لكلِّ ساقطة لاقطة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ بما يتكلَّم به الرجل مع المرأة ﴿عَلِيمٞ﴾ بما في قلوبهم ومقاصدهم.



﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿61﴾﴾

إباحة الأكل من بيوت معينة دون إذن

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ﴾ بعينيه معـا، ويلتحق به ضعيف البصر والأعور إذا كان عوره مؤذيا له ﴿حَرَجٌ﴾ ضيق شـرعيٌّ بأن يحكـم بالذنب على هؤلاء، وأصله: مجتمع الشيء، كالأغصان الملتفَّة.

﴿وَلَا عَلَى الْأَعْـرَجِ حَرَجٌ﴾ فـي اليد أو الرجـل أو الفخـذ ﴿وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ﴾ بأَيِّ مرض معطِّل عن الغزو، أو يزداد به أو يطول به أو يستقذر به ﴿حَرَجٌ﴾ فـي أن لا يغزوا، وفي أن يأكلوا مع الناس، ولـو كانت فيهم رائحة تكره لمرض أو صنان أو وسـخ في العين أو الأنف يبـدو، أو يأكلوا أكثر أو يأخذ الأعرج لعرجه زيادة موضع، وفـي أن يأكلوا من مال من جرَّهم إليه من قصدوه، إذ كانوا يأتونه رجاء للأكل، فـلا يجد ما يطعمهم فيأتي بهم إلى أبيه أو أمِّه أو نحوهما مِمَّن يرجو نفعه، فيتحرَّجون.

وفي أن يأكلوا مِمَّن خرج غازيا وتركهم على طعامه أو ماله فنزلت [الآية في حقِّهم]، وإن كان الأصحَّاء يتحرَّجون عن الأكل مع هؤلاء إذ لا يستوفون الأكل كالأصحَّاء. و«عَلَى» بمعنى في، أي ليس في مؤاكلة الأعمى، أو للتعليل أي لمواكلة الأعمى، أو على ظاهرها أي لا حرج على مؤاكلة الأعمى كما يقال: لا عقاب على فعل كذا، أي لا ينبني عقاب على ذلك، أو متعلَّق الحرج هو قوله: ﴿أَن تَاكُلُواْ﴾ من قوله: ﴿**وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمُ**﴾ أَيُّهَا الأصحَّاء حرج ﴿**أَن تَاكُلُواْ**﴾ أَيُّهَا الطوائف الثلاث والأصحَّاء، وهو ضعيف، لأنَّ عموم الخطاب في «تَاكُلُوا» وما بعده للطوائف الثلاث تأباه غيبتهم في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَاعْمَى﴾ **والصحيح أنَّ الكلام تمَّ في** «**حَرَجٌ**»، **وذكر كلاما آخر بقوله:** ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمُۥٓ أَن تَاكُلُواْ﴾ ﴿**مِنۢ بُيُوتِكُمُ**﴾ أنتم ومن معكم.

وذكر الأنفس إشارة إلى معنى «عَلَيْكُم» وعلى من في مثل حالكم، وفيه استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، فأولى منه ـ لسلامته من ذلك ـ أن يكون ذِكْرُه إشارة إلى أنَّ الأكل المذكور ـ مع أنَّه لا حرج فيه ـ لا يخلُّ بقدر من له شأن، كما كثر ذكر النفس في ذي الشأن مثل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: 54]، وَقَوله تعالى: «**حرَّمت الظلم على نفسي**».

﴿**أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمُۥٓ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمُۥٓ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمُۥٓ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمُۥٓ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمُۥٓ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمُۥٓ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمُۥٓ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمُ**﴾ كان هؤلاء من أب وأمٍّ أو أحدهما أو من الرضاع ﴿**أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ**﴾ كناية عن الكون تحت اليد من بستان أو نعم بوكالة أو حفظ.

[فقه] يأكل ويؤكِّل ولا يحمل ولا يدَّخر قاله ابن عبَّاس، وكذا سائر الطعام وغيره كما قال السدِّي، والأولاد دخلوا [في المذكورين] لأنَّ بيوتهم بيوت لآبائهم، كما قال ﷺ: «**إنَّ أفضل ما يأكل المرء من كسبه، وإنَّ ولده من كسبه**»[1]

---

(1) رواه **أبو داود** في كتاب الإجارة، باب في الرجل يأكل من مال ولده. رقم: 3530. من حديث عائشة.



وقال: «**أنت ومالك لأبيك**»[1] وقيل: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُم﴾: من مال أولادكم وأزواجكم الذين في بيوتكم، وقيل: ﴿مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾: عبيدكم، عبَّر عنهم بـ«ما».

[صرف] والمفاتح: جمع «مفتح» بدون ألف، وقيل: جمع «مفتاح» بالألف حذفت في الجمع ياء.

﴿**أَوۡ صَدِيقِكُمۡ**﴾ أي أو صديق كُلِّ واحد منكم مِمَّن له صديق، وقيل: يقع على الجماعة كما يقع على المفرد والاثنين، لأنَّه بوزن مصدر السير والصوت. وعلى كلِّ حال لم يقل: أصدقائكم إشارة إلى قلَّة الصديق حتَّى قيل:

صاد الصديق وكاف الكمياء معا … لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا

وإلى أنَّ الاثنينيَّة مرتفعة كأنَّهما واحد في الأكل، وهو أرضى بالتبسُّط من ذوي القرابة، وهو من يصدق في مودَّتك وتصدق في مودَّته، أو ولو لم تصدق أنت.

وقد استغاث الناريُّون بالصديق لا بالولد أو بالوالد فقالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾ [سورة الشعراء: 100ـ101] وقد جعله الله ﷻ مع النفس والأخ والأب، قال أفلاطون: «لا أحبُّ أخي الشقيق إلَّا إذا كان صديقي، وصديقي أحبُّ إليَّ من أخي».

[فقه] وحكم الآية باق على اطمئنان النفس من صاحب المال كما فعلت الصحابة بعده ﷺ، يدخل دار صديقه باستئذان فيسأل جاريته عن كيسه فتعطيه فيأخذ ما شاء، فإذا جاء وأخبرته أعتقها سرورا. ودخل أصحاب الحسن داره باستئذان وأكلوا أطيب طعامه، فدخل فاستنار وجهه فرحا فقال: «هكذا وجدناهم يفعلون» يعني الصحابة، فلا نسخ بحديث: «**لا يحلُّ مال امرئ مسلم إلَّا بطيب نفس**»[2] لأنَّا قد اشترطنا للآية الاطمئنان.

(1) رواه **ابن ماجه** في كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، رقم: 2291. من حديث جابر بن عبد الله.

(2) رواه **أحمد** في مسند البصريِّين، رقم 20172، من حديث أبي حرَّة الرقاشي عن عمِّه.

[فقه] ويدرأ الحدُّ عَمَّن أكل من مال هــؤلاء عندي لأنَّه يدخل جهرا بلا إذن ولا يبالي، وإن كان فيه ساكن استأذن وليس ذلك سرقة.

وكأنَّه قيل: هل نفي الحــرج في الأكل من بيوت هــؤلاء إذا كان مع أهل تلك البيوت أم مطلقا فنزل: ﴿**لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ اَن تَاكُلُواْ جَمِيعًا**﴾ مجتمعين ﴿**اَوَ اَشۡــتَاتًا**﴾ جمع «شتيت» شــذوذا، أو جمع «شــتّ» وهو الأصحُّ، مصدر بمعنى الوصف لا مبالغة إذ لا يوجد فوق الانفراد شيء يسمَّى شتيتا يبالغ إليه.

وقيل: الآية مستأنفة في تشديدهم على أنفسهم أن لا يأكلوا منفردين. كان بنو ليث بن عمرو بن كنانــة يمكث أحدهم يوما أو أكثــر لا يأكل حتَّى يجد ضيفا يأكل معه، وقد وجد الطعام بين يديه مــن الغدوِّ إلى الرواح، وأكثر إبله حفَّل باللبن فلا يشرب حتَّى يمسي ولم يجد من يشــرب معه فيشرب. وكان الخليل عَلَيۡهِ السَّلَام لا يأكل حتَّى يمشي ميلا في طلب من يأكل معه، اتَّخَذَه الله خليلا لذلك في قول.

وأمَّا قوله ﷺ: «**شرُّ الناس من أكل وحده وضرب عبده ومنع رفده**»[1] ففي ذمِّ البخل.

وكان قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لم يأكلوا إلَّا معه، ويدخل الغنيُّ على الفقير يأكل فيدعــوه للأكل، فيقول: لا أزاحمك فــي طعامك وأنا غنيٌّ. وإذا حضر الأعمى الأكل عزلوا له سهمه لِئَلَّا يأكلوا أكثر منه أو الأجود دونه. وكانوا يأكلون فرادى أيضا خوفا أن يأكل أكثــر من صاحبه، أو أن يحصل من أحدهم ما ينفِّر الآخر مثل الزكام والحكَّة، فنزلت الآية نهيا عن ذلك.

(1) رواه **الطبراني** بنفس المعنى ج 10 ص 318 رقــم 10775 و**الهيثمي** في المجمع: ج 8 ص 173 مع زيادة في آخره وأوَّل الحديث عندهم قوله ﷺ: «ألا أنبأكم بشراركم؟» قالوا بلى إن شئت يا رسول الله ﷺ، قال: «إنَّ شراركم الذي ينزل وحده، ويجلد عبده...» من حديث ابن عباس.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ أردتم دخولها، والمراد قيل: البيوت المذكورة بدليل الفاء، ويقاس عليها غيرها، وصرَّح النبيء ﷺ بغيرها، ووجه التنكير أنَّ المعتاد دخول ثلاثة منها أو أكثر لا كلِّها، أو اعتبر كلُّ بيت يدخله.

﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي على أهلها، جعل أهل البيت كنفس الداخل لشدَّة الاتِّصال في الحبِّ للدين الحقِّ، حتَّى إنَّه أبيح الأكل من مال أهلها كأنَّه مال الداخل، ويبعد ما قيل: إنَّه قال: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ لأنَّك إذا سلَّمت ردَّ عليك السلام بسلامك فكأنَّك سلَّمت على نفسك. أو البيوت: المساجد، أو بيوت الداخلين، أو بيوت الكفَّار، أو كلُّ الثلاثة، فالأنفس على ظاهره.

[فقه] فقد ورد أنَّ داخل المسجد يقول: السلام علينا من ربِّنا وعلى عباد الله الصالحين، وأنَّه إذا دخل بيتا لا أحد فيه يقول: السلام علينا من رَبِّنا، وأنَّه إذا دخل بيت الكافر قال: السلام علينا من ربِّنا، وشهر: «السلام على من اتَّبَعَ الهدى» وقد يقال: هذا المشهور يعمل به في غير البيوت، والمأخوذ به أن لا يسلِّم على أهل الذمَّة، قال أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «**لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقوكم في الطريق فاضطرُّوهم إلى أضيقها**»[1]. قال عليٌّ: لا تسلِّموا على اليهود والنصارى والمجوس.

وفي الحديث: «**إذا سلَّم عليكم أهل الكتاب فلا تزيدوا على قولكم وعليكم**»[2]. قال بعض قومنا: إذا مررت بقوم فيهم مؤمنون وكفَّار فقل: «السلام عليكم» تريد المؤمنين، أو قل: «السلام على من اتَّبَعَ الهدى»، وإذا أردت كتابة إلى مشرك فاكتب: «السلام على من اتَّبَعَ الهدى».

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب السلام (4) باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام... رقم 13 (2167)، و**أبو داود** في كتاب الأدب، باب في السلام على أهل الذِّمَّة، رقم 5205. من حديث أبي هريرة.

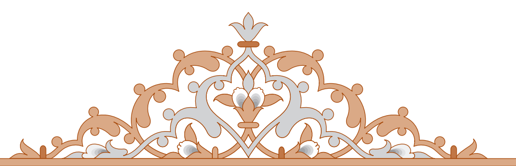
(2) رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (59) باب: ومن سورة المجادلة، رقم 3301. و**ابن ماجه** في كتاب الأدب (13) باب ردُّ السلام على أهل الذمَّة، رقم 3764. من حديث أنس.

وزعموا عن أبي أمامة الباهلي أنَّه لا يمرُّ على كتابيٍّ إلَّا سلَّم عليه، وأنَّه قال: أمرنا رسول الله ﷺ بإفشاء السلام على كلِّ مؤمن ومعاهد. وعن ابن مسعود: أنَّه صحب دهاقين من المشركين في السفر، فَلَمَّا دخلوا الكوفة افترق معهم فسلَّم عليهم، فقيل له؟ فقال: إنَّ لهم حقُّ الصحبة والسلام السلامة يدعى بها، وإن أريد اسم الله سبحانه فلْيَعْنِ أنَّ الله عليكم رقيب.

﴿**تَحِيَّةً**﴾ مفعول مطلق لـ«سَلِّمُوا» كقمت وقوفا، وأصله: الدعاء بالحياة واستعمل لكلِّ خير ﴿**مِّنْ عِندِ اللهِ**﴾ نعت «تَحِيَّةً»، أو متعلِّق به، والأوَّل أولى ﴿**مُبَارَكَةً**﴾ يكثر خيرها وأجرها بعشر حسنات، ومع الرحمة بعشرين، ومع البركة بثلاثين ﴿**طَيِّبَةً**﴾ حسنة يطيب بها نفس السامع، وزاده بعض في التَّحِيَّة. وأوَّل «التَّحِيَّات» مأخوذ من الآية كما قال ابن عبَّاس.

﴿**كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الاٰيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ ما فيها من الشرائع والأحكام وتعملون بها. وفي الأثر: «إذا دخلت على أهل بيتك فسلِّم عليهم، وإن لم يك في البيت أحد فقل: «السلام علينا من ربِّنا وعلى عباد الله الصالحين»، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ﴾» والآية تقتضي الأمرين جميعا: التسليم على الأهل إن كان فيه أحد، وعلى نفسه إن لم يكن فيه أحد.

وعن قتادة: «إذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، فإنَّه يؤمر بذلك، وإن كان فيه أحد فأهلك أحقُّ بسلامك». قال إبراهيم النخعي: «إذا دخلت بيتك وسلَّمت قال الشيطان: لا مقيل لي، وإذا سمَّى على طعامه قال: لا مقيل ولا مطعم، وإذا سمَّى على شرابه قال: لا مقيل ولا مطعم ولا مشرب».



﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (62) لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ (64)﴾

أدب خطاب النبيء ﷺ والتحذير من مخالفة أمره

[نحو] ﴿**إِنَّمَا الْمُومِنُونَ الذِينَ ءَامَنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ**﴾ وعطف على الصلة قوله ﷻ: ﴿**وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَاذِنُوهُ**﴾ لأنَّه إذا لم يكن جواب الشرط إنشاء جاز التقييد به، فيكون أداة الشرط وشرطها وجوابها خبرا للمبتدأ، أو لناسخ، أو مفعولا ثانيا لِمَا يدخل على المبتدأ أو الخبر، أو مفعولا ثالثا وحالا ونعتا وصلة كما هنا، كأنَّه قيل: الجامعون بين الإيمان بالله ورسوله وبين الاستئذان إذا أرادوا الذهاب عن أمره الجامع.

﴿**إِنَّ الذِينَ يَسْتَاذِنُونَكَ**﴾ في الذهاب وفي كلِّ ما يجب فيه الاستئذان ﴿**أُوْلَئِكَ الذِينَ يُومِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ**﴾ وأمَّا من لا يستأذنك فإيمانه كلا إيمان.

﴿**فَإِذَا اسْتَـٰذَنُوكَ**﴾ استأذنك أصحابك ﴿**لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ**﴾ لبعض مهمَّاتهم أن يذهبوا إليه ﴿**فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ**﴾ ولا تأذن لمن لم تشأ وإن شئت فأْذن له أيضا.

[فقه] وهذا تفويض في الاجتهاد، وهذا شامل بالقياس للمجتهد بعده ﷺ، لأنَّ اختيار ما شاءه ﷺ أو شاءه المجتهد بعده قصد للصواب وتحرٍّ له لا حظَّ له ولا تشهٍّ، فالنبيء ﷺ فوِّض أن يجتهد فيمن يصلح أن يأذن له ومن لا يصلح.

وأمَّا أن يقال: احكم بما شئت بلا تحرٍّ فلا يجوز، إلَّا إن استوى الأمران ولم يمكن الترجيح بوجه مَّا، وإن استويا كذلك فإن مالت النفس لأحدهما فهو الذي يتركه إذا مالت إليه لغير أمر شرعي، واختلف إن قيل: احكم بما شئت تشهِّيا ألا يجوز أم يجوز؟ أم للنبيء خَاصَّةً ولم يقع منه، أو وقع؟ أقوال.

﴿**وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ**﴾ لأنَّهم أطاعوك واستأذنوك، وهل جزاء الإحسان إلَّا الإحسان، أو لأنَّ الاستئذان ولو لعذر قويٍّ لا يخلو من شائبة أمر دنيويٍّ، ولو بالفرح للإذن، إذ لم يحزنوا لذلك الاستئذان المعقب للإذن. ويلتحق به ﷺ في ذلك سائر الأَيمَّة، ومن تولَّى الأمر لوجه الله مخلصا، ويستأذن قطعا في الانصراف عن الغزو ﴿**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ يقبل الأعذار.

﴿**لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرَّسُولِ**﴾ إيَّاكُم إلى شيء فعلا كان أو تركا ﴿**بَيْنَكُمْ**﴾ متعلِّق بـ«تَجْعَلُوا»، أي لا تعتقدوا فيما بينكم أَيُّهَا المؤمنون، وكلُّ واحد منهيٌّ عن ذلك الاعتقاد، فالنهي متوزِّع فيهم أو فيما بينكم وبينه ﷺ، فالكاف على هذا له ولهم؛ أو في أمر هو بينكم.

﴿**كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا**﴾ إلى فعل شيء أو تركه، فإذا دعاكم فلا تقعدوا، وإذا أجبتم فلا تنصرفوا إلَّا بإذنه، أو لا تعتقدوا بينكم أنَّ دعاء الرسول ربَّه كدعاء صغيركم كبيركم وفقيركم غنيَّكم، يجيب ويردُّ، فإنَّ دعاءه ﷺ ربَّه مستجاب غالبا والردُّ قليل.

أو مستجاب كلُّه إمَّا بنفسه أو عوضه، كما دعا ربَّه أن لا يذيق أمَّته بعضا بأس بعض، وأذاقها وعوَّضها للآخرة خيرا مِمَّا طلب، وصرف البلاء والشفاعة وثواب المصائب.

أو لا تعتقدوا دعاءه بينكم وبينه كدعاء بعضكم بعضا يا زيد يا عمرو، لا تقولوا: يا محمَّد ويا ابن عبد الله، بل: يا رسول الله، ويا نبيء الله، واختلف في يا أبا القاسم، فنهى عنه ابن عبَّاس، وأجازه بعض، وذلك في حياته وبعد موته.

﴿**قَدْ**﴾ للتحقيق ولا حاجة إلى جعلها للتكثير حقيقة أو استعارة للفظ القلَّة للكثرة، ولا إلى جعلها لتقليل المتسلِّلين في جنب معلوماته ﴿**يَعْلَمُ اللّهُ الذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ**﴾ يخرجون قليلا قليلا عن الخطبة في خفَّة وخفاء. و«مِنْ» للتبعيض، أو للابتداء ﴿**لِوَاذًا**﴾ مفعول مطلق على حذف مضاف، أي تسلُّل لواذ، أو لتضمين «يَتَسَلَّلُ» معنى يلاوذ، أو حال، أي ذوي لواذ، أو ملاوذين، واللواذ والملاوذة: المساترة.

يشير بعض المؤمنين إلى رسول الله ﷺ بالخروج لنحو رعاف فيلحقه منافق يوهم أنَّه من أتباعه، أو يشير منافق بنحو رعاف كذبا فيأذن له فقد يتبعه غيره كذلك. والخطبة ثقيلة على المنافقين.

[صرف] وصحَّت الواو في لفظ «لِوَاذًا» بعد كسرة لصحَّتها في الفعل وهو: «لاوذ ويلاوذ»، ولو كان «فِعَالاً» من «لاذ يلوذ» لقيل: لياذا، بقلبها ياء للكسرة قبلها، لأنَّها أعلَّت في الماضي، وكذا لو كان مصدرا لـ«لاذ» الثلاثي.

﴿**فَلْيَحْذَرِ الذِينَ يُخَالِفُونَ عَنَ اَمْرِهِ**﴾ يعرضون أو يتباعدون أو يحيدون أو يخرجون، ولذلك تعدَّى بـ«عَنْ»، وأصله التعدِّي بنفسه، وذلك أولى من أن يبقى على ظاهره، وأن تجعل «عَنْ» زائدة في مفعوله. والهاء لله ﷻ أو للرسول.

والأمــر للطلب في الوجهين ويجوز تفســيره بالشــأن علــى أنَّ الضمير للرســول، والآية على العموم حتَّى إنَّها شــاملة لمن لا يســلِّم من الرجال أو النساء عند إرادة الدخول في بيوت الناس.

﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ بــلاء في الدنيا أو قتل أو جور ســلطان أو قتل ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَــذَابٌ اَلِيمٌ﴾ في الآخرة، أو الفتنة غير القتــل والعذاب القتل، وهو ضعيف لعدم تبادر إرادة القتل بالعذاب.

[أصول الفقه] و«أو» لمنع الخلوِّ لا لمنع الجمع، لجواز أن يصيبهم ذلك كلُّه، والآية **دليل علــى أنَّ الأمر المطلق للوجوب** لأنَّ قولــه: ﴿اَمْرِهِ﴾ بمعنى ضد النهي، أو ما يشمل النهي، بل النهي أمر أيضا لأنَّه أمر بالترك، وقد فسَّرته بالطلب، والطلب يشــمل طلب الفعل وطلب الترك، فــإذا كان مخالفة طلبه توجب الفتنة أو العذاب الأليم تبيَّن أنَّ ذلك الطلــب إيجاب، وإذا كان الأمر غير مطلق بــأن صرفه دليل إلــى الندب أو نحــوه مِمَّا ليــس وجوبا، فليس للوجــوب. وإن جعلنا «الأمر» واحــد «الأمور» وهو ما تقــدَّم في الآيات فلا دليل، إلَّا أنَّ هذا ضعيف.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلهِ﴾ لا لغيــره ﴿مَــا فِــي السَّــمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ من الأجســام والأعراض، والإيجــاد والإعدام، والإعــادة والتصرُّفات ﴿قَــدْ يَعْلَمُ﴾ متعدٍّ لواحــد بمعنى يعرف، لجــواز المعرفة في صفته علــى الصحيح ولا تختصُّ بالحدوث ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيُّهــا المكلَّفون من الأحوال، كالموافقة والمخالفة والإخلاص، والنفاق وغير ذلــك، ودخل في الخطــاب المنافقون تغليبا لأنَّ الخطاب قبلُ للمؤمنين.

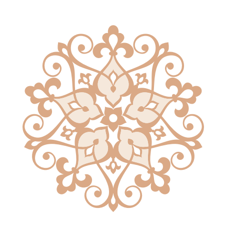
[قلــت:] و«قَــدْ» للتحقيق، وَمِمَّا شــهر أنَّهــا للتقليل بالنســبة إلى باقي معلوماته، بمعنــى أنَّ ما أنتم عليه من أقلِّ معلوماتــه، ولا يصحُّ، لأنَّ التقليل بعد مثلا يعتبر فــي نفس مدخولها، نحــو: قد يقعد إذا كان قعــوده قليلا، لا

بمتعلِّق مدخولها، وهو هنا «مَـا أَنتُمْ عَلَيْهِ»، وهذا كقولهـم المبالغة في قوله تعالى: ﴿وَمَـا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سـورة فصِّلت: 46] راجعـة إلى النفي، كيف تصحُّ المبالغة من مدلول لفظ إلى آخر؟ وهـذا رجوع من آخر إلى أوَّل وآيتنا من أوَّل لآخر.

[نحو] ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ عطـف على «مَا»، فهو مفعول به، أي يعلم ما أنتم عليه، ونفس اليوم؛ ويجوز عطفه على الآن محذوفا متعلِّقا بـ«عَلَيْهِ» أو بمتعلَّقه، أي يعلـم ما أنتم عليه الآن ويـوم، فيكون ظرفـا، وأن يكون ظرفا لمحذوف، أي وسيحاسبهم يوم. والواو للمنافقين، وإن أعيد «أَنتُمْ» للمنافقين كان التفـات من الغيبة إلى الخطـاب في «أَنتُمْ»، والتفـات من الخطاب إلى الغيبة في «يُرْجَعُونَ».

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ﴾ بعملهم، أو بما عملوه، ثمَّ يجازيهم عليه، أو التنبئة بما عملوا عبارة عن جزائهم ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا بالبعض فقط.

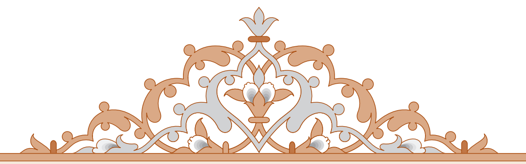
والله الموفِّق المستعان



25

تفسير سورة الفرقان

مكّيّة إلّا الآيات 68 ـ 70 فمدنيّة، وآياتها 77 ـ نزلت بعد سورة يس



﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ٣﴾

نزول القرآن إنذارا للناس ودعوة إلى وحدانيَّة اللّٰه

﴿**تَبَارَكَ**﴾ علا علوًّا عظيما، شأنا وصفة وفعلا عن صفات الخلق.

[لغة] وأخذت المبالغة من التفاعل، لأنَّ أصله بين اثنين كلٌّ يستخرج طاقته، ومن البركة بمعنى العلوّ قولُ العرب: تباركت النخلة أي تعالت. وعلا أعرابيٌّ ربوة فقال: «تباركت عليكم» أي تعاليت، وهو المتبادر من قول الشاعر:

. . . . إلى الجذع جذع النخلة المتبارك[1]

(1) لم نقف على قائله. وقد أورده **ابن قتيبة** في غريب الحديث. وقال: «أنشدني بعض أصحاب اللغة بيتا حفظت عجزه». ج1، ص169.

وفي الثلاثة استعمال «تَبَارَكَ» في غير الله، ومنه قراءة أُبي: «تباركت الأرض ومن حولها»[1]، وفي الثالثة استعمال غير الماضي، وكلُّ ذلك قليل.

[لغة] والعلوُّ علوُّ معنًى في الآية، كما فسَّرها الخليل بتمجّد، والضحَّاك بتعظَّم، وقيل: ﴿تَبَارَكَ﴾: تزايد خيره وعطاؤه بأن دام ولا يزال معطيا، كما يقال لمحبس الماء: بركة، بكسر ففتح، وبرك البعير: ثبت في الأرض ببطنه وصدره، وبراكاء الحرب: موضعها الذي يلازمه الشجعان.

﴿**الذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ**﴾ شيئا فشيئا، وهو القرآن، لأنَّه فارق بين الحقِّ والباطل بالبيان، والمحقِّ والمبطل بالإعجاز؛ مصدر بمعنى «فاعِل» أي فارق، أو لأنَّه مفروق في النزول شَيْئًا فَشَيْئًا، كما قال الله ﷻ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ [سورة الإسراء: 106].

أو في معانيه أحكاما وأخبارا، فهو بمعنى «مفعول»، أو كأنَّه نفس الفرق في المعنيين، كقوله:

.... فإنَّما هي إقبال وإدبار[2]

وذلك أصل ثمَّ جعل علما.

﴿**عَلَىٰ عَبْدِهِ**﴾ محمَّد ﷺ، وهو تشريف له ﷺ بعظم عبوديَّته لله تعالى، وردٌّ على النصارى إذ جعلوا الرسول وهو عيسى إلها، الرسول لا يكون إلَّا عبدا لمرسِله.

وقيل: الفرقان كتب الله، والرسول الرسل، كما قرأ ابن الزبير ﴿على عباده﴾ أي رسله، ونقول: العباد سيِّدنا محمَّد ﷺ وأمَّته، أي أنزل في شأنهم.

﴿**لِيَكُونَ**﴾ الفرقان أو الله الذي نزَّله، والعالَمون أقوام الرسل على قراءة ابن

---

(1) أي في آية رقم 6 من سورة النمل: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

(2) شطر بيت للخنساء أَوَّله:

ترتع ما رتعت حتَّى إذا أدركت فإنَّما هي إقبال وإدبار

بديع أميل: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة العَرَبِيَّة: مج 3، ص 177.

الزبير، أو يكــون الفرقان أو الله أو عبــده، وهو أولى لقربه ومباشــرته الإنذار، والعالمون أمَّته ﷺ على قراءة غيره، ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ الإنس والجنِّ، والكلُّ أمَّته ﷺ إلى يوم القيامة، وقيــل: والملائكة، وقيل: كلٌّ والجمــادات، لخلق الله ﷻ لها تمييزا، وذلك إعظام لشأنه ﷺ بإدخال الكلِّ تحت دعوته على غيره من الرسل.

﴿نَذِيرًا﴾ لم يقل: بشيرا، لأنَّ السورة مشــتملة على ذكر المعاندين، ففيه براعة الاســتهلال، وقدَّم الظرف للتشــويق إلى متعلَّقه، وللفاصلة لا للحصر، لأنَّ المقام ليس لذكر أنَّه ما أرسل إلَّا إلى الجنِّ والإنس.

[بلاغة] وإذا ذكرنا التقديم للفاصلة فزيادة على حكمة لأنَّه كما يطلب تزيين المعنى يطلب تزيين اللفظ بالفاصل، بل لو قدِّم للفاصلة فقط تزيينا للفظ لجاز مع قوَّة المعنى، وإنَّما الممنوع أن يكون في تقديمه للفاصلة فقط ركَّة المعنى.

﴿الذِي﴾ نعت «الذِي نَزَّلَ»، أو بدله أو بيانه، لأنَّ الفصل بغير أجنبي، أو يقدَّر: هو الذي، أو عظِّموا الذي ﴿لَهُ﴾ لا لغيره ﴿مُلْكُ السَّــمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ إيجادا وإبقاء وإفناء وزيادة.

﴿وَلَــمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ إذ كان ما ســواه ملكا له، والولــد لا يكون مملوكا لأبيه، فلم يُنزل أحدًا منزلة ولــد، أو لم يتَّخذ عيســى أو عزيرا أو الملائكة أولادا كما زعم الكفرة.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَــرِيكٌ فِي الْمُلْــكِ﴾ تأكيد لقوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّــمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ بالردِّ على الثنويَّة القائلين بتعدُّد الآلهة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أوجده أي أراد إيجاده فظهر الترتيب في قوله: ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ أي فخلقه على كَيفِيَّة مخصوصة وخصائص وأفعال لائقة به، أو خلق أصله ففصَّله كما يشاء أو خلقه فأدامه إلى أجله، أو الفاء للترتيب الذكري.

قدَّره تقديرا بديعا إذ جعل كلَّ ما خلق على كَيفِيَّة مخصوصة تليق به، ألا ترى النحل كيف يصنع؟ والعنكبوت كيف ينســج ويصطاد؟ والإنسان كيف

يتفكَّر ويستنبط الصنائع؟ والآية ردٌّ على الثنوية القائلين: خالق الشرِّ إبليس، وخالق الخير الله، وعلى المعتزلة [القائلين:] خالق كُلِّ فعل فاعله.

﴿**وَاتَّخَذُواْ**﴾ أي المشركون من الأمَّة والأمم، أو المعهودون من الأُمَّة، وعلى كلِّ حال دلَّ عليهم بالاتِّخاذ للآلهة، ولو لم يجر لهم ذكر، كما لو قيل: يأخذون الأجرة على الحجامة، لعُلم أنَّ المراد الحجَّامون، ولو لم يجر لهم ذكر، ولا سيما أنَّه ناسب المشركين قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ﴾، وقوله: ﴿نَذِيرًا﴾ ودخولهم في العالمين.

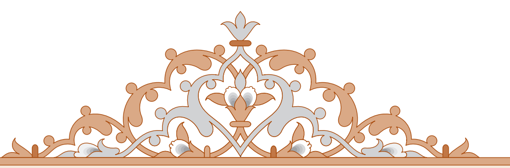
﴿**مِن دُونِهِ ءَالِهَةً**﴾ أصناما أو ملائكة أو آدميِّين ﴿**لَّا يَخْلُقُونَ**﴾ نعت «آلِهَةً» ﴿**شَيْئًا**﴾ مَّا، ولو في غاية الحقارة، فكيف يكون إلها ما لا يخلق؟ بل هو مخلوق كما قال: ﴿**وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾ خلقهم الله ﷻ، فالمضارع لاستحضار الحال الماضية لتكون كالمشاهد، أو يخلقها شيئا فشيئا فالمضارع للتجدُّد فشمل الماضي، وفي المضارع مشاكلة للمضارع قبله.

والخلق في القرآن وَالسُّنَّة وسائر الشرع: الإيجاد بعد العدم، لا بمعنى التصوير إلَّا لدليل، والمعنى هنا قابل للتصوير على أنَّ المراد الأصنام، فإنَّ الأصنام يصوِّرها النجَّارون وأهل الصنعة، وما كان من تصوير البشر لا يكون إلها فكذا غير البشر، مع أنَّ فعل النجَّار والصانع وما صوَّراه وأشكاله مخلوقة لله سبحانه، ومع أنَّ الذين أنذرهم النبيء ﷺ ينحتون الأصنام.

وصيغة العقلاء في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ وفي ﴿لَا يَخْلُقُونَ﴾ و﴿يُخْلَقُونَ﴾ مجاراة للمشركين في جعلهم الأصنام عقلاء، أو كالعقلاء، على أنَّ المراد بالآلهة الأصنام، وللتغليب على أنَّ المراد أعمُّ.

وكذا في قوله: ﴿**وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ**﴾ لأنفسهم ولا لغيرهم ﴿**مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا**﴾ بعثا، وإذا لم يملكوا لأنفسهم فأولى أن لا يملكوا لغيرهم، والمراد دفع ضرٍّ وجلب نفع، فحُذف المضافان.

[بلاغة] ولا يخفى أنَّ طلب السلامة مقدَّم على طلب الفائدة فقدِّم دفع الضرِّ، كما شهر أنَّ التخلي قبل التحلِّي. وما قضى الله ﷻ جرى عليهم بكسب أو بغيره، ولا سيما الأصنام التي لا قدرة لها على شيء، بخلاف البهائم فإنَّها تدفع الضرَّ وتجلب النفع بإذن الله وخلقه ما يشاء من ذلك الدفع والجلب.



﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ④ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑤ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑥ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ⑦ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ⑧ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ⑨ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ⑩﴾

مطاعن المشركين في القرآن وفي النبيء عليه السلام

﴿**وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ**﴾ كفَّار قريش وسائر العرب، كالنضر بن الحارث وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد، ﴿**إِنْ هَٰذَآ**﴾ أي هذا القرآن وسائر ما يقوله ﷺ من الوحي، وفي إشارة القرب تحقير ﴿**إِلَّآ إِفْكٌ**﴾ كذب محتال فيه ﴿**افْتَرَيٰهُ**﴾ محمَّد ﷺ وليس من الله.

﴿**وَأَعَانَهُ**﴾ أعان محمَّدًا ﴿**عَلَيْهِ**﴾ أي على هذا الإفك أو على افترائه ﴿**قَوْمٌ ـ اخَرُونَ**﴾ اليهوديُّون نسبا أو ديانة، بمعنى أنَّهم يخبرونه بما مضى وذكر في التوراة، فيقول به إنَّه من الله عليه.

[سيرة] كما قيل: إنَّ عدَّاسا وعائشا مولى حويطب بن عبد العزَّى، ويسارا مولى العلاء بن الحضرمي، وجبرا مولى عامر، وأبا فكيهة الرومي

قرؤوا التوراة وأسلموا وجالسوه ﷺ، فتوهَّم مشـــركو العرب أو تعمَّدوا أنَّ ما يقوله ﷺ منهم لا وحي من الله.

كيف يتلقَّى أفصح العـــرب ﷺ كلاما من العجم الذيـــن لا يعرفون كلام العرب؟ كما قال الله ﷻ: ﴿لِسَانُ الذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [ســورة النحل: 103] فهؤلاء لا يفهم كلامهم فيترجمـــه بِالعَرَبِيَّةِ، ولا ينافي كونهم مؤمنين لفظ «آخَرُونَ» لأنَّ كلًّا استحقَّ اسم القوم فذاك قوم وهذا قوم.

﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ مفعـــول به، تقول: جئته، أي حضرته ووصلته، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّـــا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ [ســورة البقرة: 89] ولا حاجة إلى تقدير الباء ولا إلى جعله حالا أي ظالمين، أو ذوي ظلم أو مبالغة. والتنكير فيه وفي قوله: ﴿وَزُورًا﴾ للتعظيم، إذ جعلوا عيـــن الحقِّ ـ الذي لا احتمال فيه ويدركه كلُّ عاقل إلَّا من عاند ـ باطلا، ظلموا بذلك أنفســـهم، والنبيء ﷺ والمؤمنين والقرآن والإسلام وجعلوه كذبا.

والكذب زور لميله عن الحقِّ، والزور: الميل. والفاء للترتيب الذكري، أو على معنى أنَّه بعد قولهم ذلك يذكرون بأنَّهم جاؤوا ظلما وزورا. ويضعف أن يكون ضمير «جَاءُوا» للقوم الآخرين، وأنَّه من كلام الكفرة، أي جاء المُعِينون له ظلما وزورا بإعانتهم محَمَّدًا ﷺ.

﴿وَقَالُواْ أَسَـــاطِيرُ الاَوَّلِينَ﴾ هـــذا أو هذه أو هي أســـاطير الأوَّلين، جمع أسطورة أو أســـطار، كتبه الأوَّلون وقرئ لمحمَّد فنسبه إلى الوحي، فتارة قالوا ﴿هَذَآ إِفْـــكٌ﴾ وتارة قالوا: ﴿أَسَـــاطِيرُ الاَوَّلِينَ﴾ أو فريق يقـــول: إفك، وفريق يقول: أساطير، أو ذلك الإفك مسطور.

﴿اكْتَتَبَهَـــا﴾ طلب أن تكتب لـــه، أو أمر بكتابتها، أو اشـــتدَّ في أن كتبها لنفسه، قالوا كذبا إذ علموا أنَّه لا يكتب، أو ظنُّوا أنَّه يكتب، وذلك لأنَّه أشهر من أن يفسَّر الاكتتاب بجمعها من كتب.



[نحو] والجملة خبر ثان، أو حال مقرونة بقــد محذوفة، أو غير مقرونة، والحالية لا تصحُّ من الخبر، إلَّا إن كان مبتدأً اســمُ إشارةٍ أو نحوه، بأن يقدَّر هذه أســاطير، أو هذا أســاطير، بناء على جواز حذف عامل الحال المعنوي كالإشارة هنا.

﴿**فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ**﴾ تلقى عليه بعد كتابتهــا ليحفظها، على أنَّه لا يكتب، اللهمَّ إلَّا أن يعان بالإلقاء ولو عرف الكتابة، ويجوز تقدير الاكتتاب بالإرادة، أي أراد اكتتابها فهي تملى عليه ليكتبها، أو تكتب بأمره.

﴿**بُكْرَةً**﴾ صبحا ﴿**وَأَصِيلاً**﴾ عشيًّا، والمراد عموم الأوقات، فجمعها بذكر الطرفيــن، أو أراد خصوص أوَّل النهــار وآخره تكتب له إخفــاء عن الناس. ويضعف أن يكــون «اكْتَتَبَهَا» من كلام الله، والوقف علــى ما قبلها على تقدير همزة الاستفهام، إذ لا دليل على ذلك.

﴿**قُلَ اَنزَلَهُ**﴾ أنزل الذي تقولون إنَّه إفك وأســاطير ﴿**الذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّــمَاوَاتِ وَالَارْضِ**﴾ ما خفي في دواخلها، وفي قلــوب أهلهما، وغير ذلك وما تضمَّنته الأشياء.

﴿**إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ لولا عظمة مغفرته ورحمته لعاجلكم بالعقاب، فقد اســتوجبتموه، وفي ذلك كناية عن الاقتدار العظيم، إذ لا يوصف العاجز وضعيف القدرة على العفو وترك العقاب، وليس المقام مقاما لإطماعهم، لأنَّه في شأن عتوِّهم.

﴿**وَقَالُواْ مَالِ هَذَا الرَّسُــولِ يَاكُلُ الطَّعَامَ**﴾... إلــخ يأكل كما نأكل ويدخل الســوق لشــأنه كما ندخلها؟ والنبيء لا يأكل ولا يدخلها، هــذا جهل منهم، ويحتمل الكناية عن أنَّ الرســول ملك لا يأكل ويدخل السوق للكسب وأنت تدخلها وتأكل فلست رسولا.

[سيرة] بَعَثَ نَبِيهٌ ومُنبَّهٌ ابنا الحجاج، والعاصي بن وائل وأميَّة بن خلف وعبد الله بن أبي أميَّة وأبو جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، وزمعة بن الأسود، والأسود بن المطلب، وأبو البحتري، والنضر بن الحارث، وأبو سفيان بن حرب، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، إلى رسول الله ﷺ فجاءهم، فقالوا: إن طلبت مالا بهذا الحديث جمعناه لك، أو شرفا سوَّدناك، أو ملكا ملَّكناك، أو سحرت أو تبعك جنِّيٌّ داويناك، فقال ﷺ: «لا أطلب شيئا من ذلك، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولا وأنزل عليَّ كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلَّغت رسالة ربِّي ونصحت لكم، فإن قبلتم فهو حظُّكم دنيا وأخرى وإلَّا أصبر لأمر الله حتَّى يحكم الله عَزَّ وَجَلَّ بيني وبينكم».

قالوا: فسل ربَّك أن يبعث معك ملكا يصدِّقك وأن يجعل لك جنانا وقصورا من ذهب وفضَّة، فلا تلتمس المعاش بالأسواق وغيرها كما نراك، فقال: لا أسأله ذلك إذ لم يأمرني به.

[رسم مصحفي] واللام في ﴿مَالِ﴾ في الخطِّ مفصولة في مصحف الإمام، وهي حرف جرٍّ وتتبَّعت خطَّ القرآن فوجدت فيه تنبيها في مواضع على الأصل المهجور، ولام الجرِّ كلمة على حدة أصلها أن تكتب مفصولة.

وعنوا بالإشارة والاستفهام، و«الرَّسُولِ» التهكُّم. و«يَاكُلُ» حال من «الرَّسُولِ»، وناصبه ثبت، أو «الرسول» لنيابته عنه. ﴿**وَيَمْشِي فِي الَاسْوَاقِ**﴾ لمعيشته، نقول: صدَّقهم الله في أنَّه يدخلها كما صدقوا في أنَّه يأكل.

[فقه] فيجوز للأئمَّة والعلماء والصلحاء دخول الأسواق لحوائجهم فإن رأوا منكرا غيَّروه وأمروا بالمعروف، فإن خافوا المداراة في البيع والشراء فلا يلوهما [بأنفسهم].

﴿**لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا**﴾ تحضيض بحسب اللفظ للملك أن ينزل إليه، وله ﷺ بحسب المعنى أن يجتهد في طلب نزول ملك إليه، وكذا في

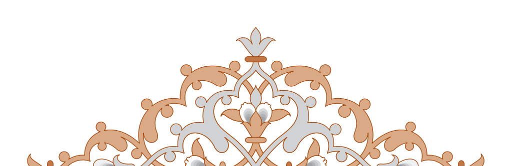
قوله: ﴿اَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ اَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾ بستان ﴿يَاكُلُ مِنْهَا﴾ تحضيض لله ﷻ أن يلقي إليه كنزا تعالى عن أن يحضضه غيره، وعن هذه العبارة، وتحضيض للجنَّة أن تكون له، وفي المعنى تحضيض له ﷺ أن يسعى في طلب أن يلقي الله إليه كنزا، أو يعطي له جنَّة ليستغني عن دخول الأسواق، والمراد بـ﴿يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ يخرج إليه، وعبَّر به لمناسبة ﴿أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ لأنَّ الكنز في الأرض، ويجوز أن يراد بالكنز مال أخفاه الله في السماء له، أو في الجوِّ أو حيث شاء الله من العلويَّات، و«كان» بالمضارع وكذا كون الجنَّة للتكرير، أي يلقى إليه كنز بعد كنز ما دام حيًّا، وتكون له جنَّة بعد أخرى على طول السنة، كلَّما فنيت ثمار جنَّة كانت له أخرى، تشتمل على الثمار في كلِّ يوم، أو عبَّر بالماضي أوَّلا لأنَّه تثبت رسالته بملك يلازمه وتتمُّ أوَّلا به، ويستقبل المعاش بعد ذلك.

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ للمؤمنين، الأصل: وقالوا، فوضع الظاهر موضع المضمر ليصفهم بالظلم الذي هو أوخم سوء وأقبحه، إذ نسبوا إلى الكذب من هو أبعد خلق الله عنه، وإذ نفوا الرسالة بمجرَّد دخول السوق والأكل، ويجوز أن يكون الظاهر على أصله على معنى: وقال الكاملون في الظلم.

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ فعل به ما اختلَّ به عقله، فكان يدَّعي ما ليس له من الرسالة، أو أصيب سحره أي رئته فاختلَّ عقله، كما يقال: ركَبْته ـ بفتح الكاف ـ: أصبت ركبته، ورأسته: أصبت رأسه، من الاشتقاق من اسم العين.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الَامْثَالَ﴾ تعجيب له ﷺ بقولهم في شأنه أقوالا غريبة كالأمثال، وذلك متضمِّن للتسلية، إذ يتنفس عنه بذكر أنَّه محقٌّ، وأنَّهم في غاية البطالة ﴿فَضَلُّواْ﴾ صاروا بسبب ذلك في الضلال هكذا، وتحيَّروا من قول إلى قول في الباطل، أو ضلُّوا عن الحقِّ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ يثبت لهم به أنَّك مبطل، أو سبيلا إلى الهدى.

﴿**تَبَارَكَ الذِي إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ**﴾ في الدنيا ﴿**خَيْرًا مِّن ذَلِكَ**﴾ الذي ذكروه من إلقاء الكنز الواحد المستمرِّ أو المتكرِّر، وحصول الجنَّة الواحدة المستمرَّة أو المتكـــرِّرة ﴿**جَنَّاتٍ**﴾ متعدِّدة بمـــرَّة واحدة لا تخلو من ثمـــار في وقت مَّا ﴿**تَجْرِي مِن تَحْتِهَـــا الاَنْهَارُ**﴾ لكلِّ جنَّة نهر ﴿**وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورَ ا**﴾ مســـاكن رفيعة على حدة، وأولى من هذا أنَّ في كلِّ جنَّة مســـكنا رفيعا. وجزم «يَجْعَلْ» عطفا على محلِّ «جَعَلَ».



﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۝١٥ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ۝١٦﴾

إنكار المشركين يوم القيامة وحالهم فيه ومقارنتهم بأهل الجنَّة

﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ**﴾ إضراب انتقال كلام إلى ذكرهم بما لا يبالون معه بضلال مَّا، وهو التكذيب بالساعة التي يعاقبون فيها، وهي يوم القيامة، فهم لا يخافون العقاب لانتفائها عندهم، أو إلى إنكار ما اتَّفَقَ عليه الرسل وهو البعث، أو إلى تكذيب الله ﷻ لو كان تكذيبا له ﷺ، وذلك أنَّ الله تعالى قال في حديث قدسيٍّ: «**كذَّبني عبدي ولم يكن له ذلك، زعم أنِّي لا أقدر أن أعيده كما كان**»[1]، وذلك في حديث طويل في البخاري.

﴿**وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ**﴾ الأصل: وأعتدنا لمن كذَّب بها، وأظهر بالموصول ليذكر بصلته ـ وهي التكذيب ـ موجب الاعتياد، ويكرِّر ذكرهم

(1) رواه **البخاري** في كتاب التفسير، سورة الإخلاص، رقم: 4690. عن أبي هريرة عن النبيء ﷺ قال: قال الله تعالى: «كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأمَّا تكذيبه إيَّاي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أَوَّل الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأمَّا شتمه إيَّاي فقوله: اتَّخَذَ الله ولدا وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفؤا أحد».

بالقبيح، وبالساعة ليزيد لها فخامة، أو من كذَّب بها يعمُّهم وغيرهم فيدخلون أوَّلا وبالذات، فيكون كالحجَّة كأنَّه أعتدنا لمن كذَّب بها وأنتم مكذِّبون بها.

﴿**سَعِيرًا**﴾ نارا مسعورة أي موقدة، كما يدلُّ له مقام الوعيد، واللفظ الموضوع للإيعاد، كامرأة كحيل، أي مكحولة.

[احتمالات ضعيفة] ولا حاجة إلى جعله عَلَما لجهنَّم أو لدركة منها، وأنَّه نوِّن مع العلميَّة، والتأنيث للفاصلة، وأنَّه إذا دخلت عليه «ال» فللمح الأصل، وهو وصف الإيقاد، ولا إلى أنَّه صرف لتأويله بمذكَّر وهو المكان، لأنَّ ذلك كلَّه خلاف الأصل، وإذا صحَّ أنَّه علَم فالمراد أنَّه اسم تُعرَفُ به نكِّر أو عرِّف بـ«ال».

ونعت «السعير» بأداة الشرط، والشرط والجواب أوَّلا وثانيا بالعطف إذ قال: ﴿**إِذَا رَأَتْهُم**﴾ أدركتهم بتمييز يخلقه الله لها، أو بجعلها عاقلة كما يحتمله قوله ﷻ: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [سورة ق: 30] وحديث: «**شكت النار إلى ربِّها فقالت: ربِّ آكل بعضي بعضا، فأذن لها بنفس في الصيف ونفس في الشتاء**»[1] ويحتملان لسان الحال. وعنه ﷺ: «**من كذب عليَّ متعمِّدا فليتبوَّأ مقعده بين عيني جهنَّم**» فقيل: يا رسول الله هل لها عين؟ قال: «**أما سمعتم قوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾؟ وهل تراهم إلَّا بعينين؟**»[2]. ويجوز تأويل الرؤية بالمقابلة.

﴿**مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**﴾ مسافة خمسمائة عام، أو مائة عام أو عام، روايات ﴿**سَمِعُواْ لَهَا**﴾ منها، متعلِّق بـ«سَمِعُوا»، وإن أبقي على ظاهره كان حالا من قوله: ﴿**تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا**﴾ الزفير يسمع بخلاف التغيُّظ، فيقدَّر مضاف، أي صوت

(1) رواه **البخاري** في كتاب المواقيت (8) باب الإبراد في شدَّة الحر، رقم 512، من حديث أبي هريرة.

(2) رواه **الطبراني** في الكبير: ج 8، ص 131، رقم 7599، و**الهيثمي** في المجمع: ج 1، ص 148، مع زيادة في وسطه. من حديث أبي أمامة.

تغيُّظ، أو يقدَّر: سـمعوا لها وأدركوا، فيصرف «سَـمِعُوا» إلى «زَفِيرًا» وأدركوا إلى «تَغَيُّظًا»، كقوله: علفتها تبنا وماء باردا.

أو المراد بالزفير صـوت لهبها؛ أو يقدَّر: سـمعوا لزبانيتها تغيُّظا وزفيرا. وشبَّه صوت لهبها بصوت المغتاظ وزفيره، أو ذلك استعارة تمثيليَّة. والتغيُّظ: إظهار الغيظ، والزفير: إخراج النفَس بصوت بعد مدِّه وترديده في داخل.

قال ﷺ: «**إنَّ جهنَّم لتزفر زفرة لا يبقى معها ملك مقرَّب ولا نبيء مرسل إلَّا رعـد فرائصه، حتَّى إنَّ إبراهيـم ليجثو على ركبتيه، ويقـول: يَا رَبِّ لا أسـألك اليوم إلَّا نفسـي**»[1]. ويروى: «**يسـتحضرها الملائكة بسبعين ألف زمام، وإذا كانت بمسـافة مائة عـام فتطير لها قلوب الخلائـق، ثمَّ تزفر فلا يبقى ملك ولا نبيء إلَّا جثا، ثمَّ تزفر فتبلغ القلوب الحناجر، ويقول إبراهيم: بخلَّتي لا أسـألك إلَّا نفسـي، وموسـى: بمناجاتي لا أسـألك إلَّا نفسي، وعيسى: بما أكرمتني لا أسألك إلَّا نفسي، ومحمَّد ﷺ وعليهم: أمَّتي أمَّتي لا أسـألك اليوم نفسـي، فيقول الله ﷻ: لا خوف على أوليائي من أمَّتك ولا حزن، فوعزَّتي لأقرَّنَّ عينك**»[2].

﴿**وَإِذَآ أُلْقُـواْ مِنْهَا**﴾ لا يصـحُّ تعليق «مِنْهَـا» بـ«أُلْقُـوا» إلَّا بتكلُّف بل بمحذوف حـالا لقوله: ﴿**مَكَانًـا**﴾ أي في مـكان ﴿**ضَيِّقًا**﴾ ليشـتدَّ كربهم، قال ﷺ: «**والذي نفسـي بيده ليسـتكرهنَّ فـي النار كما يسـتكره الوتد في الحائط**»[3] وعن ابن عبَّاس: «كما يضيق الزجُّ بالرمـح»، ويروى عن الكلبيِّ: «يزدحمون برفع اللهب الأسفلين، وحطم الداخلين الأعلين».

(1) أورده **الآلوسي** في تفسـيره: مج 6، ص 243. وقال: أخرجه ابن المنذر وابن جرير وغيرهما، من حديث عبيد بن عمير.
(2) أورده **ابن نعيم** في الحلية: ج 5، ص 372. من حديث كعب الأحبار.
(3) أورده **الآلوسي** في تفسيره: مج 6، ص 243، وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبيه.

﴿**مُّقَرَّنِينَ**﴾ مقرونين قرنا شديدا بالجوامع، الأيدي بالأعناق، أو كلُّ كافر بشيطانه، وفي أرجلهم الأصفاد ﴿**دَعَوْاْ**﴾ نادوا ﴿**هُنَالِكَ**﴾ في المكان الضيِّق ﴿**ثُبُورًا**﴾ هلاكا يقولون: يا ثبوراه أحضر فهذا أوانك، وقد حضر ولكن يقولون ذلك ندما وجزعا، وقيل: ﴿دَعَوْا﴾: طلبوا ﴿ثُبُورًا﴾: موتا ليستريحوا، وأشدُّ من الموت ما يتمنَّى معه، وهو على كلِّ حال مفعول به، أو مفعول مطلق، أي دعوا دعاء ثبور.

قال أنس: قال رسول الله ﷺ: «**أوَّل من يكسى حلَّة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه، وذرِّيته من بعده يقول: يا ثبوراه، ويقولون: يا ثبورهم، حتَّى يدخلوا النار**»[1].

﴿**لَّا تَدْعُواْ الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا**﴾ مفعول لحال محذوف، أو نائب فاعل له، أي قائلا لهم الملائكة: لا تدعوا، أو مقولا لهم: لا تدعوا ﴿**وَادْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا**﴾ لا يليق بكم الواحد فعدِّدوه بلا غاية بِأَيِّ لفظ، مثل: يا ثبوراه يا ثبوراه يا ثبوراه!، أو يا هلاكاه يا هلاكاه يا هلاكاه!، أو يا ثبوراه ويا هلاكاه!. ولا مانع من أن يشار لهم بحوادث كُلِّ واحد يقتضي الدعاء كتجدُّد أنواع العذاب وتعدُّد الجلود، وذكر اليوم ليستحضروا ذكر أَيَّام الدنيا التي ضيَّعوا الصلاح فيها حتَّى أفضوا إلى هذا العذاب، والتي كان ينفع فيها النداء ولو لم يكثر.

﴿**قُلَ**﴾ يا محمَّد لهم ﴿**اَذَٰلِكَ خَيْرٌ**﴾ أي المذكور من السعير وما وصفت به من التغيُّظ والزفير والتضييق فيها، والقرن ودعاء الثبور ﴿**اَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ التِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ**﴾ الاستفهام تقريع وتهكُّم. و«خَيْرٌ» اسم تفضيل على ظاهره جريا على ذلك التقريع والتهكُّم، فإنَّه لا نفع في ذلك بل ضرٌّ فضلا عن أن يكون أفضل من جنَّة الخلد.

---

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره: مج 6، ص 244. وقال: أخرجه أحمد في مسنده.

ويجوز أن يــراد: أذلك أكبر في ضرِّه أم جنَّة الخلــد في نفعها؟، كقولك: العسل أعظم في حلاوته من الخلِّ في حموضته، أي اشتدَّ حلاوةً العسلُ أكثر مِمَّا اشتدَّ الخلُّ في حموضته، فحينئذ يكون الاستفهام تقريرا، كما إذا أخرجنا «خَيْرٌ» عن التفضيل، أو قلنا: بمعنى نفع، وفي ذلك مطلقا تحسير لهم.

ولا يتكــرَّر ذكر الخلد مع «خَالِدِيــنَ» تأكيدا، لأنَّ «الْخُلْد» هنا منســوب للجنَّة، و«خَالِدِينَ» لأهلها، إذ قد يملك الإنســان ما لم يــره ولا يدخل فيه، كمن ملك جنَّة في بلد بعيد. و«الْمُتَّقُــونَ»: مطلق الموفِّين بدين الله، وهم غير من أصرَّ، ولا حظَّ للمصرِّ فيها، ورابط الموصول محذوف، أي وعدها مفعول ثان، والأوَّل «الْمُتَّقُونَ» نائبا عن الفاعل.

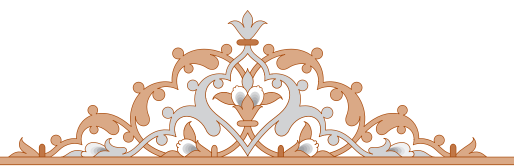
﴿**كَانَتْ**﴾ في علــم الله، أو في اللوح المحفوظ، أو فــي كتبه المنزَّلة، أو ســتكون فعبَّر بالماضي لتحقُّق الوقوع ﴿**لَهُمْ جَزَآءً**﴾ على أعمالهم لتفضُّل الله عليهم بالجزاء عليها، مع أنَّها اضمحلَّت في مقابلة الإنعام عليهم، وأنَّها بإقدار الله ﷻ لهم ﴿**وَمَصِيرًا**﴾ ينقلبــون إليها، إذ قد يعطي الملك إنســانا ملكا ولا يصير إليه، بل قــد ينتفع به من بعيد. والجملة حال مــن «جَنَّةُ» أو من الرابط المحذوف، أو مستأنفة للتعليل.

﴿**لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ**﴾ من الملاذِّ لا كديار الدنيا تعمر بأشياء من خارج، [قلــت:] ولا يخلق الله في قلوبهم مشــيئة درجــة الأنبياء أو مــن فوقهم، أو الشفاعة في أهل النار، ولا أنَّ درجة من فوقهم أفضل، بل يرون فضل درجتهم أو مساواتها. والجملة حال من «الْمُتَّقُونَ»، أو من ضمير «كَانَتْ»، أو مستأنفة.

﴿**خَالِدِينَ**﴾ فيها حال من واو «يَشَــآءُونَ»، أو هاء «لَهُمْ» الثاني، وجاز من الأَوَّل على أنَّها مقدَّرة إلَّا أنَّ الأصل القرب، وكون الحال مقارنة.

﴿**كَانَ**﴾ الوعد، أو الموعود المذكور، أو الخلود، أو ما يشــاءون ﴿**عَلَىٰ رَبِّكَ**﴾ حال مــن خبر كان، وهو قولــه: ﴿**وَعْدًا**﴾ أو هو الخبــر و﴿وَعْدًا﴾

مفعول مطلق، أي وعــد ذلك وعدا ﴿**مَّسۡـُٔولٗا**﴾ حقيقا بــأن يطلب إنجازه لعظمه، أو يسأله الناس في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [سورة آل عمران: 194]، كما قال أبو حازم: يقول المؤمنون يوم القيامة: ربَّنــا عملنا بمــا أمرتنا فأنجــز لنا مــا وعدتنا، أو قــول الملائكــة: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ﴾ [سورة غافر: 8]. ولا واجب علــى الله، وأمَّا قولــه: ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ فبمعنى أنَّه لا يخلفه.



﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ١٧ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٨ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ١٩﴾

أحوال الكفَّار مع معبوداتهم يوم القيامة

وعَطَف الإنشاء على الإخبار في قوله: ﴿وَيَوۡمَ﴾، لأنَّ التقدير: «واذكر»، وأولى من هذا عطف «اذكر» على «قل» عطف إنشاء على إنشاء، أو يجعل ظرفا معمولا لإخبار معطوف على إخبار، أي: ﴿**وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ يكون ما يكون عليهم من الكروب، ومنها تغيُّظهم بدرجات المؤمنين، وبتفويت أعمارهم في غير ما يصلح بهم.

[صرف] و«مَا» واقعة على الأصنام عند الكلبي، والضمير في «قَالُوا» لها، ينطقها الله ﷻ، أو تقول بلسان الحال، أو على الملائكة وعزير وعيسى ونحوهم، لأنَّ «مَا» قد تقع للعاقل مجازا على الصحيح، أو لاعتبار الأنواع، والنوع غير عاقل، كقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُمۡ﴾ [سورة النساء: 3]، أو عليهم وعلى الأصنام لذلك، ولأنَّ الأصنام أحقُّ بها.

﴿**فَيَقُولُ**﴾ الله للمعبودين ﴿**ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ**﴾ صيَّرتم ﴿**عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ**﴾ العابدين لكم ضالِّين؟ بأن حملتموهم على الضلال بالدعاء إليه إشراكا وسائر

عصيان. وذكر «عِبَادِي» لتعظيم عبادة مَــن هو عبدٌ لَا إلهٌ خالقٌ لهم، أو تعظيم الجرأة على إضلال من هو عبد لله.

﴿أَمْ هُمْ﴾ أي عبــادي هؤلاء الضالُّون ﴿ضَلُّواْ السَّـبِيلَ﴾ عن الســبيل؟ كقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [ســورة الأحزاب: 4]، أي إلى السبيل، أو تعدَّى [ضَلَّ] لتضمُّن معنى فَقَدَ.

﴿قَالُواْ﴾ أي المعبودون المســؤولون، مقتضى الظاهر: يقولون، لمناسبة «يَقُولُ»، وجيء بالماضي لتحقُّق التنزيه، وأنَّه حالهم قبل القيامة، ولأنَّ المراد الأعظم بالــذات الجواب بهذا التنزيه ﴿سُــبْحَانَكَ﴾ وهو تعجُّب من الأصنام كيف نضلُّهم ونحن جماد؟! ومن الملائكة والأنبيــاء والأولياء: كيف نضلُّهم وما شأننا إلَّا الانقياد لك وتسبيحك وقد عصمتنا؟!.

أو يقال: مجرَّد تنزيه، وتمهيد لقولهم: ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَآ﴾ يســتقيم ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ﴾ «مِنْ» للابتداء، ومتعلِّــق بـ«نَتَّخِذ»، أو للبيان، أو للتبعيض متعلِّق بمحذوف حال من «أَوْلِيَاءَ» في قوله: ﴿مِنَ اَوْلِيَآءَ﴾.

[نحو] و«مِــن» صلة فــي معمول المنفــي، كما تجيء في نفــس ما بعد المنفي. وهذا كما ذكرت زيادة [الفاء] في خبر المبتدأ الشبيه نعته باسم الشرط في العموم من قوله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَآءِ...﴾ [سورة النور: 60].

والأولياء: الآلهة المعبودون، كيف نتَّخذ أولياء للعبادة غيرك؟ فكيف نأمر غيرنــا باتِّخاذها فضلا عن أن ندعوهم إلى اتِّخاذهــم إيَّانا آلهة؟!. أو الأولياء: الأتبــاع كما يطلــق علــى المتبوعين، كيــف نتَّخذ لنــا أتباعا يعبدوننا؟!. وجاء أولياء الشــيطان بمعنى أتباعه. ومعنى أولياء من دونك: أولياء لســت واحدا منهم، ولو كان وحــدا منهم لم يكف لأنَّه يســتحقُّ العبادة وحده.

﴿وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ﴾ بالنعم ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ فكفروها وجعلوا بدل شكرها ما هو أعظم ذنب وهو الإشراك لإعراضهم عن الوحي، كما قال: ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ الذِّكْرَ﴾ تركوا ما أنزل الله من التوحيد، أو ذكرك بالشكر.

﴿وَكَانُواْ﴾ في علمك ﴿قَوْماً بُورًا﴾ مصدر بمعنى هلاك أو فساد مبالغة، أو يقدَّر بذوي بور، أو ببائرين أو جمع بائر شذوذا، كعوذ جمع عائذ.

[أصول الدين] والإضلال فعل الله تعالى لا على الإجبار بل يخلق الضلال وأسبابه، والضالُّ ضلَّ باختياره، فعوقب على اختياره واكتسابه ولو كانا مخلوقين لله تعالى.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ أن قلتم إنَّهم آلهة، أو إنهم أضلُّوكم، فقد كذَّبوكم، أو احتجُّوا بما قالوا، فقد كذَّبوكم. والواو للمعبودين، والكاف للعابدين، أي كذَّبكم المعبودون أَيُّهَا العابدون.

وقدَّر بعض: ثمَّ يقال لِلْكُفَّار: فقد كذَّبوكم، التفاتا عن الغيبة، كقوله تعالى: ﴿يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [سورة المائدة: 19]، قلت: لا حاجة إلى تقدير القول.

﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ في قولكم، أي مقولكم، أو فيما تقولونه من أنَّهم أضلُّوكم ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أيُّها العابدون ﴿صَرْفًا﴾ للعذاب عنكم على عبادة غير الله بأنفسكم، ولا بحيلة ولا بتوبة ولا بفداء إذ لا يقبلان ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ من أحدٍ مَّا.

﴿وَمَنْ يَّظْلِمْ﴾ نفسه والمسلمين بالإشراك، فتلحق به الكبائر، ويجوز التفسير بهما معا ﴿مِّنكُمْ﴾ الخطاب للمكلَّفين عموما وإن كان لِلْكُفَّار الذين تقدَّم الكلام عليهم في الآيات قبل هذه، فالمراد: ومن يدم على الظلم الذي هو فيه، ويدلُّ عليه دلالة مناسبة قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا...﴾ ﴿نُذِقْهُ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ بالنار لا يحقِّق قدره إلَّا الله.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾

بشرية الرسل

[نحو] ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ نعت لمفعول «أرسلنا» محذوفا، أي أحدا من المرسلين، فالجمع بعدُ لعموم «أَحَد» بتقدُّم النفي. ومن أجاز زيادة «مِن» مع المعرفة أجاز أن تكون «مِنْ» صلة و«الْمُرْسَلِينَ» مفعولا به ﴿**إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَاكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الَاسْوَاقِ**﴾ الجملة حال من «أحد» المقدَّر ولو نكرة لتقدُّم النفي، أو من «الْمُرْسَلِينَ» على أنَّه المفعول به كقولك: جاء زيد سيفه على عاتقه، ما جاء زيد إلَّا هو فرح، ولا تلزم الواو في جملة الحال الِاسميَّة كما قيل، وهي وتركها سواء.

والآية تسلية له ﷺ واحتجاج بأنَّه كالرسل قبله في الأكل ودخول الأسواق، وسلَّاه أيضا بقوله: ﴿**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً اَتَصْبِرُونَ**﴾ فاصبر على قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾، ﴿اَوْ يُلْقَىا إِلَيْهِ...﴾ [سورة الفرقان: 7و8] وقولهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ...﴾ [سورة الفرقان: 7]، والمراد: أتصبرون على قول السوء كما قالوا لك، ويصبر فقيركم على فخر غنيِّكم وعلى منع عطائه.

وسلَّاه أيضا بقوله: ﴿**وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا**﴾ بأقوالهم وأفعالهم واعتقادهم، فيعاقبهم، وبالصواب فيما يأمركم وينهاكم فلا تخالفوه، والخطاب في

«بَعْضَكُمْ» و«تَصْبِرُونَ» للنبيء ﷺ وأمَّته، وإنَّما لم تعمَّ الأمم السالفة أيضا لبعد أن يخاطَبوا في هذا الكتاب وقد انقرضوا.

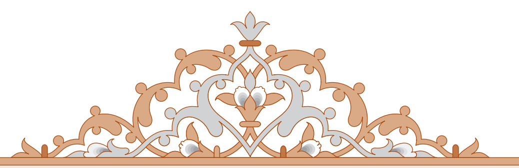
والرسول فتنة لكفَّار قريش إذ قالوا: كيف يعلو محمَّد علينا؟ ومن أسلم من الفقراء ومن يعدُّ ضعيفا فتنة للأقوياء والأغنياء؟ كما قال أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل من بني سهم، والوليد بن عقبة ونحوهم: لو أسلمنا ترفَّع علينا عمَّار وصهيب وبلال وابن مسعود وعامر بن فهيرة لتقدُّم إسلامهم، وقد قيل: نزلت الآية في ذلك.

[قلت:] والصحيحُ فتنةٌ للمريض والغنيُّ للفقير، والعالم للجاهل، والشريف للوضيع، وصحَّ عكس ذلك، كقصَّة نحو عَمَّار مع أبي جهل، ومن ذلك إمهال الكُفَّار فتنة للمؤمنين، قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**إذا نظر أحدكم إلى من فضِّل عليه بالمال والجسم فلينظر إلى من هو دونه في المال والجسم**» رواه البخاري[1]، وفي مسلم: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله** [قال أبو معاوية] **عليكم**»[2].

قال بعض: أي وجعلناك فتنة لهم، لأنَّك لو كنت غنيًّا صاحب كنوز وجنان لكانت طاعتهم لك للدنيا، أو ممزوجة بالدنيا، فإنَّما بعثناك فقيرا لتكون طاعة من يطيعك خالصة لنا. وجملة «أَتَصْبِرُونَ» مفعول لمحذوف، أي قائلين: أتصبرون أم لا؟ أو لنعلم أتصبرون، أي ليظهر خارجا صبركم أو عدمه؛ أو مستأنفة، بمعنى الأمر، أي اصبروا.

(1) رواه **البخاري** في كتاب الرقاق (30) باب لينظر إلى من هو أسفل منه، ولا ينظر إلى من هو فوقه. رقم 6490، من حديث أبي هريرة.

(2) رواه **مسلم** في كتاب الزهد والرقائق (...) باب رقم 9 (...) من حديث أبي هريرة.



﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾

طلب المشركين إنزال الملائكة عليهم أو رؤية الله والإخبار بإحباط أعمالهم

﴿وَقَالَ﴾ في شأن إنكار رسالة نبيئنا محمَّد ﷺ ﴿**الذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا**﴾ لا يطمعون فيه كما يطمع المؤمنون فيه لإيمانهم بالبعث فيثابون، وهؤلاء الكفرة لم يؤمنوا بالبعث فهم لا يطمعون في لقائنا، ومعنى ﴿لِقَآءَنَا﴾ لقاء ثوابنا، وهم لم يعملوا له أيضا فلا يرجونه، والرجاء: الطمع أو التمني. أو ﴿لِقَآءَنَا﴾ مجاز عن الثواب بلا تقدير مضاف.

وقيل: الرجاء الخوف، كما فسّر به قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا﴾ [سورة نوح: 13]، وقول الشاعر:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وحالفها في بيت نوب عواسل(1)

وقوله:

لا يرتجي حين يلاقي الذَّائِدَا أسبعة لاقى لـه، أو واحدا(2)

(1) أورده صاحب شرح أشعار الهذليين لأبي ذؤيب الهذلي.

(2) عزاه **الطبري** إلى الهذلي. ينظر: التفسير، ج7. ص456.

وهو حقيقة في لغــة تهامة وهذيل، مجاز في غيرهــا، أي لا يخافون لقاء عذابنا؛ أو اللقاء عبارة عن العذاب، وذلك لعدم إيمانهم بالبعث.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ﴾ من الله ﴿عَلَيْنَا﴾ معشر الأكابر الأشراف، أو على كلِّ واحد مِمَّن أنكر رســالته، وهذا أشــدُّ عتوًّا ﴿الْمَلَآئِكَةُ﴾ الجنس، أو كلُّهم وهو أشدُّ عتوًّا، ليخبرونا أنَّك رسول الله ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ ليخبرنا أنَّك رسول منه.

﴿لَقَدِ اسْــتَكْبَرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ﴾ الأصل: اســتكبروا أنفسهم، أي عدُّوها كبيرة الشأن، وضمِّن معنى: ألقوا الكبر، فعدِّي بـ«في»، أو المعنى: أضمروا الكبر في قلوبهم.

[أصول الدين] وذلــك أنَّهم راموا ما لا يصلح للرســل والملائكة، وهو رؤية الله، فإنَّها لا تثبت لأحد فــي الدنيا ولا في الآخرة، لأنَّها تنافي الأُلُوهِيَّة، وأنَّهم احتقروه ﷺ عن أن يؤمنوا به وبآياته ومعجزاته.

﴿وَعَتَــوْاْ﴾ العتوُّ: مجاوزة الحدِّ في الظلــم، وزاد على مطلق ذلك بقوله: ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أقصى ما يكون، وردَّ الله عليهم بذكر الملائكة ورؤيتها لا على وجه طلبوه بل على وجه العقاب فــي قوله: ﴿يَوْمَ يَــرَوْنَ الْمَلَآئِكَةَ﴾ مفعول لـ«اذكر»، أو ظرف، أي لا يفرحون يــوم يرونهم، أو يعذِّبون يوم... إلخ، وهو يوم القيامة، أو الموت، أو لا بشرى... إلخ.

ودلَّ على المحــذوف قوله تعالى: ﴿لَا بُشْــرَىٰ يَوْمَئِذٍ﴾ يــوم إذ يرونهم ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ عموما وهم من المجرمين، وهذا احتجاج عليهم، فلا بشــرى لهم أوَّلا وبالذات، أو هم المراد بالمجرمين إظهارا في مقام الإضمار ليذكرهم باسم الإجرام المنافي للبشرى.

أو المراد: الرؤية فــي الدنيا على ســبيل الفرض لثبوتهــا، وعلى طريق الإخبار بأنَّهم لا يؤمنون ولــو رأوهم، فإذا رأوهم كما طلبــوا ولم يؤمنوا لم

يؤخِّر عذابهم، كما أهلك قوم صالح وأصحــاب المائدة ونحوهم مِمَّن اقترح آيــة ﴿إِلَّا قَــوْمَ يُونُسَ لَمَّــآ ءَامَنُــواْ...﴾ [ســورة يونس: 98]، وقال: ﴿يَــوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَآئِكَةَ﴾ ولم يقل: تنزل الملائكة، كما قالوا: ﴿لَــوْلَآ أُنزِلَ﴾ إيذانا من أوَّل بأنَّ ملَاقَاتَهُم الْمَلَائِكَةَ ليست على طريق ما طلبوا بل على وجه آخر.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ لنزول العذاب عليهم على طريق الدعاء ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أحجرك الله حجرا محجورا، أي منعك منعا ممنوع الترك، أي منعا لا بدَّ منه، كلام تقوله العرب عند الخوف من شــيء، فهم يقولونــه للملائكة إذا رأوهم وخافوهم حين خرجوا من قبورهم.

ويجوز عود الضمير للملائكة، كما قال أبو ســعيد الخــدري: إنَّ القائلين الملائكة حجرت البشــرى عنكم حجرا محجورا، لأنَّكم لم تقولوا: لا إله إلَّا الله محمَّد رســول الله ﷺ، وعــن ابن عبَّــاس: الجنَّة، وقيل: الغفــران. ونفي البشرى كناية عن الخزي، لأنَّ المقام إذا كان لأحد الشيئين فقط ونفي أحدهما بقي الآخر، والآخرة إمَّا عقاب أو ثواب.

﴿وَقَدِمْنَآ﴾ توجَّهت إرادتنا ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ﴾ وهم خالون عن الإيمان ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ بيان لـ«مَــا»، أي هو عمل عظيــم مِمَّا يثابون عليه لــو آمنوا، كصلة الرحم، وإغاثة الملهوف، وقري الضيف، وفكِّ الأسير، والصدقة على الفقراء، والإطعام عام الجوع.

﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً﴾ كالأجرام الدقيقة المتبيِّنة في ضوء الشــمس من كوَّة في عدم الفائدة ﴿مَّنثُورًا﴾ نعت كاشف لا تقييد، لأنَّ الهباء أبدا منثور.

[بلاغة] وليس من الإرداف المســمَّى في البديــع تتميما، وأيضا لا لأنَّ ذلك فيما يزيد فائدة، كقول الخنساء:

.... كأنَّــه علــم في رأســه نــار[1]

---

(1) وأوَّله:

وإنَّ صخــرا لتأتــمُّ الهــداة بــه ‌ ‌ ‌ ‌ كأنَّــه علــم فــي رأســه نــار



أي جبل في رأسه نار، ولا زيادة هنا لأنَّ النثر معلوم من قوله: ﴿هَبَآءً﴾، اللهمَّ إلَّا أن يكتفى في التسمية بذكر شيء، ولو تضمَّنه ما قبله، وكذا إن فسِّر بشرر النار أو الغبار المتفرِّق. والكلام استعارة تمثيليَّة، شبَّه اجتهادهم في أعمال صالحات مع كفرهم وإبطال ثوابها بكسب قوم خالفوا سلطانهم فأفسده عنهم.

﴿اَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ التي وُعدها المتَّقون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ نقدم إلى ما عملوا ونجعله هباء منثورا. و«إذ» في هذه المواضع للاستقبال، كما تعلمه بتقدير المضارع بعدها، وهي متعلِّقة بقوله: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ ويقدَّر مثله لقوله: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ ولو كانا اسمي تفضيل لأنَّها ظرف وفضلة، ولا سيما أنَّهما خرجا عن التفضيل، إذ لا خير ولا حسن البتَّة في مقام أهل النار ومقيلهم، نعم يجوز بقاؤهما على التفضيل للتهكُّم بهم.

والمستقرُّ: اسم للمكان الذي يعدُّ للجلوس فيه أصالة ولو كان يخرج عنه، والمقيل: اسم لمكان القيلولة المعدِّ لها كذلك للاستراحة والنوم، ولا تعب في الجنَّة ولا نوم، فهو استعارة، أو لمكان التنعُّم وَالتلذُّذ من استعمال المقيَّد في المطلق، وكلٌّ من المستقر والمقيل مساكن الجنَّة.

وزعم بعض أنَّ المستقرَّ موضع الحساب، والمقيل موضع الاستراحة منه في الموقف، وعن ابن مسعود: لا ينتصف نهار يوم القيامة حتَّى يقيل هؤلاء وهؤلاء.

ويجوز أنَّ المقيل في الموقف والمستقرَّ في الجنَّة. وقدِّم للفاصلة، ويروى: إنَّ يوم القيامة يقصر على المؤمنين كما بين العصر والغروب، ويروى: كركعتين، وأنَّهم يقيلون في رياض حتَّى يفرغ الناس من الحساب.

[قلت:] ولا يحسن تفسيرهما بزمان الاستقرار والقيلولة، ولا بأس بتفسيرهما بالمصدر، أو أحدهما والآخر بالمكان.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿25﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿26﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿27﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿28﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿29﴾﴾

رهبة يوم القيامة وهوله

﴿**وَيَوْمَ**﴾ معطوف على ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ بأوجه أو يقدَّر: اذكر. ﴿**تَشَقَّقُ**﴾ أبدلت تاء التفعُّل شينا فأدغمت في الشين ﴿**السَّمَآءُ**﴾ السماوات السبع ﴿**بِالْغَمَامِ**﴾ كما ينشقُّ السنام بالشفرة وهي باء الآلة، ويجوز أن تكون للسبب، أو بمعنى عن، أي تنفتق عن الغمام، وقيل: هو غمام أبيض رقيق لم يكن إلَّا لبني إسرائيل في التيه، وقيل: هو في الجنَّة ﴿**وَنُزِّلَ الْمَلَآئِكَةُ**﴾ بصحف الأعمال ﴿**تَنزِيلاً**﴾ عظيما، كلُّهم، قيل: تستدير ملائكة السماء الدنيا بالجنِّ والإنس، وملائكة كلِّ سماء تستدير بملائكة التي تحتها وما دارت عليه، وملائكة كلِّ سماء أضعاف ملائكة التي تحتها، والكروبيُّون أضعاف ملائكة السابعة يستديرون بهم، وتكفيهم أرض المحشر، لأنَ الله تعالى يبسطها ولأنَّهم يتضاءلون.

[أصول الدين] وأنا أومن بالله، وأنَّ إتيانه في ظلل من الغمام إتيان أمره، وأنَّ وصفه بالنزول للأرض إشراك، وأنَّ وصفه بأنَّ حوله الكروبيين إشراك **إن لم يؤوَّل ذلك.**

[نحو] ﴿**الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ**﴾ متعلِّق بالملك على المعنى المصدري، ولا يتعلِّق باستقرار «لِلرَّحْمَٰنِ»، ولا بالرحمن النائب عن الاستقرار المخبر به عن الملك، إلَّا عند من أجاز تقديم معمول العامل المعنوي.

و«ال» في الملك للاستغراق صورة ومعنى وظاهرا وباطنا، لا كالدنيا يجعل فيه الناس في صورة الملَّاك. و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ تشَّقق السماء وتنزل الملائكة ﴿**الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ**﴾ [الحق] نعت «الْمُلْكُ» أي الثابت الذي لا يتزلزل.

﴿**وَكَانَ**﴾ اليوم المذكور في قوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿**يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا**﴾ غاية في شدَّة المضرَّة، وذكر هذا عقب ذكر «الرَّحْمَنِ» إشارة إلى أنَّه تعالى مع شدَّة رحمته وسعتها وسبقها غضبه لا ينال الكُفَّار بها بعض تسهيل، وفي هذا تأكيد لقبح الكفر، وأمَّا المؤمنون فيكون عليهم أخفَّ من صلاة مكتوبة.

﴿**وَيَوْمَ**﴾ كالذي قبله ﴿**يَعَضُّ**﴾ جزعا، كما روى الضحَّاك وجماعة أنَّه يأكل يديه إلى المرفق ثمَّ تنبت ولا يزال كذلك كلَّما أكلها نبتت، أو ذلك **كناية عن شدَّة النَّدم** ﴿**الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ**﴾ «ال» للجنس ولو كان سبب النزول عقبة بن أبي معيط، وقيل: هو المراد فتكون «ال» للعهد الذهني، و«فُلَانًا» أُبي بن خلف، وقيل: «فلان» عقبة و«الظَّالِمُ» أُبَي [بن خلف].

[سيرة] كان عقبة كلَّما قدم من سفر صنع طعاما لأهل مَكَّة، وكان يجالس رسول الله ﷺ ويعجبه كلامه، فدعاه يوما لذلك الطعام فقال: لا حتَّى تؤمن، فنطق بكلمة الشهادة فسمع أُبَي بذلك فقال له: أصبوت؟ فقال: لا ولكن كرهت أن يخرج ولم يأكل، فقال ـ وكان صديقه ـ: لا أرضى حتَّى تأتيه فتكفر به وتبصق في وجهه، ففعل، فرجع بزاقه على وجهه فبقي كأثر حرق فيه، فقال ﷺ: «**لا ألقاك خارج مكة** ـ ويروى خارج جبالها ـ **إلَّا قتلتك**» فأبى أن يخرج يوم بدر لهذا، فقالوا له: إذا رأيت الهزيمة فطر على جملك الأحمر

فلا تدرك، فخرج ولَمَّا هزموا هرب على جمله فبرك به، فأسره المسلمون فأمر عليًّا ـ وقيل: ثابت بن أبي الأفلــح ـ بقتله، فقال: بم تقتلنــي عند هؤلاء؟[1] فقال: بعُتُوِّك وفعلك بي كذا وكذا، فقتل.

[سيرة] وأمَّا أُبي فقال لرسول الله ﷺ: أقتلك، فقال: بل أنا أقتلك إن شاء الله، وقيل: كان ذلك في غيب عنهما فأخبرا فقيل: تثبَّتَ المخبرَ له، فقال: نعم[2]، فذلَّ أُبي لعلمه بصدقه ﷺ، فكان يتعرَّض لقتله يوم أحد فيحول بينهما رجل: فقال ﷺ: دعوه، فضربه بحربة في ترقوَّته واحتقن الدم فــي جوفه وما خرج إلَّا قليل، فكان يخور كالثور فهوَّن عليه أصحابه فقال: وعدني بالقتل فوالله لو بصق عليَّ لقتلني، فوالله لو كان ما بي بأهل ذي المجاز لقتلهم، فمضى بعد يوم إلى النار.

﴿**يَقُولُ**﴾ الظالم المعهود، أو الجنس ﴿**يَا**﴾ حرف تنبيه أو نداء يا قوم أو يا فلان ﴿**لَيْتَنِــي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُــولِ**﴾ الجنــس علــى أنَّ الظالم الجنس، ورســول الله ﷺ على أنَّ الظالم عقبة أو أُبي ﴿**سَــبِيلاً**﴾ إلى النجاة وهو دين الرسول، لقوله: ﴿مَعَ الرَّسُــولِ﴾ ونكَّره للتعظيم، أو طريقا واحدا وهو طريق الرسول، ولم تتشعَّب بي طرق الضلال.

﴿**يَاوَيْلَتَــىٰ**﴾ هلكتي أُحضري، فهذا أوانك، كلام جــزع، لا تحقيق دعاء وأمر، ألا ترى أنَّها قــد حضرت له. والألِف بدل من يــاء المتكلِّم ﴿**لَيْتَنِي لَمَ اَتَّخِذْ فُلاَنًا**﴾ من أضلَّه في الدنيا وإيَّــاه، عنى كائنا من كان على عموم الظالم، حتَّى قيل: أراد الشــيطان مطلقا، أو قرينه، وفيه أنَّ فلانــا كناية عن العلم، ولا يعرف اسم الشيطان الذي هو علم لذلك الشيطان، وإن كان الظالم عقبة ففلان أُبي، أو أُبيًّا ففلان عقبة.

---

(1) كذا في النسخ، ولعلَّه: «دون هؤلاء».

(2) توضيح العبارة عند **الآلوســي**. ج19، ص12: قال ﷺ: «بل أقتله إن شــاء الله تعالى، فأفزعه ذلك وقال لمن أخبره: أنشدُك بالله أسمعته يقول ذلك؟! قال: نعم...».

[لغة] ويجوز ذكر فلان وفلانة ولو لم يتقدَّم قول كقوله:

وإذا فـلان مات عـن أكرومة دفعـوا معـاوز فقره بفـلان[1]

ولا يصحُّ تقديـر القول أَوَّل البيـت، و«بهما» آخِرًا، فلـو أمكن فخلاف الأصل. والفلان والفلانة كناية عن غير العاقل.

[لغة] ﴿خَلِيلاً﴾ من الخلَّة بمعنى المودَّة لأنَّها تتخلَّل النفس أي تتوسَّطها قال الشاعر:

قد تخلَّلت مسـلك الروح منِّي وبـه سـمِّي الخليـل خليلا[2]

أو من الخلـل وهو التأثير كتأثير السـهم في الرمية، أو مـن الخلَّة وهي الحاجة لفرط الحاجة إليه.

وفي تمنِّيه تلويح إلى اعتذار بإضلال المضلِّ ولا يقبل.

﴿لَّقَدَ اَضَلَّنِي عَـنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ ذكر الله بالإيمان به وبرسـوله، ومواعظه وبالقرآن ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ﴾ الجنس أو إبليس أو خليله سمَّاه شيطانا ﴿لِلاِنسَانِ﴾ الجنس ﴿خَذُولاً﴾ عظيم الخذلان وكثيره، وهو ترك النصرة مِمَّن ترجى منه لصداقته أو وصلة ما بينهما، وقد كان الشيطان إبليس أو غيره يمنِّيه ويغريه على المعاصي، وأنَّه لا عقاب عليها ولو شركا، ولم يدفع عنه الضر في الآخرة فذلك خذلان فيها، أو المراد بالخذلان الخداع في الدنيا بتزيين الباطل وكان الحق الإرشاد. وهذا من كلام الله ﷻ، أو من كلام الكافر.

---

(1) البيت للمرار الأسدي، ونصُّه في معجم الشواهد: رقعوا معاوز فقده بفلان.

(2) البيت لبشار بن برد. ورد بلفظ: «ولِذَا سمي...». ينظر: برنامج الموسوعة الشعرية.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (34)﴾

هجر القرآن ومطالبتهم بإنزاله جملة واحدة

﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ**﴾ محمَّد ﷺ، ذكره باسم الرسول تحقيقا لِمَا ادَّعاه ﷺ من الرسالة، وزيادة في الردِّ على من أنكر، ومواجهة له بضدِّ ما ادَّعاه وإبطاله ﴿**يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي**﴾ المذكورة عنهم هذه القبائح، قال هذا على طريق الشكوى فلا يضرُّ أنَّ هذا في ضمن لفظ «مَهْجُورًا» ﴿**اتَّخَذُواْ هَذَا الْقُرْءَانَ**﴾ أي هذا المقروء، فهو نعت أو عطف بيان أو بدل، وإن أريد العَلَميَّة فبيان أو بدل، ولا يخفى عن الله شيء ﴿**مَهْجُورًا**﴾ معرضا عنه مع أنَّه نفع عظيم لهم، متروكا غير مؤمنين به.

[فقه] [قلت:] ويحذر المؤمن مِمَّا يلتحق بذلك أو يشبهه، وهو أن يكون عنده مصحف لا يبالي به أن يتخطَّاه، أو يجعله في موضع نجس، أو يمسُّه الحائض أو النفساء أو الجنب، أو يمسُّه بنجس أو ينجِّسه، ونحو ذلك مِمَّا يخلُّ باحترامه **فإنَّ ذلك حرام**، وورد في ذلك خبر رواه البعض وهو: «من تعلَّم القرآن وعلَّق مصحفه لا يتعاهده ولا ينظر فيه، جاء يوم القيامة متعلِّقا به يقول: يَا رَبِّ عبدك هذا اتَّخَذَني مهجورا، اقض بيني وبينه»، وفي سنده أبو هدية، وقد جرِّب عليه الكذب.

أو «مَهْجُـورًا» من الهجر بضمِّ الهـاء، وهو الهذيان وفحـش القول، أي مهجورا فيه، فـكان الحذف والإيصـال، أي ذكر فيه ما لا يصـحُّ كما قالوا: ﴿أَسَاطِيرُ الَاوَّلِينَ﴾ [سـورة النحل: 24]، أو يرفعوا أصواتهم باللغو لئلَّا يسمع كما قالوا: ﴿وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [سورة فصّلت: 26] وسلَّاه الله بقوله:

﴿**وَكَذَٰلِكَ**﴾ كما جعلنا لك أعداء في الدين ﴿**جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيءٍ**﴾ لا لبعض فقط، والبليَّة إذا عمَّت هانت ﴿**عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ**﴾ أعداء متعدِّدة من الإنس والجنِّ، لكلِّ فرد من الأنبياء حتَّى آدم، فإبليس والشياطين وقابيل أعداء له.

﴿**وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا**﴾ إلى كلِّ مـا يطلبه من تبليغ الوحي ونشـره في المشرق والمغرب، وإلى الدرجات العلا، والتحرُّز من الأعداء والسلامة وقهر العـدو ﴿**وَنَصِيرًا**﴾ لك على أعدائـك، أو هاديا للأنبياء ونصيـرا لهم كذلك، وأنت منهم فينالك ما ينالهم، والآية على كلِّ وعد بالخير، والوعد تسلية أيضا.

﴿**وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ**﴾ كفَّار العـرب المذكورون، ولم يضمر لهم ليصفهم بالكفر في عبـارة متعمَّدة لذلك، ولو أضمر وذكـر الكفر لأفاد الوصف لكن يكون من عرض، مثل أن يقول: وقالوا كافرين. وقيل: المراد طائفة من اليهود ﴿**لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً**﴾ بمرَّة، كالتوراة والصحف والزبور، ولا تقل: والإنجيل، مع أنَّه كذلك إذا فسِّـر الذين كفروا باليهود لأنَّهم كفروا به، وقيل: نزلت التوراة في ثماني عشرة سنة، وهو قول باطل.

وأجاب الله ﷻ عنه بقوله: ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ أي لم ننزله جملة بل منجَّما، أو نزَّلناه مفرَّقا ﴿**لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ**﴾ نقوِّيه به، إذا ضاق صدرك فسَّحناه بنزوله، وإذا سـئلت أجبناك، فهو ينزل بحسـب المصالح فيتواتر الوصول، **وقلب المحبِّ يسـكن بتواتر كتب المحبـوب**، متعلِّـق بـ«لم ننزِّلـه» المقدَّر، ويضعف أن نجعل «كَذَلِكَ» من كلام غير الله مع ما قبله، ونجعل الإشـارة إلى الكتـاب الذي هو التـوراة، أو كلُّ ما تقدَّم من كتـب الله المتقدِّمة، أو

تنزيل ما ذكر، أي جملة واحدة كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة، فنقدِّر: لنثبِّت أنزلناه مفرَّقا، أو لم ننزله جملة.

﴿**وَرَتَّلْنَاهُ**﴾ مفرَّقا شيئا فشيئا في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين، كترتيل الأسنان أي جعل فسحة بين السنِّ والأخرى ﴿**تَرْتِيلاً**﴾ بديعا لا يقاربه مقارب، ﴿**وَلَا يَاتُونَكَ بِمَثَلٍ**﴾ كلام عجيب في الهزء بك والقدح فيما تقول ﴿**اِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ**﴾ الثابت الفاضح لعورة كلامهم.

﴿**وَأَحْسَنَ**﴾ خارج عن التفضيل أي حسن، ومثلهم قبيح لا حسن فيه، كقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ﴾ [سورة الروم: 27]، أي هيِّن، و«الله أكبر» أي كبير، وغيره حقير بالنسبة إليه وإن جلَّ. ﴿**تَفْسِيرًا**﴾ كشفا لسوء ما توهَّموه حسنا أو أحسن.

[نحو] ولا داعي إلى عطفه على محل «بِالْحَقِّ» وهو النصب على المفعوليَّة المتوصَّل إليها بحرف الجرِّ، ولا إلى تضمين معنى المتعدِّي مثل: أنزلنا عليك بِالْحَقِّ وأحسن تفسيرا.

﴿**الذِينَ يُحْشَرُونَ**﴾ يجمعون من قبورهم ومن حيث كانوا ﴿**عَلَىٰ وُجُوهِهِمُۥٓ إِلَىٰ جَهَنَّمَ**﴾ فهم أيضا على صدورهم وبطونهم وما يليها، وذلك أولى من أن يقال: يقلب الوجه وحده إلى الأرض، قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**يحشر الناس صنف ماشون وصنف راكبون وصنف على وجوههم**» فقيل: كيف يمشون عليها؟ فقال: «**يمشيهم عليها الذي أمشاهم على أرجلهم**»[1].

وإذا صحَّ الحديث بطل قول من قال: تسحبهم الملائكة على وجوههم، اللهمَّ إلَّا أن يقال: تارة يمشون عليها وتارة يسحبون عليها، أو بعض يمشون

(1) رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (18) باب ومن سورة بني إسرائيل، رقم 3142. من حديث أبي هريرة.

عليها وبعض يسحبون عليها، وكذا ما قيل: إنَّ **ذلك كناية عن الذلِّ المفرط أو عن الحيرة** كما يقال: ذهب على وجهه إذا لم يدر أين يذهب.

و«الذِينَ» مبتدأ خبره قوله: ﴿**أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ من مبتدأ ثان وخبره، و«شـرٌّ» و«أضلُّ» خارجان عن التفضيل إذ لا سـوء ولا ضلال للنبيء ومن آمـن به، وإسـناد الضلال للمـكان مجاز عقلـيٌّ. والمكان: المسكن أو المرتبة.

[هيئة] والمكان السطح الباطن للحاوي المماس لظهر المَحْوِيِّ، فداخل الكوز سـطح باطن، وهو حاو للماء مماس لظاهر المحـوِيِّ الذي هو الماء، وظاهر الماء هو ما يلي منه الكوز أسفل وجوانب، وباطن الماء هو باقي الماء في الكوز مِمَّا يمسُّ الكوز.

والمراد بالباطن داخل الشـيء ولو كان غير خفيٍّ، وبالظاهر مقابله، ولا يشترط أن يكون له أطراف مسـتعلية، فالموضع الذي قعدت فيه سطح باطن حاوٍ لك مماسٌّ لِمَا يليه منـك، وهو ظاهرك الذي يليه، ولم يمسَّ ما سـتره ثوبك وإن مسست الأرض بجسدك فجلدتك هي الظاهر منك، وأنت المحوي ولم تمسَّ الأرض ما ردَّت الجلدة، ما ردت هو الباطن، وظاهر الأرض هو ما يقابل منهـا الأرض التي تحتها، وإن شـئت فقل: الهواء الـذي يليك كطرف الكوز وكل جزء منه مستدير عليك، وهناك أجزاء مستديرة لا يحيط بها إلَّا الله تعالى إلَّا أنَّها لشدَّة اتِّصالها كهواء واحد.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ٣٥ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ٣٦ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٣٧ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ٣٨ وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا ٣٩ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ٤٠﴾

قصص بعض الأنبياء وعقوبات تكذيبهم

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا﴾ يحمل معه وزر الرأي والتدبير، أي ثقلهما مع أنَّه نبيء أيضا كما قال ﷻ: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾ [سورة مريم: 53]، إلَّا أنَّ العمدة موسى وهارون تابع له، كما يدلُّ لفظ الهبة، وكما أنَّ الوزير تابع لسلطانه.

﴿فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ﴾ بالكتاب، ويجوز تنازع «اذْهَبَا» و«كَذَّبُوا» في «بِئَايَاتِنَا» ﴿إِلَى ٱلۡقَوۡمِ﴾ فرعون ومن معه ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ دلائل التوحيد في الأنفس والمخلوقات وما جاء به الرسل، [قلت:] ولا تفسَّر الآيات بالتوراة ولا بالآيات التسع لأنَّهم حين قال: اذهبا إليهم لم يكن لهم علم بالتوراة حتَّى يخبرانهم بها فضلا عن أن يكذِّبوا بها، ولا بالآيات التسع لأنَّه لا شيء منها واقع فضلا عن أن يكذِّبوا به إلَّا أن يتكلَّف أنَّهنَّ متحقِّقات الوقوع والوصول حتَّى كأنَّها وقعت، وكذَّبوا بها.

﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أهلكناهم إهلاكا لا يمكن معه الإصلاح، فإنَّ التدمير كسر الشيء على وجه لا يصلح معه الإصلاح. والفاء للعطف بمعنى التسبُّب والتفرُّع فقط، لا للاتِّصال، أو استعير لها معنى «ثمَّ» من التراخي، أو للاتِّصال على تقدير: فذهبا ودعواهم فكذَّبوهما، واستمرُّوا على التكذيب فدمَّرناهم تدميرا عظيما.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ واذكر قوم نوح، أو وأهلكنا قوم نوح، أو ودمَّرنا قوم نوح.

[نحو] أو أغرقنا قوم نوح عطفًا لـ«أَغْرَقْنَا» أو لـ«دَمَّرْنَا» على «ءَايَاتنَا» لا على «دَمَّرْنَا»، ولا هو معطوف على الهاء، لأنَّ التدمير متفرِّع على التكذيب بآيات موسى، والمعطوف متفرِّع على ما تفرَّع عليه المعطوف عليه، ولا يقبل جواب عن هذا، أو نصب على الاشتغال بـ«أَغْرَقْنَا» على أنَّ «لَمَّا» ظرف، وأمَّا على أنَّها حرف فلا، لأنَّ الجواب لا يعمل فيما قبل الأداة فلا يفسَّر عاملا فيه.

﴿لَّمَّا كَذَّبُواْ الرُّسُلَ﴾ آدم وإدريس ونوحا، أو جميع الرسل بمعنى إنكار الرسالة البتَّة فشمل من يأتي بعد ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ جعلنا إغراقهم ﴿لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ يعتبرونها فينزجرون عن التكذيب ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي لهم، وهم قوم نوح ولم يضمر لهم ليذكرهم باسم الظلم، فدخلت قريش بالقياس لجامع الظلم، أو يراد: الظالمون عموما فدخلت بالعموم ﴿عَذَابًا اَلِيمًا﴾ في الآخرة وفي البرزخ.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَالِكَ كَثِيرًا﴾ عطف على «قَوْمَ نُوحٍ» إن نصب بغير «أَغْرَقْنَا» وإلَّا قدِّر لأوَّلها: اذكر، أو أهلكنا، أو نحوهما، وعطف عليه ما بعده. وصرَّف «ثمود» على الأصل لأنَّ منع صرفه إنَّما هو بالتأويل بالقبيلة.

[قصص] وأصحاب الرس: هم أهل قرية باليمامة قتلــوا نبيئهم في البئر، وهم بقية ثمــود، أو بأنطاكية قتلوا حبيبــا النجَّار، أو قوم لشــعيب كذَّبوا نبيئا فانهارت بهم البئر التي هم حولها، أو قوم حنظلة بن شعيب قتلوه فأهلكوا في بئر، أو قــوم أكلوا نبيئهم، أو قوم قتلوا أنبياء ورسُّــوا عظامهــم في بئر، أو هم أصحاب الأخدود، أو الرس: بئر بأذربيجان، أو بين نجران وحضرموت، أو ماء ونخل لبني أسد، أو بئر رسُّــوا فيه نبيئا من ذرِّيَّة يهوذا رجاء لرضا آلهتهم عنهم وهم يسمعون أنينه يومهم، فمات فأذابتهم سحابة سوداء كما يذاب الرصاص.

ونعت الجمع بـ«كَثِيرًا» لأنَّه بوزن مصدر الصوت والســير. ﴿**وَكُلًّا**﴾ كلَّ قرن من تلك القرون أهلكنا أو أنذرنا، نصب على الاشــتغال من معنى قوله: ﴿**ضَرَبْنَا لَـهُ الاَمْثَالَ**﴾ كقولك: زيــدا مررت به، أي ضربنا في شــأنه الأمثال لرســلهم أو لمن بعدهم، والهــاء للقرن على لفظه، أو ضربنــا الأمثال لنفس القرن بمن هلك قبله لينزجر، وذلــك على إجماله زجر لهذه الأمَّة لتتَّعظ بمن قبلها ﴿**وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا**﴾ أهلكنا إهلاكا عظيما ككسر الشيء فتاتا دقاقا، ومنه التبر لفتات الذهب وَالفِضَّة.

﴿**وَلَقَدَ اَتَوْاْ**﴾ أي قريش في سفرهم إلى الشام للتجر. وعدِّي بـ«على» في قوله: ﴿**عَلَى الْقَرْيَـةِ**﴾ لأنَّ المعنى: وقعت أبصارهم عليهــا إذ بقي أثرها، أو كقولك: مرَّ علــى كذا. وهي القرية العظمى من قرى قــوم لوط المهلكة وهنَّ أربع، ســمِّيت «ســدوم» باســم قاضيها «ســدوم» الذي يضرب به المثل في الجور، ولم تهلك الخامسة «زغر» لأنَّها لم تعمل عملهنَّ.

﴿**التِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّــوْءِ**﴾ اســم مصدر، أي إمطار الســوء، كاغتسل غســلا، وهذا أولى من جعله اســما لِمَا أُمطروا به، على معنى: أعطيت مطر السوء. وأمطر استعارة تصريحيَّة تبعيَّة لضربوا بالحجارة من جهة السماء ضربا شبيها بإنزال المطر.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا﴾ ألم يكونوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها؟ فلا نظر إليها ولا رؤية، أو أكانوا ينظرون إليها فلا يرونها كأنَّهم لم ينظروا إليها؟. وأقحم «يَكُونُوا» دلالة على التكرار، ولم يقل: ولقد يأتون، أو لقد كانوا يأتون، تلويحا إلى أنَّ المرور الواحد عليها يكفي زجرا، مع أنَّ ذكره هنا دليل عليه هناك.

﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ إضراب، إبطال نفى به انتفاء رؤيتهم المتكرِّرة، أي بل تكرَّرت رؤيتهم، ولكن لم يَنْزَجِرُوا لإنكارهم البعث، فضلا عن أن يعاقبوا بعده، أو لإنكارهم أن يكون إهلاكهم لكفرهم بل هلكوا اتِّفَاقًا. والرجاء هنا مطلق التوقُّع استعمالا للمقيَّد في المطلق، أو بمعنى الخوف كما مرَّ، أو على ظاهره، أي لا يرجون رجاء كرجاء المسلمين الخير بالنشور، لإنكارهم النشور فلم يعملوا له.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿41﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿42﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿43﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿44﴾﴾

استهزاء المشركين بالنبيء ﷺ

﴿**وَإِذَا رَأَوْكَ**﴾ رآك أبو جهل ومن معه ﴿**إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا**﴾ موضع هزء، أو مهزوءا به. و«إِذَا» الشرطيَّة تختصُّ بعدم الفاء في جوابها المبدوء بـ«إِنْ» أو «لا» أو «ما» النافية. ﴿**أَهَذَا الذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً**﴾ الجملة محكيَّة بـ«يَتَّخِذُ»، أو بـ«هُزُؤًا» لتضمُّن معنى القول، أو بقول مقدَّر، أي يقولون: أهذا...؟. والاستفهام تعجُّب من أن يكون رسولا. وإشارة القرب تهاون به.

﴿**إِن**﴾ إنَّه، أي هذا الشأن، وهكذا يجوز تقدير اسم «إِنْ» المخفَّفة ضميرا لغير الشأن إذا صلح ﴿**كَادَ لَيُضِلُّنَا**﴾ يصرفنا ﴿**عَنَ ـ الِهَتِنَا**﴾ عن عبادتها، أو عنها بذاتها، بأن نصنعها أو نكسبها، أو تكون في بيوتنا فضلا عن أن نعبدها.

﴿**لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا**﴾ لولا صبرنا عن عبادتها موجود، وقربه ﷺ من صرفهم عنها موجود لكن مقيَّد بصبرهم، لأنَّه لولا صبرهم لكان الصرف لاَقْرُبه فقط، أو يقدَّر لها جواب، أي لولا أن صبرنا عليها لصرفنا، وذلك

اعتراف منهم، بَالَغ في إنذارهم بحججه، حتَّى إنَّه لم ينجهم منه إلَّا صبرهم، وفي ذلك تجهيل لهم وذمٌّ إذ لم يتأثَّروا بالحجج القَويَّة.

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ على كفرهم ﴿مَنَ اَضَلُّ سَبِيلاً﴾ الجملة سدَّت مسدَّ مفعولي «يَعْلَمُ»، أو مسدَّ مفعوله الواحد على معنى يعرف، أو يعرفون الذي هو أضلُّ على أنَّ «مَنْ» موصولة لا استفهاميَّة، وحذف صدر الصلة. و«أَضَلُّ» خارج عن التفضيل إذ لا ضلال مع رسول الله ﷺ البتَّة، ويحتمل التهكُّم.

﴿اَرَآيْتَ﴾ يا محمَّد ببصرك، أو ذكرت بقلبك ﴿مَن﴾ موصولة مفعول لـ«رَأَيْتَ» ﴿اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَايهُ﴾ تعجيب له ﷺ من اعتبار الأُلُوهِيَّة بميل الهوى، وإذا أمكن جعل الْمُتَقَدِّم مبتدأ بلا ضعف معنى ولا صناعة فهو مبتدأ.

والهوى بالمعنى المصدري، أو بمعنى المهوي، كان الحارث بن قيس كلَّما هوى حجَرًا عَبَدَه، قال ابن عبَّاس: كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زمانا، وإذا رأى أحسن منه عبده وترك الأوَّل، فنزل: ﴿اَرَآيْتَ مَنِ اتَّخَذَ...﴾.

[قلت:] ولا يترك عموم اللفظ لخصوص السبب، فالآية أعمُّ من ذلك، كما قال ابن عبَّاس في الآية: كلَّما هوى شيئا فعله، لا يحجزه ورع ولا تقوى.

[أصول الدين] فمن فعل كبيرة من أهل التوحيد فقد جعل إلهه هواه، إذ تبع ما هواه وخالف الله عَزَّوَجَلَّ. أخرج عبد بن حميد[1] أنَّه قيل للحسن البصري: أفي أهل القبلة شرك؟ فقال: نعم، المنافق مشرك، أي في المعنى أنَّ المشرك يسجد للشمس والقمر أي مثلا، والمنافق أي فاعل الكبيرة عبد هواه ثمَّ تلا

(1) الإمام الحافظ الجوال عبد بن حميد بن نصر أبو محمَّد الكِشي أو الكَشي، ويقال: اسمه عبد الحميد، ولد بعد سنة 170هـ، حدَّث عن علي بن عاصم الواسطي وأبي عاصم وخلق كثير، حدَّث عنه مسلم والترمذي والبخاري، وذكره أبو حاتم البستي في الثقات، توفي سنة 294هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 457.

هذه الآية فترى الحسن البصري سمَّى فاعل الكبيرة منافقا مع أنَّه لم يضمر الشرك كما يسمِّي مضمره منافقا، قال بعض المحقِّقين من قومنا: ما ذكره الحسن هو ما ذكره غير واحد من الأجلَّة.

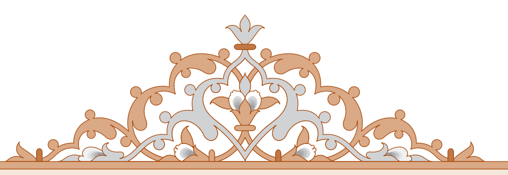
وأخرج الطبراني وأبو نعيم عن أبي أمامة عنه ﷺ: «**ما تحت ظلِّ السماء من إله يعبد من دون الله تعالى أعظم عند الله ﷻ من هوى يتبع**»[1]. والمشرك داخل في الآية أوَّلا، وذلك كما جاء أنَّ الرياء شرك.

﴿**أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً**﴾ أتشاهد غلوَّه في الهوى فأنت تكون وكيلا عليه تقهره على الإسلام ﴿**اَمْ تَحْسِبُ**﴾ إذ أجهدت نفسك في الإنذار حتَّى كأنَّك باخع نفسك طمعا في إيمانهم؟ ﴿**أَنَّ أَكْثَرَهُمْ**﴾ إضراب انتقال إلى نفي لياقة ظنٍّ أنَّ أكثرهم سامعون أو عاقلون، كما قال: ﴿**يَسْمَعُونَ**﴾ من الآيات المتلوَّة سماع تفهُّم؟ ﴿**أَوْ يَعْقِلُونَ**﴾ دلائل المخلوقات فإنَّ سمعهم وعقلهم لِمَا تقول كعدمهما إذ لم ينتفعوا بهما.

واحترز بالأكثر عَمَّن يؤمن وَعَمَّن أدرك الحقَّ منهم وكابر، وإن شئت فأدخل هذا في الأكثر لأنَّ إدراكه فاسد إذ كابر، أو أريد بالأكثر الكلُّ حتَّى من سيؤمن، لأنَّه قبل الإيمان لا يعتبر سمعه وعقله في ذلك، وداخل في قوله: ﴿**إِنْ هُمُ**﴾ أي الأكثر المذكورون، أو من اتَّخذ إلهه هواه، وعليه فالأكثريَّة مرادة لذكرها قبل ﴿**إِلَّا كَالَانْعَامِ**﴾ في عدم التدبُّر.

﴿**بَلْ هُمُۥ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ لأنَّها ولو ضلَّت عن أمر الشرع لم تعتقد باطلا، وأنَّها تعرف مصالحها وتقصدها ومضارَّها فتجتنبها، وهم ضلُّوا فعلا وتركا واعتقادا وضلُّوا عن مصالحهم التي هي في الدنيا والتي في الآخرة.

(1) رواه **الطبراني** في الكبير: ج 8، ص 103، رقم 7502، وأورده **أبو نعيم** في الحلية: ج 6، ص 118، من حديث أبي أمامة.



﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿45﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿46﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿47﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿48﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿49﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿50﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿51﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿52﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿53﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿54﴾﴾

خمسة أدلة على وجود الله وتوحيده

﴿**أَلَمْ تَرَ**﴾ ببصرك ﴿**إِلَىٰ رَبِّكَ**﴾ إلى دلائل ربِّك، أو لم ينته علمك إلى دلائله ومنها بسط الظلِّ كما قال: ﴿**كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ**﴾ أطاله بعد الفجر، وقيل: ما بين الفجر وطلوع الشمس، وهو أطيب الأوقات لانتفاء الظلمة وشعاع الشمس القاهر للبصر، قيل: ظلُّ الليل، على أن الظلَّ عدم الشمس عن موضع ولو لم تكن فيه، كما يقال: ظلُّ الجنَّة، قال الله ﷻ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [سورة الواقعة: 30] ولا سيما أنَّ ظلَّ الليل عن شمس الغروب وظلَّ الفجر عن أفق الشرق، ولو كان لا يعهد تسميتهما ظلًّا، وقيل: ظلُّ الأجرام المتشخِّصة، كظلِّ شجرة وحائط وجبل، أوَّل النهار، أو كلُّ ذلك، أو مدَّة تحريكه، كما قال:

﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ لا يزيد ولا ينقص، ومقابل السكون على الأقوال: نقصه شيئا فشيئا وهو تحريك، وهو للصلوات كالأهلَّة مواقيت للناس ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ﴾ أي طلوعها ﴿عَلَيْهِ﴾ على ظهوره ﴿دَلِيلاً﴾ فإنَّه إذا وقع ضوؤُها على شيء ظهر أنَّ الظلَّ شيء زائد على الجسم، والضدُّ يظهر حاله الضدُّ.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ بمعنى أنَّه لا يملكه أحد غيرنا فأفنيناه لا إلى غيرنا ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ تدريجا شيئا فشيئا بتسيير الشمس، و«ثُمَّ» للترتيب هنا بلا تراخ، أو بتراخ مقصود به آخر النصف الأوَّل من النهار، أو هي لتراخي رتبة الأخذ عن رتبة البسط، فإنَّه أظهر قدرة من البسط.

﴿وَهُوَ الذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ استعارة أو تشبيه كما تلبسون ثيابا، وذلك مناسب لتغطية الأرض بالظلِّ كاللباس لها، ونقول: الشمس لباس آخَر لها ﴿وَالنَّوْمَ﴾ وهو يقع في الليل غالبا لاستيلاء الأبخرة على القوى فتسترخي ﴿سُبَاتًا﴾ قطعا للأبدان والعقول عن العمل، والنوم نفس القطع كالسكون قطع الحركة.

[لغة] أو السبات: الراحة وهي تكون بقطع عمل العقل والجوارح، وقد شهر أنَّ يوم السبت سُمِّيَ لجريان العادة فيه بالاستراحة، قيل: لم يخلق الله فيه شيئا، ولا يلحقه تعب، ومريض مسبوت: استراح من تعب العلَّة، أو ضرب من الإغماء يشبه النوم به.

﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ زمان نشور لطلب المعاش، أو نفس النشور مبالغة أو ناشرا على الإسناد المجازي العقلي، أو السبات: الموت، استعارة أو تشبيها، والنشور: البعث كذلك لشبه النوم بالموت، والاستيقاظ بالحياة بالبعث، ﴿وَهُوَ الذِي يَتَوَفَّاكُم بِالَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [سورة الأنعام: 60]، ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الاَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [سورة الزمر: 42].

﴿وَهُوَ الذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ من هنا ومن ها هنا، كما قال ﷺ: «**اللهمَّ اجعلها رياحا لا ريحا**»[1]، وريح العذاب تأتي واحدة، ولم تفرد في القرآن إلَّا للشرِّ ﴿نُشْرًا﴾ جمع نَشور ـ بفتح النون ـ كرسول ورسل، والمعنى: ناشرات للسحاب، من النشر بمعنى البعث ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ متقدِّمة على رحمته التي هي مطره الجائي بعد الرياح، وسمِّي رحمة تجوُّزا إرساليًّا، الأصل: مرحوما به، أي منعما به وهو الماء[2].

[بلاغة] وشبَّه المطر بنحو سلطان يتقدَّم بين يديه خاصَّته، أو أعوانه، واستعير لفظ سلطان له على الكناية وذكر «بَيْنَ يَدَيْ» قرينة، ويجوز أن يكون الكلام استعارة تمثيليَّة.

﴿وَأَنزَلْنَا﴾ تكلُّم بعد غيبة إظهارا لكمال العناية ﴿مِنَ السَّمَآءِ﴾ إحدى السبع، والله قادر، أو السحاب، أو **جهة العلوِّ**، وقد قيل: إنَّه في الهواء بحر ماء عذب.

[لغة] ﴿مَآءً طَهُورًا﴾ آلة للطهارة كالوَضوء بفتح الواو للماء الذي يُتوضَّأ به، والغسول بفتح الغين لِمَا يغسل به، والسَّحور بفتح السين لِمَا يتسحَّر به، والفَطور بفتح الفاء لِمَا يفطر به، والوَقود لِمَا يوقد به، ومن ذلك قوله ﷺ: «**التراب طَهور[المسلم]**»[3] بفتح الطاء أي آلة لرفع الأحداث بالتيمُّم ومزيل للأنجاس بالحكِّ به.

[صرف] وهو باق على أصله من اللزوم، وليس بمعنى التطهير أو الطهارة، بل بمعنى ما يفعل به ذلك، وليس صفة مبالغة كضروب، ولا يكفي أن يقال: إنَّه طاهر جدًّا حتَّى إنَّه مطهِّر لغيره، وليس كلُّ طاهر جدًّا مطهِّرا لغيره، وأيضا

---

(1) تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج 1، ص 312.

(2) وفي قراءة حفص عن عاصم: بُشُرًا جمع بشير مبشرات برحمة الله وهو المطر.

(3) أورده **الزيعلي** في النصب: ج 1 ص 148. كما أورده **الآلوسي** في تفسيره: مج 7 ص 30 بلفظ: «التراب طهور المؤمن» بدون تخريج.

يوهم التعدِّي، واللازم لا يكون متعدِّيا بكونه على وزن «فعول»، وليس «فعول» من التفعيل في شيء، وقياسه على ما هو متعدٍّ كقطوع ومنوع غير سديد، و[لا يُستعمل] بناء «فعول» للمبالغة مع بقائه على اللزوم إن كان فعله لازمًا.

﴿لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً﴾ أرضا ﴿مَّيْتًا﴾ أي مَيِّتة.

[صرف] وذكِّر لأنَّه أصله «فعيل» شبيه بمصدر السير والصوت، هكذا: مويت بكسر الواو وإسكان الياء، قلبت الواو ياء وفتحت الياء فأدغمت فيها الياء بعد حذف كسرتها، وذلك تخفيف.

[بلاغة] أو ذكِّر لأنَّه صفة مبالغة لا تشبه حركتها حركة الفعل، كما تشبه حركة اسم الفاعل حركة الفعل، ولمعنى البلد فإنَّ البلدة البلد، شبَّه الله الأرض فيها النبات بالحيوان في النموِّ والنفع ورمز إليه بـ«نُحْيِي» وشبَّه الإنبات بالإحياء على الاستعارة، واشتقَّ منه «نُحْيِي» وشبَّه عدم نباتها بعدم الروح كذلك.

﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا﴾ «مِنْ» تبعيضيَّة، أو بيانية متعلِّقة بمحذوف حال من «أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ» في قوله: ﴿أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ﴾ إمَّا أن يراد بالأنعام الحيوانات كلُّها مجازا لعلاقة الإطلاق والتقييد، وبالأناسي أهل القرى وأهل البدو. وكلُّ ما في العيون والآبار أصله من السماء كما في سورة الحجر [الآية: 22] والحديث.

أو يراد بالأنعامِ الثمانيةُ، وبالأناسي أهل البدو. والمراد: ما بقي من ماء المطر في الأودية والحياض والبرك، ولبعض البدو آبار أيضا، ويرجِّح هذا تنكير أنعام وأناسي، وعبارة بعض: إنَّه نكَّر الأنعام والأناسي ووصفها بالكثرة لأنَّ أكثر الناس مقيمون بالقرب من الماء، وتنكير البلدة لإرادة بعض هؤلاء البعيدين من الماء، وأمَّا أهل القرى فماؤهم من عيون عندها لهم ولدوابِّهم وأمَّا سائر الدوابِّ في البدو فلا يعوزها الماء، إذ أقدرها الله على طلبه ولو بَعُد وجبلها على عدم شدَّة الاحتياج إليه. وقدَّم سقي الأرض والأنعام لأنَّ معاش الناس بهما، ولأنَّ وجود سقيهما وجود لسقيهم، وخصَّ الأنعام من سائر الحيوان لكثرة منافعها.

[صرف] و«أَنَاسِي»: جمع إنسان، أصله أناسين قلبت النون ياء وأدغمت فيها الياء، وقيل: جمع إنسي، وهو أولى لعدم القلب، إلَّا أنَّ الأكثر في جمع النسب «أفاعلة»، كما ينسب إلى باهلي بقولك: أباهلة، وأزرقي وأزارقة وإباضي وأباضية وأشعري وأشاعرة، ﴿**كَثِيرًا**﴾ نعت به الجمع لأنَّه بوزن المصدر.

﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ**﴾ حولنا أحواله وأوقاته وأنواعه من وابل وطلٍّ ورذاذ ونحوها ﴿**بَيْنَهُمْ**﴾ بذلك وبالقلَّة والكثرة، وعن ابن عبَّاس ﵄ في معنى التصريف: ما من عام بأقلَّ مطرا من عام ولكنَّ الله يصرفه حيث يشاء، ولفظ ابن مسعود: ليست سنة أمطر من سنة، لكنَّ الله تعالى قسَّم هذه الأرزاق فجعلها في هذه السماء الدنيا، في هذا القطر أي المطر ينزل منه كلَّ سنة بكيل معلوم ووزن معلوم، وإذا عمل قوم بالمعاصي حوَّل الله ذلك إلى غيرهم، وإذا عصوا جميعا صرف الله تعالى ذلك إلى البحار والفيافي. وقيل: التصريف في الآية للريح.

﴿**لِيَذَّكَّرُواْ**﴾ يتذكَّروا، أبدلت التاء ذالا وأدغمت في الذال، والمعنى: ليحضر لهم ما نسوا من العبرة إذ كان قد سبق لهم شيء، ولا يخلون منه، أو غفلوا عنه أو جهلوه ﴿**فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا**﴾ للنعم بفعل المعاصي.

[أصول الدين] ومعاصي المشركين كلُّها كبائر ولا صغيرة لهم تغفر لإصرارهم ولو تفاوتت معاصيهم، ومن كفرهم قولهم: «مطرنا بنوء نجم كذا» معتقدين أنَّ النجم مستقلٌّ بالإمطار، أو له تأثير فيه، ولا مؤثِّر على الحقيقة إلَّا الله.

[قلت:] ومن قال: «مطرنا بنوء كذا» ونوى أي اعتقد أنَّ الله هو الخالق للمطر ونزوله عند نجم كذا ولا أثر للنجم فيه فلا إشراك ولا معصية، إلَّا إن أوهم أحدا فنفاق، ويكره وإن لم يوهم، ولا كفر أيضا إن اعتقد أنَّ الله خلق عند فلك أو نجم سببا للمطر وأنَّ الله هو مسبِّبه.

ويجوز عود هاء «صَرَّفْنَاهُ» إلى القرآن، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾. وإلى أنَّ التذكُّر به أنسب، وفيه أيضا ذكر دلائل المخلوقات إلَّا أنَّ قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أنسب بغير القرآن، ويبعد عوده إلى ذكر إنشاء السحاب وإنزال المطر، وكرَّر ذكر ذلك للأمم، فتكون هاء «بَيْنَهُمْ» وواو «يَذَّكَّرُوا» للناس كلِّهم، الأمَّة ومن قبلها.

﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ**﴾ كما قسَّمنا الماء بين الناس ﴿**نَّذِيرًا**﴾ نبيئا ينذر أهلها ولكن أفردناك إجلالا لك، كما أنَّه لا نبيء بعدك إلَّا جار على دينك فإلياس والخضر معك وبعدك وعيسى بعدك جارون على دينك، ومن دينك إسقاط قبول الجزية على أهل الكتاب إذا نزل عيسى.

﴿**فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ**﴾ في فعل ما يريدون، أو في اللين حيث لا يجوز، كقوله تعالى: ﴿واغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة التوبة: 73]، وهذا النهي نهي للمؤمنين لأنَّهم تبع له حتَّى إنَّه لو فعل ـ حاشاه ـ لم يجز لهم الفعل ﴿**وَجَاهِدْهُم بِهِ**﴾ بالقرآن، ألفاظه ومعانيه، لاشتماله على الأخبار والأحكام والوعظ والبيان.

وأجيز عود الهاء إلى ترك إطاعتهم المدلول عليه بقوله: ﴿ولَا تُطِعِ...﴾ ويلتحق بالأنبياء العلماء المجاهدون لِلْكُفَّارِ بالحجج ﴿**جِهَادًا كَبِيرًا**﴾ ولا بدَّ لأنَّه لأهل القرى كلِّها، وكلُّهم أعداء لك إلَّا باتباعه فلك جهاد أنبياء، وقد أنزل أوَّل السورة: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

﴿**وَهُوَ الذِي مَرَجَ**﴾ خلط ﴿**الْبَحْرَيْنِ**﴾ جنس البحرين المالح والعذب لا بحرين مخصوصين، وخلطهما: صبُّ العذب في المالح، كما أنَّ النيل والفرات ودجلة وسائر العيون العظام المستحقَّة لاسم البحرين صببن في البحر المالح المحيط وغير المحيط ﴿**هَذَا عَذْبٌ**﴾ لائق بالفم والحلق والبطن نافع مزيل للعطش ﴿**فُرَاتٌ**﴾ شديد العذوبة، أو بارد بالطبع ولو أصابته بعض حرارة بحادثة الشمس، ويطلق على العذب أنَّه حلو، وعلى كلِّ حال هو مقابل

لِلْمِلْحِ كما قال: ﴿وَهَذَا مِلْحٌ اجَاجٌ﴾ شديد الملوحة أو المرارة أو الحرارة لكن حرارته بالطبع إذ يشتدُّ، ولا يليق ولا ينفع بل يزيد عطشا وضرًّا.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أمرا من الله مانعا من أن يختلط الماء المالح بالعذب فيفسده لعظمه أو يغيِّره تغييرا مَّا بأن خلق الله البحر المالح منسفلا فلا يعلو البحر العذب.

أو البرزخ: الأرض التي بين البحر المالح والأرض التي يجري فيها البحر العذب، ولو بعد ما بينهما فالله ﷻ أخبرنا أنَّ البحرين فصلت الأرض بينها قبل الانصباب وأنَّه إذا اختلطا بالصبِّ لم يغيِّر المالح العذب، وإن شئت فقل: ولا العذب المالح مع طول الصبِّ فيه.

﴿وَحِجْرًا﴾ منعا ﴿مَّحْجُورًا﴾ ممنوعا عن أن يبطل، فهما دائمان متنافران، ومرَّ كلام في ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [آية 22]. وعن الحسن: المراد الأرض، فهو تأكيد إذا فسِّر الحاجز بالأرض بين البحرين، وتأسيس إن فسِّر بعدم اختلاطهما اختلاطا مغلِّبا لأحدهما على الآخر.

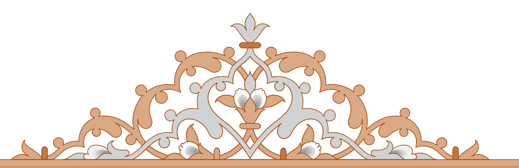
﴿وَهُوَ الذِي خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ﴾ المذكور وهو ماء المطر ﴿بَشَرًا﴾ أولاد آدم. والتنكير للتعظيم. وخلقهم من ماء المطر هو خلق أصلهم آدم منه، إذ عجن به ترابه وقطر على طينته أيضا **أو الماء النطفة على الجناس** ﴿فَجَعَلَهُ﴾ جعل البشر المذكورين ﴿نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ نفس النسب والصهر مبالغة، أو ذوي صهر ونسب، بعضا نسبا وهو الذكور وبعضا صهرا وهو الإناث، وقيل عن عليٍّ: النسب ما لا يحلُّ تزوُّجه، والصهر ما يحلُّ. وعنه: النسب ما لا يحلُّ والصهر قرابة الرضاع.

[بلاغة] ولم يقل: ذكرا وأنثى كما قال: ﴿خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنثَى﴾ [سورة النجم: 45] ليصرِّح بالتشعُّب. أو الماء ماء المطر والبشر آدم وهاء «جَعَلَهُ» للبشر بالمعنى الآخر، وهو ذرِّيَّته على طريق الاستخدام،

كقولك: درهم ونصفه، أو لآدم على حذف مضاف هكذا: وجعل ذرِّيته نسبا، أولى من الحذف والإيصال هكذا: فجعل منه نسبا وصهرا، ولو وافق في المعنى قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ﴾ [سورة القيامة: 39] لأنَّ الأصل عدم النصب على نزع الخافض.

﴿**وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا**﴾ على كلِّ ممكن، كما خلق من الماء الواحد ما اختلف بالأعضاء والطباع والألوان، وسائر صفات الخلق، والذكورة والأنوثة.

[أصول الدين] وقدرة الله أَزَلِيَّة لأنَّها صفته وصفته هو، فكان للمضيِّ الثبوتيِّ المستمرِّ، ولا إشكال في هذا المعنى.



﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (55) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (57) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ (60) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62)﴾

جهل المشركين في عبادة الأوثان والتوجيه لعبادة الرحمن

﴿**وَيَعْبُدُونَ**﴾ أي المشركون المعهودون ﴿**مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ**﴾ ولو عبدوه ﴿**وَلَا يَضُرُّهُمْ**﴾ ولو لم يعبدوه، أو جعلوه في الكنيف، وهو الأصنام، أو كلُّ ما عبد من دون الله ولو عاقلا ﴿**وَكَانَ الْكَافِرُ**﴾ جنس الكفَّار، فالأصل: «وكانوا» لذكرهم في «يَعْبُدُونَ» وأظهر ليذكرهم باسم الكفر. وقيل: أبو جهل لأنَّ الآية نزلت بسببه، وقيل: إبليس ﴿**عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا**﴾ مظاهرا، أي معينا على الإشراك به ومعصيته، كجليس بمعنى مجالس.

وذلك بصورة إعانة المشركين أو الناس على الله حاشاه عن أن يتضرَّر بشيء أو ينتفع به، أو يراد على أولياء ربِّه. ويبعد أن يكون «ظَهِيرًا» من

الظهر بمعنى مهينا كقولك: ظهرته بمعنى ألقيته وراء ظهري لهوانه لا خلاق له عند الله ﷻ لكفره.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين لم نخلقك توفّق الناس فلا تحزن لكفرهم، وصفة المبالغة في «نَذِيرًا» لكثرة عتوّهم وإصرارهم، ولكثرة المنذَرين ـ بفتح الذال ـ، حتَّى قيل بشمول العصاة من الموحِّدين.

﴿قُلْ﴾ لهم دافعا عن نفسك مبلِّغا رسالة ربِّك ﴿مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ المعلوم من الإرسال، أو من القرآن، أو من المذكور من التبشير والإنذار ﴿مِنَ اَجْرٍ﴾ من جهتكم، وأريده من الله في الآخرة ﴿اِلَّا﴾ لكن ﴿مَن شَآءَ اَنْ يَّتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ إلى رحمة ربِّه ورضاه ﴿سَبِيلاً﴾ بإنفاق المال في وجوهه. ويجوز أن يكون الاستثناء متَّصلا من أجر، على تقدير: إلَّا أجر من شاء... إلخ، أي إلَّا أجرا يصيبني مِمَّن اتَّخَذَ لأنِّي السبب في اتِّخَاذه.

﴿وَتَوَكَّلْ﴾ في الاستغناء عن أجورهم ودفع ضررهم ﴿عَلَى الْحَيِّ الذِي لَا يَمُوتُ﴾ فهو الذي هو أحقُّ بالتوكُّل عليه لدوامه مع الغنى والقدرة، وفي التوراة: «لا توكَّل على ابن آدم فإنَّ ابن آدم ليس له قوام، ولكن توكَّل على الحيِّ الذي لا يموت». قال بعض السلف: لا يصحُّ لذي عقل أن يثق بعد هذه الآية بمخلوق.

﴿وَسَبِّحْ﴾ نزِّه الله ﷻ بصفاته عن صفات الخلق والنقص لجلاله، وليزيدك النعم على الشكر ﴿بِحَمْدِهِ﴾ ثابتا مع حمده، والتسبيح تخلية والحمد تحلية، ولذا أخَّره ولم يقل: احمده بتسبيحه، ولم يقل: وبحمده سبِّحه. وأحاديث ثواب التسبيح كثيرة ومنها: «**من قال: سبحان الله وبحمده غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر**»[1].

---

(1) أورده **المنذري** في كتاب الترغيب والترهيب. باب الترغيب في التسبيح والتكبير، ج 2، ص 423، رقم 423. و**السيوطي** في الحاوي للفتاوي: ج 2، ص 99.

﴿وَكَفَىٰ بِهِ﴾ الهاء فاعل «كَفَى»، والباء صلة، أي كفى هو أي الله ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾ متعلِّق بقوله: ﴿خَبِيرًا﴾ ظاهرها وباطنها، كما دلَّت عليه إضافة الذنوب للجمع المؤذنة بالعموم على ما قيل، وفيه أنَّها كالإضافة إلى المفرد إلَّا أنَّ فيها ذنب هذا وذنب هذا، فإذا قلت بذنوب فلان فهي أيضا ذنوبه كلُّها فكلتاهما للعموم.

ولا دليل على خروج الذنب الباطن فهو داخل كما دلَّت عليه الآيات، والدليل هو قوله: ﴿خَبِيرًا﴾ لأنَّ الخبرة متبادرة في البواطن فالظواهر أولى، ولكنَّها عند الله سواء، فهو يجازيهم على الباطن والظاهر. و«خَبِيرًا» حال. والآية تسلية له ﷺ وتهديد لِلْكُفَّار.

﴿الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي مقدارها، لأنَّه لا ليل ولا نهار حينئذ، لأنَّ الشمس خلقت بعد السماوات والأرض وهو قادر على خلقهما في أقلَّ من لحظة، ولكن علَّمنا التأنِّي في الأمور. و«الذِي» نعت للحي، أي الحيِّ الذي خلق.

﴿الرَّحْمَنُ﴾ أي هو الرحمن، أو «الذِي» مبتدأ خبره «الرَّحْمَنُ» ﴿فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ اعتن به، وهو خبير عظيم، أو اسأل عنه من هو خبير به لقراءته الكتب السابقة من أهل الكتاب وغيرهم. والهاء لله ﷻ، والخطاب له ﷺ.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ قال الله ﷻ بالوحي أو رسوله ﷺ ﴿لَهُمُ﴾ لِلْكُفَّارِ ﴿اسْجُدُواْ لِلرَّحْمَنِ﴾ اخضعوا له بالإيمان والعبادة، أو اسجدوا بوجوهكم في الأرض تقرُّبا إليه، أو صلُّوا، فإنَّه شديد الرحمة وعظيمها لا تخيبون من ثوابه ﴿قَالُواْ﴾ تجاهلا وعنادا ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ أهو من ذوي العلم أو من الجمادات والبهائم [تعالى عن ذلك] ولذلك كان السؤال بما، وهذا غاية الكفر، وقد علموا أنَّه أراد الله ﷻ كما قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء: 23] حين قال له

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: 46]، [قلت:] ومعلوم لهم أنَّه لا يأمرهم بالسجود لرحمان اليمامة ولا لغيره مِمَّا سوى الله عَزَّ وَجَلَّ.

ويجوز أن يكون «مَا» للَّفظ، أي ما هذا اللفظ؟ وهو لفظ «الرحمن»، واللفظ لا يتَّصف بالعلم فكان السؤال بما، وذلك أيضا لأنَّهم عالمون بأنَّ مراده الله وهو لفظ من معنى الرحمة.

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَامُرُنَا﴾ «مَا» مَصدَرِيَّة، أي أنسجد له لمجرَّد أمرك إيَّانا بلا معرفة له ما هو ولا دليل؟.

[نحو] وإن جعلنا «ما» اسما موصولا أو نكرة موصوفة فقد أجاز بعضهم حذف عائدها، ولو مجرورا بحرف لم يجر به الموصول أو النكرة، أو جرَّ ولم يتَّحد المتعلِّق فيقدَّر: أنسجد لما تأمرنا به؟ أي بسجود له، ثمَّ صار بسجوده، ثمَّ سجوده، ثمَّ تأمرناه، ثمَّ تأمرنا، أو حذف ذلك دفعة.

﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ عن الإيمان، أي الأمر بالسجود، وإسناد الزيادة للأمر مجاز، وهذا أولى لكونه في الآية من كون الفاعل ضمير السجود الذي سجده النبيء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، فتباعد المشركون عنهم استهزاء، فإنَّه واقعة حال لا تلاوة لها.

﴿تَبَارَكَ الذِي جَعَلَ فِي السَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ اثني عشر، كما روي عن ابن عبَّاس في السماء الدنيا. من التبرُّج بمعنى الظهور، والبرج: القصر العالي.

[فلك] وهنَّ للنجوم كالقصر، ثلاثة ربيعيَّة: الحمل والثور والجوزاء، وتسمَّى التوأمين، وثلاثة صيفيَّة: السرطان والأسد والسنبلة وتسمَّى العذراء، والستُّ شمالية، وثلاثة خريفيَّة: الميزان والعقرب والقوس ويسمَّى الرامي، وثلاثة شتويَّة: الجدي والدلو وَسُمِّيَ الدالي وساكب الماء، والحوت وتسمَّى السمكتين، والستُّ جنوبيَّة.

والبروج منازل الكواكب السـيَّارة، لكلِّ كوكب بيتان يقوى حاله فيهما، وللشمس بيت وللقمر بيت، فالحمل والعقرب بيتان للمرِّيخ، والثور والميزان بيتان للزهرة، والجوزاء والسنبلة بيتان لعطارد، والسرطان بيت القمر والأسد بيت الشـمس، والقوس والحوت بيتان للمشـتري، والجـدي والدلو بيتان لزحل. وهذه البروج مقسـومة على الطبائع الأربع لـكلِّ واحدة ثلاثة بروج، فالحمل والأسد والقوس نارية، والثور والسـنبلة والجدي أرضية، والجوزاء والميزان والدلو هوائية، والسـرطان والعقرب والحوت مائيـة، يطول النهار والليل ويقصـران ويكون البرد والحر، وتحصل الثمـار ويدرك الزرع بذلك، ولعلَّه أشار بالبركة إلى ذلك.

﴿**وَجَعَلَ فِيهَا**﴾ في السماء أو في البروج ﴿**سِرَاجًا**﴾ الشمس، قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِـرَاجًا﴾ [سـورة نوح: 16] يبصر بها نهارا كما يبصر بالمصباح ليلا، فاللفظ تشـبيه بالمصباح، أو اسـتعارة، وكلتاهما تشبيه للأعلى بالأدنى ﴿**وَقَمَرًا مُّنِيرًا**﴾ ذكره لأنَّه لم يشمله «سِـرَاجًا»، وهو بعد الليلة الثالثة، وقبلها هلال، وَسُمِّيَ لأنَّه يقمر ضوء الكواكب، أو لبياضه.

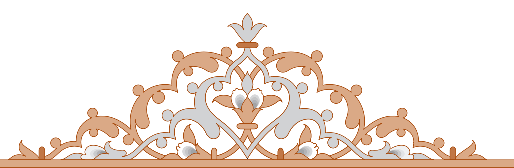
ونوره من الشـمس بمقابلتها علـى التحقيق، ويكثر بكثـرة بعده، وقال بعـض: إنَّ الكواكب كذلك نورها من الشـمس، ولـو كان لا يظهر لنا نقص نورها وزيادته.

﴿**وَهُوَ الذِي جَعَـلَ الَّيْلَ وَالنَّهَـارَ خِلْفَةً**﴾ ذوي خلفـة، أو مبالغة، أو هو وصف، وهو مصدر للهيئة كجِلسـة بكسـر الجيم، بمعنى كلٌّ يخلف الآخر بمجيئه بعده، وتبدُّل الظلمة بالضوء والعكس، والزيادة والنقصان، وعمل في واحد ما فات في الآخر.

﴿**لِّمَنَ اَرَادَ أَنْ يَّذَّكَّرَ**﴾ يعتبـر في الدلائل فيؤمن، فـإنَّ الليل والنهار من دلائل الله العظام ﷻ، و ﷻ.

وذكر جماعــة أنَّ المراد أنَّهما وقتــان لمن تذكَّر ما فاتــه في أحدهما من العبادة فيفعلــه في الآخر، كما روي أنَّ عمر رضي الله عنه أطــال صلاة الضحى، فقيل له؟ فقال: تداركت ما فات من وردي وتلا الآية، والظاهر أنَّ ذلك تفســير لها منه رضي الله عنه فيفسَّر التذكُّر بالتعبُّد ﴿أَوَ اَرَادَ شُكُورًا﴾ أن يشكر ما فيهما من النعم، وقيل: التذكُّر: تدارك ما فات في أحدهما، والشكر: النفل مطلقا.





﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿63﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿64﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿65﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿66﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿67﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿68﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿69﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿70﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿71﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿72﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿73﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿74﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿75﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿76﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿77﴾﴾

صفات عباد الرحمن

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ الذين أخلصوا العُبُودِيَّة والعبادة لله، الذين هم أحقُّ بهذا الاسم، وأن يشرَّفوا به وأضافهم للرحمن تفضيلا لهم، وهو مبتدأ خبره هو قوله: ﴿الذِينَ﴾ أو قوله: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ فيكون «الذِينَ» نعتا.

﴿**يَمْشُونَ عَلَى الَارْضِ هَوْنًا**﴾ مشي هون، أو ذوي هون لين، لا يضربون الأرض بأرجلهم، أو نعلا بنعل كما يفعل ذو التبختر، أو لا يسرعون وذلك سجيَّتهم، أو زادوا في التواضع لله لا رياء ولا تبخترا، ولا خداعا وذلك مستتبع للرفق في أفعالهم وأقوالهم والعدل فيها، وهو المراد لا خصوص ذلك المشي، وذلك أولى من أن يفسّر بأنَّه كناية عن الرفق والعدل المذكورين.

رأى عمر ﵁ غلاما يتبختر فقال له: «هذه المشية تكره إلَّا في سبيل الله ﷻ، وقد مدح الله تعالى أقواما بقوله سبحانه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الَارْضِ هَوْنًا﴾ فاقصد في مشيتك» يعني مدحهم بتلك المشية المبنية على التقوى كما مرَّ.

وقد قيل: إنَّ «عِبَاد» هنا جمع عابد، كصاحب وصحاب، وراجل ورجال، كما قرئ: «وعُبَّاد» بضمِّ العين وشدِّ الباء، قال أبو هريرة وابن عبَّاس: قال رسول الله ﷺ: «**سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن**»[1].

﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ**﴾ السفهاء ﴿**قَالُوا سَلَامًا**﴾ سلمنا سلاما أي تركنا ما تمسَّكتم به لا نعاملكم به، وذلك قول لسان حال إذ خاطبوهم بسوء وسكتوا عن جوابهم، وهو أولى من أن يفسَّر بالنطق، لأنَّه قد يكون سببا للجرأة.

وروي أنَّ إبراهيم بن المهدي رأى عليًّا في نومه يريد أن يعبر قنطرة فقال له: إنَّما تدَّعي هذا الأمر بامرأة ونحن أحقُّ به منك، وذكر ذلك للمأمون وقال: ما رأيت له بلاغة في الجواب، فقال له المأمون: بم أجابك؟ فقال: قال: سلاما سلاما، فقال: يا عم لقد أجابك بأبلغ جواب إذ جعلك جاهلا، وأجابك بما أمر الله به، وقرأ المأمون الآية، فذلَّ إبراهيم وكان منحرفا عن عليٍّ، وكان

---

(1) أورده **المنذري** في الكنز: ج 1، ص 412، رقم 41620. و**أبو نعيم** في الحلية: ج 10، ص 290. من حديث ابن عبَّاس.

الحسن إذا قرأ ما مرَّ قال: هذا وصف نهارهم وإذا قرأ قوله تعالى: ﴿**وَالذِينَ يَبِيتُونَ**﴾... إلخ قال: هذا وصف ليلهم. والبيتوتة أن يدركك الليل نمت أو لم تنم ﴿**لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا**﴾ جمع قائم وقدّم «لِرَبِّهِمْ» و«سُجَّدًا» للفاصلة، والسجود لأنَّه أقرب ما يكون العبد من ربِّه، ولأنَّ المتكبِّرين أبوا منه.

مدحهم الله بقيام الليل كلِّه أو نصفه أو دونه، وقيل: من قرأ شيئا من القرآن في الصلاة في الليل فقد بات ساجدا وقائما، وقيل: المراد ركعتان بعد المغرب وركعتان بعد العشاء، وقيل: من شفع وأوتر بعد العشاء فقد دخل في الآية.

﴿**وَالذِينَ يَقُولُونَ**﴾ في صلواتهم أو أعقابها أو عامَّة أوقاتهم ﴿**رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا**﴾ لازما لكلِّ من دخلها من مشرك أو فاسق كما يلازم غريم الدَّيْنِ، وذلك مدح لهم إذ خافوا عذابها خوفا شديدا مع اجتهادهم في العبادة لم يحتفلوا بعبادتهم، ولا أمنوا مكر الله ﷻ كما قال: ﴿يُوتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [سورة المؤمنون: 60].

﴿**إِنَّهَا**﴾ أي جهنَّم، ولا داعي إلى جعله ضمير القصَّة ﴿**سَآءَتْ**﴾ بئست ﴿**مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا**﴾ هي، هما تمييزان بمعنى واحد ككذب ومين، وقيل: المستقرُّ للمشرك، والمقام للفاسق، اسما مكان، أو مصدران. وأنت خبير بأنَّ الفاسق خالد. أو «سَآءَتْ» متعدٍّ متصرِّف ليس من باب «نعم» و«بئس»، فمفعوله محذوف، أي ساءت أهلَها، أي أضرَّتهم وأحزنتهم، فما بعده حال، أي ذات مستقرٍّ ومقام لازمين دائما.

﴿**وَالذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ**﴾ أرادوا الإنفاق ﴿**لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يُقْتِرُواْ**﴾ أو إذا أنفقوا لم يوجدوا مسرفين ولا مقترين، والإسراف: أن ينفق ماله كلَّه أو إلَّا قليلا لا يكفيه حاله فيبقى يتكفَّف الناس، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [سورة الإسراء: 29].

[جملة من الأمثال] قال الحسين بن الفضل[1]: وافق قول العرب: «خير الأمور أوسطها» قوله تعالى: ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ...﴾ [سورة البقرة: 68]، وقوله تعالى: ﴿وَالذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يُقْتِرُواْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً...﴾ [سورة الإسراء: 29]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ...﴾ [سورة الإسراء: 110]، ووافق قولهم: «من جهل شيئا عاداه» قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ﴾ [سورة يونس: 39]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ﴾ [سورة الأحقاف: 11]، ووافق قولهم: «احذر شرَّ من أحسنت إليه» قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ إِلَّا أَنَ اغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ...﴾ [سورة التوبة: 74]، ووافق قولهم: «ليس الخبر كالعيان» قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُومِن قَالَ بَلىٰ...﴾ [سورة البقرة: 260]، ووافق قولهم: «البركات في الحركات» قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُّهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ...﴾ [سورة النساء: 100]، ووافق قولهم: «كما تدين تدان» قوله تعالى: ﴿مَنْ يَّعْمَلْ سُوءًا..﴾ [سورة النساء: 123]، ووافق قولهم: «حين تغلي تدري» قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الَاغْلَالُ...﴾ [سورة غافر: 70ـ71]، وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ...﴾ [سورة الفرقان: 42]، ووافق قولهم: «لَا يُلْدَغُ الرَّجُلُ مِنْ جحر أفعى مرَّتين» قوله تعالى: ﴿هَلَ ـ امَنُكُم...﴾ [سورة يوسف: 64]، ووافق قولهم: «من أعان ظالما سلِّط عليه» قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ...﴾ [سورة الحج: 4]، ووافق قولهم: «لا تلد الحيَّة إلَّا حيَّة» قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُواْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [سورة نوح: 27]، ووافق قولهم: «للحيطان آذان» قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة: 47]، ووافق قولهم: «الجاهل مرزوق والعالم محروم» قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ...﴾ [سورة مريم: 75]، ووافق قولهم: «الحلال يأتيك قوتا والحرام جزافا» قوله تعالى: ﴿إِذْ تَاتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ...﴾ [سورة الأعراف: 163]، وبعض ذلك في الحديث، أو أخذه من كلام العرب إذ وافق الحقّ.

(1) الحسين بن الفضل بن عمير أبو علي البجلي الكوفي النيسابوري مفسِّر لغوي محدِّث، ولد قبل سنة 180هـ. توفي سنة 282هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 538.

والإقتار: تضييق الشحيح؛ أو الإسراف الإنفاق في المعاصي، والإقتار الإمساك عن إتمام طاعة، مثل أن يعطي بعض الزكاة دون بعض وجارا دون جار ولا يشبع ضيفه. ويبعد ما قيل: الإسراف الإنفاق من مال غيرك، والأوَّل أولى، ويضعف غيره أو يبطله قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ**﴾ الإنفاق ﴿**بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا**﴾ إذ لا يحسن أن يقال: كان بين الإنفاق من ماله والإنفاق من مال غيره قواما، ولا بين الإنفاق في المعاصي وعدم الإتمام سواء، ولو أمكن.

قال عبد الملك بن مروان إذ زوَّج ابنته لعمر بن عبد العزيز: ما نفقتك؟ قال: الحسنة بين السيِّئتين. ويقال: أولئك أصحاب محمَّد ﷺ لا يأكلون طعاما للتلذُّذ، ولا يلبسون ثيابا للجمال والزينة، ولكن سدًّا لجوعة وسترا لعورة، قال عمر ﵁: «كفى سرفا أن لا يشتهي الرجل شيئا إلَّا أكله» وروي: «إلَّا اشتراه فأكله». ومعنى ﴿قَوَامًا﴾: عدلا، كلُّ واحد يقاوم الآخر.

﴿**وَالذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا ـ اخَرَ**﴾ لا يعبدون غيره ﴿**وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التِي حَرَّمَ اللهُ**﴾ أي حرَّم قتلها، فحذف مبالغة في التحريم ﴿**إِلَّا بِالْحَقِّ**﴾ لكن يقتلون النفس بِالْحَقِّ، وهي النفس التي لم يحرِّم الله، وهي المشركة أو المرتدَّة أو الزانية المحصنة، أو الاستثناء متَّصل، أي إلَّا ملتبسة بما يخرجها عن التحريم بعد أن كانت فيه.

﴿**وَلَا يَزْنُونَ**﴾ بفرج ولا بجارحة ولا بعين ولا بقلب. وهؤلاء الآيات من عطف الصفات لموصوف واحد، كأنَّه قيل: وعباد الرحمن المتَّصفون بين المشي هونا ومتاركة خطاب الجاهلين وقيام الليل والاعتصام بالله من عذابه، والتوسُّط في الإنفاق، والتوحيد، وانتفاء القتل الحرام والزنى، وذلك مضادة للمشركين، والتخلية مقدَّمة على التحلية، وهي مقدَّمة هنا بالتأويل، ولو كان الظاهر هنا العكس لأنَّ المعنى أنَّ الله سبحانه برَّأهم مِمَّا أنتم عليه.

وجه الظاهر من تقديم التخلية أنَّها أنسب بذكر العُبُودِيَّة، وإنَّما ذكر ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا ـ اخَرَ﴾ مع أنَّه معلوم متقدِّم تلويحا إلى ما ذكرت من المضادَّة، أي هم بريئون مِمَّا أنتم عليه أَيُّهَا المشركون.

قال ابن مسعود: سألت رسول الله ﷺ: أيُّ الذنب أكبر؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا، وهو خلقك**» قلت: ثمَّ أيُّ؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**» قلت: ثمَّ أيُّ؟ قال: «**أن تزني بحليلة جارك**» فأنزل الله ﷻ: ﴿وَالذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا ـ اخَرَ...﴾[1].

[سبب النزول] وقال جماعة: يا محمَّد إنَّ ما تدعو إليه لحسن لو أخبرتنا بكفَّارة لِمَا فعلنا من إشراك وقتل وزنى وغير ذلك؟ فنزل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُواْ...﴾ [سورة الزمر: 53].

[فقه] ثمَّ إنَّه لا يخفى أنَّ آيات تحريم الزنى دليل على وجوب التزوُّج أو التسرِّي على القادر لِئَلَّا يزني، ومن لم يقدر فليصبر ولا يزن، ويستعين على الصبر بالصوم، كما جاء الحديث: «**إنَّ الصوم له وجاء**»[2]، ومن قدر فالواجب عليه التزوُّج لأحاديث الأمر به والنهي عن التبتُّل، ولتكثر أمَّة الإسلام، وليباهي بأتباعه الأمم، وتقديم الفرط، ولنخالف الرهبان من غيرنا، ولقوله ﷺ لعكاف بن وداعة: «**أنت من إخوان الشيطان، أو من رهبان النصارى، إذ لم تَتَزَوَّج وأنت قادر شابٌّ موسر، ولم تتسرَّ**»[3].

[قلت:] وإن خلقه الله لا يحتاج إلى المرأة أو حدث فيه لم يلزمه التزوُّج ولا التسرِّي، وليتفرَّغ إلى العبادة وهي أفضل، واختار له بعضهم التزوُّج أو

(1) رواه **البخاري** في كتاب الأدب (20) باب قتل الولد خشية أن يأكل معه، رقم 6001. و**مسلم** في كتاب الإيمان (37) باب كون الشرك أقبح الذنوب... رقم 141(76). من حديث عمرو بن شرحبيل.

(2) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 1، ص 349.

(3) رواه **أحمد** بلفظ قريب، مسند الأنصار، حديث المشايخ عن أُبي بن كعب. رقم: 21488.



التسرِّي لموافقة السنَّة، ولِمَا قد يحتاج إليه من تناول الفرج لكبر أو مرض، ولا ينافي هذا مدح الله تعالى يحيى بأنَّه حصور، أي لا يأتي النســاء، لأنَّه قبل هذه الأمَّة، وهذه الأمَّة جاء فيها الأمــر بالنكاح على الإطلاق. وإذا صير إلى التزوُّج فقد قال بعض الحكماء: أفضل النساء أن تكون بهيَّة من بعيد، مليحة من قريب، غذِّيت بالنعمة، وأدركتها الحاجة، فخُلُقُ النِّعمة معها، وذلُّ الحاجة فيها.

﴿**وَمَنْ يَّفْعَلْ ذَالِكَ**﴾ ما ذكر في الجملة بعضــا أو كلًّا، من دعاء غير الله، وقتل النفــس المحرَّمة، والزنى، والإنفاق في المعاصــي، والإخلال بالإنفاق الواجب إذا فسِّر به ما مرَّ ﴿**يَلْقَ أَثَامًا**﴾ اسم للعقاب على الإثم، أو هو الإثم، فيقدَّر مضاف أي جزاء الإثم، أو عبَّر به عن مسبَّبه ولازمه، أو اسم لجهنَّم، أو بئر فيها، أو جبل فيها، أو واد فيه دم وقيح، أو أودية فيها، أو حيَّات وعقارب في كلِّ واحدة ســبعون قلَّة من الســم، وفي الحديث: «**الغيُّ والأثام بئران في جهنَّم يسيل فيهما صديد أهل النار**»[(1)].

﴿**يُضَاعَفْ**﴾ يشــدَّد ﴿**لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ بدل اشــتمال لتضمُّن لقاء الأثام مضاعفة العذاب، لا بدل كلٍّ لأنَّ كلًّا غير الآخــر ﴿**وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا**﴾ مستحقرا، جمع له عذاب الجســد والذلُّ، فهو معذَّب بالروح والجسد، لَكِنَّ عذاب الجسم يتصوَّر بعذاب الروح فيه.

﴿**الَّا مَن تَابَ**﴾ مِمَّا فعل من ذلك ﴿**وَءَامَنَ**﴾ بالله ورسوله، وكلِّ ما يجب الإيمان به، بلا ضمان إن كان مشركا وبضمان وتنصُّل وقضاء إن كان موحِّدا ﴿**وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا**﴾ أداء الفرائض التي هي فعل أو ترك، وإن تنفَّل فزيادة خير لــه، والآية علــى التوزيع، فإنَّ الإيمان عائد على المشــرك، أو يفسَّــر

---

(1) لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ. وإنَّما أورد **الآلوسي** في تفسيره: مج 6، ص 48: «أنَّ الأثام هو اســم من أســماء جهنَّم وهذا قول للحســن، وقيل عن مجاهد: إنَّه واد في جهنَّم، وقال مجاهد: فيه دم وقيح»، وليس حديثا.

الإيمان بالمداومة عليه من مشرك أو مؤمن، وقد فسّرت المضاعفة بالشدَّة لا بكون الشيء على قدري الآخر أو أكثر، فشـــملت عذاب المشرك الذي هو أضعاف عذاب الفاسق.

﴿**فَأُوْلَئِـكَ**﴾ الذين تابـوا وآمنوا وعملـوا الصالح، وكأنَّه قيـل: إن قيل فمالهم؟ فأولئك ﴿**يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ يعطيهم الله بعدد سـيِّئاتهم التي تابوا منها ثوابا قدر ثواب طاعة فعلوها أو على توبته من الزنى حسـنة من دعته نفسـه إلى الزنى فتركه لله، أو حسنات كثيرة على ذلك الترك، وقس على هذا، يعطون ذلك يـوم القيامة، أو توجد مكتوبة بدل كلِّ سَيِّئَة ممحوة، أو تبقى مكتوبة فتقابل بها وهو الأصل.

وعن أبي ذرٍّ ﷺ عن رسـول الله ﷺ: «**يؤتى بالرجل يوم القيامة فتعرض عليه ذنوبه وينحَّى عنه كبارها** ـ أي ما يسـتعظمه منها ـ **فيقال له: عملت كذا وكذا يوم كذا وكذا، ولا ينكر وهو مشـفق أن تذكر له كبارها، فيقال: أعطوه مكان كلِّ سـيِّئة عملها حسـنة، فيقول: إنَّ لي ذنوبا لم أرها هنا**» ولقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتَّى بدت نواجذه[1]، وهو في صحيح مسلم.

ومثله حديث أبـي هريرة عنه ﷺ: «**ليأتيـن ناس يوم القيامـة ودُّوا أنَّهم اسـتكثروا من السـيِّئات**» قيل: من هم؟ قـال: «**الذيـن يبدِّل الله سـيِّئاتهم حسـنات**»[2]، وأنكر ذلك أبو العاليـة وعبد بن حميد، ظنًّا أنَّـه مناف لقوله تعالى: ﴿وَمَـا عَمِلَتْ مِن سُـوءٍ تَـوَدُّ لَـوَ اَنَّ بَيْنَهَـا وَبَيْنَـهُۥٓ أَمَـدًۢا بَعِيدًا﴾ [سـورة آل عمران: 30]، وليس كذلك، فإنَّ هذه الآية اسـتثناء من عموم ﴿تَوَدُّ...﴾ للتائبين، أو ﴿تَوَدُّ لَوَ اَنَّ بَيْنَهَا﴾ قبل الوقوف على التبديل ثمَّ تبدَّل.

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنَّة منزلة فيها، رقم 10. ورواه **أبو عوانة** في مسنده: ج 1، ص 170. و**الترمذي** في الشمائل ص 170. من حديث أبي ذرٍّ.

(2) أورده **الآلوسي** في تفسيره: مج 7، ص 50، وقال: أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه، عن أبي هريرة.



وقيل: **التبديل في الدنيا بأن يوفِّقهم الله إلى فعل الحسنات بدل فعلهم السيِّئات**، أو يبدِّل لهم من دواعي السيِّئات دواعي الحسنات في قلوبهم، وقيل: يجعل بدل عقابهم في الآخرة بالسيِّئات ثوابهم فيها بالحسنات إذ تابوا، فأطلق السيِّئات والحسنات على مسبِّبها ولازمها.

﴿**وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ كرَّره ليرتِّب عليه قوله: ﴿**فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا**﴾ رجوعا عظيما ماحيا للعقاب، محصِّلا للثواب، فقد اشتمل الجواب على ما لم يشتمل عليه الشرط.

﴿**وَالذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ**﴾ مفعول مطلق على حذف مضاف، أي شهادة الزور، والزور: الميل عن الحقِّ؛ أو مفعول به لتضمُّن معنى الإقامة، أي لا يقيمون الزور بجعله مستقيما لنطقهم به كأنَّه حقٌّ. كما أنَّه يجوز تفسير شهادة الزور بإثبات الباطل، أو تزيينه مطلقا، كما قال قتادة مفسِّرا للآية: بإعانة أهل الباطل على باطلهم وبمساعدتهم عليه.

وعن مجاهد: الزور الغناء، ومثله عن ابن الحَنَفِيَّة محمَّد، وعن الحسن: الغناء والنياحة، وعن قتادة: الكذب، وعن عكرمة: اللعب، ويجوز تفسير «يشهد» بيحضر، والزور مفعول به، أي **لا يحضرون الباطل كالأشياء المذكورة والشرك، أو يقدَّر: محالَّ الزور، أي الباطل**، ومنها أنَّ لهم صنم يلعبون حوله سبعة أيَّام، وأنَّ لهم عيد باطل.

﴿**وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ**﴾ في طريقهم بلا قصد له بل اتِّفاقًا، وهو ما من شأنه أن يلغى ويطرح مِمَّا لا خير فيه من الكلام، وقيل: الكلام المؤذي أو الفعل المؤذي، كما قال الحسن: المعاصي قولا أو فعلا، وكما يمرُّ بالذات يمرُّ بالعرض، فلا يلزم تقدير: إذا مرُّوا بمحلِّ اللغو أو بأهل اللغو.

وقيل: اللغو ما يستقبح التصريح [به]، والمرور به أن يصلوا إليه في كلامهم لكن لا يذكرونه بل يكنون عنه، كالوطء وأسماء الفرج والعذرة

المستقبحات. وأجيز أن يكون اللغو الزور، ذكر باسم آخر ظاهر، إيذانا بأنَّه يستحقُّ أن يلغى، كما أنَّه زور أي ميل عن الحقِّ. ﴿**مَرُّواْ كِرَامًا**﴾ طيِّبين غير آثمين بالتلطُّخ به. مرَّ ابن مسعود رضي الله عنه بلغو معرضا عنه، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريما**»[1]. [قلت:] ومن مرَّ عن اللغو الذي هو ذنب ولم ينه عنه وهو قادر فقد مرَّ غير كريم.

﴿**وَالذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِئَايَاتِ رَبِّهِمْ**﴾ هي آيات القرآن، فإنَّها معجزات لفظا ومعنى، مشتملات على مواعظ وأحكام ﴿**لَمْ يَخِرُّواْ**﴾ لم يسقطوا ﴿**عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا**﴾ كما تسقط الكفرة عنها بل يتأثَّر فيهم التذكير بها.

﴿**وَالذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنَ اَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ**﴾ «مِنْ» للبيان متعلِّقة بمحذوف حال من «قُرَّةَ»، أي: هب لنا قرَّة أعين هي أزواجنا وذرِّياتنا، بأن يؤمنوا فتقرَّ بهم أعيننا، لأَنَّا نحبُّ لهم الخير بالطبع، ولأنَّهم يعينوننا وينفعوننا في حياتنا وبعد موتنا إن متنا قبلهم، ويكونون معنا في الجنَّة إن كُنَّا سعداء وكانوا سعداء.

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: قرَّة عين الوالد بولده أن يراه يكتب الفقه، وهو تمثيل. وذلك أولى من أن تكون للابتداء بمعنى هب لنا من جهتهم، وليست للتبعيض لأنَّه يطلبون ذلك لأولادهم وأزواجهم، لا لبعض فقط.

[فقه] والآية دليل على جواز طلب الهداية للكافر والفاسق، لأنَّ معنى الآية: وفِّقهم ليكونوا لنا قرَّة.

[لغة] وقرَّة العين كناية عن الفرح مأخوذ من القرِّ بمعنى البرد، لأنَّ دمعة العين في الفرح أو عدم الحزن باردة، وفي الحزن حارَّة، أو من القرِّ بمعنى

---

(1) أورده **الآلوسي**، ج19، ص51. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم وابن عساكر. عن إبراهيم بن ميسرة.

الثبوت، لأنَّ ما يسرُّ يقرُّ الناظر به ولا ينظر إلى غيره، ومن ذلك يوم القرِّ، أي الثبوت، وهو اليوم التالي ليوم عيد الأضحى، لأنَّهم لا ينفرون فيه، والأوَّل أولى.

ونكِّر «أَعْيُنٍ» لأنَّهم لا يقتصرون على طلب القرَّة من أزواجهم وأولادهم، بل لهم مطالب كثيرة يفرحون بها إذا نالوها كقوَّة الدين وقوَّتهم فيه، وصحَّة أبدانهم. واستعمل جمع القلَّة مكان جمع الكثرة لمناسبة جمع المؤنَّث وأزواجنا، إذ هما جمع قلَّة؛ وفيه تلميح لقلَّة المتَّقين.

﴿**وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾ بأن نكون على الهدى المتسبِّب لأن يقتدي المتَّقون بنا، ومرادهم بالذات: الكون على الهدى لا مسبّبه ولازمه، وهما الاقتداء بهم، اللهمَّ إلَّا بتأويل قصد ثواب الاقتداء بهم زيادة على ثواب كونهم على الهدى.

والإمام يستعمل بمعنى الجمع كما هنا والمفرد وهو الأكثر؛ واختير عن أَئِمَّة للفواصل؛ أو هو مفرد، لأنَّ كُلَّ واحد يقول في دعائه: اجعلني إماما، وعلى تقدير دعائه للكلِّ، فالمسلمون كواحد، والمعنى: مأموم في كلِّ ذلك. و«لِلْمُتَّقِينَ» متعلِّق بمحذوف حال من «إِمَامًا»، أو متعلِّق بـ«اجْعَلْ». أو جمع آمٍّ فيكون «لِلْمُتَّقِينَ» مفعولًا به لـ«إِمَامًا»، وتكون لامه للتقوية.

﴿**أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ**﴾ البيت العالي فوق الآخر، أو العالي بكون أرضه عالية ولو لم يكن تحته آخر، وكفى بكونه في السماء السابعة عاليا. و«غُرْفَةَ» و«ال» للجنس، فمعناه: غرف، لأنَّ لكلِّ واحد غرفة، ويدلُّ له قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سورة سبأ: 37]، وعن ابن عبَّاس: بيوت من زبرجد ودرٍّ وياقوت، وعن سهل بن سعد عنه ﷺ: «**بيوت من ياقوتة حمراء أو زبرجد أخضر أو درَّة بيضاء، ليس فيها فصم ولا وصم**»[1]، وجاء أنَّ كل واحدة جسم

---

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره: مج 7، ص 53. وقال: أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، عن سهل بن سعد. ومثله في **السيوطي** في الدر: ج 5، ص 89.

واحد لا أجزاء ملفَّقة، وكلُّ ما في الجنَّة كذلك ﴿**بِمَا صَبَرُواْ**﴾ بصبرهم على الطاعات والمصائب، وعن اللذَّات. والباء للسببيَّة أو للبدليَّة، أي عوض صبرهم.

﴿**وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا**﴾ يجعلهم الله لاقين فيها تَحِيَّة وسلاما، من الملائكة ومن بعض لبعض، وهما طلب الحياة والسلامة من كلِّ آفة الدائمين، وليس المراد الطلب حقيقة لأنَّه تعالى قد أنجز لهم ذلك وإلَّا كان شكًّا في نقض الوعد، بل المراد مجرَّد التكريم والمؤانسة ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ لا موت ولا خروج لهم ولا فناء منها ﴿**حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا**﴾ مقابل ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

﴿**قُلْ**﴾ يا محمَّد للكفرة ﴿**مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي**﴾ ما يعتدُّ بكم ربِّي، لا عبرة لكم عنده ﴿**لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ**﴾ أغنى عن جوابها ما قبلها، لا تقل: محذوف لدلالة ما قبلها. كان الكُفَّار يدعون الله فأخَّر عنهم العذاب ﴿**فَقَدْ كَذَّبْتُمْ**﴾ لأنَّكم كذَّبتهم بما يجب التصديق به ﴿**فَسَوْفَ يَكُونُ**﴾ التكذيب أو العذاب ﴿**لِزَامًا**﴾ أي يكون العذاب أو جزاء التكذيب لزاما، أي ذا ملازمة أو ملازما، وهو مصدر لازم يلازم، أي لا يفنى، أو يلازمكم حتَّى يوردكم النار سوقا إليها يوم القيامة. عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اللِّزام قتل يوم بدر.

وأجيز أنَّ الخطاب في «بِكُمْ» للناس كلِّهم، وفي «دُعَآؤُكُمْ» للمؤمنين، بمعنى عبادتكم، وفي «كَذَّبْتُمْ» لِلْكُفَّارِ، أي أعلمتكم أنِّي لا أقبل إلَّا المؤمنين، وأنتم كذَّبتم بما يجب الإيمان به، أو قصَّرتم عن عبادتي. يقال: سهم كاذب وقتال كاذب، إذا لم يجوَّد. ويجوز أن تكون «مَا» استفهاميَّة إنكاريَّة مفعولا مطلقا لـ«يَعْبَأُ».

والله الموفِّق المستعان.



26

تفسير سورة الشعراء

مكِّيَّة إلَّا الآية 197 ومن 224 إلى آخر السورة فمدنيَّة، وآياتها 227 ـ نزلت بعد سورة الواقعة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (6) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9)﴾

تكذيب المشركين بالقرآن وإنذارهم

﴿طسم﴾ قال محمَّد بن كعب القرظي: الطاء من ذي الطول، والسين من قدُّوس، والميم من الرحمن، وقيل: من طوله وسنائه وملكه، وقيل: اسم السورة، وعن ابن عبَّاس رضي الله عنه: اسم الله تعالى أقسم به، وعنه: عجزت العلماء عن تفسيرها، يريد: وكذا أمثالها، والله أعلم، ومرَّ غير ذلك، وهذه الحروف مسمَّيات وأسماؤها: طا بالألف بلا همز بعدها سين، ميم، كما يقرأ وذلك بإسكان نون سين فكان المدُّ المشبع لسكون الحرف بعد حرف العلَّة الساكن سكونا ميِّتا، وأدغمت النون في الميم الأولى.

﴿تِلْكَ﴾ إشـــارة البعد لعلوّ المرتبة إلى ما في هذه الســـورة قبل حضوره، ولا يقال: أشير لحضورها في اللوح المحفوظ، لأنَّ لفظ «تِلْكَ» هو في اللوح المحفوظ أيضا ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ القـــرآن ﴿الْمُبِينِ﴾ الظاهر بلاغة وإعجازا، من «أبان» اللازم، أو المظهر الأحكام الشَّرعِيَّة، أو الحق، من «أبان» المتعدِّي.

والمراد أنَّ آيات هذه الســـورة بعض من القرآن مترجمة بهذه السورة. أو الإشـــارة إلى القرآن، والتأنيث لتأنيث الخبر، و﴿الْكِتَابِ﴾ الســـورة، بمعنى آيات هذا القرآن المؤلَّف من الحروف المبسوطة كآيات هذه السورة المتحدَّى بها، وقد عجزتم عن الإتيان بمثل هذه الســـورة فحكم تلـــك الآيات كذلك، وهو قول متكلَّف بعيد خارج عن أصل التفســـير، وقيـــل: ﴿الْكِتَابِ﴾ اللوح المحفوظ، و«مبين» من «أبان» المتعدِّي لأنَّه يظهر ما خفي بالنزول.

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ قاتل نفسك حزنا وجزعا قتلا شبيها بذبح الحيوان حتَّى يظهر ذلك الجســـم الأبيض الذي هو كالمخ، وكلَّما فسِّر بالإهلاك رجع إلى هذا الأصل، و«لَعَلَّ» هنا لإنكار اللياقة وللتوبيخ كالاســـتفهام المستعمل في ذلك ﴿أَلَّا يَكُونُواْ﴾ أي على أن لا يكـــون قومك، أو لأن لا يكون قومك ﴿مُومِنِينَ﴾ وفي المضارع المســـتقبل مزيد إقناط مـــن إيمانهم، حزن على ما مضى من عدم إيمانهم فاستقبله بأشـــدَّ وهو أن لا يؤمنوا بعد، ولك أن تقدِّر: خيفة أن لا يؤمنوا.

﴿إِن نَّشَـــأْ﴾ إنزال مضطرٍّ لهـــم على الإيمان قاهر لهـــم بحيث لا ينفعهم إيمانهم، أو إن نشأ إيمانهم، والأوَّل أولى، لأنَّ الأصل أن يقدَّر مفعول المشيئة بعد الشـــرط من جنس الجواب ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ ءايَةً﴾ ملجئة لهم إلى الإيمان، كنتق الجبل إن لم يؤمنوا أوقع عليهم.

﴿فَظَلَّتَ اَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾: ﴿أَعْنَاقُهُمْ﴾: أشـــرافهم وعظماؤهم، كما يقال لهم: رؤوس وصـــدور، فأولى غيرهم، وقيل: جماعاتهـــم على أنَّ العنق

يطلق على الجماعــة مطلقا، وقيل: إن كانت معظَّمــة، أو الأعناق على ظاهره لكن أخبر عنه بجمع الســالم، كأنَّها ذكور عاقلون اكتسابا للتذكير والعقل من المضاف إليه، كما يكتسب المضاف التذكير من المضاف إليه أو التأنيث.

أو الأصل: «ظلُّوا خاضعين» فأقحم لفظ «أعناق» بين ظلَّ والواو، كاللفظ الزائد وليس بزائد، وذلك لبيان محلِّ الخضوع وهو العنق، لأنَّه يظهر بالعنق، وأجاز بعضهم زيادة الأسماء.

[بلاغة] وبعد الإقحام روعي ما يناســب لفظ الأعنــاق وهو تاء التأنيث والإتيان بضمير الجــرِّ مكان الواو، وروعي ما قبل الإقحــام في «خَاضِعِينَ»، وحكمة ذلك أنَّ الخضوع يتبيَّن حسًّا في ميل الأعناق.

[نحو] ويبعد أن يجعل «خَاضِعِينَ» حالا من الهاء، لأنَّ المضاف هنا جزء من المضاف إليه، فيقــدَّر لـ«ظَلَّت» خبر، أي خاضعــة. وعطف «ظَلَّتْ» وهو ماض على «نُنَــزِّلْ» وهو مضارع لأنَّــه كأنَّه جواب إذ عطــف على الجواب، والجواب للاستقبال ولو كان ماضيا، ولا تحتاج مع هذا أن تقول: هو مستقبل بالتأويل، وعلى **كلِّ حال عدل عن «تَظَلُّ» إيذانــا بحصول الوقوع تقديرا**، أو عدل عن «نزَّلنا» إلى «نُنَزِّلْ» ليكون التنزيل كالحاضر المشاهد.

﴿**وَمَا يَاتِيهِم مِّن ذِكْرٍ**﴾ فاعل، و«مِنْ» صلة ﴿**مِّنَ الرَّحْمَنِ**﴾ «مِنْ» للابتداء ﴿**مُحْدَثٍ**﴾ نعــت «ذِكْرٍ»، وذلك أنَّه يحدث نزوله شــيئا فشــيئا ولذلك قال: ﴿مُحْدَثٍ﴾ ومع ذلك القرآن مخلوق غير قديم. وذكر «الرحمن» زيادة تشنيع بأنَّه لم تسعهم رحمة الله مع عظمها لمزيد قبحهم ﴿**اِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ**﴾.

﴿**فَقَدْ كَذَّبُــواْ**﴾ تصريحا إذ قالوا: ســحر، وقالوا: افتراء، وقالوا: أســاطير الأوَّلين، وقالوا: يعلِّمه بشر، واستهزؤوا ولم يكتفوا بالإعراض، ودلَّ على إرادة الاستهزاء مع التكذيب قوله تعالى: ﴿**فَسَــيَاتِيهِمُۥٓ أَنبَآءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾

أو التكذيب متضمِّن للاستهزاء فذكره الله ﷻ عنهم. و﴿أَنبَاءُ﴾: عقوبات في الدنيا كقتل يوم بدر، ويوم القيامة، والإخبار عن الشيء لازم لوقوعه ومسبّب له، فعبَّر به عنه، وأصل النبأ الخبر عن أمر خطير خفيٍّ أو كالخفي.

﴿أَوَلَمْ يَرَوِا اِلَى الَارْضِ﴾ أي أأصرُّوا على التكذيب والاستهزاء والإعراض، أو ألم يتأمَّلوا تأمُّلا مانعا عن ذلك، ولم يروا إلى عجائب الأرض، فقدِّر مضاف، أو الأرض: عبارة عن عجائبها، إذ هي محلُّها، أو يراد الأرض نفسها لا عجائبها، فإنَّها أرض واحدة تنبت أشياء تختلف لونا وطعما وغيرهما كما قال: ﴿كَمَ اَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ وعلى ما مضى يكون هذا بيانا لبعض عجائبها. و«كَمْ» للتكثير، أي أفرادا كثيرة من كلِّ نوع، فالكلِّيَّة للأنواع والكمِّيَّة للأنواع.

فكلمة «كُلِّ» تدلُّ على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل، و«كَمْ» تدلُّ على أنَّ هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة. وذلك تنبيه على كمال قدرته. و«مِن كُلِّ» نعت لـ«كَمْ»، أو متعلِّق بـ«أَنبَتْنَا»، وذلك أولى من أن يجعل «مِنْ» للبيان، فيكون الكمُّ والكلِّية كلاهما للنوع، والمراد: ما يشاهدون لا ما لم يشاهدوا ولا ما لم يخلق، مع أنَّ الأنواع التي قدر الله على خلقها ولم يخلقها لا تنحصر.

والزوج: الصنف، ولو لم يكن له مقابل، وقيل: كلُّ مخلوق من حيث إنَّ له ضدًّا مَّا، أو مثلا ما، أو تركيبا ما. والكريم من كلِّ شيء مختاره، والمراد: كثرة المنافع، **والنبات محمود يأكل منه الناس والأنعام**، كالرجل الكريم الذي نفعه عامٌّ. وذكر بعض أنَّ الحيوان داخل في الآية، كما قال: ﴿واللهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الَارْضِ نَبَاتًا﴾ [سورة نوح: 17]، حتَّى قال الشعبي: الإنسان من نبات الأرض، فمن صار إلى الجنَّة فهو كريم، وليس هذا معتبرا في الآية لأنَّ المشرك لم يؤمن بالجنَّة.

﴿اِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإنبات، أو المنبت، أو كليهما ﴿لَأيَةً﴾ عظيمة تكفي في الدعاء إلى الإيمان، وفي الدلالة على أنَّه تعالى واحد وكامل القدرة، قال قائل:

وفـــي كلِّ شـــيء لـــه آيـــة تـــدلُّ عـلـى أنَّـــه واحـــد[1]

وأبلغ من هذا البيت قول الأندلسي[2]:

وفـــي كلِّ معبود ســـواك دلائل من الصنع تنبي أنَّـــه لك عابد

إذ جعل المعبودات نفســـها مقرَّات به تعالى، وعابدات له فكيف غيرها، والكلُّ سواء وما أحسن قول بعض في النرجس:

تأمَّـــل في رياض الـــورد وانظر إلى آثـــار مـــا صنـــع المليك
عيون مـــن لجين شـــاخصات علـــى أهدابهـــا ذهب ســـبيك
على قضب الزبرجد شـــاهدات بـــأن الله ليـــس لـــه شـــريك[3]

﴿**وَمَـــا كَانَ أَكْثَرُهُـــم مُّومِنِينَ**﴾ ما كانـــوا في علم الله مؤمنيـــن، أو اللوح المحفوظ، وليس في هذا تعليل، فلا يعترض بأنَّه لا يصحُّ تعليلا، وأنَّ ما قبله يقتضي العلِّيَّة، وإن سلَّمنا أنَّه يقتضيها فالمعنى: لا يؤمنون لسبق القضاء بأنَّهم لا يؤمنون، وهو معنى صحيح. وعن سيبويه: «كَانَ» صلة، و«أَكْثَرُ» اسم «مَا»، و«مُومِنِينَ» خبر «مَا» عملت عمل «كَانَ». وتضعف دعوى أنَّ «كَانَ» للاستمرار لأنَّها ماض ولأنَّ المستمرَّ النفي.

وقال: ﴿**أَكْثَرُهُمْ**﴾ لأنَّ قليلا منهم يؤمنون ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ**﴾ الغالب في كلِّ ما أراد فلا يفوته الانتقام ممَّن كذَّبك وسائر المكذِّبين.

﴿**الرَّحِيمُ**﴾ لمن آمن بك وســـائر من آمن، ولك أن يقـــدِّر: من يؤمن بك وللكفرة إن أمهلهم.

---

(1) البيت لأبي العتاهية. ينظر ديوانه.

(2) عبد الله بن محمد بن الســـيد البطليوســـي الأندلســـي (444ـ521هـ). ينظر البيت وترجمة الشاعر في الموسوعة الشعرية.

(3) تنســـب الأبيات لابن محارب القمي، ولأبي نواس. ينظر: **الأصفهاني**: محاضرات الأدباء، ج2، ص595. **الثعالبي**: اللطائف والظرائف، ص205.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾

القصَّة الأولى:

قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون وقومه

ـ1ـ

امتنان فرعون على موسى بتربيته

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ اذكر إذ نادى... إلخ، تسلية له بما وقع لموسى مع فرعون، وقيل: اذكر لقومك ما جرى لموسى مع فرعون، تهديدا لهم بأن يهلكوا كما هلك فرعون وقومه، كقوله تعالى: ﴿واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ اِبْرَاهِيمَ﴾ [سورة الشعراء: 69]، ﴿أَنِ ايتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ «أَنْ» تفسيريَّة لتقدُّم معنى القول دون حروفه، وهو «نَادَى»، فإنَّه بمنزلة قال ربُّك: يا موسى إيت القوم الظالمين بالإشراك والمعاصي، واستعباد بني إسرائيل وذبح أبنائهم.

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ وفرعون من باب أولى، أو دخل فيهم فرعون كدخول آدم في بني آدم، إذا كان المقام قابلا للدخول ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ مفعول له لحال محذوفة من ضمير «إيت»، أي قائلا: ألا يتّقون ألا يخافون الله، أو ألا يحذرون عذابه، بمعنى: قل لهم عن الله ألا يتّقون؟ أي قال الله في شأنكم لي: ألا يتّقون؟ فيكون قول الله لموسى: ألا يتّقون؟ كنهي الغائب وأمر الغائب، يقال: قل لزيد يعظ عمرا، أو تعظ عمرا، بالخطاب أو الغيبة. والاستفهام تعجيب وإنكار للياقة. ويجوز أن يكون الكلام مستأنفا غير مقدّر بالقول فيقدّر: أن إيت بالتوراة أو بالوعظ أو نحو ذلك.

وكأنّه قيل: فما قال موسى؟ فقال الله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيَ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ إن ذهبت وحدي لعدم فصاحة لساني، كما قال: ﴿فَأَرْسِلِ اِلَىٰ هَارُونَ﴾ وذلك تضرُّع إلى الله ورغبة في نفاذ تبليغه، كما تحبُّ شيئا وتعزم على فعله وتقول: خفت أن لا يكون.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ العطف على إنَّ واسمها وخبرها، أو على «أَخَافُ»، وهو أولى، وعلى كلِّ حال فضيق صدره وعدم انطلاق لسانه غير داخلين في الخوف، وغير مسبِّبين للتكذيب، وإلَّا نصب «يَضِيقُ» و«يَنطَلِقُ» عطفا على «يُكَذِّبُونِ» كما قرأ بعض بنصبهما، وعلى الرفع وصف نفسه بضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان لشدَّة تغيُّظه على الدين مطلقا، أو على معنى: يضيق صدري ولا ينطلق لساني بتكذيبهم.

﴿فَأَرْسِلِ اِلَىٰ هَارُونَ﴾ جبريل بالوحي، فيذهب معي إلى فرعون، فيخاطبه بصدر واسع ولسان فصيح، فيعينني، كما في غير هذه السورة، وقدَّر بعض: أرسل ملكا.

[قصص] والله سبحانه أوحى إلى موسى بالنبوءة وهو في الشام وأخوه هارون في مصر، ويروى أنَّ الله ﷻ أرسل موسى إلى هارون وهو بمصر

فسافر إليها بأهله، فنزل ليلا على أمِّه ضيفا ولم تعلم به أنَّه ابنها، ولا هو أنَّها أمُّه فَلَمَّا حضر الطعام دعاه هارون للأكل معه، فسأله فقال: أنا موسى فتعانقا، فقال: أرسلني الله إليك لتذهب معي إلى فرعون، فقال: سمعا وطاعة، فصرخت أمُّهما باكية أنَّه يقتلهما ومنعتهما، ولم يصغيا إليها فذهبا إليه.

اعتذر إلى الله ﷻ بضيق صدره وعدم انطلاق لسانه، وأنَّه قتل القبطي بالوكز، وهو خبَّاز فرعون، وهو المراد في قوله: ﴿**وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ**﴾ تباعة ذنب، وهو قتله، عدَّه ذنبا بحسب ما عندهم، وليس ذنبا عند الله، لأنَّه لم يتعمَّده بل خطأ، أو ضربه تأديبا فاتَّفق أنَّه مات.

﴿**فَأَخَافُ أَنْ يَّقْتُلُونِ**﴾ به وبالاغتياظ عليَّ قبل أداء الرسالة، وهذا حرص في أدائها وانتشارها كما كان لرسول الله ﷺ اشتداد خوف فوت الأداء حتَّى نزل: ﴿والله يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [سورة المائدة: 67]، وهما من أولي العزم، ولا ينافي مقامهم أن يقصد مع ذلك حفظ نفسه، والممنوع أن يقصد حفظها بدلا من أداء الرسالة وتقديما على الأداء.

ويبعد ما قيل: إنَّه أراد حفظها، لأنَّه قال ذلك قبل أن يعلم أنَّه نبيء، ولأنَّه يكون نبيئا بأوَّل وحي، نقول: ذلك لموسى بدء وحي لا مُقَدِّمَة له، ولا نسلِّم أنَّ الأنبياء عالمون بأنَّهم لا يموتون قبل أداء الرسالة، وليس ذلك من موسى توقُّفا عن الامتثال وتعلُّلا بل رغبة في تحصيل التبليغ، وكفى ذلك في طلب التبليغ.

﴿**قَالَ كَلَّا**﴾ اترك خوف القتل فإنِّي أعصمك عن أن يقتلك وقد أجبتك إلى ذهاب هارون معك ﴿**فَاذْهَبَا**﴾ عطف على محذوف، أي لا تخف القتل فاذهب أنت وهارون، والمقدَّم هناك طلب ذهابه معه وهنا ذكر خوف القتل بالردع عنه لاختصاصه بموسى، وقد مرَّ أنَّه لم يحضر هارون حين طلب موسى ذهابه، فالخطاب لهما بالذهاب تغليب للحاضر وهو موسى

﴿ **بِـَٔايَٰتِنَآ** ﴾ أي التوراة، أو بما سأظهر لكما من المعجزات بعد، فإنَّه لا تخلوان عنها، والمراد: الذهاب والمكث في شأنه حتَّى تتمَّ المعجزات.

﴿ **إِنَّا مَعَكُم** ﴾ خبر لـ«إنَّ»، معكم بالنصر ﴿ **مُّسْتَمِعُونَ** ﴾ خبر ثان، أسمع ما يقول، ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [سورة طه: 46]، والمعنى: عالمون. و«الافتعال» أبلغ من «الفعل»، فلم يقل: سامعون. والجمع في «مَعَكُمْ» لهما تعظيما، والتثنية قبل وبعد لا تمنع ذلك، فقد ورد في القرآن اعتبار الشيء تارة وتركه أخرى في موضع واحد، كما قال: ﴿ رَسُولُ ﴾ و﴿ رَسُولَا ﴾ [سورة طه: 47]، أو الجمع باعتبار الأتباع من بني إسرائيل تبشيرا بالنصر، وقيل: لهما ولفرعون.

﴿ **فَاتِيَا فِرْعَوْنَ** ﴾ لا يتكرَّر مع «اذْهَبَا»، لأنَّ الذهاب التوجُّه إليه، وإتيانه الدخول عليه، ـ وعليه اللعنة ـ ألا ترى إلى قوله عقب ذلك: ﴿ **فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ ولو جاز أن يأمرهما قبل الدخول بالقول بعده كما هو الواقع. وأفرد الرسول لأنَّهما كواحد بالرسالة والأخوَّة، والمأمور بأن يقولاه، أو لأنَّه مصدر كما يقال: رجل عدل، قال العَبَّاس بن مرداس:

ألَا مِنْ مبلِّغ عَنِّي خفافا ... رسولا بيت أهلك منتهاها

أي رسالة، وَأَمَّا قوله:

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم ... بسرٍّ ولا أرسلتهم برسول[1]

فيحتمل أنَّه وصف، أي لا أرسلت إليهم رسولا، كما ردَّ عليه ضمير المؤنَّث في منتهاها.

وفي التعبير بـ«رَبِّ الْعَالَمِينَ» مواجهته بنقض ما يدَّعيه من أنَّه إله، وذكر في طه: ﴿ رَسُولَا ﴾ [آية 47] بالتثنية على أصل المراد تفنُّنا، أو ذلك كلامان قال

(1) البيت لكثير عزَّة في ديوانه، ص 110، المعجم، ص 569.

في أحدهما: «رسولًا» وفي الآخر: «رسولُ»، الإفراد عند الباب والثنية عند حصولهما مع فرعون.

﴿أَنَ اَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ «أَنْ» تفسيريَّة لتقدُّم معنى القول دون حروفه وهو الرسول، استعبدهم فرعون أربعمائة عام، وهم حين أرسل موسى عليه السلام ستمائة ألف وثلاثون ألفا فيما قيل. ﴿قَالَ﴾ فرعون لموسى عليه السلام بعد أداء ما أرسل به من توحيد الله عز وجل.

[قصص] وقد قيل: قعدا على بابه مرارا كثيرة عاما تامًّا ولم يؤذن لهما، حتَّى قال البوَّاب: إنَّ في الباب إنسانا يزعم أنَّه رسول ربِّ العالمين، فقال: اِئذن له نضحك منه، فدخلا فأدَّيا الرسالة فعرف موسى فقال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾. وقيل: أتياه ليلا حين وصل موسى فقرع عليه الباب ففزع، وقال: من يضرب بابي في هذه الساعة؟ فأشرف البوَّاب فقال له: أنا رسول ربِّ العالمين، فقال لفرعون: بالباب مجنون يزعم أنَّه رسول ربِّ العالمين، فقال: أدخله فدخل فبلَّغ الرسالة، وعلى كلٍّ عرفه فقال:

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ «فِينَا»: في منازلنا، فحذف المضاف، أو لا يقدَّر فيكون المعنى: إنَّك مِنَّا حينئذ.

[لغة] والوليد بمعنى المولود الذي قرب عهده بالولادة، وهذا عرف عامٌّ، والأصل: المولود ولو كبر، فإنَّ الإنسان مثلا مولود على كلِّ حال.

[قصص] ولبث موسى فيهم ثلاثين سنة، وأقام بمدين عشرا يرعى لشعيب، وتزوَّج بنته، فذلك أربعون، فنبِّئ فعاد إليهم يدعوهم، وقيل: لبث فيهم اثنتي عشرة سنة، فوكز القبطيَّ، ففرَّ ومكث عند شعيب عشرا فتزوَّج ابنته، ومكث بعد تزوُّجها ثماني عشرة فذلك أربعون، وبقي بعد الغرق خمسين.



والفعلة التي فعل: قتل القبطيِّ، وذلك توبيخ، وقيل: قدح في رسالته بقتله: لو كنت رسولا على زعمك أنَّ للعالمين إلها وأنَّك رسوله، أو أراد أنَّه لم يشكر نعمة التربية كما صرَّح به في قوله: ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ لنعمتي إذ قتلت رجلا خبَّازا لي من خاصَّتي، وقيل: من جملة القوم الذين تدَّعي كفرهم وتسمِّيهم كافرين، إذ كان يخالط القبط قبل الفرار وبعد رجوعه إلى مصر للتبليغ بالتقيَّة، أو من الكافرين بألوهيَّتي على أنَّ الجملة مستقلَّة منه غير مبنية على ما قبلها، وما مرَّ أولى، فتكون حالا من تاء «لَبِثْتَ» أو «فَعَلْتَ».

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ أي إذ فعلتها، وقيل: «إِذًا» بمعنى ذلك الوقت، ولا تقدَّر الإضافة بعدها، ﴿وَأَنَاْ مِنَ الضَّآلِّينَ﴾ مِمَّن يفعل الأمر على غير بصيرة إذ لم أدر أنَّه يموت بوكزي، أو أخطأت يدي إليه، وزعم بعض أنَّ الضلال نسيان كقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا...﴾ [سورة البقرة: 282] نسي أنَّ القتل حرام، وفيه بعد، أو عهد أنَّ له قُوَّة ليست لغيره ولكن نسيها، وقيل: من الجاهلين بالشرائع، وهو باطل، لأنَّ حاصله أنَّه تعمَّد قتله بغير حلٍّ.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ لقتلي الرجل، وقول القائل: ﴿إِنَّ الْمَلأَ يَاتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [سورة القصص: 20]، ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ علما وفهما ونبوءة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الرسالة أخصُّ من النبوءة المرادة في «حُكْمًا»، أو يراد بـ«حُكْمًا» العلم والفهم، ودخلت النبوءة في الرسالة، ولم يقل: وجعلني رسولا، أو وأرسلني، ليصرِّح بأنَّ الرسالة أمر جار معتاد قبلي وبعدي، لم أختصَّ بها، ولا يقدح القتل في رسالتي إذ لم أتعمَّده.

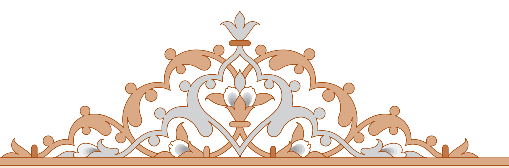
﴿وَتِلْكَ﴾ التربية ﴿نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ تذكرها لي طالبا لشكرها، ولا داعي إلى التفسير بـ«تنعم بها علي»، لأنَّ فيه حذف الجارِّ ونصب مجروره ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ جعلتهم عبيدا تستخدمهم.

[نحو] و«أَنْ» مَصدَرِيَّة، والمصدر على تقدير الجارِّ، أي لأن عبَّدتهم، أي تذكر تلك النعمة مساترة لتعبيدهم، وجبرا للكسر بها. قيل: أو يقدَّر الاستفهام، أي: أوَ تلك التربية نعمة مع تعبيدكهم؟ ولا يَصِحُّ إبدال المصدر من «تِلْكَ» أو «نِعْمَةٌ» أو من مفعول «تَمُنُّ»، ولا عطفه عطف بيان على أحدهما، ولا تقدير: هي أن عبَّدت، مع أنَّ الإشارة للتربية، والتعبيد غير نعمة، ويجوز أن تكون الإشارة إلى مبهم فسَّره «أَنْ عَبَّدتَّ» على التهكُّم، فحينئذ يصحُّ ما ذكر من الإبدال والبيان والإخبار عن محذوف.

[بلاغة] وعبارة بعض: كأنَّه امتنَّ على موسى بتعبيد قومه، وإخراجه من حجر أبويه، وهذا انتقام لا إنعام، وتعبيدهم وقصد ذبح أبنائهم هو السبب في حصول موسى عليه السلام عنده وتربيته، ولو تركهم لربَّاه أبواه، فالآية على طريق الاستفهام الإنكاريِّ، أي: أتَمُنُّ عليَّ بأن عبَّدت؟! فيجوز تقدير الاستفهام، أي: أوَ تلك نعمة؟ والإشارة إلى مبهم مفسَّر بـ«أَنْ عَبَّدتَّ»، كقول عمر بن عبد الله بن ربيعة:

لم أنس يوم الرحيل وقفتها ... وطرفها من دمعها غرق
وقولها والركاب واقفة: ... تتركني هكذا وتنطلق

ويجوز أن يكون ذلك إقرارا منه عليه السلام بأنَّ التربية إنعام إذ عبَّدهم دونه. وأفرد الضمير في «تَمُنُّهَا» و«عَبَّدتَّ» وجمع في «مِنكُمْ» و«خِفْتُكُمْ» لأنَّ الامتنان والتعبيد من فرعون وحده، والخوف والفرار منه ومن الملإ الذين ائتمروا بقتله.



﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿23﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿24﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿25﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿26﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿27﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿28﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿29﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿30﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿31﴾﴾

ـ 2 ـ
الجدل بين موسى وفرعون في إثبات وجود الله

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ عطف على محذوف، أي أأنت الرسول؟ وما ربُّ العالمين؟ وذكر: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لطول الفصل. و﴿مَن رَّبُّكُمَا﴾ [سورة طه: 49] طلب للوصف المشخِّص، وهو الماهية، و﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: سؤال عن الجنس ـ تعالى الله عنه ـ أبشر أم ملك أو جنيٌّ؟ ولذلك كان بـ«مَا» لا بـ«من».

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ هو ربُّ السماوات... إلخ. لم يجبه بالتشخيص لتنزُّه الله عنه، ولا بالجنس لتنزُّهه عن الجنس ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ من الهواء والرياح والسحاب وغيرها ﴿إن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بالأشياء، أو شيء مَّا، والجواب مقدَّر هكذا: «فهذا أولى بالإيقان»، أو يغني ما قبله، أي: قال ربُّ السماوات والأرض وما بينهما عندكم إن كنتم موقنين، أي من شأنكم لأنَّ لكم عقولا أن يكون ذلك عندكم.

[أصول الدين] لأنَّ الأجسام حادثة ولا بدَّ لها من محدث ليس منها وإلَّا تسلسلت، أو دارت، والواجب لا يتعدَّد سبحانه، والحادث لا غنى له عنه.

﴿**قَالَ**﴾ تثبيتا عن أن يمال إلى قول موسى عليه السلام ﴿**لِمَنْ حَوْلَهُ**﴾ من الأكابر خمسمائة رجل عليهم أساورة لا تكون إلَّا للملوك ﴿**أَلَا تَسْتَمِعُونَ**﴾ إلى هذا الكلام العجيب الظاهر بطلانه، بمجرَّد الاستماع إليه ﴿**قَالَ**﴾ موسى زيادة في البيان ﴿**رَبُّكُمْ**﴾ هو ربُّكم ﴿**وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الاَوَّلِينَ**﴾ من لدن آدم، أو هذا من كلام فرعون: ألا تسمعون حال قوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الاَوَّلِينَ﴾ والمضارع لحكاية الحال الماضية، والأصل: ألا سمعتم، والأوَّل أولى، وزاد قومَه تنفيرا بنسبته إلى الجنون كما قال الله عز وجل: ﴿**قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ**﴾ أثبت رسالته إليهم مرَّتين تهكُّما به عليه السلام، واستهزاء، وهو داخل معهم، أو نزَّه نفسه عن أن يرسل إليه، ونسبه إليهم إغضابا وتنفيرا أن يرسَل إليهم مجنون.

﴿**قَالَ**﴾ موسى زيادة في البيان ﴿**رَبُّ**﴾ هو ربُّ ﴿**الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**﴾ من أطراف الأرض وما وراء البحر المحيط، وغير المشرق والمغرب داخل فيهما ﴿**وَمَا بَيْنَهُمَآ**﴾ من أجسام وأعراض، ومنها: الظلمة والنور.

[أصول الدين] إذ لا بدَّ للحوادث من محدِث ليس منها، وإلَّا كان مثلها، والشيء قبل حدوثه غير فاعل فلا يحدث نفسه.

﴿**إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ شيئا مَّا تدركوا ذلك، أو هو ربُّ ذلك عندكم لو عقلتم ولكنَّكم كمجانين، وهذه منه عليه السلام خشونة عليهم، قابلوه بما يماثلها لعجزهم عن الجواب المحقِّ، وللتهديد كما قال الله عز وجل:

﴿**قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي**﴾ سواء أشركته معي، أو أفردته. أَوْهَمَ الناسَ أنَّ موسى قد اتَّخَذَه إلها ونهاه أن يشرك معه الله سبحانه وتعالى. ﴿**لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ**

﴿الْمَسْجُونِينَ﴾ لم يقل: لأسجننَّك للفاصلة، وللمبالغة في التهديد، بجنس مسجونيه، قيل: إنَّ سجنه خمسمائة ذراع أسفل، في حيَّات وعقارب.

والله ﷻ يكرِّر القصَّة الواحدة في مواضع يذكر في كلٍّ منها ما يليق، ويذكر في بعض ما لم يذكر في الآخر. ثمَّ إنَّه قيل: يعرف وجود الله وحده إلها، وإنَّه الخالق المالك، وأظهر خلاف ذلك حتَّى قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الاَعْلَىٰ﴾ [سورة النازعات: 24]، و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنِ اِلهٍ غَيْرِي﴾ [سورة القصص: 38]، وعلم ذلك ضروريٌّ إذ ملكه شيء قليل من الأرض، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة القصص: 25] وقال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰؤُلَآءِ اِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [سورة الإسراء: 102].

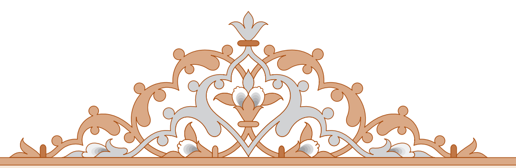
وقيل: جاهل بالله ﷻ مع أنَّه معتقد أنَّه غير خالق للسماوات والأرض. وإنَّه من الدهريَّة ناف للصانع سبحانه، يعتقد وجوب الوجود بالذات للأفلاك، وأنَّ حركتها سبب لحدوث الحوادث، وأنَّ من ملك قطرا استحقَّ أنَّه لأهله ربٌّ، وفيه أنَّ الحركة لا تخلق شيئا كما هو ظاهر، وأنَّ الأفلاك أجسام لا تستغني عن موجد. أو من الحلوليَّة، يدَّعي ـ لعنه الله ـ حلول الربِّ في بعض الذوات فتستحقُّ الأُلُوهِيَّة، وأنَّه حلَّ فيه، قيل: وفي معبوداته إذ قيل: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [سورة الأعراف: 127].

﴿قَالَ﴾ استدفاعا لشرِّه وطمعا في إيمانه وجلبا له ﴿أَوَ لَوْ جِئْتُكَ﴾ أتجعلني من المسجونين لو لم أجئك بشيء مبين ولو جئتك؟ فالعطف على محذوف ﴿بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ ظاهر في نفسه فيما أقول أو مظهر له، وفي آية أخرى قال: ﴿فَاتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة الأعراف: 106].

فإمَّا أنَّه قال ذلك تارة وهذا أخرى، أو لأنَّ المأصدق واحد ولو اختلف مفهوم «لَوْ» ومفهوم «إِنْ»، وهو استحقاق السجن مع عدم الإتيان به، ولم يبق له كلام لفراغ أركانه إلَّا أن يقول: إيت به، ولو علم أو ظنَّ أنَّه يأتي بما يعجزه،

أو طمع فيه أن لا يأتي به، أو يأتـــي بما يجد معه قدحا فقال: ﴿**قَالَ فَاتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ في أنَّ للعالم خالقا، وأنَّك رسوله.

[نحو] وجواب «إِنْ» أغنى عنه ما قبلـــه، ولا تقل: محذوف، لأنَّ من قال: قم إن قام زيد، لم يرد: قم إن قام زيد فقـــم، فكيف يقدَّر ما لم يرده المتكلِّم؟ ولم يبق إلَّا أن يدَّعى أنَّه يراد ذلك تأكيدا، ويردُّه أنَّه خلاف الأصل، وأنَّه ليس كلُّ كلام محلًّا للتأكيد، وأنَّ الناطق يفصح لك بأنَّه لم يرد ذلك.



﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (33) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37) فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ (40) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (42) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ (44) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (46) قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (48) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49) قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (51)﴾

ـ 3 ـ

معجزة موسى عليه السلام وإيمان السحرة

﴿**فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ**﴾ من يده ﴿**فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ**﴾ ظاهر متحقِّق لا متخيَّل. واللفظ من: ثعب الماء، بمعنى جرى جريا متَّسعا، وهو يجري على بطنه بسرعة، كأنَّه ماء سائل.

انقلبت ثعبانا بقدرة الله تعالى، لا كما زعم بعض أنَّ الله ﷻ يفنيها، ويخلق الثعبان بدلها، وهو باطل خلاف الآية، وبعدما كانت ثعبانا رجعت عصا، وفرعون يرى، وقال: هل غير هذا؟ فأخرج يده كما قال الله ﷻ:

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه بعدما أدخلها، وهو مخرج الرأس والعنق من الجبَّة أو القميص، وكانت تحت إبطه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ كالشمس بشعاع يغشى العيون، ويسدُّ الأفق.

[قصص] روي أنَّه لَمَّا رأى الآية الأولى قال: فهل غيرها؟ فأراه يده اليمنى على حالها، فأدخلها فأخرجها بيضاء.

﴿قَالَ لِلْمَلإِ﴾ الأشراف ﴿حَوْلَهُ﴾ متعلِّق بمحذوف حال من الملأ ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائق في السحر ﴿يُرِيدُ أَنْ يُّخْرِجَكُم﴾ قهرا ﴿مِّنَ اَرْضِكُم﴾ أرضكم التي ملكتموها وهي مال لكم، وفيها أموالكم، وقد ألفتموها وأوطنتموها ﴿بِسِحْرِهِ﴾، ذلك تنفير لهم عن اتِّبَاعه بالخروج من الأوطان الذي هو كالموت، وبالغيبة عن الأموال والأصحاب والأعوان والقرابة مِمَّن لا يخرج.

﴿فَمَاذَا تَامُرُونَ﴾ مفعول مطلق مركب من «مَا» و«ذَا»، أي: أيُّ أمر تأمرونني، ضدُّ النهي، وأجيز أن يكون من معنى المؤامرة، وهي المشاورة، مع أنَّه ثلاثيٌّ. أذلَّته حجَّة موسى حتَّى انحطَّ عن الفرعنة إلى المسكنة، فكان يسأل عَمَّا يأمره الملأ مع أنَّهم عبيده خوفا من سلب ملكه. ولا يجوز أن يكون «مَاذَا» مفعولا به لـ«تَامُرُونَ».

﴿قَالُواْ أَرْجِهِ﴾ أخِّره ﴿وَأَخَاهُ﴾ من أرجأه أخَّره، ومنه لفظ «المرجئة» للذين أخَّروا اعتبار الأعمال، وقالوا: لا تضرُّ الكبائر الإيمان، كما لا تنفع طاعة مع الشرك. ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَآئِنِ﴾ من مملكتك ﴿حَاشِرِينَ﴾ يحشرون السحرة أي يجمعونها إليك ﴿يَاتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ بليغ في علم السحر.

﴿**فَجُمِعَ السَّحَرَةُ**﴾ «ال» للعهد فقط، لا للعهد والاستغراق، لأنَّ الاستغراق في العهد المستفاد من لفظ «ال»، فإذا كان المعهود مستغرقا فـ«ال» لذلك العهد المستغرق، وإذا كان غير مستغرق فـ«ال» للعهد الذي هو غير استغراقي.

﴿**لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ**﴾ لِمَا كان آلة للتوقيت من ساعات يوم معلوم، وهو وقت الضحى من يوم الزينة. ويطلق الميقات على ما وقع به التحديد من المكان كمواقيت الإحرام.

[فلسفة] والزمان مقارنة متجدِّد موهوم لمتجدِّد معلوم إزالة للإبهام ـ بالموحَّدة ـ من الأوَّل لمقارنته للثاني، كما تقول: آتيك طلوع الشمس، فالموهوم ما ليس لا بدَّ منه بل يقع غيره أيضا. ومعنى تجدُّدِهِ حدوثُه، كالإتيان في: آتيك أو أتيتك طلوع الشمس، ويجوز أن لا يأتي، ويجوز: أقوم وأقعد وغير ذلك، وذلك هو الأوَّل والمتجدِّد المعلوم بمعنى أنَّه لا بدَّ منه كطلوع الشمس فإنَّه لا بدَّ منه، وهذا هو الثاني ومقارنة الأول للثاني لأجل إبهامه، إذ لا يدري السامع وقت المجيء، حتَّى يقال: طلوع الشمس، فقولك: آتيك مثلا، مبهم الزمان يقتضي زمانا مَّا، وبيَّنه بقوله: طلوع الشمس، وإزالة مفعول من أجله لمقارنة، كذا قالوا، [قلت:] ولا يعرفون أن يقولوا: لأنَّ المعلَّق بالإزالة نفس الإخبار بالمقارنة لا نفس المقارنة، فإنَّه لم يقارن ليزول، بل أخبر بالمقارنة ليزول، وهاء «له» للأوَّل ومن الأول صفة للإبهام، ولو كان معرفة لأنَّه للجنس، أو حال مقارنة متعلِّق بإزالة علَّة «له»، كذا قالوا، وليس كذلك، فإنَّ الإزالة حصلت بنفس الإخبار بالمقارنة لا بنفس المقارنة، وإن شئت فقل: إيهامه بالمثنَّاة التحتيَّة لأن «آتيك» يوهم زمانا مَّا وهذا الإيهام زائل بالتبيين، وفيه أقوال، ولكن أردت **بيان هذا التعريف لصعوبته وحاصله**: **إطلاق الزمان على مقارنة فعل لآخر**، ولا يحسن.

[هيئة] والأولى أن يقال: الزمان ظرف سيَّال للأشياء، مقابل للظرف القارِّ غير السيَّال، وهو المكان.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلَ اَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ لذلك الميقات لتشاهدوا السحر، وتعرفوا الغالب فتتّبعوه، وهم سحرتنا، كأنَّه استبطئوا فكانوا كمن يشكُّ في اجتماعهم فسئل عنه، وحاصله: الأمر بالاجتماع، فلو قيل: الاستفهام في مثل هذا للأمر لصحَّ، أي اجتمعوا.

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ في دينهم وهو غير دين فرعون ﴿إِن كَانُواْ هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ لا موسى عليه السلام، وذلك تحريض للسحرة بأن يتّبع فرعون دينهم، وقصدهم أنَّ السحرة هم الغالبون، وأن لا يتّبعوا موسى، أو يراد باتّباعهم البقاء على ما هم عليه يدَّعي أنَّ دينهم دينه. وفرعون غير داخل في القول لأنَّه لا يترك أُلُوهِيَّته ويتّبع السحرة إلَّا بتأويل أنَّه دهش حتَّى قال ذلك، أو الاتّباع البقاء على ما هو عليه والسحرة هم على ما هو عليه.

﴿فَلَمَّا جَآءَ السَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَينَّ لَنَا لأَجْرًا﴾ عظيما ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ لموسى، شكُّوا في الغلبة لِمَا سمعوا من شأن العصا واليد البيضاء، أو مجاراة لقول القائل: ﴿إِن كَانُواْ هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ أي لكم الأجر العظيم وزيادة كما قال: ﴿وَإِنَّكُمُوَ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ بأن تكونوا أوَّل من يدخل عليَّ وآخر من يخرج عنِّي. و«إِذًا» حرف جواب وجزاء، أو هي «إِذَا» الشرطية نوِّنت عوضا عن جملة الشرط، أي: إذا غلبتم موسى، وهكذا يجوز في جميع القرآن إذا أمكن.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىا أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ ليس ذلك أمرا بالمعصية وهي السحر، بل المعنى: أجهدوا جهدكم، فإنَّكم مغلوبون على كلِّ حال، ولذلك قال: «مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ»، أو أوحى الله إليه أن يقول: «أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ» أو ألهمه الله جواز القول، ولا يكفي أن يقال: لَمَّا علم أنَّهم ملقون ولا بدَّ جاز له أمرهم بالإلقاء، لأنَّ جزمهم بالإلقاء لا يبيح له الأمر، ويجوز **أن يكون أمرهم به ليظهر بطلانه وإعزاز الدين**، وليس مراده: ألقوا الآن، بل المراد: اعملوا متى شئتم.

فجمعوا الحبال والخشب والعصيَّ بعد، ألا ترى إلى قوله: ﴿**فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ**﴾ فإنَّه ليس الحبال والعصيُّ في أيديهم حاملين لها، وقد علم موسى أنَّ سحرهم بالإلقاء، أو أراد بالإلقاء العمل.

﴿**وَقَالُواْ**﴾ لجزمهم بأنَّهم غالبون لبلوغهم أقصى جهدهم في السحر ﴿**بِعِزَّةِ**﴾ قُوَّة وغلبة ﴿**فِرْعَوْنَ**﴾ أقسموا به على طريق الغيبة لا الخطاب إعظاما له ﴿**إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ**﴾ لموسى.

﴿**فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ**﴾ تأخذ بسرعة، وهذا الأخذ ببلع ﴿**مَا يَافِكُونَ**﴾ ما يصرفونه في ظاهر النظر عن حاله بالسحر، وهو على حاله الأولى في نفس الأمر، إذ خيِّلت عصيُّهم وحبالهم كأنَّها حيَّات كبار وطوال على قدرها وكأنَّها تسعى.

﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ**﴾ ألقاهم الله إثر ذلك باتِّصال على الأرض ساجدين باختيارهم، إلقاء مسرعا كأنَّه إسقاط بدون اختيارهم، فالإلقاء استعارة لخلق السرعة منهم للسجود، أَصلِيَّة اشتقَّ منه «أُلْقِيَ». وسارعوا إلى السجود إيمانا بأنَّ ذلك من الله، لأنَّهم رأوا العصا بحالها لم تزدد عظما، بعد أن كانت حيَّة، وقبضها موسى ولم يروا لحبالهم وعصيِّهم أثرا، ولو فرض فارض أنَّها صارت هباء عند توجه العصا إليها لصارت حجَّة ومعجزة أيضا، وكذا لو فرض أنَّها صارت عدما لعدم تعلُّق الإرادة بوجودها لكانت كذلك أيضا.

وقال ابن العربي في الفتوحات: إنَّما تلقَّفت صور الحبال عن الحبال والعصيِّ، وأمَّا نفس الحبال والعصي فباقية، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**تَلَقَّفْ مَا صَنَعُواْ**﴾ [سورة طه: 69]، وهم لم يصنعوا إلَّا الصور، وعليه فالمعنى: يأفكون الصور التي خيَّلوها، قال: ولولا ذلك لوقعت الشبهة لهم فلم يؤمنوا.

﴿قَالُواْ ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ جملة ﴿قَالُواْ﴾ جواب لمن يقول: ماذا قالوا؟ أو حال، أو بدل اشتمال للملابسة بين هذا القول وإلقائهم ساجدين. وذكروا الربَّ ـ قيل ـ لِمَا رأوا من إِلْهَاجِهِ بذكر الربِّ، إذ قال: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ...﴾ [الآية: 24]، ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ...﴾ [الآية: 26]، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ...﴾[الآية: 28]، إن حضروا قوله ذلك.

﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿ءَامَنتُمْ﴾ خضعتم بالإيمان ﴿لَهُ قَبْلَ أَنَ ـ اذَنَ لَكُم﴾ ظاهر العبارة أنَّه اعتقد لهم الإذن وعلموا بذلك فهم متوقِّعون للإذن بالإيمان، فسارعوا إليه قبل وقوع الإذن، والمراد: آمنتم له بغير إذني، وعدل عن ذلك تلويحا بأنَّ طلب الحجَّة ليعمل بمقتضاها إذا تحقَّقت، وأنَّه لَمَّا رأوها تحقَّقت عملوا بها، وكأنَّه قال: لا يحقُّ لكم أن تؤمنوا ولو تحقَّقت حتَّى آذن لكم، [قلت:] وهذا منه غلوٌّ في التكبُّر وإغماط الحقِّ.

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُم﴾ في السحر ﴿الذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ فاتَّفقتم معه كما قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ...﴾ [سورة الأعراف: 123] قال هذا تارة، وقال أخرى: علَّمكم السحر إلَّا شيئا لم يعلِّمكم إيَّاهُ فبطل به سحركم وغلبكم بسحره، ﴿فَلَسَوْفَ﴾ أي فوالله لسوف ﴿تَعْلَمُونَ﴾ عقوبة ما فعلتم من الإيمان، ولم يقرن المضارع بالنون التأكيديَّة بعد لام جواب القسم للفصل، كقوله تعالى: ﴿لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾ [سورة آل عمران: 158].

وَفَسَّر العقوبة بقوله: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ وهذان جوابان لقسم محذوف، أي وبعزَّتي لأقطِّعنَّ، أو جوابان معطوفان على الأوَّل، كما يتعدَّد الخبر بعطف وبدونه.

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ علينا في تقطيعك، يقال: ضاره يضرُّه ضيرا وضاره يضوره ضورا بمعنى: ضرَّه، أي لا ضرر علينا، لأنَّ الموت لا بدَّ منه، فنموت موتَ خير، أو لا ضير علينا بل خير من الله عظيم على ذلك، على أن يكون

قوله: ﴿**إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ**﴾ فيجازينا خبـرًا، أو لأنَّا نحن وأنت ننقلب إلى ربِّنا فيحكم بيننـا، إلَّا أنَّ فيه ردَّ الضمير إليه وإليهم مـع أنَّ الضمير قبل في قوله: ﴿قَالُواْ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ...﴾ للسـحرة وحدهم، ولكن يسـهِّله ذكره لعنه الله في قوله: «قَبْلَ أَنَ ـ اذَنَ» و«أُقطِّعَنَّ» و«أُصَلِّبَنَّ».

﴿**إِنَّا نَطْمَعُ**﴾ نرجو، أو نوقن، والأوَّل أولى، ﴿**أَنْ يَّغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَآ أَن كُنَّآ**﴾ لأنَّنا كنَّا ﴿**أَوَّلَ الْمُومِنِينَ**﴾ من أتباع فرعون، ظنُّوا أن سيؤمن غيرهم من قوم فرعون، أو **من أهل المشـهد لظهـور الحجَّة**، أو من أهـل زمانهم إن لم يعلموا أنَّ أحـدا آمن قبلهم فيه، ولو من بني إسـرائيل، **وفيه بعدٌ**، أو أوَّل من آمن جهرا عند فرعون ولو آمن بنو إسـرائيل سـرًّا، ومؤمن آل فرعون وآسية. والجملة تعليل ثان لقوله: ﴿لَا ضَيْرَ﴾، أو تعليل لـ«لَا ضَيْرَ».

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٥٨ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨﴾

ـ 4 ـ

نجاة موسى وقومه وإغراق فرعون وجنده

﴿**وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ اسْرِ**﴾ «أَنْ» تفسيريَّة لتقدُّم معنى القول لا حروفه، و«أَسْرِ» بفتح الهمزة فتحا منقولا إلى النون، أمرٌ من أسرى الرباعي بزيادة الهمزة[1]، أي: سيروا ليلا ﴿**بِعِبَادِيَ**﴾ بني إسرائيل عن القبط بعد إذ قام فيهم يدعوهم إلى التوحيد سنين وما زادوا إلَّا عتوًّا ﴿**إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ**﴾ يتبعكم فرعون وجنوده مصبحين، فلا يدركونكم إلَّا عند البحر، فتدخلونه ويتبعونكم فتنجون ويهلكون، على أنَّ موسى أخبره الله بذلك.

(1) هذا وهم من الشيخ رَحِمَهُ اللهُ، وإنَّما كُسرت النون لانتقال كسرة همزة الوصل المكسورة إليها من الفعل: «اِسْرِ» حسب رواية ورش، وهو فعل أمر «سَرَى» الثلاثي. وأمَّا برواية حفص «أَسْرِ» فمن الرباعي كما قال الشيخ، ولكن دون نقل الحركة. (المراجع).



﴿**فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ**﴾ أي فأسرى فأرسل بعد أن أخبر بإسراء موسى، أو فأسرى فأخبر فرعون ﴿**فِي الْمَدَآئِنِ**﴾ مدائن مصر. قيل: كانت ألف مدينة، والقرى اثني عشر ألف قرية ﴿**حَاشِرِينَ**﴾ جامعين للعساكر ليتبعوهم ﴿**إِنَّ هَؤُلَآءِ**﴾ قائلا: إنَّ هؤلاء، وهم بنو إسرائيل ﴿**لَشِرْذِمَةٌ**﴾ طائفة محتقرون قليلة الأفراد ﴿**قَلِيلُونَ**﴾ كلُّ حزب منهم قليل، وجمع المذكَّر السالم لأنَّ الطائفة ذكور عقلاء، وفيهم إناث غلبوا عليهنَّ.

[قصص] وقيل: هم ستُّمائة ألف وعشرون ألفا غير بني عشرين لصغرهم، وبني الستِّين لكبرهم، وعدَّهم قليلا بالنسبة إلى جنوده ستمائة وعشرين ألفا، أو ألف ألف وخمسمائة ألف مَلِك مُسَوَّرٍ مع كلِّ ملك ألف، وكانت مقدِّمته سبعمائة ألف رجل، كلُّ رجل على حصان وعليه بيضة.

وعن ابن عبَّاس: ستمائة ألف وسبعون ألفًا، وقيل: أرسل إثر موسى عليه السلام ألف ألف وخمسمائة ألف، وخرج فرعون بكرسيِّه العظيم في مائتي ألف مَلِكٍ مسور مع كلِّ ملك ألف رجل وذلك بعد السحر، [قلت:] **وأنا وغيري مرتابون في عدد موسى وعدد فرعون**، ثمَّ إنَّه لا بدَّ أنَّ المقدِّمة أقلُّ من العسكر، وعندي كتاب التوراة الموجودة الآن وفيها أنَّ عدد موسى عليه السلام ستمائة ألف رجل خلا الأطفال.

﴿**وَإِنَّهُمْ لَنَا**﴾ اللام للتقوية، ومدخولها مفعول به لقوله: ﴿**لَغَآئِظُونَ**﴾ غائظون بمخالفة أمرنا، والخروج بغير إذننا بأنفسهم وأموالهم وأموالنا التي استعاروها، وقد استعاروها بإذن الله عز وجل ليأخذوها ﴿**وَإِنَّا لَجَمِيعٌ**﴾ قوم مجموعون ﴿**حَذِرُونَ**﴾ حاذرون جدًّا، وهو صفة مبالغة، مستعملون الحزم بقلوبنا والسلاح التامِّ، أخبر قومه بذلك تصريحا وإزالة لإيهام بطلان سلطانه بذهابهم عنه، ونقص عددهم من ملكه.

﴿**فَأَخْرَجْنَاهُم**﴾ خلقنا فيهم سبب الخروج، وهو اعتقاد قلَّة بني إسرائيل وغيظهم لفرعون وكثرة قومه، أو خلقنا خروجهم ﴿**مِّنْ جَنَّاتٍ**﴾ على جانبي النيل ﴿**وَعُيُونٍ**﴾ جداول منه أو عيون من غيره ﴿**وَكُنُوزٍ**﴾ أموال مدفونة وأمَّا الديار

والحيوان فمعلوم الإخراج منها بالضرورة، وقيل: لأنَّها طمست عقب خروجهم لاتباع موسى عليه السلام، وكذلك طمست الأجنَّة والعيون عقب ذلك الخروج.

﴿**وَمَقَامٍ كَرِيمٍ**﴾ مساكن حسان، أو مجالس الأمراء والأشراف والحكام، أو الأسرَّة في الكلل[1] أو منابر الخطباء، أقوال، أو كلُّ ذلك سمِّي ذلك كلُّه بأنَّه موضع كريم ﴿**كَذَلِكَ**﴾ أَمرُنا مع مثلهم كذلك، أو أخرجناهم مثل ذلك الإخراج، وفيه تشبيه الشيء بنفسه، فيحتاج إلى تكلُّف أنَّ المراد: ذلك الإخراج المشخَّص شبه هذا الوصف له ﴿**وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ أبقيناها لهم، أو ملَّكناهم إيَّاهَا كتوريث أحد مال آخر.

﴿**فَأَتْبَعُوهُم**﴾ عطف على «أَخْرَجْنَاهُمْ»، وهو مقدَّم في المعنى على ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وصحَّ الكلام ولو لم تقدِّر: فأردنا إخراجهم من جنَّات، ﴿**مُّشْرِقِينَ**﴾ داخلين في وقت شروق الشمس، كأصبح: دخل في الصباح، وهذا أولى من أن يقال: داخلين في جهة المشرق، كأنجد: دخل نجدا، وأعرق: دخل العراق. وهو حال من الواو، أولى من أن يكون حالا من الهاء لِمَا مرَّ أنَّهم سروا ليلا وتبعهم فرعون صباحا.

والشروق: ضوء الشمس، وذلك أولى مِمَّا قيل: إنَّه ضوء من الله تعالى جعله الله لبني إسرائيل ليلا وفرعون في ظلمة نهارا كضباب، وعلى هذا فالحال من الهاء. ويقال: لَمَّا خرج بنو إسرائيل كان أمامهم عمود من غمام نهارا وعمود من نور ليلا ليدلَّهم على الطريق.

﴿**فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ**﴾ رأى قوم موسى قوم فرعون، ورأى قوم فرعون قوم موسى، وقد يقال لمطلق التقارب ولو لم تقع رؤية كلٍّ للآخر، أو وقعت من واحد للآخر فقط، والأوَّل أولى، لأنَّه المتبادر من قوله تعالى:

---

(1) في اللسان الكلَّة من الستور: ما خيط كالبيت. **ابن منظور**: لسان العرب: ج 12، ص 145، مادة «كلل». أي هذه الأسرَّة عليها من الستور ما يشبه الخيمة.

﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ نعم يجوز أن يقول أصحاب موسى هذا لعلمهم بأنَّ فرعون على إثرهم، ولو لم يروا قومه، أي يدركنا فرعون وقومه، قالوا هذا تحزُّنا وطلبا للتدبُّر، وقالوا لموسى: الموت في مصر وخدمة فرعون أولى لنا من الموت في البرِّ، فقال لهم انتظروا إغاثة الله ﷻ كما قال الله ﷻ:

﴿قَالَ كَلَّآ﴾ ارتدعوا عن ظنٍّ أن يدركوكم ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بالحفظ والنصر ﴿سَيَهْدِينِ﴾ السين للتأكيد والاستقبال بلا توسيع، بل بتقريب ما فيه نجاتكم، ولم يقل: معنا، وسيهدينا، لأنَّهم طلبوا منه التدبُّر مع أنَّ نصره وتنجيته نصر لهم وتنجية، وهم له تبع، وتأديبا لهم بعدم إشراكهم له في المعيَّة والهداية لغفلتهم عن قوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [سورة القصص: 35]، وعن تنجيتهم عَمَّا أصاب قوم فرعون من الدم وغيره.

[بلاغة] وقدَّم «مَعِي» للاهتمام كأنَّه لم يهتمَّ بهم، وقد اهتمَّ ولم يذكرهم بالاهتمام، ويجوز أن يكون للحصر أي معي لا مع فرعون، أو معي أوَّلا وبالذات لا معكم إلَّا بالتبع. [قلت:] وفضل الصدِّيق رضي الله عنه على بني إسرائيل كفضل الشمس على الكواكب لتحقُّق إيمانه جدًّا فجمعه الله مع النبيء ﷺ إذ قال وهو في الغار: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة: 40].

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ القلزم لا أسافا بحرا وراء مصر فيما قيل، ولا النيل على الصحيح، وهذا الإيحاء الكريم كان بعد وصول موسى عليه السلام البحر.

[قصص] قال مؤمن آل فرعون: يا رسول الله أين أمرت؟ وهذا البحر أمامنا وفرعون وراءنا، فقال: أمرت بالبحر فاقتحم البحر، وكذا فعل آخرون فغشيهم الماء ولم يضرَّهم، ولَمَّا انفلق البحر حصلوا في طريق ولم يبتلُّوا بالماء هم ولا أفراسهم وما عليها، والمشهور أنَّ ذلك للمؤمن ويوشع، ولم يقدر أفراس غيرهم على الاقتحام، وكذا يوشع قال ما قال مؤمن آل فرعون، وقيل: أجرى فرسه على الماء ولم يبلهم الماء.

وروى أنَّه لَمَّا انتهى موسى عليه السلام إلى البحر ـ وقيل عند الانفلاق ـ قال: «اللهمَّ لك الحمد وإليك المشتكى وإليك المستغاث وأنت المستعان ولا حول ولا قُوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم»، وعن محمَّد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام: إنَّ موسى لَمَّا انتهى إلى البحر قال: «يا من كان قبل كلِّ شيء والمكوِّن لكلِّ شيء، والكائن بعد كلِّ شيء، اجعل لنا مخرجا»، فأوحى الله إليه ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾.

[قصص] روي أنَّ الله عز وجل أوحى إلى موسى أن اجمع أهل كلِّ أربعة في بيت واذبحوا أولاد الضأن، واضربوا بدمائها على أبوابكم، فإنِّي سآمر الملائكة بقتل أبكار آل فرعون من أنفسهم، وآمرهم أن لا يدخلوا بيتا على بابه دم، واخبزوا خبزا فطيرا فإنَّه أسرع، وسر إلى البحر فإنَّه يأتيك أمري، وقالوا لقوم فرعون: لنا في هذه الليلة عيد فاستعاروا حليَّهم فذهبوا به، فقال فرعون: قتلوا أبكارنا وأخذوا أموالنا.

﴿**فَانفَلَقَ**﴾ فضرب فانفلق بعد أن قال له بأمر الله له: انفلق يا أبا خالد، ويحكى أنَّه قال: انفلق يا أبا خالد، فقال: لا أنفلق لك يا موسى أنا أقدم منك خلقا وأعظم، فأوحى الله إليه ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضرب فانفلق، ويقال عن ابن مسعود أنَّه قال: لقد تعاظمت يا موسى وهل انفرقت لآدمي؟ فأوحى الله تعالى: ﴿أَنِ اضْرِب...﴾ وعن أبي الدرداء عنه صلى الله عليه وسلم أنَّه ضربه فصات ثمَّ ضربه فصات ثمَّ ضربه فانفلق، وذلك ثلاث، وقيل: ضربه اثنتي عشرة عدد الطرق فيه للأسباط، [قلت:] **وذلك يحتاج إلى تصحيح** والمشهور لظاهر القرآن أنَّه ضربه مرَّة.

﴿**فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ**﴾ كلُّ ماء متجامد منفصل عن الآخر، وجملة الفرق ثلاثة عشر ﴿**كَالطَّوْدِ**﴾ الجبل ﴿**الْعَظِيمِ**﴾ في كلِّ فرق كوَّات يتراءى منها بنو إسرائيل مؤانسة، وكانت الطرق بين الأطواد مقوَّسة فيرجعون في الأرض التي

دخلوا منها، وهي غير نافذة إلى البر خلف البحر، وهذا هو الظاهر وإلَّا طالت المسافة جدًّا واحتاجوا إلى الرجوع في السفن إلى أرض مصر والشام، وهي أرض واحدة لم يفرِّق بينهما بحر. والشمس في أرض الطرق وهي أرض طلعت فيه الشمس مرَّة واحدة.

﴿**وَأَزْلَفْنَا**﴾ قرَّبنا إلى بني إسرائيل، عطف على «أَوْحَيْنَا»، أو على محذوف هكذا: فأدخلنا بني إسرائيل فيما انفلق ﴿**ثَمَّ**﴾ هناك أزلفنا ﴿**الَاخَرِينَ**﴾ فرعون وقومه فدخلوا مداخل بني إسرائيل، وقرَّبنا بعضهم من بعض لئلَّا ينجو منهم أحد، وكان جبريل خلف بني إسرائيل ليلحق آخرهم أوَّلهم فيقولون: ما رأينا سائقا أحسن من هذا، وقدَّام القبط يقول: رويدكم ليلحق آخركم، فيقولون: ما رأينا وازعا أحسن من هذا.

﴿**وَأَنجَيْنَا**﴾ من قتل فرعون والإغراق ﴿**مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ**﴾ ببركة صحبته، ولذلك عبَّر بـ«مَعَ» ولم يقل: موسى وقومه، ولو قال لتبادر بنو إسرائيل، مع أنَّه قد أنجى من آمن من القبط أيضا لا بنو إسرائيل فقط، لكن لا يلزم لأنَّ من آمن من غير قومه يعدُّ منهم لإيمانه.

﴿**ثُمَّ أَغْرَقْنَا الَاخَرِينَ**﴾ فرعون وجنده بإطباق الماء عليهم، وكان له صوت، فقال بنو إسرائيل: ما هذا؟ فقال موسى: غرق فرعون وأصحابه، فرجعوا ينظرون، فرأوا بعضا على الساحل ألقاهم الماء. و«ثُمَّ» للترتيب بلا تراخ، أو للتراخي بين معنى الإنجاء ومعنى الإغراق.

قال الحسن: رجع موسى ومن معه إلى مصر، وورثوا أموالهم وديارهم، فقيل: بقوا فيها عشر سنين، وقيل: رجع بعضهم إليها وموسى، والجمهور إلى الشام، وقيل: رجعوا كلُّهم إلى الشام، وما ملكوا مصر إلَّا زمان سليمان، فيكونون أخذوا الأموال وذهبوا إلى الشام ولم يقيموا بمصر، فأموالهم لم تدمَّر كلُّها ولم تطمس كلُّها، بل بقي ما ورثوا، والنصُّ تدمير ما

كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون، أو طمست ورجعها الله إلى بني إسرائيل كما كانت بلا طمس.

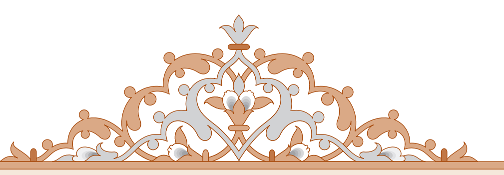
﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من القصَّة، وإشارة البعد للتعظيم لها، قيل: أو لبعد مبدئها، وفيه أنَّ بعد المبدأ لا يثبت البعد لغيره، اللهمَّ إلَّا على طريق التغليب، والمراد: انقلاب العصا ثعبانا وبلع الحبال والعصا واليد البيضاء وانفلاق البحر ﴿لَأَيَةً﴾ دلالة عظيمة تدعو إلى الإيمان، قيل أو في مجموع تلك القصَّة آية عظيمة، وهي الثلاث المذكورة، سمِّيت بواحدة لاتِّحاد المدلول، وهو تفسير ضعيف.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ﴾ أكثر قوم فرعون، وآمن قليل منهم كحزقيل وآسية وقليل من القبط، على أنَّه ليس السحرة كلُّهم من القبط، وكلُّهم آمنوا لكن البعض قبط والبعض غير قبط، وهو الأكثر، ومن قوم فرعون المرأة التي دلَّت موسى على عظام يوسف فيحملها معه إلى الشام.

أو الهاء للناس بعد الإغراق فإنَّ المؤمن المحقِّق من بني إسرائيل غير كثير، ألا ترى كيف عبدوا العجل وقالوا: ﴿اجْعَل لَّنَآ إِلَهًا﴾ [سورة الأعراف: 138]، وقالوا: ﴿اذْهَبَ انتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [سورة المائدة: 24]، وسألوا بقرة يعبدونها، فقد تفسَّر الآية بالإنجاء والإغراق فلم يوقنوا الإيمان بعدما شاهدوهما، وكذا من سمع بهما من بني إسرائيل مِمَّن لم يحضر، أو من غيرهم.

ويجوز رجوع الهاء إلى قوم نبيئنا ﷺ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ويناسب رجوع الهاء إليهم رجوعها إليهم في قوله ﷻ:





﴿وَاتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ 69 إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ 70 قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ 71 قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ 72 أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ 73 قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ 74 قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ 75 أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ 76 فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ 77 ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ 78 وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ 79 وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ 80 وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ 81 وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ 82﴾

القصة الثانية:

قصة إبراهيم عليه السلام وتمجيده الله تعالى

ـ 1 ـ

التنديد بعبادة الأصنام وبيان صفات الربِّ المستحقِّ للعبادة

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ والعطف على محذوف هكذا: اذكر قصَّة موسى لقومك واتل عليهم.

﴿نَبَأَ إبْرَاهِيمَ إِذْ﴾ بدل من «نَبَأَ»، وقيل: متعلّق به، ولا يصحُّ إلَّا على تأويل تحديث إبراهيم، لأنَّ إبراهيم لم يخبر في ذلك الوقت، والله لم يخبرنا فيه ﴿قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ الهاء لإبراهيم، ويجوز أن تكون لأبيه كما قال: ﴿إِنِّيَ أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الأنعام: 74]، ولا يلزم عليه تفكيك الضمائر، لأنَّه ليس في وسط ضمائر لواحد، وإنَّما هو آخر الكلام.

﴿**مَا تَعْبُدُونَ**﴾؟ صورة سؤال، وهو عالم بما يعبدون، لكن لِيُبَيِّنَ لهم أنَّ ما يعبدونه ليس أهلا للعبادة. ﴿**قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ**﴾ ندوم، أو كانوا يعبدونها نهارا، ولا يلزم من كونها بمعنى الدوام أن تكون لا خبر لها.

[بلاغة] ﴿**لَهَا عَاكِفِينَ**﴾ لو شاءوا لقالوا: أصناما، بحذف «نَعْبُدُ» لكن صرَّحوا بذلك ابتهاجا بعبادتها وتعظيما لها، وتقوية للعناد، وزادوا ذلك أيضا بذكر الظلول مع أنَّه لم يسألهم إلَّا عن نفس ما يعبدون.

﴿**قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ**﴾ دعاءكم، ضمير العقلاء وهو الواو لاعتقادهم أنَّها عاقلة ﴿**إِذْ تَدْعُونَ**﴾ هم صمٌّ لا سماع لهم، أو «يَسْمَعُونَ» بمعنى يجيبون، أي هل يجيبون دعاءكم إذ تدعون ﴿**أَوْ يَنفَعُونَكُمْ**﴾ لعبادتكم ﴿**أَوْ يَضُرُّونَ**﴾ يضرُّونكم بتركها، ومن الجائز أن يقال هل ينفعونكم أيضا ابتداء منهم، فتجازوهم بالعبادة، أو يضرُّونكم ابتداء إن لم تعبدوهم، أو يضرُّون مطلقا لا من لا يعبدهم فقط، لَكِنَّ سياق الآية لمن يعبدهم، والمفعول إنَّما حذف للعلم به والفاصلة.

﴿**قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ يعبدونهم، إضراب انتقاليٌّ من أمر ثابت عندهم، وهو أنَّ الأصنام لا تسمع ولا تنفع ولا تضرُّ إلى أمر تقليديٍّ.

﴿**قَالَ أَفَرَآيْتُم**﴾ أنظرتم فأبصرتم، أو أتأمَّلتم فعلمتم ﴿**مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ**﴾ أيَّ شيء تعبدون ﴿**أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ الاَقْدَمُونَ**﴾ لا تنفع عبادتهم، وقدمها لا تثبت لهم حقًّا بل بطلانا، إذ طالت عبادتها ولم تنفع عابدا مَّا.

﴿**فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ**﴾ إن سألتم ما هم عندي؟ فإنَّهم عدوٌّ، أو تعليل لِمَا يفهم منه من أنَّه لا يعبدهم، أو لا تصحُّ عبادتهم لأنَّهم أعدائي، أو لأنِّي عدوُّهم فإنَّهم شبيهون بمن تعاديه أو يعاديك في لحوق الضرر، فإنَّ عابدها

يتضرَّر يوم القيامة وفي قبره بعبادتها، وأبغضتها كبغض العدوِّ لأنَّها تجرُّ إلى مخالفة الله ﷻ.

ومقتضى الظاهر: عدوٌّ لكم، وعدل عنه مبالغة في النصح بأنِّي أحبُّ لكم ما أحبُّ لنفسي، وأكره لكم ما أكره لنفسي، وهذا تعريض، كقول الإمام الشافعي لمن واجهه بسوء: «لو كنت حيث كنت لاحتجت إلى أدب»، وقول بعض المتكلِّمين في الحجر: «ما هو بيتي ولا بيتكم».

والأصنام لا عقل لها فلا تعادي غيرها، الجواب أنَّها تعقل يوم القيامة فتعادي عابديها في الدنيا وتلعنهم، كما قال الله ﷻ: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [سورة مريم: 82]، وقال الفرَّاء: من باب القلب، والأصل: فإنِّي عدوٌّ لهم ككسر الزجاج الحجر، فقد يكون تهكُّما بها وقد عبدوها ونزَّلوها منزلة من يعادي ويصادق، ومن عاديته فقد عاداك. وأفرد العدوَّ لأنَّ المراد كلُّ واحد عدوٌّ، أو لأنَّ أصله مصدر، أو للاتِّحاد في عدم النفع وفي الضلال بها.

﴿**إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾ لكن ربُّ العالمين عبادته حقٌّ ونافعة دنيا وأخرى، ولا يزال ينفع، وهو مالك الضرِّ والنفع، ويجوز أن يكون الاستثناء متَّصلا من الهاء، أو من المستتر في «عَدُوٌّ»، إذا كان هو الذي عاداهم، لأنَّ من آبائهم من يعبد الله مؤمنا، ومنهم من يعبده مشركا به.

﴿**الذِي خَلَقَنِي**﴾... إلخ نعت لـ«رَبَّ» أي رَبَّ العالمين كلِّهم، المتَّصف بالخلق والهداية والإطعام والسقي وشفاء المرضى والإماتة والإحياء وغفران الذنب للتائب، والأصنام لا تقدِر على ذلك ولا أقلَّ.

﴿**فَهُوَ يَهْدِينِ**﴾ لمصالحي الدِّينِيَّة وَالدُّنْيَوِيَّة، وأوَّل ذلك مصُّ الجنين دم الحيض في الأرحام على القول بالمص، وهو المشهور، وقيل: ينمو به بلا مصٍّ ولا اختيار.

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ ذكر «هُوَ» في الموضعين لا قبل «خَلَقَنِي» لشيوع إسناد الدلالة في الجملة والإطعام والسقي إلى غيره تعالى، بخلاف الخلق. وقدَّم الإطعام لأنَّ البدن أشدُّ احتياجا إليه في البقاء والنموِّ، وللفاصلة. وشدَّة الاحتياج إلى الطعام والشراب لا تخفى، ألا ترى أنَّ أهل النار لم يشغلهم العذاب عنهما فهم يقولون: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَآءِ اَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ [سورة الأعراف: 50].

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ جمع هذه الجملة بالعطف على «يُطْعِمُنِي»، ولم يفصله بموصول هكذا: والذي إذا مرضت فهو يشفيني، لأنَّ من أسباب المرض الأكل والشراب.

فإنَّ الداء أكثر ما تراه ... يكون من الطعام أو الشراب[1]

ولو قيل لأكثر الموتى: ما سبب آجالكم؟ لقالوا: التخم.

[قلت:] وليس المرض مطلقا نقمة حتَّى يقال: أسنده إلى نفسه لأنَّه نقمة، والشفاء إلى الله لأنَّه نعمة. كما زعم بعض أنَّه لم يقل: أمرضني، لأنَّه في مقام الشكر، فلم ينسب الضرَّ إلى الله تعالى، اللهمَّ إلَّا أن يراد في الجملة فلم يقل: وإذا أمرضني. بل ابن العربي قال: عاتب الله إبراهيم إذ أسند المرض إلى نفسه ولم يقل: أمرضني.

﴿وَالذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ للجزاء فكيف أعصيه بالشرك أو ما دونه، فيعاقبني، ويقال معنىً لا تفسيرًا: إذا مرضت بالذنوب فهو يشفين بالتوبة.

﴿وَالذِي أَطْمَعُ﴾ أرجو، ولا واجب على الله إلَّا أنَّه إذا وعد أو أوعد لا يخلف ﴿أَنْ يَّغْفِرَ لِي﴾ مفعول «أَطْمَعُ» لتضمُّن معنى أرجو، وإلَّا فالتقدير:

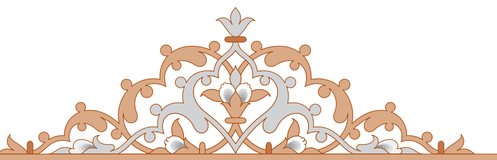
---

(1) البيت لابن الرومي علي بن العباس، من قصيدة حول الصديق. ينظر: **أبو منصور الثعالبي**: الإعجاز والإيجاز، ص271.

في أن يغفر لـــي ﴿خَطِيئَتِي﴾ ما يعــدُّه الله عليَّ ذنبا مضـــى أو يأتي، أو في وقتي، ولو لم أعلم أنَّه ذنب، ولو لم يكـــن ذنبا في حقِّ غيري، فدخل قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [سورة الصافات: 89]، و﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ [سورة الأنبياء: 63]، وقوله في ســـارة: إنَّها أختي، كما جاء الحديث أنَّه يمتنع من طلب الشـــفاعة لأهل المحشـــر[1] بذلك، وقوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [ســـورة الأنعام: 76 و78]، وعدَّ المعرضَة ذنبا. ويضعف أن يفسَّـــر بخطيئة من يؤمن بي. ﴿يَـــوْمَ الدِّينِ﴾ المغفرة قبل الموت، وعلَّقها بيوم القيامـــة لظهور أثرها فيه بأنَّه لـــم يعاقب عليها، وأنَّها تبدَّل حسنة إن لم يختصَّ هذا بهذه الأمَّة.

---

(1) أورده **المنذري** في كتاب الشفاعة، باب تنحِّي الرسل عن الشـــفاعة يوم القيامة، رقم 103، من حديث أبي هريـــرة، كما رواه **البخاري** فـــي كتاب التوحيد (36) بـــاب كلام الربِّ مع الأنبياء، رقم 7072، من حديث أنـــس. و**الربيع** في مســـنده: ج 7، ص 23، رقم 1004، من حديث جابر مرسلا.



﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۝83 وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۝84 وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ۝85 وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ۝86 وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝87 يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝88 إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝89﴾

ـ 2 ـ

دعاء إبراهيم عليه السلام

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ علما بالخير للعمل به وبالشـرِّ ليتركه، وزيادة في الاحتجاج علـى التوحيد، وقيل: النبـوءة، فإن حصلت قبـلُ فالمراد كمالها والثبات عليها، وهذا **الدعاء بأوجهه ربط للموجود وطلب للمزيد.**

﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ الراسـخين في قُـوَّة العمل، وأخَّره عن العلم **لأنَّ العمـل بلا علم باطـل**، والعلم صفة الـروح والقلـب، والعمل صفة الجوارح وهما أفضـل منها، أو الحكم في المعـاش والإلحاق بالصالحين فيما يتعلَّق بالدين.

أو الحكم: رياسـة الخلق، والإلحاق: التوفيق للعدل بين الناس مع القيام بحقوق الله، أو الحكم: الكمال في العلم والعمـل، والإلحاق: إلحاق برتبهم في الجنَّـة، وفيه أنَّ هـذا فرع دخـول الجنَّة وهـو مطلوب بعد فـي قوله: ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَّرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ فلو كان ذلك مرادا لذكر بعده لا قبله.

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَـانَ صِدْقٍ فِي الَاخِرِينَ﴾ اجعل لي ذكر طاعة أُذْكَرُ بهـا في الأمم الآتية بعد أمَّتي هذه، فكلُّ أهل دين يتولَّونه ويثنون عليه، وسمَّى

الذكر باللسان لأنَّه يكون به، وسمَّى الطاعة صدقا لأنَّها حقٌّ، والمعصية كذب بمعنى باطلة.

وليس ذلك لحبِّ السمعة والرئاء، بل أراد التقرُّب إلى الله بعمله وعلمه، إلَّا أنَّه يلزم عليهما الذكر الحسن في الآخرين، وليس مقصودا بالذات فعبَّر باللازم.

أو أراد ظاهره بلا سمعة ورئاء، بل بأن يقتدى به، فيكون له ثواب الاقتداء به. ويجوز أن يريد بـ«صِدْقٍ»: الصدق في الثناء عليه بأن يكون عند الله كما عند الناس في القبول، فله ثواب الاقتداء، وأن يريد بـ«لِسَانَ صِدْقٍ»: الخصال الحميدة فيقتدى به، فيكون له أجر الاقتداء.

ويجوز أن يريد بـ«الَاخِرِينَ» هذه الأمَّة مع نبيئها ﷺ، بأن يذكر فيهم، أو أراد ألسنة ذاكرة له فيهم، أو اللسان مجاز عن أصحابها لأنَّه جزء الإنسان، أو اللسان رسول الله ﷺ، أو يقدَّر: ذا لسان صدق، أو ذوي لسان صدق.

﴿**وَاجْعَلْنِي مِنْ وَّرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ**﴾ في الدعاء بذلك مع كمال علمه وعمله ومنزلته عند الله إخبارٌ بأنَّه لا يوجب دخول الجنَّة، لأنَّ الله هو المنعم به، **والحسنات تفنى في مقابلة نعمه تعالى**، وأيضا لا يدري بم يختم إلَّا من علم نفسه معصوما.

وعنه ﷺ: «من أسبغ الوضوء لصلاة مكتوبة وقال حين خرج للمسجد عند باب داره: **بسم الله الذي خلقني فهو يهديني** هداه الله تعالى لصواب الأعمال، **والذي هو يطعمني ويسقيني** أطعمه الله من طعام الجنَّة وسقاه من شرابها، **وإذا مرضت فهو يشفيني** شفاه الله تعالى وجعل مرضه كفَّارة لذنوبه، **والذي يميتني ثمَّ يحيين**ي أحياه الله تعالى حياة السعداء، وأماته إماتة الشهداء، **والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين** غفرت خطاياه ولو كانت كزبد

البحر، **ربِّ هب لي حكما وألحقني بالصالحيــن**، وهب الله تعالى له حكما، وألحقه بصالحي من مضــى وصالحي من بقي، **واجعل لي لســان صدق في الآخرين** كتب في ورقة بيضاء إنَّ فلان بن فلان من الصادقين، ويوفِّقه الله بعد ذلك للصــدق، **واجعلني من ورثــة جنَّة النعيــم** جعل الله تعالى لــه القصور والمنازل في الجنَّة»[1].

وزاد الحســن: «واغفر لوالديَّ كمــا ربَّياني صغيرا»، كما قــال: ﴿**وَاغْفِرْ لِأَبِيَ**﴾ ذنوبه ووفِّقه للإيمان بعد الغفران له.

[أصول الدين] وهذا مخصوص بإبراهيم، ولَمَّا تبيَّن له من الله أنَّه شــقيٌّ ترك هذه الولاية وتبرَّأ منه، وعــذره الله في ذلك الاســتغفار لأنَّه جائز عقلا، وكان قبل أن يوحى إليه فيه، وهذا على إطلاقه، وقد يقال: هذا بعد موته، وإن كان قبله فطلب المغفــرة له بمعنى طلب الهداية له، وهــذا لا يختصُّ به، بل جائز لغيره من الأنبياء أيضا، فلمَّا تبيَّن له أنَّه شقيٌّ ترك طلب الهداية له.

وقيل: كان أبوه مؤمنا سرًّا من نمروذ، ونســبه إلى الضلال كما في قوله: ﴿**إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّآلِّينَ**﴾ لأنَّه لم يطَّلع على إيمانــه مع أنَّه يأمره به، فلا يؤمن له، أو لأنَّه يجب عليه في ذلك الشرع أن لا يكتم إيمانه ولو خاف.

﴿**وَلَا تُخْزِنِي**﴾ لا تذلَّني وتهنِّي بتعذيبــه أو ببعثه في الضَّالين، من الإخزاء بمعنى الإذلال والإهانــة، أو لا تجعلني ذا حيــاء به، من الخزايــة بفتح الخاء بمعنى الاستحياء بتعذيبه، أو بعثه في الضالين، لا تجعله كذلك فيلحقني عذاب الحياء، أو لا تخزني بمعاتبتــي على تفريط مَّا وبنقص رتبتــي عَمَّن ورث جنَّة النعيم، قيل: أو بتعذيبي بلا ذنب لجوازه عقلا، ولو كان لا يجوز على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(1) أورده **الآلوســي** في تفســيره: مج 7، ص 99. وقال: أخرجه ابن أبي الدنيا فــي الذكر وابن مردويه، من طريق الحسن عن سمرة بن جندب.

﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي الناس أو المكلَّفون، دلَّ على ذلك ذكر البعث، ولا يختصُّ البعث بالمكلَّفين، لكن مقام الحساب لهم، وقيل: الواو للضالِّين. ﴿يَوْمَ﴾ بدل من «يَوْمَ». وذلك من كلام إبراهيم إلى ﴿مِنَ الْمُومِنِينَ﴾ لاتِّصال الكلام بعضه ببعض، وإذا نصبنا «يَوْمَ» بمحذوف مثل: اُذكر يوم، أو يكون ذلك يوم، كان من كلام الله عَجَّلَ.

﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ وغيرهم لا ينفع من باب أولى، أو يريد بالمال والبنين جميع منافع الدنيا، تعبيرا عن الكلِّ بالبعض الذي هو معظمه، كما قيل أيضا: المراد بالبنين جميع الأعوان.

﴿إِلَّا مَنَ﴾ مفعول «يَنفَعُ» على التفريع ﴿اَتَى اللَّهَ﴾ يوم القيامة ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك والنفاق في الدنيا، وقلب الكافر والمنافق مريض لقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [سورة البقرة: 10]. ومن سلم من الشرك والنفاق فإنَّه ينفعه ماله وبنوه، بإنفاقه في وجوه الأجر، واستعمال أولاده بوجه يجوز، أو عملهم له؛ أو الاستثناء من ﴿مَالٌ وَبَنُونَ﴾ أي إلَّا مال وبنو من أتى الله... إلخ إذا تقرَّب بهما إلى الله عَجَّلَ، بأن نفعه أولاده، أو أرشدهم إلى الحقِّ.

أو المراد: لكن حال من أتى الله بقلب سليم، أو إلَّا من أتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين، أو جعل المال والبنين بمعنى الغنى، وغنى الرجل في دينه بسلامة قلبه كما أنَّ غناه في دنياه بماله وبنيه، وقد صوَّب الله تعالى استثناء الخليل وجعله صفة له في قوله: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة الصافات: 83 ـ 84].

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95) قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96) تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (98) وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ (99) فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (104)﴾

ـ 3 ـ

حال المؤمنين والمشركين يوم القيامة

﴿**وَأُزْلِفَتِ**﴾ قرِّبت ﴿**الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ عطف على «يُبْعَثُونَ» أو «لَا يَنفَعُ». والمتَّقون: من مات غير مصرٍّ. وإزلافها: تقريبها من مكانها إلى المتَّقين، والله قادر، أو انكشف عنها بتقوية أبصارهم فيروها من المحشر، وهي فوق السماء السابعة.

﴿**وَبُرِّزَتِ**﴾ أظهرت ﴿**الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ**﴾ بحيث يرون ما فيها من أنواع العذاب، ويتحسَّرون على أنَّهم يساقون إليها، وقد جاء بها سبعون ألف ملك، مع كلِّ زمام، وأزمَّتها سبعون ألفا، وقد كانت تحت الأرض السابعة، أو حيث شاء الله، يدخلونها فترجع بهم، وأجاز السيوطي أن تكون على أرض واسعة. والماضي في الآيات الماضية والآتية لتحقُّق الوقوع، والمضارع للتكرُّر والمشاهدة المعتبرة.

﴿**وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ**﴾ تستمرُّون على عبادته في الدنيا من آلهة تزعمون أنَّها تشفع لكم اليوم إن كان البعث، والاستفهام توبيخ

وتقريع لا جواب لــه إلّا أن يقولوا: ﴿ضَلُّــواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُــواْ مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ [سورة غافر: 74]، ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا...﴾ [سورة الأحزاب: 67].

﴿**هَلْ يَنصُرُونَكُمْ**﴾ عن هذه الجحيم الحاضرة التي رأيتم ﴿**أَوْ يَنتَصِرُونَ**﴾ لأنفســهم بأن لا يدخلوها، أو يجيبون جوابا واحدا عن الاستفهامين: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾، فتدخلها الأصنام تعذيبا وتحزينا لهم لا لها، وقد قيل: أن يجعلها عاقلة تَتَكَلَّمُ كما قال:

﴿**فَكُبْكِبُواْ**﴾ بواو جماعــة الذكور، أي أصنامهم التي يعبــدون، كبُّوا كبًّا شديدا متكرِّرا.

[صرف] وهو فعل بشــدِّ العين، أبدلت الباء الثانية من كبَّب بشــدِّ الباء الأولى من جنس الفاء، وقال جمهور البصريِّين: هو من كبَّ بباء مشدَّدة فزيد كاف كالكاف الأولــى، فوزنه «فَعْفَلَة»، وعلى كلِّ حال فــي حروف «كُبْكِبُوا» تكرير لفظيٌّ مناسب لِمَا في معناه من التكرير وهو الكبُّ مرَّة بعد أخرى حتَّى يصلوا قعر النار.

﴿**فِيهَا**﴾ أي في الجحيم ﴿**هُمْ**﴾ أي الأصنام التــي عبدوها ﴿**وَالْغَاوُونَ**﴾ هــؤلاء العابدون لهــا، ذكرهم بالاســم الظاهر ليصــرِّح بغوايتهــم الموجبة للكبكبة، وقيل: إنَّ الواو و«هُمْ» لعبَّاد الأصنام المذكورين المســمَّين الغاوين قبل هذا. والغاوون المذكــورون هنا: المضلُّون لهؤلاء بالأمر بالإشــراك بالله وعبادة الأصنام.

ويبحث بأنَّ هذا غير متبادر بل المتبادر أنَّ الغاوين المذكورين أوَّلا عامٌّ، ذكروا مــرَّة ثانية بلفــظ الغاوين، وقيــل: الــواو و«هُمْ» لمشــركي العرب، و«الغَاوُونَ» بعدُ سائر المشركين، وهو بعيد لا دليل عليه، مع أنَّه لا يصحُّ على جعل الكلام من إبراهيم عليه السلام، وقيل: الضميران لمشركي الإنس، و«الْغَاوُونَ» للشياطين لأنَّهم يغوون الإنس، والأوَّل أولى.

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ الشياطين عطف على الواو، ولا دليل على أنَّه عطف على «الْغَاوُونَ» وأنَّهم والجنود قوم واحد، من باب تعاطف الصفات لموصوف واحد، على معنى: الجامعين بين كونهم غاوين وكونهم جنود إبليس، ولو كان معنى صحيحا. ﴿أَجْمَعُونَ﴾ توكيد للواو و«الْغَاوُونَ» و«جُنُودُ».

﴿قَالُواْ﴾ مستأنف، والواو للغاوين والجنود وما عاد إليه الواو، والخصام بين الثلاثة، أو الواو للغاوين على أنَّهم يخاصمون الأصنام والشياطين ﴿وَهُم﴾ عائد إلى ما عاد إليه واو «قَالُوا» ﴿فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ يقال: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُومِنِينَ﴾ [سورة سبأ: 31] ويقال: ما قهرناكم، ويقال: ما عبدتمونا.

قائلين: ﴿تَاللهِ إِن كُنَّا﴾ إنَّنا كنَّا، أو إنَّ الشأن ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ اللام فارقة[1]، أو ما كُنَّا إلَّا في ضلال مبين ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في إيقاع العبادة لكم وله، ولو تفاوت الكمُّ بأن عبدناه أكثر، أو عبدناكم أكثر، ومن لم يعبد الله أراد بالتسوية اعتقاد العبادة للأصنام، كما تعتقد لله ﷻ، فذلك تسوية وليس في ذلك جمع بين معنيين، أو بين الحقيقة والمجاز. و«إِذْ» ظرف لقوله: ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ أو لمتعلَّقه، أو لـ«مُبِينٍ»، أو تعليليَّة على أنَّها حرف، والصحيح أنَّ التعليل مأخوذ من مدخولها مع متعلَّقها، وأنَّها ظرف. والمضارع لاستحضار ما مضى.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ لا يشكل [أي لا إشكال] ولو أريد فيما قبله الثلاثة، لأنَّهم أضلَّهم مجرمون آخرون، وذكر بعضٌ أنَّ المجرمين الرؤساء ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ [سورة الأحزاب: 67]، وذكر بعضٌ أنَّهم الشياطين، وبعضٌ أنَّهم الأوَّلون الذين اقتدوا بهم، وهو قول السدِّي، وقيل:

(1) أي بين أن تكون في الجملة للقسم أو للتأكيد، وهي هنا للتأكيد.

من دعاهم إلى عبادة الأصنام من الجنِّ والإنـس، وقيل: إبليس وقابيل الذي هو أوَّل قاتل، وأوَّل من سنَّ المعاصي من بني آدم.

[بلاغة] والحصر بالنسبة إلى الأصنام لأَنَّهَا لا قدرة لها عَلَى الإضلال، فهو إضافيٌّ، ويجوز أن يكون حقيقيًّا، باعتبار أَنَّهُم الأوحديُّون في سَبَبِيَّة الإضلال، حتَّى إنَّ إضلال غيرهم كلا إضلال، وهذا واضح في الشياطين لأنَّ إضلال غيرهم بواسطة إضلالهم، لأنَّهم يزيِّنون الباطل للمتبوع والتابع.

﴿**فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ**﴾ يشفع لهم مِمَّا هم فيه ﴿**وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**﴾ شفيق يهمُّه ذلك، والصديق الخالص هو الذي يهمُّه ما يهمُّك، ولا تصادق في الآخرة إلَّا لمؤمنين، وأمَّا الكُفَّار فبينهم معاداة: ﴿الَاخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [سورة الزخرف: 67].

وجمع الشافع لكثرته وأفرد الصديق لقلَّته. سئل حكيم عن الصديق فقال: اسم لا معنى له، ولأنَّ الصديق الصادق كجماعات، قال ابن دريد:

النـاس ألـف منهـم كواحـد   وواحـد كالأَلْـفِ إن أمـر عنا

وقد يطلق الصديق على الجماعة فيكون كشافعين. ومعنى نفي الجمع المنكَّر نفي جماعات منه، وقد تخرج عن ذلك إلى نفي الأفراد إن لم تدخل «مِنْ» كما دخلت هنا، ويجوز أن يراد ﴿مَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والأنبياء، ومؤمنين يشفعون لمؤمنين، ﴿وَلَا صَدِيقٍ﴾ كما نرى المؤمنين أصدقاء الآن كالدنيا.

وعن الحسن: استكثروا الأصدقاء المؤمنين، فإنَّ لهم شفاعة يوم القيامة، أو ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ﴾ من الذين نعدُّهم شفعاء وأصدقاء من الأصنام والجنِّ والإنس، أو أرادوا نفي الشفاعة ونفع الصداقة، كأنَّ الشفيع والصديق ـ وفي نفس الأمر ـ لم يكونا لهم.

[أصول الدين] ومعنـى قول [صاحب] الكشَّـاف: ويخلِّصوننـا من النار، يخلِّصوننا من دخولها، لأنَّ المعتزلة لا يرون خروج الفاسق منها، وكذا أصحابنا.

﴿**فَلَوَ اَنَّ لَنَا كَرَّةً**﴾ «لَوْ» للتمنِّي، والتقدير: لو ثبت ثبوت كرَّة لنا، أي رجعة إلى الدنيا ﴿**فَنَكُونَ مِنَ الْمُومِنِينَ**﴾ بالنصب في جـواب التمنِّي، ويجوز أن تكون شرطيَّة، فالنصب لعطف المصدر المؤوَّل على اسم خالص، هو «كَرَّةً»، ويقدَّر جواب الشـرط: لفعلنا ما أمرنا به وتركنا ما نهينا عنه، **وهو ضعيف لأنَّ جواب الشرط يغني عنه** قوله: ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُومِنِينَ﴾ في المعنى، نعم يجوز على تقدير: لخلصنا من العذاب، أو لكان لنا شفعاء، وذلك أنَّهم فرضوا الكرَّة والكون من المؤمنين فلا يردُّ أنَّه لا يلزم من ثبوت الكرَّة تحصيل الإيمان.

﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ لا يذلُّ ولا يعجز، ولا يبخل.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿105﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿106﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿107﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿108﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿109﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿110﴾ قَالُوا أَنُومِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿111﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿112﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿113﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُومِنِينَ ﴿114﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿115﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿116﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿117﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُومِنِينَ ﴿118﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿119﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿120﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُومِنِينَ ﴿121﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿122﴾﴾

القصَّة الثالثة:
قصَّة نوح عليه السلام مع قومه

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ تأنيث «قَوْم» أصالة، بدليل تصغيره على قويمة بالتاء.

[صرف] وكلُّ اسم جمع لا مفرد له يذكَّر ويؤنَّث، ولا يصغَّر منها بالتاء إلَّا ما سمع، وقيل: تأنيثه بتأويل جماعة أو أمَّة أو نحو ذلك، وأصله التذكير.

و﴿الْمُرْسَلِينَ﴾: من تقدَّم، كآدم وشيت وإدريس ونوح، مقارنا لهم، ومن تأخَّر ولو لم يعلموا بهم، لأنَّهم أنكروا الرسالة هكذا، وهذا على أنَّ قبل نوح رسلا، وأيضا تكذيب واحد ـ ولو خصُّوه ـ تكذيب للكلِّ لأنَّهم كلَّهم

على التوحيد وأصول الشرائع، وكلٌّ واحد يؤمن بالآخر ويدعو إلى الإيمان به، أو المرسلون: نوح اعتبارا للجنس، تقول: زيد يشتري النخل ولو اشترى نخلة واحدة، أي دخل في اشتراء هذا الجنس، وتقول: فلان يلبس البرود ويركب الدوابَّ، وما له إلَّا برد واحد ودابَّة واحدة. وزعم بعض أنَّ نوحا ولد في زمان آدم عليه السلام.

﴿**إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ**﴾ الهاء للقوم، وأجيزت للمرسلين لأنَّ نوحا أخو غيره من المرسلين في الدين ﴿**أَلَا تَتَّقُونَ**﴾ عقاب الله على عبادة غيره ﴿**إِنِّي لَكُمْ**﴾ اللام للنفع متعلِّق بمحذوف حال من قوله: ﴿**رَسُولٌ**﴾ من الله عز وجل، أو بمعنى إلى، والأوَّل أولى لبقائه على الأصل، وللإغراء إلى الإيمان بالنفع ﴿**اَمِينٌ**﴾ عند الله، ولذلك أرسلني، وعندكم إذ لم تجرِّبوا عليَّ خيانة على طول مقامي معكم أربعين سنة ويزيد بعد.

﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ قدَّم التقوى لأنَّها سبب لطاعة نوح ﴿**وَأَطِيعُونِ**﴾ فيما آمركم به من التوحيد وغيره، من سائر طاعة الله ﴿**وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ**﴾ على تبليغ ما أرسلت به إليكم، وهو نصح لكم ﴿**مِنَ اَجْرٍ**﴾ مال ولا جاه ولا شرف أو ملك ﴿**إِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ يأجرني في الدنيا والآخرة تفضُّلا منه، لا استحقاقا.

﴿**فَاتَّقُواْ اللَّهَ**﴾ في ظنِّكم أو جزمكم أنِّي أريد منكم الأجر ﴿**وَأَطِيعُونِ**﴾ في تصديقي أنِّي ما أريده إلَّا من الله، كرَّره ليثبت في قلوبهم، ولتعلُّق كلٍّ بعلَّة، فعلَّة الأوَّل كونه أمينا في كلامه، وعلَّة الثاني حسم طمعه منهم.

﴿**قَالُواْ أَنُومِنُ لَكَ**﴾ بك أو لأجلك، أو أنخضع لك بالإيمان ﴿**وَاتَّبَعَكَ الَارْذَلُونَ**﴾ حال، أي وقد اتَّبَعَك على دينك الضعفاء والفقراء، ومن لا جاه له، ومن ركَّ نسبه، أو صنعته كالحاكة والأساكفة، هذا كلامهم، بل له أتباع من هؤلاء وغيرهم، ولكن لعنهم الله استرذلوا الإيمان وبهتوهم بسوء الأعمال، ويدلُّ لهذا ما أجابهم نوح به في قوله:

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي﴾ «مَا» استفهاميَّة ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ إنَّما عليَّ الظواهر والله يتولَّى السرائر، أو نافية، أي وما علمي بما كانوا يعملون ثابتا، وعلى سائر الوجوه، يكون معنى جوابه: الإعراض عن جوابهم في ما قالوا، والتنبيه لهم بأنَّ العبرة بالأعمال، وأن لا خبرة لي بحقيقتها، وإنَّما هي عند الله ﷻ: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ ثابت على ربِّي عندكم، لو شعرتم، أو لو تشعرون لعلمتم ذلك، واسترذالهم المؤمنين يستدعي طلب طردهم، واعتقاد أنَّه أهل لأن يطردهم، فكأنَّهم طلبوه، فأجاب بقوله:

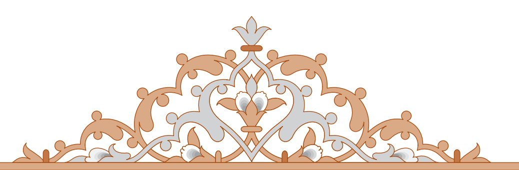
﴿وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الْمُومِنِينَ﴾ أو ظنَّ أنَّهم يريدون طردهم فأجاب، وقيل: صرَّحوا له بالطلب فأجاب كما طلبت قريش، فنزل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الذِينَ...﴾ [سورة الأنعام: 52]، أو لا أطردهم استرضاء لكم ﴿إِنَ اَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ زاجر للمكلَّفين عمَّا لا يرضى الله، أراذل أو أشرافا ﴿مُّبِينٌ﴾ أبيّن لكم دين الله ﷻ، لا أتجاوز إلى استرضائكم بما حرم عليَّ من طرد الأرذل فإنَّ طرده مناف لما أمرت به من الجلب إلى الدين، وتفسير المبين بالواضح هنا مرجوح.

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَانُوحُ﴾ عن دعائنا إلى دينك ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ بالحجارة حتَّى يموتوا، ويضعف التفسير بالمشتومين، لأنَّه ما خلا من شتمهم من أوَّل تبليغه، ولا سيما أنَّه قيل: قالوا هذا في أواخر الأمر، وأمَّا قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ فمعناه: استمرُّوا على تكذيبهم في الأزمنة المتطاولة، ولا أرجوا إيمانهم وهذا شكوى إلى الله بما هو عالم به، وتضرُّع إليه أن يهلكهم، وهذا أنسب بأواخر أمرهم، ألا ترى قوله: ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ احكم حكما ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الَارْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [سورة نوح: 26] ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُومِنِينَ﴾ مِمَّا يصيبهم من الهلاك، وله شعور بأن ينزل عليهم عذاب.

﴿فَأَنجَيْنَـاهُ وَمَن مَّعَهُ﴾ مـن الغرق كما دعـا ﴿فِي الْفُلْـكِ﴾ هو في الفواصل مفرد وفي غيرها جمع، كما يظهر لمن تدبَّر القرآن ﴿الْمَشْحُونِ﴾ المملوء بنوح والمؤمنين، وما يحتاجون إليه من الطعام والشـراب، وأَفراد الحيوانـات لِئَلَّا تنقطع ﴿ثُـمَّ﴾ للترتيب الذكري، أو لعظـم نجاتهم على إغراقهـم ﴿أَغْرَقْنَـا بَعْدُ﴾ بعـد إثباتهم فـي الفلك لينجوا وقـد أنجاهم ﴿الْبَاقِينَ﴾ من قومه وهم كفَّار قومه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الإنجـاء والإغراق ﴿لَأَيَةً﴾ دلالة على قدرة الله ﷻ وعلى صدق الرسـل ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ﴾ بل مؤمنوهم قليل، قيل: ثمانون ﴿وَإِنَّ رَبَّـكَ لَهُوَ الْعَزِيـزُ الرَّحِيمُ﴾ ويل لمن لـم يتَّعظ بتكرير الآيات مع أنَّها كرِّرت للتأكيد في الوعظ، وفي الإعلام هنا بأنَّ الأنبياء متَّفقون في أصول الدين.



﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿123﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿124﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿125﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿126﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿127﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿128﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿129﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿130﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿131﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿132﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿133﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿134﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿135﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿136﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿137﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿138﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿139﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿140﴾﴾

القصَّة الرابعة:
قصَّة هود عليه السلام مع قومه

﴿**كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ**﴾ قبيلة سمِّيت باسم أبيها ومثل هذا كثير في القبيلة العظيمة ﴿**إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ مثل ما مرَّ، وكانت منازل عاد بين عُمان وحضرموت أخصب بلاد الله وأعمرها، وجعلها الله بعد إهلاكهم مفازات ورمالا.

﴿**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ**﴾ مكان مرتفع، جبل أو أرض، كما يروى عن ابن عبَّاس، وريع النبات ارتفاعه بالنموِّ، وهذا أولى من أنَّه طريق بين جبلين كما هو رواية أخرى عنه، ومن أنَّه الطريق مطلقا، ومن أنَّه عين الماء ﴿**ءايَةً**﴾ عَلَمًا دالًّا على الطرق مع أنَّه لا يحتاجون إليها بل بنوا للفخر، وإن احتاجوا فقد

زادوا على الحاجة، أو بنوا ليشرفوا على من يمرُّ من غيرهم من سائر الناس الصغار الأجسام، ليسخروا بهم، أو بروج الحمام، أو بيت العشَّار ليأخذ العشر من أموال المارِّين.

قلت: ولا يتبادر مع هذا العبث المذكور. أو قصرا مشيدا كذلك كأنَّه علم أي جبل ﴿**تَعْبَثُونَ**﴾ ببنائها. والجملة حال.

﴿**وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ**﴾ مجاري ماء تحت الأرض، أو برك ماء، أو قصورا مشيَّدة، أو محكمة، وهو أولى ﴿**لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ**﴾ قال البخاري: «لَعَلَّ» للتشبيه، كما قال ابن عبَّاس: كأنَّكم خالدون، وكما قال قتادة: إنَّ بعضا قرأ: «كأنَّكم خالدون»، وسواء أكان تلاوة قرآن أم تفسيرا. وقيل: للتعليل كما قرأ عبد الله: «كي تخلدوا» قراءة تلاوة أو تفسير، أو للاستفهام التوبيخي، ولا تقل: هي على الأصل بمعنى: راجين الخلود، أو عاملين عمل من يرجوه، لأنَّ الإنشاء لا يكون حالا.

﴿**وَإِذَا بَطَشْتُم**﴾ ضربتم بعصا أو سوط أو سيف أو غير ذلك ﴿**بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ**﴾ إذا أردتم البطش بطشتم جبارين، أو إذا بطشتم وُجِدَ أَنكم بطشتم جَبَّارين، أو تبيَّن أنَّكم بطشتم جَبَّارين أي بلا رأفة ونظر في العواقب، لاستيلاء حبِّ الدنيا والكبر على قلوبكم.

﴿**فَاتَّقُواْ اللّهَ**﴾ بترك البناء في كلِّ ريع عبثا، واتِّخاذ المصانع وبطش الجَبَّارين ﴿**وَأَطِيعُونِ**﴾ في التوحيد والأحكام الشَّرعِيَّة، فإنَّ ذلك مصلحة لكم، ﴿**وَاتَّقُواْ الذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ**﴾ من النعم.

﴿**أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ**﴾ بدل بعض من الجملة قبلها، وهي «أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ» على جواز الإبدال في الجمل. المدُّ: الإعطاء على تتابع. ووجه الإبدال عظم شأن البدل وهو: الأنعام والبنون والجنَّات والعيون كما قال:

﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ويجوز أن يراد بـ«مَا تَعْلَمُــونَ» الأنعام والبنون والجنَّات والعيون، فيكون البدل بدل شــيء من شــيء. وقدَّم الأنعام لأنَّها تحصل بها القُوَّة والرئاسة على العدوّ، وهي أحبُّ الأموال إلى العرب، وهم عرب، وإنَّما تحصل اللذَّة بالبنين معهــا، وذكر البنين بعدها لأنَّهــم معينوهم على حفظها والقيام بها فلذلك قرنا كما قــرن الجَنَّات والعيــون، لأنَّ الجنَّة تصلح بالماء وهي أصل، والماء من أجلها تبع لها، ولو كانت تبدأ به ولا توجد إلَّا به لكن المقصود بالذات هي.

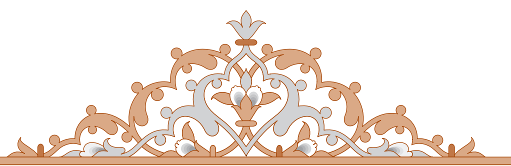
﴿إِنِّيَ أَخَــافُ عَلَيْكُــمْ﴾ من عدم تقواكم وعدم شــكركم ﴿عَــذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، فــإنَّ **المعصية وكفر النعم مســتلزم لزوال النعم، وللإهلاك**، كما أنَّ شــكرها مســتتبع للســلامة وزيادة النعم ﴿لَئِن شَــكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [سورة إبراهيم: 07].

﴿قَالُواْ سَــوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّــنَ الْوَاعِظِينَ﴾ لا نترك ما تنهانا عنه، ولا نفعل مــا تأمرنا به، ولم يقل أم لم تعظ، للفاصلــة مع اعتبار مراعاة معناها قبل، أي ســواء علينا أوعظت وكنت مِمَّن وعظ وبالغ في الوعظ أم لم تكن من الواعظين، أي من جنســهم البالغين، وقيل: «لَمْ تَكُن» للاســتمرار، وليس بشيء، لأنَّه للماضي. وحاصله: تركت الوعظ البتَّة أو كنت دون المبالغ فيه، وهذا الانقطاع ليس نفس استمرار.

﴿إِنْ هَذَآ إِلَّا خُلُقُ الاَوَّلِينَ﴾ ما هذا الذي جئتنا به إلَّا خلق الأوَّلين وليس من الله، فلا نتَّبعك فيه؛ أو مــا هذا الذي نحن عليه من الديــن إلَّا خلق آبائنا الأوَّلين فلا نتركه، وليس شــيئا أحدثناه؛ أو ما هذا الــذي نحن عليه من حياة وموت إلَّا عادة الأوَّلين فلا تخوِّفنا بالإهلاك فإنَّه لا بدَّ من الموت ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ علــى ما نحن عليه من أعمالنا واعتقادنــا بالموت ولا بغيره، ولا نبعث فنعذَّب.

﴿**فَكَذَّبُوهُ**﴾ أصرُّوا على تكذيبه ﴿**فَأَهْلَكْنَاهُم**﴾، ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [سورة الحاقَّة: 6 ـ 7]، ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ**﴾ وآمن قليل منهم ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ لم يزل الله بعد إيجاده الخلق يتحبَّب إليه بالإنعام وإزالة الأسواء أو نفيها من أوَّل، وهم لا يشكرون ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سورة سبأ: 13].





﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۝١٤١ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٤٢ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٤٣ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٤٤ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٤٥ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۝١٤٦ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝١٤٨ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ۝١٤٩ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝١٥٢ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝١٥٤ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۝١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥٦ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ۝١٥٧ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝١٥٩﴾

القصَّة الخامسة:

قصَّة صالح عليه السلام مع قومه

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ قبيلة سمِّيت باسم أبيها، اسم عربيٌّ لم يصرَّف للعلميَّة وتأنيث القبيلة، لا عجميٌّ، كما قال بعض، والثَّمد في لغة العرب: قلَّة الماء بلا مادَّة، أو ما يبقى في الجليد، أو ما يظهر شتاء ويفقد صيفا.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ اَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ اَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ اَجْرٍ إِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ وبَّخهم على فعلهم وأنكر عليهم أن يتركهم

الله في النعم التــي هاهنا، أي في منازلهم آمنين مــن عدوٍّ وعذاب من الله كما يحبُّون ويظنُّون.

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُــونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْــلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ الطلــع: الثمار مع العيدان في داخل الكُفُرَّى الأخضر على صورة أذن الحمار.

[نحو] «فِي جَنَّاتٍ» بدل بعض من قوله: ﴿فِيمَا هَاهُنَا﴾ إن أريد بما هاهنا أعمُّ من الجنَّات وما بعدها، والرابط محذوف أي منه، وبدل شــيء من شيء إن أريد به عينه، وهذا أولى من تعليق «فِــي» بـ«ءَامِنِينَ». والهضيم: المنضمُّ بعضه إلى بعض كأنَّه شدخ، أو اللطيف، أوَّل ما يخرج، أو رطبه بلا نوى، أو المتدلِّي لكثــرة ثمره، أو **النضيج من الرطب**، أو الذي بعض التمرة منه بسـر وبعضها الآخر رطب، وما كان من ذلك على استقبال [أي في المستقبل] فمن مجاز الأَوْل.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ ناشــطين، أو ناشــطين مهتمِّين، أو حاذقين، أو بطريــن، وهو الصحيــح، أو أقويــاء. والجملة انســحب عليها الاستفهام السابق، كما انسحب على «تُتْرَكُونَ».

﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُواْ أَمْرَ الْمُسْــرِفِينَ﴾ في الأقوال والأفعال والأموال، لا تطيعوا يا كُفَّار قومي الأتباع كفَّاركم الرؤســاء تســعة رهط. وإسناد الإطاعة إلى الأمر مجاز عقليٌّ، والحقيقة الإسناد إلى الآمرين، قيل: ذلك مبالغة، ووجهها أنَّ المراد بالذات الأمر لا الذي يأمر، ألا ترى أنَّه إذا قيل: لا تطع الذي يأمرك، رجع المعنى إلى قولك: لا تتَّبع أمره، وكون هذا مبالغةً ضعيفٌ.

[بلاغة] أو قولــه: ﴿لَا تُطِيعُواْ﴾ مســتعار لقوله لا تمتثلــوا، وذلك أنَّ الإذعــان بالطاعة شــبيه بالامتثال، فالطاعة مثــلا قولك: نعم أنــا أفعل كذا،

والامتثال فعله، أو مجاز مرسل علاقته اللزوم البياني، فإنَّ الامتثال مترتِّب على قولك: نعم أنا أفعل، أو شبَّه أمرهم بسلطان ورمز إليه بإثبات ذكر الطاعة، وهذا الإثبات استعارة تخييليَّة.

﴿**الذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الَارْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ**﴾ فهم ضالُّون مضلُّون بالمعاصي والشرك، وشؤمهم غير مقصور عليهم، بل ضرُّوا غيرهم بالظلم وما يترتَّب من عذاب الدنيا كالقحط والأمراض. والأرض: أرض ثمود، أو مطلق الأرض، وذلك إفساد محض لا يخالطه إصلاح، كما قال: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

﴿**قَالُواْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ**﴾ المسحورين سحرا عظيما غلب على عقولهم، فكانوا يدَّعون ما لا يصحُّ وما ليس لهم، أو مِمَّن جعل لهم سحر وهو الرئة، فهو يأكل ولست مَلَكًا لا يأكل، والرسول لا يكون إلَّا ملكا، وعلى هذا فقوله: ﴿**مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا**﴾ تأكيد.

﴿**فَاتِ بِـَٔايَةٍ**﴾ على صحَّة رسالتك ﴿**إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ في أقوالهم، فيكون ادِّعاؤك صادقا، ولا تقل: إنَّك من الصادقين في دعوى الرسالة لأنَّهم نافون لرسالة البشر مطلقا لا عن صالح فقط.

﴿**قَالَ**﴾ بعدما اقترحوا عليه ناقة عشراء تخرج من صخرة عيَّنوها ثمَّ تلد سقبا، وبعد أن قعد يتفكَّر فقال له جبريل عليه السلام: صلِّ ركعتين وسل ربَّك، ففعل، فكان ما طلبوا، بركت بين أيديهم فولدت، فقال: ﴿**هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ**﴾ نصيب من الماء تشربه، والماء عندهم قليل ينبع من عين لهم، وقيل: فجَّرها الله لصالح، وقيل: هي أوَّل عين فجَّرها الله تعالى في الأرض ﴿**وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ**﴾ اكتفوا به ولا تزاحموها في شربها. والآية دليل على جواز قسمة ماء العين والبئر على ذلك إذ لم يرد في هذه الأمَّة ما يمنعه.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ كضرب وقتل ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وصف اليوم بالعظم لعظم ما فيه من العذاب، وهو أبلغ من وصف العذاب به، وذلك تجوُّز في الإسناد فلا حاجة إلى أنَّه وصف للعذاب، وجرَّ للجوار.

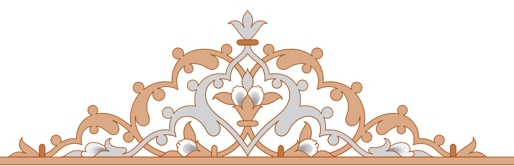
[قصص] ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ قتلوها، قيل: قتلها قدار بن سالف، وكان نسَّاجا ألجأها مسطع إلى مضيق في شعب فرماها بسهم فأصاب رجلها فسقطت، فضربها قدار، وأسند العقر إليهم لرضاهم به، أو بأمرهم وإعانتهم، ويقال: ما عقرها حتَّى أخذ الإذن من جميعهم واحدا واحدا حتَّى الصبي والمرأة في خدرها يدخلون عليها.

﴿فَأَصْبَحُواْ نَادِمِينَ﴾ خوفا من العذاب، كذا قيل، ويبحث بأنَّهم قالوا بعد العقر: ﴿يَا صَالِحُ ايتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [سورة الأعراف: 77]، ويجاب بعدم تسليم البعديَّة، لأنَّ الواو لا ترتِّب فلعلَّهم قالوا قبل مجيء الناقة، أو هي واو الحال أي والحال أنَّهم طلبوها من صالح. أو الندم من بعض والقول من بعض، وأسند ما قال بعض إلى الكلِّ لرضاهم، أو لاتِّحاد القصد، أو ندموا خوفا ثمَّ قسوا، أو بالعكس.

أو ندموا ندم توبة بحيث لا ينفع لمعاينة العذاب، ويبحث بأنَّهم ندموا قبل معاينته، واللائق أن يقال: ندموا لأنَّ لهم علما من صالح وصدقه أنَّ من لم يؤمن بعد إعطاء ما اقترح هلك، وإن رأوا أمارة العذاب فكأنَّهم رأوه، ويبعد القول بأنَّهم ندموا على ترك سقبها بناء على رواية أنَّه لم يقتلوه، وأنَّه هرب وصاح، و[كذلك] القول بالندم على لبنها إذ كان يكفيهم لبنها يوم تشرب.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ صيحة مع ضرب بحجارة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.





﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (164) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (171) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (173) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175)﴾

القصة السادسة:

قصة لوط عليه السلام مع قومه

﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ**﴾ من أصهارهم ﴿**أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ اَجْرٍ إِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَاتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ**﴾ الناس تطؤونهم حال كونهم من أيِّ قوم كانوا منهم ومن غيرهم، ومن حضر ومن سافر إليهم، أو لقوه.

ذمَّهم باللواط، وذمَّهم بكثرته والرغبة فيه. أو «مِنَ الْعَالَمِينَ» راجع إلى قوله: ﴿أَتَاتُونَ﴾ أي ممتازين بين سائر الناس بهذه الفاحشة، ولا يرد الخنزير والحمار إذ يأتيان ذكورهما، لأنَّ العالمين مراد به الناس، والذكران ذكران الناس وهم أوَّل من سنَّ هذه الفاحشة كما قال: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنَ اَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: 80].

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ تتمتَّعون به، أو يقدَّر: ما خلق لتمتُّعكم، أو يقدَّر إتيان فروج ما خلق لكم ربُّكم، لكن هـذا لا يغني عن اعتبار التمتُّع في «لَكُمْ» كما قدَّرت ﴿مِّنَ اَزْوَاجِكُم﴾ «مِنْ» للبيان فهنَّ المراد بـ«مَا»، أو للتبعيض على أنَّ «مَا» للفروج فيقدَّر مضاف، أي إتيان ما خلق.

[فقه] وفي التبعيض تحريم للدبر من النساء لأنَّه لـم يخلقه الله لذلك، وإتيانه حرام كبيرة، ويضعف أن يراد بالآية الإعراض عن نسائهم البتَّة فضلا عن إتيانهنَّ، فلا يقدَّر مضاف، و«مِنْ» للبيان.

﴿بَلَ﴾ للإضراب الانتقالي ﴿اَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ بالغتم في جميع المعاصي، ومنها اللواط، أو في حبِّ الوطء حتَّى زدتم على الناس وأكثر الحيوانات، أو في الظلم لأزواجكم بتركهنَّ اكتفاء بالذكران.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَالُوطُ﴾ عن دعوى الرسالة والنهي عن ديننا وعن اللواط ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ من قريتنا، وكانوا ينفون من غضبوا عليه عادة لهم، كما قال: ﴿مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ تأكيدا، إذ لم يقولوا: لنخرجنَّك.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم﴾ يعني بإتيان الذكران وترك النساء، أو مع سائر معاصيهم، متعلِّق بـ«قَالِينَ» محذوف دلَّ عليه قوله: ﴿مِنَ الْقَالِينَ﴾ أي قَالٍ لعملكم، بالإفراد، أو من القالين لعملكم لا بالمذكور، لأنَّ «ال» موصول.

[نحو] ومعمول الصلة لا يتقدَّم على الموصول، إلَّا أن يقال: يتوسَّع في الظروف ما لا يتوسَّع في غيرها. ويقال أيضا: الفواصل والسجع كالنظم، وسواء قلنا بتعلُّق لام التقوية أم لا. ومَن نفى موصوليَّة «ال» فلا إشكال عليه.

[لغة] والقالي: المبغض مِن قلاه يقلوه: رماه، من قلت الناقة راكبها: رمته، وقلوت القلَّة: رميتها، والقلب لا يقبل عملهم بل يقذفه. أو من قليت السويق أو اللحم على المقلاة أقليه، كأنَّ شدَّة بغضه لعملهم يقلي القلب.

[بلاغة] ولم يقل: إنِّي لعملكم قالٍ، للفاصلة والمبالغة بأنَّ لعملهم مبغضين وهو منهم، فهو راسخ القدم في بغضهم.

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من عقاب ما يعملون، أو من عقاب عملهم في الدنيا، وهو ولو علم أنَّه لا يصيب إلَّا أهله يدعو بالنجاة، ولا سيما أنَّه قد ينسى، وعذاب الدنيا قد يصيب غير العامل ﴿واتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الذِينَ ظَلَمُوا مِنكُم خَآصَّةً﴾ [سورة الأنفال: 25]، ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الَاصْنَامَ﴾ [سورة إبراهيم: 35] وقد علم أنَّه لا يعبد الأصنام.

أو طلب النجاة من نفس عملهم باعتبار المجموع، وهو لوط وأهله وإبراهيم وبنوه في الآية الأخرى، لإمكان تلبُّس أهله بعملهم وبني إبراهيم بعبادة الأصنام، دعا قبل أن يعلم نبوءتهم فدعوا ولو علم أنَّه لا يصيبهم العذاب، ولا إبراهيم عبادة الأصنام، إلَّا أنَّ الواضح طلب النجاة من العذاب لاستثناء العجوز فإنَّه مستثناة من النجاة لقوله:

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ أهل بيته المؤمنين، وقيل: كلُّ من آمن به سمَّاهم من الأهل، على أنَّ المراد بالأهلية التناسب في الدين، وقيل: لم يؤمن إلَّا أهل بيته.

﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ زوجه إذ خانته بإضمار الشرك، وإعانة قومها، وذكرها بلفظ عجوز تلويحا بأنَّها عاشت في الكفر حتَّى كبرت ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ في الباقين في العذاب بعد مضيٍّ من مضى سالما منه، وهم لوط ومن آمن به، وذلك أنَّها لم تبق في البلد بل خرجت مع لوط، فأصابها حجر، أو كأنَّها من الباقين فيه لأنَّه أصابها ما أصابهم.

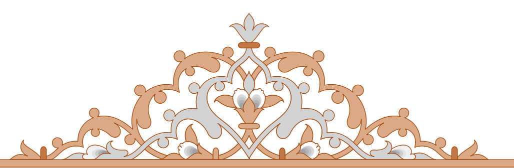
وروي في بعض الأخبار أنَّها خرجت ورجعت، وروي أنَّها لم تخرج، وفي هذه الروايات والتأويل[1] المراد الباقون في البلد والعذاب، وقيل: الغابر

(1) كذا في النسخ ولم يظهر لنا وجه المقصود.

طويل العمر ﴿**ثُمَّ دَمَّرْنَا الَاخَرِينَ**﴾ هم المهلكون الباقون دمَّرهم ببلع الأرض بعد التنجية بمدَّة، أو «ثُمَّ» للترتيب الرتبي.

﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا**﴾ نوعا من المطر، أو إمطارا غير معهود، لأنَّه بالحجارة كما قال الله ﷻ: ﴿**جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ**﴾ [سورة هود: 82]. رجموا فبلعتهم الأرض، أو بالعكس، خرقت الحجارة إليهم الأرض، أو بمرَّة، أو البلع لطائفة والرجم لأخرى خارجة عن البلد مسافرين وهم القليل، كما قال قتادة.

﴿**فَسَآءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ**﴾ المذكورين قوم لوط والمخصوص بالذمِّ محذوف، أي مطرهم، أو الجنس فيدخلون أوَّلا وبالذات ﴿**إِنَّ فِي ذَالِكَ**﴾ المذكور ﴿**لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ**﴾ بل القليل ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ ذكر الله ﷻ الرحمة في الأقوام المذكورين في السورة إيذانا بأنَّه وسعتهم رحمته بالبيان والإمهال، وما أوتوا إلَّا من اختيارهم السوء وأنَّ الله غالبهم.



﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لَـْٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿176﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿177﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿178﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿179﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿180﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿181﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿182﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿183﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿184﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿185﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿186﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿187﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿188﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿189﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿190﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿191﴾﴾

القصَّة السابعة:
قصَّة شعيب عليه السلام مع قومه

﴿**كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةَ**﴾ بمنع الصرف للعلَميَّة والتأنيث، قيل: والعجمة بوزن «ليلة»، ولو كان مختصرا من الإيكة بكسر، وقيل: ليكة البلدة والأيكة البلاد، وقيل: علم على جنَّة ﴿**الْمُرْسَلِينَ**﴾ كلَّهم بنفي الرسالة عن الإنسان مطلقا، أو بنفيها عن رسولهم شعيب، وكأنَّهم نفوها عن غيره لاتِّحاد الدعوة.

قيل: والأيكة الجنَّة المشتملة على شجر ناعم بساحل البحر قرب مدين، أرسل إليهم شعيب، وقيل: الأيكة الشجر الملتفُّ، فقيل: هو الدوم، وهم المقل، وهم غير أهل مدين، ولذلك قال: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ**﴾ ولم يقل:

«أخوهم»، نزلــوا غيضة بعينها فــي البادية، وعن ابن عبّــاس: هم أهل مدين التجؤوا إلى غيضة إذ ألحَّ عليهم الوهج، وفي الحديث: «**إنَّ شــعيبا أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة**»[1].

﴿**اَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ اَمِينٌ فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ اَجْرٍ إِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَــىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَوْفُواْ الْكَيْلَ**﴾ أتمُّــوه ﴿**وَلَا تَكُونُواْ مِنَ الْمُخْسِــرِينَ**﴾ بالنقص فيه، والأصل: ولا تكونوا مخســرين، فعدل إلى «مِنَ الْمُخْسِرِينَ» بيانا لتقدُّم من يخســر قبلهم قليلا وهم أكثر إخسارا أي لا تستنُّوا بهم، لا للمبالغة، وفي الجملة تأكيد لقوله: ﴿أَوْفُواْ الْكَيْلَ﴾.

﴿**وَزِنُواْ**﴾ ما يوزن ﴿**بِالْقُسْــطَاسِ**﴾ بالميزان العدل، من القســط بمعنى العدل، بضمِّ القاف وكسرها، والجمهور بالضمِّ.

[صرف] ووزنه «فِعلاع» لتكرير العين وحدها مع الفصل باللام، وذلك شاذٌّ والكثير تكريرها مع الفــاء كرعرع، وقيل «فعلال» من قســطس رباعيٌّ له لامان كدحرج، والزائد فيه الألف فقط، وقيل: روميٌّ معرب معناه العدل، والأوَّل أولى.

﴿**الْمُسْتَقِيمِ**﴾ الســويِّ. [قلت:] والآية دالَّة على العدل في الكيل والوزن، ومن شــاء الزيادة من ماله فبعــد العدل، وذلــك أولى من تفســير ﴿زِنُوا﴾ بـ«اعدلوا» في أموركــم مطلقا. ﴿**وَلَا تَبْخَسُــواْ النَّاسَ أَشْــيَآءَهُمْ**﴾ مفعولان لـ«تَبْخَسُ» متعدِّيا لاثنين، وقيل: يتعدَّى لواحد فـ«أَشْــيَاءَ» بدل اشتمال، أي حقٍّ كان، والإضافــة للجنس، ويجوز أن تكون للاســتغراق بالمقابلة للجمع بالجمــع، كلُّ أحد وحقُّه لا ينقص منــه، أو الجمع للأنواع، الشــيء الجليل والحقير، وكانوا يبخسونهما، ومن ذلك القطع من الدراهم والدنانير.

---

(1) أورد **الســيوطي** معناه في الدر المنثور، ج5، ص91. وقال: أخرجه ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمرو.

﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾ لا تفسدوا ﴿فِي الْاَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكِّدة لعاملها. وإن قلنا: العثوُّ أشدُّ الإفساد فمن توكيد الخاصِّ بالعامِّ، لدخوله فيه، وإن قلنا: مفسدين لآخرتكم فمؤسِّسة. ﴿وَاتَّقُوا الذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ﴾ الأمم السابقة ﴿الَاوَّلِينَ﴾ أي ذوي الجبلَّة أي الطبيعة، أو المجبولين على أحوالهم التي بنوا عليها مسالكهم، وعن ابن عبَّاس: إنَّ الجبلَّة إذا كانت عشرة آلاف، واستعمل في أعمَّ، وقيل: الجماعة الكثيرة مطلقا، وعلى هذين القولين شُبِّهوا بالقطعة من الجبل.

وقوله: ﴿قَالُواْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ جواب لمن يقول: فماذا قالوا؟ وهنا: ﴿ومَآ أَنتَ﴾ بالواو لقصد أنَّ كلَّ واحد من البَشَرِيَّة والتسحير مناف للرسالة، مبالغة في التكذيب، وهنالك [أي في قصَّة صالح، الشعراء: آية154] بلا واو لأنَّهم قصدوا أنَّ التسحير مناف لها، وقرَّروا ذلك بكونه بشرا مثلهم، أو الكلام هنالك أنَّه بشر مثلهم لم يمتز بموجب فضيلة فعقَّبوه بـ«آتِ بِآيَةٍ». و«مِثْلُنَا» تمهيد للاشتراك.

وهنا جعلوا كلَّ واحد مستقلًّا بمنافاة الرسالة مبالغة، وإنكار النبوءة أمرا مفروغا، فعقَّبوه بـ«وَإِن نَّظُنُّكَ». أو لأنَّ صالحا قلَّل الخطاب فقلَّلوا الجواب، وأكثر شعيب ـ كما قيل: إنَّه خطيب الأنبياء ـ فأكثروا، أو بالغ شعيب ولم يبالغ صالح.

﴿وَإِن﴾ إنَّنا، أو إنَّه أي الشأن ﴿نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ لم يقولوا: كاذبا للمبالغة برسوخ كذبه كما مرَّ ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ جمع كسفة بمعنى قطعة، كسدرة وسدر، وقيل: مفرد ككسفة ﴿مِنَ السَّمَآءِ﴾ إحدى السماوات السبع، أو السحاب، أو جهة العلوِّ، والأوَّل أولى، متعلِّق بمحذوف نعت لـ«كِسْفًا»، ويضعف تعليقه بـ«أَسْقِطْ» لأنَّ المراد: أسقط بعضها لا شَيْئًا آخر منها، وإن جعل للتبعيض صحَّ تعليقه به، ولا إشكال في تعليقه به إن كانت السماء السحاب. ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لا جواب له لأنَّه أغنى عنه ما قبله.

﴿**قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ من الشرك والمعاصي فيجازيكم، أو أعلم بجزائكم، فعبَّر عنه بسببه أو ملزومه.

﴿**فَكَذَّبُوهُ**﴾ داموا على تكذيبه ﴿**فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ**﴾ سحابة في الصحراء اجتمعوا تحتها هربا من حرٍّ شديد أخذ بأنفاسهم لحقهم إلى بيوتهم، إذ هربوا منه، وَلَمَّا اجتمعوا تحت الظلَّة بنداء بعض بعضا أسقط عليهم قطعة من نار فأحرقتهم، كما طلبوا كسفا بعد سبعة أَيَّام ولياليهنَّ في الحرِّ الشديد، وقيل: إنَّ لهم عذاب يوم آخر وهو عذاب الحرِّ في سبعة أَيَّام، أشار إليه بذكرِ يوم الظلَّة ﴿**إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ في الشدَّة.

﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ قيل: اقتصر على سبع قصص لأنَّ السبعة عدد تام.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿192﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿193﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿194﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿195﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿196﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿197﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿198﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿199﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿200﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿201﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿202﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿203﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿204﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿205﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿206﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿207﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿208﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿209﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿210﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿211﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿212﴾﴾

القرآن الكريم ونزوله

﴿**وَإِنَّهُ**﴾ أي القرآن، أو تقرير لحقِّيَّة تلك القصص، أو ما ذكر من القصص ﴿**لَتَنزِيلُ**﴾ منزَّل ﴿**رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ ففيه إعجاز القرآن ورسالة محمَّد ﷺ، إذ لا يعلم تلك القصص إلَّا بالوحي.

﴿**نَزَلَ بِهِ**﴾ الباء للتعدية، أي أنزله من الله أو نزل معه ﴿**الرُّوحُ**﴾ جبريل لأنَّه تحيى به القلوب في الدين، كحياة الحيوان بالروح، قيل: أو لأنَّه روح كلُّه لا كالناس في أبدانهم روح ﴿**الَامِينُ**﴾ على الوحي إلى من شاء الله لا يقصِّر ولا يغيِّر ﴿**عَلَىٰ قَلْبِكَ**﴾ الذي هو محلُّ العقل ولذا لم يقل: عليك، وقيل: محلُّ العقل الدماغ، ويتوسَّط القلب.

[بلاغة] وفي قولـه: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ تعظيم لـه إذ كان قلبه محلَّ الوحي وسائر الكتب لم تنزل على القلوب بل مكتوبة، والقلب ملك الأعضاء ومحلُّ الفرح والسرور والحزن والغمِّ، والتمييز والعقل، والاختيار وسائر الأعضاء تبع له، قال ﷺ: «**ألا إنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسدت فسد ألا وهي القلب**»[1].

[أصول الدين] والصحيح أنَّ القرآن نزل بألفاظه لا بمعانيه فعبَّر عنها ﷺ بألفاظه، وكذلك كانت في اللوح، وأمَّا سائر الوحي فقد يعبِّر عنه بلفظ الوحي وقد يعبِّر بعبارته.

ولا ينافي الإنزال على قلبه ما رواه أنس: بينما رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذ غفا غفوة ثمَّ رفع رأسه متبسِّما، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: أنزل عليَّ آنفا سورة فقرأ: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرِ اِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الاَبْتَرُ**﴾[2] لأنَّ المراد بالغفوة ما يشبه النوم عند الوحي، [وإن] سلَّمنا أنَّها نوم، لكن قال ﷺ: «**تنام عيناي ولا ينام قلبي**»[3]. والمراد بالإنزال على القلب إفهام القلب، ولو كان بسماع أذنه، أو برؤية بصره، فيحصل له من النظر ما يحصل له من السمع، قاله ابن العربي.

﴿**لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾ بالعذاب على الكفر الراسخين ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾ واضح، أو موضِّح لِمَا لم يعلموا من دين ودنيا، وإخبار بقصص، متعلِّق بـ«نَزَلَ»، ويجوز تعليقه بمحذوف حال من هاء «بِهِ» على أنَّ الباء للمصاحبة.

ويضعف تعليقه بـ«مُنذِرِينَ»، أي مِمَّن أنذر قومه بلسان العرب، وهم هود

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم 52. ورواه **مسلم** في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم 1599. من حديث النعمان بن بشير.

(2) رواه **مسلم** في كتاب الصلاة، باب حجة من قال البسملة آية... رقم 921.

(3) رواه **أبو داود** في كتاب الطهارة. باب الوضوء من النوم، رقم: 202. من حديث ابن عباس.

وصالح وإسماعيل وشعيب وخالد بن سـنان، وحنظلة بن صفوان، لأنَّ غايته أنَّه أنزل ليكون مِمَّن إنذاره لقومه بِالعَرَبِيَّة.

[فقه] وأخطأ من أجاز قراءته بالفارسـيَّة أو غيرهـا من لغات العجم في الصلاة أو غيرها، قدر على العَرَبِيَّة أو لم يقدر عليها، لأنَّا تعبِّدنا بألفاظه، كما تعبِّدنا بمعناه، وغير العَرَبِيَّة لا يفي بما يتضمَّنه من البلاغة وغيرها، ولو فرضنا أنَّه وفَّى لم يجز أيضا.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ**﴾ أي القـرآن ﴿**لَفِي زُبُرِ الاَوَّلِينَ**﴾ كتبهم كالتوراة والإنجيل، فمعناه أنَّ فيها أنَّه سـينزل على محمَّد بِالعَرَبِيَّةِ، وأنَّ بعض معانيه فيها كالتوحيد وخصاله. ويضعف عود الهاء إلى النبيء ﷺ.

﴿**أَوَلَمْ يَكُن**﴾ أغفلوا ولم يكن، وذلك إنكار عليهم ﴿**لَّهُمُۥٓ ءَايَةً اَنْ يَّعْلَمَهُۥ**﴾ في تأويل مصدر اسـم «يَكُنْ»، والهاء للقرآن، ويضعف أنَّها للنبيء ﷺ. ﴿**عُلَمَآءُ بَنِي إِسْرَآئِيلَ**﴾ كعبد الله بن سلام مِمَّن أسلم، ونصَّ على مواضع من التوراة والإنجيل، بـأنَّ فيها ذكره ﷺ وذكـر القـرآن، وَمِمَّن لم يسـلم، ويضعف القـول أنَّ المراد: بـ«عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ» أنبياؤهم، نبَّهوا عليهما، أي على القرآن والنبيء ﷺ.

﴿**وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَـىٰ بَعْضِ الاَعْجَمِينَ**﴾ جمع أعجميٍّ حذفت ياء النسـب تخفيفـا كما قـرأ الحسـن: «الأعجميِّين» بياء النسـب، ومثله: الأشـعرون، والأشعريين بحذفها وإثباتها نسبا إلى الأشعري، قال الكميت:

ولـو جَهَّـزت ضافية شـرودا   لقد دخلـت بيوت الأشـعرينا

[صرف] وقيل: جمع أعجم، فلا حذف بناء على جواز جمع «أفعل» الذي هو صفة مشبَّهة جمع المذكر السالم كأحمر، وهو قول الكوفيِّين، والبصريُّون خصُّوا جمـع «أفعل» ذلك الجمع بما إذا كان اسـم تفضيل لا صفة مشـبَّهة، وكان مقرونا بـ«ال» أو مضافا لمعرفة، وللكوفيِّين قول الشاعر:

.... حلائــل أحمرين وأســـودينا[1]

[لغة] والأعجم هو الذي لا يفصح ولو كان عربيَّ النسب، والعجميُّ: هو الذي نسبته في العجم خلاف العرب، ولو كان أفصح الناس، وقيل: الأعجم: ما لا يعقل من الحيوان، وجــاز فيه ذلك الجمع، لأنَّه وصــف بالتنزيل عليه وبالقراءة في قوله:

﴿**فَقَرَأَهُ**﴾ بِالعَرَبِيَّةِ ﴿**عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِ مُومِنِينَ**﴾ لشدَّة كبرهم وكفرهم، مع أنَّ مجيء البهيمة أو الرجل العجميِّ به في أفصح لفظ وأبلغ معنى ليس من شأنهما. وضمير «قَرَأَ» لبعض الأعجميِّين، والهاء للقرآن في «قَرَأَهُ»، وفي «عَلَيْهِمْ» لِلْكُفَّارِ.

وســئل ابن مســعود وابن مطيع عن بعــض الأعجمين ما هو؟ فأشــارا إلى بعيريهما اللذين ركبا عليهما. أو ضمير «قَرَأَ» للنبيء ﷺ، وهاء «عَلَيْهِمْ» للأعجمين أو بعضهــم، أي ما كان هؤلاء الأعجمــون بهائم أو آدميِّين بــه مؤمنين، فكذلك قومك يا محمَّد هم كهؤلاء الأعجمين أو أضلُّ سبيلا في انتفاء الإيمان به.

أو لو نزَّلناه على بعــض الأعجمين بلغة العجم فقــرأه بالعجميَّة لم يؤمن به قومك، لأنَّهم لا يفهمــون، وقد أنزلنــاه بِالعَرَبِيَّةِ ومع ذلك لــم يؤمنوا به، وهما ضعيفان، والأخير أبعد، لأنَّ المقام لذكر عنادهم، وتنزيل القرآن بلغة العجم ينافي أنَّه هذا القرآن العربي، فيجاب: نزَّلنا معناه، أو ترجمته، أو نزَّلنا شيئا مقروءا.

﴿**كَذَٰلِكَ سَــلَكْنَاهُ فِي قُلُــوبِ الْمُجْرِمِيــنَ**﴾ الكُفَّار، أدخلنــاه في قلوب المجرمين على حاله المشــاهدة من البلاغة والإعجــاز، و[مِنْ] فهمهم له[2]، كما هو أنَّه خارج عن طاقة البشر، وإقرار علماء بني إسرائيل والكتب السابقة به، والحال أنَّهم لا يؤمنون به كما قال:

---

(1) البيت لحكيم الأعور ابن عيــاش، أوله: «فما وجــدت بنات بني نزار». **البغــدادي**: خزانة الأدب، ج 1، ص 184.

(2) أي فهم مستمرُّون على عدم الإيمان به، وكذلك طبعنا على قلوبهم حتَّى يروا العذاب الأليم.

﴿لَا يُومِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الَالِيمَ﴾ الملجئ إلى الإيمان به أيًّا كان، وقيل: العذاب قتل بدر، وقيل: هاء «سَلَكْنَاهُ» للتكذيب، وقيل: للبرهان المدلول عليه بقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمُ...﴾. ﴿فَيَاتِيَهُم﴾ يأتيهم العذاب ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة إتيان فجأة، أو ضمّن يأتيهم معنى يبغتهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه.

﴿فَيَقُولُواْ﴾ تحسُّرا على ما فاتهم من الإيمان ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ مؤخَّرون عن هذا العذاب إلى الدنيا فنعمل ما أمرنا به؟ والفاءان للترتيب الرتبيِّ، أي حتَّى تكون رؤيتهم العذاب الأليم فما هو أشدُّ منها، وهو مفاجأته، فما هو أشدُّ منه، وهو سؤالهم النظرة، فلا يَرد أن البغت من غير شعور لا يصحُّ تعقُّبه للرؤية في الوجود.

[بلاغة] وأيضا رؤية العذاب تكون بعد تقدُّم أمارته وأخرى بلا تقدُّم أمارة، فرؤيتهم العذاب محتاجة إلى التفسير، فعطف عليه بالفاء التفسيريَّة يأتيهم بغتة، والتفسير بعد المفسَّر كالتفصيل بعد الإجمال، أو الآية من باب القلب للمبالغة في مفاجأة رؤيتهم العذاب حتَّى كأنَّهم رأوه قبل المفاجأة، أي حتَّى يأتيهم العذاب الأليم بغتة فيروه.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ كقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا...﴾ [سورة الأنفال: 32]، ﴿فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا...﴾ [سورة الأعراف: 70]. ﴿أَفَرَآيْتَ﴾ أخبر ﴿إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ مدَّة طويلة مع طيب المعاش، أو عمر الدنيا كما روي عن عكرمة. ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ يوعدونه من العذاب ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ أيَّ إغناء أغنى عنهم؟ أو لم يغن، والأوَّل أولى لأنَّه أبلغ في النفي، لأنَّه أفاد النفي والتوبيخ، وأوفق لقوله: ﴿أَفَرَآيْتَ﴾. ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ كونهم ممتَّعين، أو التمتيع الذي كانوا يمتَّعونه، و«أَفَرَآيْتَ» متعلِّق بـ«هَلْ نَحْنُ مَنظَرُونَ». ويوبَّخون يوم القيامة عند قولهم: «هَلْ نَحْنُ مَنظَرُونَ» بقوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾.

ويجوز أن يكون «أَفَبِعَذَابِنَا» مستأنفا غير مرتَّب على ما قبله، وإنَّما يستعجلون العذاب لاعتقادهم أنَّه لا يكون، وأنَّهم يمتَّعون طويلا في عافية.

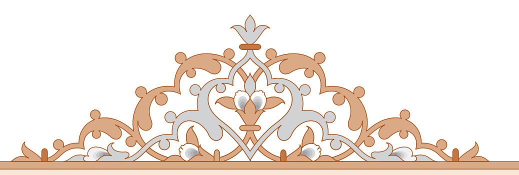
ويروى أنَّ ميمون بن مهران لقي الحسن في الطواف، وكان يتمنَّى لقاءه، فقال له: عظني، فلم يزد على تلاوة هذه الآية، فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت. وكان عمر بن عبد العزيز يقرأها حين يجلس للحكم.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ اِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ بالعقاب على عدم الإيمان، والجملة حال من «قَرْيَةٍ» ولو نكرة لتقدُّم النفي ﴿ذِكْرَىٰ﴾ تذكيرا، مفعول مطلق لقوله: «مُنذِرُونَ»، أي منذرون إنذارا، أو مذكَّرون تذكيرا، ولا تقل: مفعول من أجله، لأنَّ الإنذار تذكير والتذكير إنذار، وكلَّما تقارب الحدثان يبعد كون أحدهما علَّة للآخر، ولا حاجة إلى حذف، مثل: ذوي ذكرى، ولا التأويل بمذكِّرين، أو المبالغة، ولا إلى تقدير: هذه ذكرى.

﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بالإهلاك قبل الإنذار، أو بعذاب من لم يعص، ولو فعل ذلك لم يكن ظلما بل صورة ظلم. وقال: ﴿وَمَا كُنَّا...﴾ دون «وما نظلم» إشارة إلى معنى: ما من شأننا ذلك.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ عليه من الجوِّ، كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ردٌّ لقول قريش: إنَّ له تابعا من الجنِّ يلقي إليه ما يقول لنا ﴿وَمَا يَنبَغِي﴾ ما يليق وما يصحُّ ﴿لَهُمْ﴾ هو أبعد عنهم وليسوا له أهلا بأن يكون منهم ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ما يقدرون على ذلك البتَّة، وكما أنَّه ليس منهم ابتداء واستقلالا ليس أخذا لهم من الملائكة بالاستماع كما قال:

﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ﴾ لِمَا تتكلَّم به الملائكة في السماء أو تحتها ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ ممنوعون بالشهب، بعد أن كانوا يجدون الاستماع بلا طرد، والمراد: السمع المعتدُّ به، أو السمع بلا طرد، وقد يرمى ولا يموت فلا ينافي «يُلْقُونَ السَّمْعَ»، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ...﴾ إلى ﴿...رَصَدًا﴾ [سورة الجن: 8 ـ 9]، وإلى الآن يستمعون خطفة ويطردون بالشهب. ولا يجوز عود الهاء من «إِنَّهُمْ» للمشركين.



﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ٢١٣ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠﴾

توجيهات إلهيَّة للنبيء ﷺ ومن بعده من الدعاة إلى الله

﴿**فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا ـ اخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ**﴾ يا محمَّد، فإنَّ الحقَّ معك في التوحيد، والقرآنُ من الله حقٌّ، وخلاف ذلك باطل لا يؤثِّر فيك.

﴿**وَأَنذِرْ**﴾ بالعقاب على الإشراك ﴿**عَشِيرَتَكَ الَاقْرَبِينَ**﴾ إليك، واسم التفضيل خارج عن بابه فمعناه: القريبون، أو باق على معنى الذين هم أكثر قربا إليك من غيرهم.

[لغة] والعشيرة: الرهط الأدنون يتكثَّر بهم الرجل، كأنَّهم العدد الكامل وهو العشرة، ويقال: الشعب النسب الأبعد كعدنان، فالقبيلة وهي ما انقسم فيه الشعب كربيعة ومضر، فالعمارة وهي ما انقسم فيه أنساب القبيلة كقريش وكنانة، فالبطن وهو ما انقسم فيه أنساب العمارة كبني عبد مناف وبني مخزوم، فالفخذ وهو ما انقسم فيه أنساب البطن كبني هاشم وبني أميَّة، فالفصيلة وهي ما انقسم فيه أنساب الفخذ كبني العَبَّاس وبني أبي طالب، وليس دون الفصيلة إلَّا الرجل وولده.

[لغة] وقال الكلبي: الشعب فالقبيلة فالفصيلة فالعمارة فالفخذ، وأمَّا العشيرة فقيل: تحت الفخذ وفوق الفصيلة، وقيل: كلُّ كثيرٍ راجعين إلى أبٍ مشهورٍ بأمرٍ

زائدٍ شعبٌ، كعدنان، فالقبيلة وهي ما انقسمت فيه أنساب الشعب كربيعة ومضر، فالعمارة وهي ما انقسمت فيه أنساب القبيلة كقريش وكنانة، فالبطن وهي ما انقسمت فيه أنساب العمارة كبني عبد مناف وبني مخزوم، فالفخذ وهي ما انقسمت فيه أنساب البطن كبني هاشم وبني أميَّة، فالعشيرة وهي ما انقسمت فيه أنساب الفخذ كبني العَبَّاس وبني أبي طالب. والحيُّ: يصدق على الكلِّ لأنَّه الجماعة النازلون بمربع، ولعلَّ قائل هذا لم يذكر الفصيلة لاتِّحادها بالعشيرة.

[قلت:] وفي أمر الله تعالى إنذار عشيرته تقديم النفع لهم إيذانا بأنَّ الأقرب مقدَّم في النفع، وذلك من باب صلة الرحم المعروفة في الجَاهِلِيَّة كالإسلام، ودفع لِمَا يتوهَّم أنَّ إنذاره وتبليغه تشديد على غيرهم دونهم.

قال ابن عساكر عن رسول الله ﷺ: «**أزهد الناس في الأنبياء وأشدُّهم عليهم الأقربون**»[1]، وذلك فيما أنزل الله ﷻ، ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاَقْرَبِينَ﴾. وفي البيهقي: إنَّ كعب الأحبار قال لأبي موسى الخولاني[2]: كيف تجد قومك؟ قال: مكرمين مطيعين، قال: ما صدقتني التوراة إذن، وأيم الله ما كان رجل حليم في قوم قطُّ إلَّا بغوا عليه وحسدوه. وعن أبي الدرداء: «أزهد الناس في العالم أهله وجيرانه، إن كان في حسبه شيء عيَّروه، وإن كان قد عمل في عمره ذنبا عيَّروه به».

[قصص] ويقال: ما كان كبير في عصر إلَّا كان له عدوٌّ من السفلة إذ الأشراف لم تزل تبتلى بالأطراف، فكان لآدم إبليس، وكان لنوح حام وغيره،

(1) أورده **السيوطي** في الدر: ج6، ص329. وقال: أخرجه ابن مردويه وابن عساكر والديلمي عن أبي الدرداء.

(2) لعلَّه أبو مسلم الخولاني كما في الدر المنثور وهو عبد الله بن ثوب: تابعي فقيه عابد زاهد، أصله من اليمن، أدرك الجَاهِلِيَّة وأسلم قبل وفاة النبيء ﷺ ولم يره، قدم المدينة في خلافة أبي بكر وهاجر إلى الشام وبها توفي سنة 62هـ. **الزركلي**: الأعلام، ج4، ص75.

وكان لداود جالوت وأضرابه، وكان لسليمان صَخَرايْ، ثمَّ قبض عليه، وكان لعيسى بخت نصر، وبعد نزوله الدجال، ولإبراهيم نمروذ، ولموسى فرعون، وكان لمحمَّد ﷺ أبو جهل.

[بعض ما أوذي به الصالحون] وكان لابن عمر عدوٌّ يعبث به كلَّما مرَّ، وكان لعبد الله بن الزبير أعداء يرمونه بالرئاء والنفاق في صلاته، وصبُّوا على رأسه في الصلاة ماء حميما فزلغ وجهه ورأسه، وهو لا يشعر، ولَمَّا سلَّم قال: ما شأني؟ فذكروا له ما وقع، فقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل». وكان لابن عبَّاس نافع بن الأزرق يؤذيه أشدَّ الإيذاء، ويقول: يفسِّر القرآن بغير علم. وكان لسعد بن أبي وقَّاص جهَّال من جهَّال الكوفة يقولون لعمر: إنَّه لا يحسن الصلاة.

وأمَّا إخراج الأَئِمَّة الأربعة [من ديارهم] فلمخالفتهم جمهور الأمَّة بإثبات الرؤية واعتقاد أنَّ صفات الله غيره فجعلوه تعالى محتاجا إلى قدماء معه، ونحو ذلك، كما أخرجوا محمَّد بن الفضل[1] من بلخ لإجرائه آيات الصفات والأحاديث على ظاهرها بلا تأويل، والحقُّ التأويل، وكان يقول: آمنَّا بها ووكَّلنا تفسيرها إلى الله تعالى.

[سيرة] والبدأة مطلقا أهمُّ بِمَنْ يلي، كما قال الله ﷻ: ﴿قَاتِلُواْ الذِينَ يَلُونَكُم﴾. ولَمَّا نَزَلَ ﴿وَأَنذِرْ...﴾ إلخ نادى على الصفا ﷺ: «**يا بني فهر، يا بني عدي، يا بني كذا يا بني كذا...**» فجاءوا، ومن لم يجئ أرسل نائبا، فقال: «**أتصدِّقونني إن أخبرتكم أنَّ خيل العدوِّ في الوادي أو وراء الجبل؟**» قالوا: نعم

(1) محمَّد بن الفضل بن العَبَّاس أبو عبد الله البلخي: صوفي شهير من أجلَّة مشائخ خرسان أخرج من بلخ فدخل سمرقند، ومات فيها سنة 319هـ، من كلامه: ستُّ خصال يعرف بها الجاهل: الغضب في غير شيء، والكلام من غير نفع، والعطية في غير موضعها، وإفشاء السرِّ، والثقة بكلِّ أحد، وأن لا يعرف صديقه من عدوِّه. الزركلي: الأعلام، ج6، ص 330.

ما جرَّبنا عليــك كذبا، قال: «**إنِّي لكــم نذير بين يدي عذاب شــديد**» فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ... ﴾.

وروي أنَّه قال: «**يا معشــر قريش أنقذوا أنفســكم من النار فإنِّي لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعا**»، وقال هذا أيضا لبني كعب، وقاله لبني قصي، وقاله لبني عبد مناف، وقاله لبني عبد المطَّلب، عمَّ فخصَّ، وقاله بعد ذلك لفاطمة.

وروي أنَّــه صعد جبلا فنــادى: «**واصباحــاه**»، كلمــة تقولها العرب لحضور العدوِّ، وحضر قومه، فقال: «**يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله فإنِّي لا أغني عنكم، يا بني عبد المطَّلب لا أغني عنكم، يا عبَّاس لا أغني عنك، يا صفيَّة لا أغني عنك، يا فاطمة لا أغني عنك، ســليني من مالي ما شئت**»[1].

وروي أنَّه جمع بني هاشم على الباب ونســاءه وأهله فأنذرهم، وأنَّه أمر عليًّا أن يصنع طعاما ويجمع له بني عبد المطَّلب، وهــم أربعون، ولَمَّا أكلوا أراد أن يكلِّمهم فقال أبو جهل: ســحركم صاحبكم، فتفرَّقوا، وأعاد ذلك من الغد فلمَّا أكلوا ســبق أبا جهل بالكلام، فقال: «**يا بني عبد المطَّلب إنِّي نذير وبشير جئتكم بالدنيا والآخرة فاتَّبعوني تنالوهما**».

[سيرة] نزلت الآية فتربَّص متأمِّلا كيف يفعل لشــدَّة قومه لا كســلا عن التبليغ، فأوحى الله تعالى إليه إن لم تبلِّغ عذَّبتك، فأمر بندائهم، كما مرَّ وأمر عليًّا بصنع أربعة أمداد ورجل شــاة وعــس لبنا، وجمع بنــي المطَّلب وهم أربعون، أو أقل أو أكثر برجل، وفيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعبَّاس وأبو لهب، وشقَّ لحمة بأسنانه وجعلها أطراف الطعام فشبعوا وروِوا والطعام بحاله الأولى، وقد قيل: إنَّ ذلك كلَّه قدر ما يأكل الواحد ويشــرب، فقال أبو لهب:

---

(1) رواه **البخاري**، في كتاب التفســير. سورة الشعراء، رقم: 4493. **ومســلم** في كتاب الإيمان. باب قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاَقْرَبِينَ ﴾، رقم: 525. من حديث أبي هريرة.

سحركم محمَّد، وأمر عليًّا بصنع مثل ذلك غدا فأكلوا وشربوا كذلك، فسبق ﷺ أبا لهب فقال: «**جئتكم بخير الدنيا والآخرة فاتَّبعوني فأيُّكم يؤازرني فيكون أخي وخليفتي بعدي**» وكرهوا كلُّهم إلَّا عليًّا وهو صغير السنِّ قال: أنا، فقال آخذا برقبته: «**هذا وصيِّي وخليفتي فيكم**»، يعني بعد الأَئِمَّة الثلاثة أو قصده عقبه بلا وحي، ولم يكن كذلك عند الله بل بعد الثلاثة، فخرجوا يضحكون قائلين لأبي طالب: أمرك أن تطيع طفلك وتسمع له.

﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ**﴾ تواضع، وهو استعارة تبعيَّة أو تمثيليَّة لعلاقة الشبه، أو مجاز مرسل تبعيٌّ لعلاقة اللزوم ﴿**لِمَنِ اتَّبَعَكَ**﴾ في دين الله ﴿**مِنَ الْمُومِنِينَ**﴾ أي وهم المؤمنون بك تحقيقا. و«مِنْ» للبيان، أو لبعض المؤمنين وهم المحقِّقون للإيمان لا للبعض الآخر، وهم الذين أضمروا الإشراك، ولا دليل على أنَّه أريد بـ«الْمُومِنِينَ» من شارفوا الإيمان، وأنَّ ذلك استمالة لهم، وأنَّ «مِنْ» للتبعيض والبعض الآخر من تحقَّق إيمانه، أو للبيان.

ولَمَّا أنذر عشيرته الأقربين شقَّ ذلك على سائر المؤمنين فنزل: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُومِنِينَ﴾ بحيث يَعُمُّ القرابة وسائر المؤمنين، وليس في ذلك تفكيك الضمائر لأنَّ المراد: ما يعمُّ سائر المؤمنين لا ما يخصُّهم دون الأقربين.

﴿**فَإِنْ عَصَوْكَ**﴾ أي عشيرتك الأقربون بعد هذا الإنذار ﴿**فَقُلِ اِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ من الإشراك والمعاصي، وعقوبته عليكم وحدكم لا تلحقني، ولا تلحق من اتَّبعني، وقيل: الواو لِلْكُفَّارِ مطلقا، أي داموا على الكفر ولم يؤمنوا، وقيل: إنَّه للمؤمنين، وإِنَّ العصيان عدم الِاتِّباع في الأحكام، ولا دليل على هذين القولين في الآية.

[قلت:] وليست الآية آمرة بترك القتال [كما قال بعض] فضلا عن أن تنسخ بآية القتال، فإنَّه بريء مِمَّا يعملون قبل الأمر بالقتال وبعده.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ يقهر أعـداءك وينصرك عليهم، وذكر لفظ «الْعَزِيزِ» لأنَّ وصف العزَّة أوفق بالتسلِّي عن المشاقِّ التي لحقته من قومه ﷺ، ولأنَّ العزَّة كالعلَّة المصحِّحة للتوكُّل، والرحمة كالعلَّة الداعية إليه.

[مراتب التوكُّل] والتـوكُّل: تفويض الأمر إلى مـن يملكه، ويقدر على النفع والضرِّ، والمتوكِّل من لم يحاول دفع ما أصابه من السوء بمعصية، وهو أدنى مراتـب المتوكِّلين، وينبغي أن يضـمَّ إلى ذلك نية شـغل النفس ونفع الخلق، وترك الدعوى، الثاني: رتبة تارك الأسـباب التـي لا يتعيَّن محاولتها لِئَلَّا تميل نفسـه إلى غير الله، الثالث: تاركها كذلك ثقـة بما فرغ منه بالقضاء الأزلي، بحيـث يتحقَّق أن التوكُّل لا يمنع والطلـب لا ينفع، وعن الجنيد[1]: «التوكُّل أن تعرض بالكلِّية عَمَّا دونه، فإنَّ حاجتك إليه في الدارين».

﴿الذِي يَرَاٰيـكَ﴾ يعلم ظاهـرك وباطنك ﴿حِينَ تَقُـومُ﴾ للصلاة وحدك ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ حين تقوم لها وحدك بركوع وسجود وقعود وقيام، وقيل: في جماعة إماما لها، وذكر السـاجدين لا المصلِّين لأنَّه أقرب ما يكون العبد من ربِّه إذا كان ساجدا، وقيل: تردُّده في المؤمنين إلى بيوتهم ليلا حين نسخ فيها وجوب قيام الليل، لينظر هل حرصوا على القيام بعد علمهم بنسخ وجوبه، ووجدهم حرَّاصا يصلُّون.

وقيل: تقلُّب بصرك فـي المؤمنين خلفك هل تراصَّـت صفوفهم؟ وهل اسـتووا، وقال: «**تراصُّوا فإنِّي أراكم من رواء ظهري**»[2] وقال: «**استووا استووا استووا إنِّي أراكم من خلفي كما أراكم بين يديَّ**».

---

(1) الجنيد بن محمَّد بـن الجنيد النهاوندي ثمَّ البغدادي والده خزاز: شـيخ الصوفية، ولد بعد 220هـ وتفقَّه على أبي ثور وصحب الحارث المحاسبي، تألَّق وتعبَّد وأقبل على شأنه، توفي سنة 298هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 565.

(2) رواه **البخاري** في كتـاب الأذان، باب (42) إقبـال الناس على الإمام... رقـم 687. ورواه **النسائي** في كتاب الإمامة، باب حثِّ الإمام على رصِّ الصفوف، من حديث أنس.

وقيل: تقلُّبه فيهم تقلُّبه فـــي المؤمنين بالأمر والنهـــي والوعظ، والتبليغ وأحواله ومجالســـتهم، وقيل: تقلُّبك فـــي جملة الأنبياء بالتبليـــغ، كما بلَّغوا وقيـــل: التنقُّل فـــي أصلابهم حتَّـــى ولدته أمُّـــه، وقيل: التنقُّـــل في أصلاب المؤمنين، على أنَّ أبويه أسلما، **والتفســـير الأوَّل هو المتبادر من الآية**. وسأل أبا حنيفـــة مقاتل: هل في القرآن صـــلاة الجماعة؟ فقـــال: لا يحضرني، فقال مقاتل: هي في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾.

﴿**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ العليم بالأصوات والأفعال والأحوال وكلِّ شيء فجوِّد أقوال صلاتك وأفعالها وأحوالها وشرائطها.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿221﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿222﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿223﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿224﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿225﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿226﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿227﴾﴾

الردُّ على افتراء المشركين

﴿**هَلْ أنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ**﴾ متعلِّق بقوله: ﴿وإنَّهُ لَتنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ...﴾، وفصل بما فصل للياقة ذكره بعدهما وقبل هذا. و«هَلْ» للتقرير، و«مَنْ» استفهاميَّة معلّقة لـ«أُنبِّئُكُمْ» عن مفعوليه الثاني والثالث، وإن عدِّي لاثنين فعن الثاني.

وكأنَّه قيل: على من؟ فقال: ﴿**تَنَزَّلُ**﴾ تتنزل ﴿**عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ**﴾ كثير الإفك ﴿**أثِيمٍ**﴾ كثير الكذب، أو عظيم الكذب والإثم، لا على رسول الله ﷺ. و«كُلِّ» للتكثير ليس كلُّ كثير الإفك والإثم أو عظيمهما تتنزَّل عليه الشياطين، أو يراد العموم على أنَّ المراد كاملو الأفاكيَّة والإثميَّة.

أو على أن المراد: كلُّ من يذكر لكم أو يذكر عنه ذكرا صحيحا أنَّه ينظر في النجوم أو غيرها أو يتكهَّن فيخبركم بما هو غيب، ولو فعل ذلك مرَّة، على أنَّ المراد عظيم الإفك والإثم، وَمِمَّن كثر إفكه وعظم: شقٌّ بن رَهْم بن نذير، وسطيح بن ربيعة بن نذير. ويقال: المراد الكهنة والمتنبِّئة كسطيح وطليحة ومسيلمة.

﴿**يُلْقُونَ السَّمْعَ**﴾ يلقي الأفَّاكون الأثيمون سمعهم إلى الشياطين، أي يصغون إليهم إصغاء شديدا، وذلك مبالغة، كأنَّهم ألقوا إليهم حقيقة الاستماع، أو الآذان على أنَّ السمع الآذان، أو السمع بمعنى المسموع فيكون الإلقاء في هذا بمعنى الذكر، أي يلقون ما يسمعون.

﴿**وَأَكْثَرُهُمْ**﴾ أكثر الأفَّاكين الأثمين ﴿**كَاذِبُونَ**﴾ فيما يقولون، ولا يوجد أحد منهم غير كاذب، فالأصل: أكثر أقوالهم كاذبة، ولَمَّا حذف «أقوال» نوسب هاء جماعة الذكور العقلاء بـ«كَاذِبُونَ» جمع سلامة لمذكَّر، أو اكتسب الأقوال حكم العقل والذكورة بالإضافة إلى صاحبهما، فخرج القليل من أقوالهم، فقد يصدق كما صدق قول شقٍّ وسطيح بكهانتهما ما حاصله أنَّ محَمَّدًا ﷺ رسول الله.

ويجوز عود واو «يُلْقُونَ» إلى «الشَّيَاطِين»، أي يلقون استماعهم أو آذانهم إلى الملائكة فيلقون ما سمعوا إلى الكهنة. والكلام في القِلَّة والكثرة كما في الوجه الأوَّل من عود الواو إلى الكهنة.

[قلت:] واستماع الشياطين من الملائكة قبل البعثة وبعدها وهو باق إلى الآن، ويرجمون بالشهب إذا أرادوا الاستماع من السماء فوقها، أو تحتها، وبعد البعثة لا يستمعون إلَّا من تحتها، ويستمعون من الملائكة في السماء، أو فوقه، فلا يرجمون لكن يطردون. وكذبهم يكون عن عمد، يخلطون بما سمعوا ما يناسبه وما يقبل عنهم، ويكون عن عدم ضبط ما يسمعون لقصور فهمهم، ولخوفهم من الملائكة، وقد روي عنه ﷺ: «**إنَّهم يخلطون بما سمعوا أكثر من مائة كذبة**»[1]. وكانوا يدخلون السماوات، ومنعوا بعيسى من الثلاث العليا وبمحمَّد ﷺ من الأربع الباقية.

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب الطب، باب السحر، رقم 5429، من حديث عائشة بلفظ: «يخطفها الجنيُّ فيقرها في أذن وليِّه فيخلطون معها مائة كذبة».

﴿وَالشُّـــعَرَآءُ﴾ الهاجون بشـــعرهم رســـول الله ﷺ، كعبد الله بن الزبعري السهمي، وهبيرة بن وهب المخزومي، ومسافع بن عبد مناف، وأبي عمرو بن عبد الله الجمحي، وأميَّة بن أبي الصلت الثقفي.

[سبب النزول] وروي أنَّ رجلين تهاجيا وأحدهما من الأنصار، ومع كلِّ واحد غواة قومه، فنزلت الآية، قال ﷺ: «**لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير من أن يمتلئ شعرا**»(1).

﴿يَتْبَعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ الضالُّون عن الصواب، ومن ضلالهم رواية شعر الشعراء، والابتهاج به، واستحسانه، ولو كان باطلا، وان لم يروه، وقيل: الشياطين.

[قلت:] ولا بأس بروايته لتعلُّم العَرَبِيَّة. فليس القرآن شعرا كما تزعمون، ولا رسول الله ﷺ شاعرا ولا تابعا لشاعر، ولا أتباعه غاوين، وهو أبعد الناس عن الشعر، لا يقدر أن يحكم بيتا واحدا عن غيره موزونا.

وما كان في القـــرآن موزونا فقد علم الله به، وأنزله علـــى أن يقرأ نثرا ولا يتفطَّن له ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْـفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّومِنِينَ﴾ [ســورة التوبة: 14] كبيت من الوافر، وقوله تعالـــى: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ التِي حَرَّمَ اللهُ﴾ [ســورة الأنعام: 151] كشـــطر بيت من الطويـــل، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ [ســورة القصص: 76] كشطر بيت من الخفيف، وقوله سبحانه: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا تَرَىٰٓ إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ﴾ [ســورة الأحقاف: 25] كشطر من بيت من البســـيط، وقوله ﷻ: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [ســورة هود: 60] كشطر من الوافر، وقوله تبارك وتعالى: ﴿صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَـــلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: 56] كشطر بيت من الكامل. وليس قول المشـــركين: إنَّه شاعر قصدا لهذه الآيات،

(1) رواه الشـــيخان وغيرهما. **البخاري** في كتـــاب الأدب: باب ما يكره أن يكـــون الغالب على الإنسان الشعر. رقم: 5802. من حديث ابن عمر.



بل كان بهتا وتشبيها في دقَّة المعنى، أو في تخيُّل الشيء في كلام الشعراء بلا تحقُّق، ويزعمون أنَّ القرآن مخيَّل وأوهام.

[سيرة] وروي أنَّ عائشة كانت في عرس، وَلَمَّا رجعت قال لها رسول الله ﷺ: هل قلت شيئا؟ قالت نعم قلت:

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحيِّيكم
ولولا العجوة السوداء لَمَا كنَّا بواديكم

فقال ﷺ: «**هلَّا قلت ولولا طاعة الرحمن لَمَا كُنَّا بواديكم**» يقرأه نثرا.

﴿**أَلَمْ تَرَ**﴾ يا محمَّد ﷺ، أو يا من يصلح للرؤية مطلقا، أو يا من ينسب محَمَّدًا إلى الشعر ﴿**أَنَّهُمْ**﴾ أي الشعراء ﴿**فِي كُلِّ وَادٍ**﴾ في كلِّ نوع من القيل والقال، والوهم والخيال، والغيِّ والضلال، استعارة تصريحيَّة، والجامع الاتِّساع وعدم الضبط ﴿**يَهِيمُونَ**﴾ يتيهون كمن يمشي في مفازة على غير هداية طريق موصل بل يتحيَّرون في تمزيق الأعراض والكذب، والقدح في الأنساب والوقاحة والفحش، وشأن الزنى، استعارة تبعيَّة ﴿**وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ**﴾ مفتخرين بما ليس فيهم من الخير، ومتنزِّهين عَمَّا فيهم من الأسواء.

وعن ابن عبَّاس: نزلت الآية في شعراء المشركين: عبد الله بن الزبعرى، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، ومسافع بن عبد مناف، وأبو عزَّة الجمحي، وأمية بن أبي الصلت، يقولون: نقول ما يقول محمَّد، يهجون رسول الله ﷺ، ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم، يستمعون أشعارهم، وهم الغاوون.

[قلت:] قبَّح الله الفرزدق وعمر بن ربيعة، وأبا نواس ونحوهم، مِمَّن يتشبَّب بالشعر، وذكر الفسق، فهم داخلون في الآية، لا من يروي شعرهم للعربيَّة، وقبَّح من يرويه قاصدا مقصودهم. روي أنَّ سليمان بن عبد الملك سمع قول الفرزدق:

فبتن بجانبي مصرعات وبتُّ أفضُّ أغلاق الختام

فقال: قد وجب عليك الحدُّ، فقال: قد درأ الله عنِّـي الحدَّ بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿إِلَّا الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا﴾ يقولون الشعر في التوحيد ومدح رسول الله ﷺ، ويهجون المشركين، ولا بأس به في المباح تعلُّما.

[سيرة] لَمَّا نزل: ﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتْبَعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ جاء ناس من الأنصار كعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك باكين، وقالوا: يا رسول الله نحن شعراء، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِلَّا الذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ ولم يزل الموحِّدون ينظمون الشعر في علوم الإسلام، ومدح الرسول، وذكر معجزاته وشأنه، وفي ذلك وفي ذمِّ المشركين انتصار عليهم، وقال لكعب بن مالك: «**إنَّ المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنَّما ترمونهم به نضح النبل**» واستمع لشعر حسَّان فقال: «**لهذا أشدُّ عليهم من وقع النبل**»، وسمع الشعر وأجاز عليه، وقال لحسَّان: «**أهجهم وجبريل معك**»، وقال ﷺ: «**إنَّ جبريل أعان حسَّان على مدحي بسبعين بيتا**»[1].

وروي أنَّه ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وبين يديه ابن رواحة يقول:

خلُّوا بني الكُفَّار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا ابن رواحة أتقول الشعر بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تعالى؟ فقال ﷺ: «**دعه يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضح النبل**»[2].

(1) رواه **البيهقي** في الكبرى، كتاب الشهادات، باب شهادة الشعراء، رقم: 20897. من حديث كعب بن مالك عن أبيه.

(2) ينظر تخريج هذه الأحاديث في **الدر المنثور** للسيوطي، ج6، ص336ـ337. **وروح المعاني** للآلوسي، ج19، ص 147ـ148.

وروي أنَّ ذلك لكعب بن مالك لا عبد الله بن رواحــة، لأنَّ عبد الله قتل يوم مؤتة وعمرة القضاء بعد ذلك، والحقُّ أنَّ عمرة القضاء في سنة سبع ويوم مؤتة في سنة ثمان.

وكان ﷺ يضع لحسَّان منبرا في المسجد يمدح رسول الله ﷺ ويقول شعرا، وكان يأمر حسَّانا وكعبا وعبد الله بن رواحة بالشــعر مدحا للإسلام، وعن ابن مسعود عنه ﷺ: «**إنَّ الله ﷻ يأمر شعراء المســلمين أن يقولوا شعرا يتغنَّى به الحور العين لأزواجهنَّ في الجنَّة، وشــعراء المشركين يدعون في النار بالويل والثبور**»، ولَمَّا وجع عمر رضي الله عنه قال له كعب: تموت لثلاث، فقال رضي الله عنه:

توعَّدنــي كعــب ثلاثــا يعدُّها ... ولا شكَّ أن القول ما قاله كعب
وما بي خوف الموت إنِّي لميِّت ... ولكن خوف الذنب يتبعه الذنب

ولَمَّا مات ﷺ قالت فاطمة رضي الله عنها وأرضاها:

ماذا عليَّ من شــمِّ تربة أحمد ... أن لا يشــمَّ مع الزمــان غواليا
صبَّت علــيَّ مصائب لــو أنَّها ... صبَّت على الأيَّــام صرن لياليا

وقال الحسن بن علي:

تســوَّد أعلاها وتأبــى أصولها ... فليت الذي يسودُّ منها هو الأصل

ومن شعر الشافعي:

ومتعب النفــس مرتاح إلى بلد ... والموت يطلبه فــي ذلك البلد
وضاحك والمنايا فــوق هامته ... لو كان يعلم غيبا مات من كمد
ومن كان لم يوت علما في بقاء غد ... فلا يفكِّــر لِمَا يجــيء بعد غد

وقال علي:

ولَمَّا رأيــت الخيل تزحم بالقنا ... نواص لها حمر النحور دوامي
وأعرض نقع في الســماء كأنَّه ... عجاجــة دجــن ملبــس بقتام

ونادى ابن هند في الكلاع وحِمْيَرٌ وكندة فـي لخم وحـيُّ جذام
تيمَّمت همـذان الذين هم همُ إذا نـاب دهر جنَّتي وسـهامي
فجاوبني من خيل همذان عصبة فوارس مـن همذان غيـرُ لئام
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام
فلو كنت بوَّابا علـى باب جنَّة لقلـت لهمذان ادخلوا بسـلام

وخطب ابنة سـفيان بن عيينة ابن أخيه فقال: كفؤ كريم، لكن هل تحفظ عشر آيات، قال: لا، قال: فعشر أحاديث، قال: لا، قال: فعشرة أبيات، قال: لا، قال: ففيم أضع بنتي؟! لكن لا ترجع خائبا، فأعطاه عشرة آلاف درهم.

﴿**وَانتَصَرُواْ**﴾ على المشـركين بمدح الإسـلام وذمِّ الكفر وأهله والقتال ﴿**مِنۢ بَعْدِ مَا**﴾ مَصدَرِيَّة ﴿**ظُلِمُواْ**﴾ في دينهـم وأبدانهم وأعراضهم وأموالهم ﴿**وَسَـيَعْلَمُ الَّذِيـنَ ظَلَمُـواْ**﴾ رسـول الله ﷺ والصحابة بالهجـو وغيره، أو ﴿ظَلَمُوا﴾: أشـركوا، وتعميم ذلك أولى ﴿**أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**﴾ «أيَّ» مفعول مطلـق واقع علـى الانقـلاب. و«مُنقَلَـب» مصدر ميمـيٌّ، والعلـم متعلِّق بالاستفهام، وغير هذا تخليط، وليست «أَيَّ» في الآية وصفا.

[موعظة] وهذه الآية يتواعظ بها السـلف الصالح، قال الصدِّيق رضي الله عنه في مرض موته لعثمـان: اكتب: «بسـم الله الرحمن الرحيم، هذا مـا عهد به أبو بكر بن أبي قحافة عند آخر عهده بالدنيا وأوَّل عهده بالآخرة، في الحال التي يؤمن فيها الكافر، ويتَّقي فيها الفاجر، ويصدق فيها الكاذب، إنِّي قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فـإن يعدل فذلك ظنِّي به، ورجائـي فيه، وإن يجُر ويبدِّل فلا علم لي بالغيب، والخير أردت، ولكلِّ امرئ ما اكتسب، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾». والله أعلم.

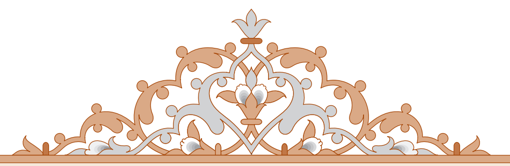
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



27

تفسير سورة النمل

مكّيَّة وآياتها 93 ـ نزلت بعد سورة الشعراء



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾

ما يدعو إليه القرآن

﴿**طس تِلْكَ**﴾ الإشارة إلى السورة، والبعد لشرف المنزلة، أو إلى الآيات التي تتلى بعد من السورة وغيرها، أو إلى مطلق الآيات ﴿**ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ**﴾ تعظيم لهنَّ إذ كنَّ من جملة الكتاب المبارك الذي فاق كتب الله كلَّها، وكلَّ كلام ﴿**وَكِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ واضح في نفسه وإعجازه، أو موضّح لِمَا خفي من الأخبار والأحكام، والهدى والضلال، والثواب والعقاب، فحذف المفعول على الوجه للعموم، أو للعلم به إذ علم أنَّه يُبَيِّنُ لهم ما خفي.

والعطف على القرآن كعطف الصفة على أخرى لموصوف واحد، أي آيات ما جمع أنَّه قرآن وأنَّه كتاب مبين كقوله:

إلى الملك القرم وابن الهمام[1] ....

والتعظيم يكون بالتعريف ويكـــون بالتنكير والتنويـــن، وجمع ذلك في قوله: ﴿الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [آية رقم 1] وفـــي الحجر تقديم الكتاب وتعريفه وتأخير القرآن وتنكيره عكس ما هنا.

[بلاغة] قدَّم القُرآنِيَّة هنـــا لكونها أدلَّ على خصـــوص المنزَّل عليه ﷺ للإعجاز، وقدَّم الكتابة هنالك تلويحا بأنَّه شامل لكتبه تعالى كلِّها، كأنَّه كلُّها، ومشـــتمل على أوصـــاف خَاصَّة به، وقـــدَّم المعـــرَّف فيهما تنويها بـــه وبأنَّه المعروف كالشـــمس. و«ال» للعهد. ويجوز أن يراد بالكتاب اللوح المحفوظ، كما أنَّ الأصل في العطف التغايـــر، فيكون قد أخبرنا الله ﷻ بما لم نعهده من اشتمال اللوح على الآيات، وأنَّ في آياته هدى وبشرى.

فليس قوله: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ مانعا مع أنَّ حصول اشتماله عليهنَّ غير بعيد، لعلمه مـــن الآي الأخر، ومن كون القـــرآن منزَّلا منه، نعت لكتـــاب أو حال من الآيات مبالغة، كأنَّه أو كأنَّهنَّ نفس الهدى، أو بتأويل ذي هدى، أو ذوات هدى، أو هاديا ومبشِّرا، أو هاديات ومبشِّـــرات، أو تهدي هدى وتبشِّر بشرى، أو يهدي هدى ويبشِّر بشرى، أو مبين حال كونه هدى وبشرى مبالغة، أو ذا هدى، أو هاديا ﴿لِلْمُومِنِينَ﴾ تنازعه «هُدًى» و«بُشْرَى» فعمل الثاني وأضمرت الفضلة للأوَّل.

ومعنى هداية المؤمنيـــن مع أنَّها قد حصلت لهم قبلهـــا زيادتها، كما قال الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا الذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمُۥٓ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [سورة التوبة: 124]، أو أدامتها، فخصُّوا بذكر حالهم لأنَّهم المنتفعون بها، أو أريد ما نزل أوَّلا لهم فاهتدوا به ولو بعد مـــدَّة، فلا تحصيل حاصل، أو لا تنـــازع بل «هُدًى» على

---

(1) البيت بلا نسبة وتمامه:

إلى الملـــك القرم وابـــن الهمام   وليـــث الكتيبـــة فـــي المزدحم

شواهد اللغة العربية ج 7 ص 15.

العموم هدى بيان، و«بُشْــرَى» للمؤمنين، ولا يجوز تفسير الهدى بالاهتداء، لأنَّ الآيات والكتاب هاديات لا مهتديات.

ويزول تحصيــل الحاصل [في قوله: ﴿لِلْمُومِنِينَ...﴾] بتفســير الصائرين إلى الإيمان، وإلى إقامة الصــلاة وإيتاء الزكاة والإيقــان بالآخرة، لكن ذلك خلاف الأصل.

﴿**الذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ**﴾ يأتون بها مســتقيمة بشــروطها وشطورها، لا اعوجــاج فيها باختلال بعــض ذلــك ﴿**وَيُوتُونَ الزَّكَــوٰةَ**﴾ يصيِّرونهــا ءَاتية مستحقِّيها، لا ملجئين له أن يســافر لها، أو يظعن إليها، فيتكلَّف مؤونة السفر أو الظعن إليها، وكراء حملها، ولا يكتبونها ليعطوهــا حينا مَّا أو يوصوا بها، **وذلك نقص في الدين وفيها.**

[فقه] ومن **أخَّرها بعد وقتها فعليه زكاة** كلِّ ما استفاد مِمَّا تلزم فيه الزكاة، وكذا لو أعطاها إلَّا درهما أو أقلَّ، وقيل: يزكِّي الفائدة بحســب ما بقي، وإن أراد كلَّ فائدة بوقتها كثرت عليه الأوقات، وإن حســب وعزلها ولم يجد من يستحقُّها لم تلزمه زكاة الفائدة.

وهذه آيات مَدَنِيَّة نزلت في سورة مَكِّيَّة، لأنَّ الزكاة في المدينة، وقيل: في مَكَّة زكاة مخصوصة نســختها زكاة المدينة المســتمرَّة، ثمَّ إنَّه لا تكفي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بل لا بدَّ من سائر الفرائض، فهما كناية عنها إذ هما عبادة بَدَنِيَّة ومالية [وفي مقدِّمة العبادات].

ويبعد ما قيل: إنَّ الزكاة هنا الطهارة، لأنَّ المعروف في المقرونة بالصلاة زكاة المال المعروفة، إلَّا أنَّه لا بأس به إذ كانت السورة مَكِّيَّة.

﴿**وَهُم بِالَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾ عطف علــى «يُقِيمُونَ»، أو حال من واوه لا استئناف لأنَّ الاستئناف ليس معنى، والواو حرف معنى لا حرف هجاء فقط،

وليس في الجملة صيغة حصر، كمـا أنَّ قولك: زيد هو قائم، لا حصر فيه كما قاله ابن المنير جدُّ الدماميني، وتكريـر الضمير لا يكون حاصرا بل هو مؤكِّد وهذا هو الحقُّ، وما صرَّحوا بأنَّه أفاد الحصر فليس لذاته بل لداع آخر.

﴿**إِنَّ الذِينَ لَا يُومِنُونَ بِالَاخِـرَةِ**﴾ البتَّة وبجزائها ﴿**زَيَّنَّا لَهُـمُۥ أَعْمَالَهُمْ**﴾ قبائحها ﴿**فَهُمْ يَعْمَهُونَ**﴾ يتردَّدون فيهـا لا يتركونها وهم على غير بصيرة ولا يتوقَّع منهم الإيمـان، وذلك كقوله تعالـى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُـوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [سورة فاطر: 8].

[أصول الدين] ومعنـى تزيينـه تعالى أعمالهـم خلقها، وهـم فعلوها باختيـار، أو خلق طبائع وشـهوات تدعوهم إليها، أو تمتيعهـم بطول العمر وسـعة الرزق المتسـبِّبين لها، ولا يجب مراعاة الأصلـح، إذ لا واجب على الله ﷻ، ولا قائل بأنَّ الله تعالى يغريهم عليها.

وقيل: المعنى زيَّنَّا لهم الأعمال التي تليق بهم شـرعا، فأعرضوا عنها إلى الضلال فهـم فيه يعمهـون، وهو غيـر متبـادر لإضافتها إليهم فـي اللفظ، واسـتعمال التزيين في الخير قليل في القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الِايمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [سورة الحجرات: 7].

﴿**أُوْلَئِكَ**﴾ الموصوفون بالكفر والعمه ﴿**الذِينَ**﴾ خبر «أُولَئِكَ» ﴿**لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ**﴾ القتل والأسر وتشديد الموت، وعذاب القبر ﴿**وَهُم فِي الَاخِرَةِ**﴾ ما بعد البعث، ويجوز أن يـراد القبر وما بعده، والأوَّل أظهر لأنَّه المشـهور في القرآن من أنَّ الآخرة ما بعد البعث.

﴿**هُمُ الَاخْسَرُونَ**﴾ أشدُّ خسرانا من فسَّاق الموحِّدين لأنَّ دركته دون دركة المشـركين كائنا مَّا كان، [قلت:] وأمَّا قوله تعالـى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الَاسْـفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [سورة النسـاء: 145] ففي المنافق بإضمار الشرك، **فلا تهم ولا**

تقلَّد، وذلك أولى من أن تقول: هم في الآخرة أشـــدُّ خســـارا منهم في الدنيا، لأنَّ هذه العبارة وضعت لتفاوت شيئين لا لتفاوت شيء واحد باعتبارين.

[بلاغة] و«في» متعلِّق بالأَخْسَرِينَ، قدِّم للفاصلة، ولا يتبادر الحصر، إذ ليس معنى عظيم في قولك: هم الأخسرون في الآخرة لا في الدنيا. ويجوز أن يخرج «الَاخْسَرُونَ» عن التفضيل، والمراد الحصر على كلِّ حال، أي هم أشدُّ خســـرانا في الآخرة لا المؤمنون، ولا يلزم أن يكون للمؤمنين بعض خسران، أو هم الخاسرون لا المؤمنون.

﴿**وَإِنَّك لَتُلَقَّـــى الْقُرْءَانَ**﴾ تصيَّـــر لاقيا القرآن، أي يلقِّنـــك جبريل القرآن ﴿نَزَلَ بِهِ الـــرُّوحُ الَامِينُ عَلَـــىٰ قَلْبِكَ﴾ [سورة الشـــعراء: 193]، ﴿**مِـــن لَّدُنْ**﴾ عند ﴿**حَكِيمٍ عَلِيمٍ**﴾ التنكير للتعظيم، أي من حكيم عليم لا يساوى في العظم ولا يفاق، والقرآن الذي جاء منه فخيم.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ⑦ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ⑧ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ⑨ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ⑩ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑪ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ⑫ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑬ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ⑭﴾

القصَّة الأولى:
قصَّة موسى عليه السلام بالوادي المقدَّس

﴿**إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ**﴾ اذكر إذ قال موسى، أو عليم إذ قال موسى، على معنى أنَّ علمه محتو على ذلك الوقت المعتبر لا مخصوص به، **والأوَّل أولى**، وأهله: زوجه سمَّاها أهلا تعظيما لها، فإنَّ أهل الرجل أتباعه، وكذا ضمائر الجمع بعدُ في قوله: ﴿**إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ**﴾... إلخ إلَّا أنَّها تبع للتعبير بالأهل.

ويجوز حمل الأهل على زوجه وغنمه توسُّعا. خرج من مدين ووصل وادي طُوى، وقد حاد عن الطريق في ليلة باردة شاتية، وزوجه قد ولدت، وغنمه تفرَّقت في ظلمة عظيمة، وأراد الدِّفء لها ولم يور زناده، فبدت له نار من جانب الطور.

وأراد بالخبـــر الخبـــر عن الطريق، والســـين للبعـــد، أخبر أهلـــه به لئلَّا يستوحشـــوا، أو ليصبروا إن أبطأ، أو للتأكيد، وموسى تكلَّم بلغته وذكرها الله بما يفيدها من العَرَبِيَّة، أو أنطقه الله بِالعَرَبِيَّة.

﴿اَوَ ـ اتِيكُم بِشِـــهَابِ قَبَسٍ﴾ الإضافة للبيان، والشهاب أعمُّ، لأنَّه يكون من قبس ومن غيره، أي آتيكم بشـــهاب هو قبس، أي بشـــعلة تقبس من نار، و«أو» لمنع الخلـــوِّ لا لمنع الجمع، فإنَّه إن وجد النـــار والدلالة على الطريق أتاها بها وســـار على الطريق، أو قصد مقابلة الإتيان بالقبس الذهاب بها إلى حيث النار.

وما هنا وعد بصورة الجـــزم، والمراد قُوَّة الطمع، بدليـــل الآية الأخرى: ﴿لَعَلِّيَ ءَاتِيكُم﴾ [ســـورة القصص: 29] بصيغة الترجِّـــي، لا تناقض بين الجزم هنا بالإتيان بالنار، وبين ترجِّيه في قوله تعالـــى: ﴿لَعَلِّيَ ءَاتِيكُم﴾ لأنَّ الراجي إذا قوي رجاؤه جزم، ولأنَّه بنى الرجاء على أنَّه إن لم يظفر بالخبر والنار معا ظفر بأحدهما، [قلـــت:] وفي القصَّتين جـــواز حكاية الـــكلام وحديث النبيء ﷺ بالمعنى فيما لم نتعبَّد بلفظه.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ الطاء بدل من تاء «الافتعال»، من الصِّلاء بكسر ومدٍّ، أو فتح وقصر، وهو الدنو من النار للاســـتدفاء، ويطلق على النار، أو بالكسر الدفء وبالفتح النار.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ أي النار لا الشجرة إذ لم يجر لها ذكر، وذلك مجاراة على ظنِّه أنَّ ما رأى نار، فلا يقال: إنَّ الله يعلم أنَّها ليســـت نارا، فكيف يقول: فلمَّا جاء النار؟. ﴿نُودِيَ﴾ أي موســـى من جانب الطور ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ «أَن» مخفَّفة واسمها ضمير الشأن، لأنَّها قد تكون بلا فصل بقد ولا بالسين ولا سوف ولا حرف النفي. والباء مقدَّرة أي نودي بأنَّه بورك، والكلام إخبار بالبركة لا دعاء بها لا تفسيريَّة، وإلَّا بقي النداء بلا منادى من أجله، وأيضا النداء غير البركة.

ويجوز أن تكون «أَن» هي المَصدَرِيَّة الداخلة على الماضي، كقوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ﴾ [سورة القلم: 14]، بل هذا أولى، وإن جعلنا «بُورِكَ» دعاء من ملك أو صورة دعاء فلا إشكال في جعلها مخفَّفة لعدم اشتراط الفصل، [قلت:] إلَّا ما لم أزل ألهج به من عدم جواز دخول حرف المصدر على الطلب، لأنَّه لا خارج له يعبَّر عنه بالمصدر.

﴿مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ «مَنْ» نائب فاعل، أي من في مكان النار، ومن حول مكانها، وهم الأنبياء الموتى المقبورون.

والمراد: أرض الشام وهي محلُّهم، ومكان النار نفس الموضع الذي هي فيه، فحذف المضافان، ويدلُّ لِمَا ذكر قراءة أُبي: «تباركت الأرض ومن حولها»، وقد قال الله ﷻ: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الَايْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ [سورة القصص: 30]، وتلك أرض الشام كلُّها، وهي مبعث الأنبياء وقبورهم، وتكليم موسى.

وقيل: ﴿مَن فِي النَّارِ﴾: موسى، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: الملائكة الحاضرون، وقيل: ﴿مَن فِي النَّارِ﴾: الملائكة بالتسبيح والتهليل، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: موسى، إذ هو حادث عليها.

[أصول الدين] وقيل: ﴿مَن فِي النَّارِ﴾: الله سبحانه، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: موسى والملائكة، ومعنى كون الله ﷻ في النار أنَّه الخالق لها في ذلك المحلِّ، ومعنى كونه بورك أنَّه نزِّه عن الحلول وصفات الخلق، وذلك أنَّه نادى موسى وأسمعه من جهتها.

وفي التوراة: «جاء الله من سيناء، وأشرق من ساعين، واستعلى من جبال فاران»، وقيل: معنى مجيئه من سيناء مجيء موسى منه بالوحي، وإشراقه من ساعين مجيء عيسى، واستعلاؤه من جبال فاران مجيء محمَّد ﷺ، وفاران مَكَّة.



أو المراد: بورك موسى والملائكة ببركة النار، وقد قيل: إنَّها نور حسبها موسى نارا، أو الظرفيَّة مجازيَّة فتغني عن تقدير المضافين بالقرب التام.

[أصول الدين] ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ﴾ سبِّح الله تسبيحا ﴿رَبِّ الْعَالَمِين يَامُوسَىٰ﴾ أي نزِّه الله يا موسى عن صفات الخلق من الحلول في مكان وزمان، والتشخُّص والنطق والخرس والجوارح. حذَّره عن التشبيه حين سمع كلامه فإنَّه كلام خلقه الله في الشجرة، أو في الهواء، أو في جسم موسى، أو تكلَّم به ملك عنه تعالى.

وليس ذلك خبرا من الله بل أمر، ولا حاجة إلى جعله تعجُّبا على تقدير القول، أي وقال: «سُبحَانَ اللهِ»، نعم يجوز أن تكون تعجيبا وهو صادق بتفسيري ولا ينافيه، فإنَّ أمره بالتنزيه تعجيب، نعم يجوز أن يكون ذلك من كلام موسى، أي سبَّحت الله تسبحا. وإذا علَّقنا «يَا مُوسَى» بما قبله كانت الفاصلة «الْحَكِيمُ»، وإن علَّقناه بما بعده كانت الفاصلة «الْعَالَمِينَ».

﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ القادر على الأمور العظام، لكمال عزِّه كالعصا واليد البيضاء الممهِّد لذكرهما بعد كما ترى، الحكيم في أفعاله وأقواله.

[نحو] والهاء للشأن، ويجوز عند بعض عودها إلى المكلِّم المنادي (بكسر اللام والدال)، وهو الله، فيكون «أَنَا» خبرا، وذلك يؤخذ من المقام كما أخذ معنى الهاء في «يَرْضَهُ» من لفظ: ﴿تَشْكُرُواْ﴾ [سورة الزمر: 7]، لا مراعاة للفاعل المحذوف عند البناء للمفعول، مع أنَّه قد يراعى، ومن مراعاته قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالَاصَالِ رِجَالٌ﴾ [سورة النور: 36ـ37]، في قراءة البناء للمفعول، أي يسبِّح له رجال، والآيات تشير إلى موسى والمانع يريد تحقيق المقام والجري على الأصل.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطف على «أَن بُورِكَ»، أي وبلفظ: «أَلْقِ عَصَاكَ»، كما قال: ﴿وَأَنَ الْقِ عَصَاكَ﴾ [سورة القصص: 31]، بعد قوله ﷻ: ﴿أَنْ يَّا مُوسَىٰٓ إِنِّيَ أَنَا اللهُ﴾، ولا يعارض ذلك بتجديد النداء لأنَّا علَّقنا «يَامُوسَى» بقوله: ﴿وسُبْحَانَ اللهِ﴾، وإن علَّقناه بما بعده فلا بأس بجملة معترضة.

[نحو] وجاز العطف على «بُورِكَ» بلا تأويــل لفظ إذا جعل دعاء من غير الله، والله لا يدعو، وإذا جعل إخبارا أيضا، لأنَّ سيبويه أجاز عطف الطلب على الخبر والعكــس، والتخالف بالاســميَّة والفعليَّة، لأنَّه أجــاز: «جاء زيد ومن عمرو؟» بالعطف، فيجوز عطف «أَلْقِ» على «إِنَّهُۥٓ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». وقدَّر بعض القول معطوفا على «بُورِكَ»، أي: وقيل له: ألق.

﴿**فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ**﴾ أي فألقاها فانقلبت حيَّــة تهتزُّ، لَمَّا رآها تهتزُّ ﴿**كَأَنَّهَا جَآنٌّ**﴾ حيَّة صغيرة خفيفة ســريعة التحرُّك والتنقُّل، مع عظم جرم العصا، كما قال: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [ســورة الأعراف: 107]، أو هي في حال تحرُّكها تتحرَّك بخفَّة تارة، وبثقل أخرى في مقام واحد. ﴿**وَلَّىٰ مُدْبِرًا**﴾ منهزما خائفا ﴿**وَلَمْ يُعَقِّبْ**﴾ لم يرجع إلى عقبه أي خلفه.

﴿**يَامُوسَــىٰ**﴾ قلنا يا موســى ﴿**لَا تَخَفْ**﴾ من تلك الحيَّة ﴿**إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَــلُونَ**﴾ ما لم أخوِّفهم، وإذا أخفتهم خافوا، [قيل:] وإنَّما أخاف الله تعالى موســى لقتله القبطي، والخوف الذي هو شــرط في الإيمان لا يفارق الأنبياء، وقد قال ﷺ: «**أنا أخشاكم لله تعالى**»[1].

ومعنى الآية: إنِّي لست أخوِّفك بها ولا أضرُّك بها فإنَّ شأني مع رسلي لا أخوِّفهم ولا أضرُّهم، أو لا تخف غيري، حيَّــة أو غيرها ثقة، أو اترك الخوف مطلقا باستعمال الخوف بدون اعتبار مخوف منه.

وقُيِّد بـ«لَدَيَّ» أي في حضرة القرب منِّــي، وذلك حين الوحي، وأمَّا في سائر الأحوال فالمرسلون أشدُّ الناس خوفا من حصول التقصير وسوء العاقبة، ولو عصموا لأنَّهم ينســون العصمــة وتتغلَّــب عليهم المخافــة والإجلال، ويخافون شــرَّ ما لم يظهره الله لهم، وكذلك المبشَّــرون مــن الصحابة، ولا عصمة كعصمة الملائكة، وهم يخافون.

---

(1) ورد عند الشــيخين وغيرهما بلفظ: «إني لأخشــاكم لله...». **البخاري**: كتــاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم: 4776. من حديث أنس بن مالك.

لَمَّا مكر بإبليس بكى جبريل ومكائيل عليهما السلام فقال الله عز وجل: ما يبكيكما؟ فقالا: يَا رَبِّ ما نَأْمَن مكرك، فقال الله تعالى: هكذا كونا لا تأمنا مكري.

﴿إِلَّا﴾ لكن ﴿مَن ظَلَمَ﴾ نفسه بالذنوب ﴿ثُمَّ بَدَّلَ﴾ للتوبة ﴿حُسْنًا﴾ عملا صالحا، أو هو التوبة ﴿بَعْدَ سُوءٍ﴾ فعل الذنوب، وذلك من غير الأنبياء، أو منهم على أنَّه قد تصدر منهم الصغيرة قبل النبوءة، أو قبلها وبعدها، ويعدُّ عليهم المكروهُ وغيرُ الأَوْلى ذنبا.

[نحو] وإن فسَّرنا ﴿مَن ظَلَمَ﴾ بمن فرط منه ذلك من الأنبياء كان الاستثناء متَّصلا، ومحلُّ «مَن» على الانقطاع النصب، وعلى الاتِّصَال الرفع، وجاز النصب، وقد قيل: إنَّ هذا تعريض بموسى إذ وكز القبطيَّ مجاراة على قوله: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [سورة القصص: 16] واستغفاره، فيخافون ويزول عنهم الخوف بالتوبة ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ له.

[لغة] ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ مخرج الرأس والعنق من الجبَّة والقميص، وتسمية ما يخاط إلى ذلك جيبا مجاز مرسل لعلاقة الجوار لمعتبرها، وحقيقة عرفيَّة عَامَّة لمن لم يقصدها، وليس عربيًّا إلَّا من حيث إنَّ المجاز مقيس.

[سيرة] وكان موسى إذ ذاك لابسا جبَّة لا أزرار لها، رواه ابن عبَّاس رضي الله عنه، كما كان رسول الله ﷺ مطلق القميص لا زر له، ولو كانت جبَّة موسى مزرَّرة لم تدخل يده إلَّا بعد حلِّها، ولجبَّته وقميصه تارة أزرار لا يضمُّها، وكان يأمر بضمِّها على الصدر، ورأى عثمان بن عفَّان محلول الأزرار فضمَّها بيده الشريفة وقال: «**اجمع عطفي ردائك على نحرك**»[1].

---

(1) أورده **السيوطي** في الدر، ج6، ص76. وقال: أخرجه البغوي في معجمه، والباوردي وابن قانع والطبراني وابن عساكر، عن زيد بن أبي أوفى.

[فقه] وكان ﷺ يأمر بزرِّ الأزرار، ونهى أن يصلِّي الرجل وصدره باد.

أمر الله ﷻ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يدخل يده اليمنى في جيبه، ويجعلها تحت إبطه الأيسر، وهو قادر أن يجعلها بيضاء بلا إدخال للامتحان، وليكون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كالمتصرِّف بالمعجزة، والمكتسب لها بإذن الله، وليس متصرِّفا.

ولَمَّا كان إدخال اليد لا يستمرُّ عادة بل لا بدَّ من أن يخرج أجاب الأمر بقوله: ﴿**تَخْرُجْ بَيْضَآءَ**﴾ والخروج لا بدَّ منه لَكِنَّهَا تخرج بيضاء، ويجوز أن يقدَّر: وأخرجها تخرج.

[بلاغة] وأمَّا أن يقدَّر: أدخل يدك في جيبك تدخل وأخرجها تخرج بيضاء، ويكون من الاحتباك، وهو أن تحذف في كلٍّ ما ذكر في الآخر، **فتكلُّفٌ بارد** بتقدير «تدخل».

﴿**مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**﴾ كبرص وفساد وضعف ﴿**فِي تِسْعِ ءَايَاتٍ**﴾ حال كون اليد معدودة مع جملة التسع، أو اذهب في تسع آيات، ويدلُّ له: ﴿**فَلَمَّا جَآءَتْهُمُۥٓ ءَايَاتُنَا**﴾: الفلق والطوفان والجراد والقمَّل والضفادع والدم والطمسة، وهي جعل نقودهم حجارة، والجدب في بواديهم، والنقصان في مزارعهم، ومن عدَّ العصا واليد من التسع عدَّ الجدب والنقصان واحدة.

ووجه عدِّ الفلق أنَّ فرعون وقومه شاهدوه وهو أيضا آية لمن آمن من قومه ولمن تخلَّف منهم ولم يؤمن، ومن لم يعدّه اعتبر أنَّه لم يبعث به إلى فرعون احتجاجا، بل هو انتقام منه آخر أمره.

وإن شئت فالجدب والطمسة والنقصان واحدة لاتِّحادهنَّ مآلا، والثانية العصا والرابعة اليد والباقي الفلق والجراد والقمَّل والضفادع والدم.

﴿**إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ**﴾ أي موجَّهات أو مرسلات إلى فرعون، أو مبعوثا، أو مرسلا، وهذا المقدَّر حال من ضمير «أَدْخِلْ»، وذلك كون خاصٌّ، أو يعلَّق

بـ«اذهب» المقدَّر لجملة «فِي تِسْعِ ءَايَاتٍ»، أو يقدَّر له إن لم يقدَّر لجملة «فِي تِسْعِ». ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾ تعليل لا استئناف بياني، أي خارجين عن دين الله، وهذا معتبر، سواء استشعر السامع أنَّه بعث إليهم يوسف قبل موسى وعصوه أو لم يستشعر.

﴿**فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا**﴾ على يد موسى، والجائي حقيقةً موسى، وأسند المجيء إليها لكونها معجزة له، ولأنَّ المقصود بيان جحودهم لها، وللإشارة إلى أنَّه لا طاقة لـه عليهنَّ لـولا الله، وأمَّا ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِئَايَاتِنَا﴾ [سورة القصص: 36] فلأنَّه في مقام مجادلتهم. والمعنى: لسبب فسقهم فاجؤوا مجيء الآيات بقولهم: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. ﴿**مُبْصِرَةً**﴾ المبصِر المتامِّل فيها، ولكن أسند الإبصار إليها ـ أي الاهتداء ـ لأنَّها سبب، أو هو رباعيٌّ بصر، أي هادية من تأمَّلها، والهادي الله ولكنَّها سبب، أو كأنَّها إنسان باصر يهدي ﴿**قَالُواْ هَذَا**﴾ ما جئتنا به ﴿**سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾ مثل ما مرَّ.

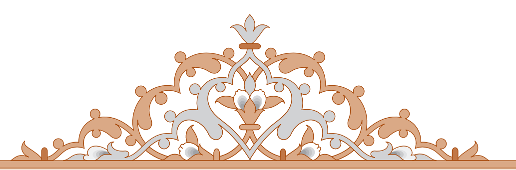
﴿**وَجَحَدُواْ**﴾ كذَّبوا ﴿**بِهَا**﴾ في النطق، فيكون أشدَّ عيبا عليهم ﴿**وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ**﴾ قلوبهم، أو الأمَّارة بالسوء علمت علما يقينا أنَّها من الله، وحالية هذه الجملة أولى من عطفها. ﴿**ظُلْمًا**﴾ حطًّا للآيات إذ قالوا هي سحر ﴿**وَعُلُوًّا**﴾ ترفُّعا، تعليلان للجحد.

[سيرة] ومثل هذا وقع في شأن رسول الله ﷺ، كما روي أنَّ الأخنس بن شريق قال لأبي جهل يوم بدر: يا أبا الحكم، ليس معنا أحد في هذا الموضع يسمع كلامنا فأخبرني عن محمَّد أصادق أم كاذب؟ فقال: «والله ما كذب محمَّد قطُّ». والظاهر أنَّ المراد: الصدق في أمر الوحي أيضا، وإلَّا فكما لا يكذب في غيره لا يكذب فيه. وقال النضر بن الحارث لقريش: «قد كان محمَّد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتَّى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر! لا والله

ما هو بســاحر». وظاهره أنَّه اعتقــد صدقه في الوحي ومــع ذلك كفر وأظهر الكفر، ويحتمل أنَّه أراد أنَّ كلامه حقٌّ ليس بســحر لكنَّه لم يوح إليه، وذلك غير إيمان بل كفر به ﷺ.

﴿**فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِــدِينَ**﴾ من الإغــراق في الدنيا والإحراق والعذاب الأليم في الآخرة.





﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿15﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿16﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿17﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿18﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿19﴾﴾

القصَّة الثانية:

قصَّة داود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

ـ 1 ـ

نعم الله الجليلة عليهما

﴿**وَلَقَدْ ـ اتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا**﴾ يليق بهما بعد النبوءة كما لقنَّاك القرآن، وهو علم الشريعة والقضاء، وصنعة لبوس، ومنطق الطير. والتنوين للتعظيم، ﴿**وَقَالَا**﴾ شكرا على ما أوتيا ﴿**الْحَمْدُ للهِ الذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُومِنِينَ**﴾ كلُّ واحد قال: الحمد لله الذي فضَّلني... إلخ، وجمعهما في ﴿قَالَا...﴾، كقوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ...﴾ [سورة المؤمنون: 51]، فإنَّه قال لكلِّ واحد في زمانه: يا أَيُّهَا الرسول كل. والمراد بالمؤمنين المؤمنون الذين لم يُعطَوْا مـا أُعطِيَا، وبقي قليل قد فضِّل عليهما، وفي ذلك مقابلة الكثرة

بالقلَّة، وفيه أنَّ هذا لا يلزم، بل يفضَّل عليهما القليل أو يُساويانِهِ، احتمالان، ولا يجزم بأنَّ الكثير يقابله القليل في مثل هذا المقام، بل يدلُّ أنَّ الأكثر يخالف القليل.

وجزم بعض بأنَّه فُضِّلا على كثير، وفضِّل عليهما كثير، وفيه أنَّ العرف طرح التساوي. والذي أقول به: إنَّ المراد فضِّلا على كثير، وهذا الكثير مساو للباقي أو أكثر أو أقلّ، كما هو شأن القانع المكتفي بمزيد مَّا، فشكرا على أنَّه لم يقصر تفضيلهما على قليل فقط.

وفي الآية تفضيل العلم على المال والملك والعبادات، إذ حمدا الله عليه، وفيها تحريض على أنَّه من علم شيئا من علم الشريعة أو آلاته أن يحمد الله عليه، وأن يتواضع العالم، وأن يقبل الحقّ مِمَّن جاء به.

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخطب على المنبر وينهى عن المغالاة في المهور، فقالت امرأة: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ [سورة النساء: 20] فقال: كلُّ الناس أفقه منك يا عمر، أو كلُّ الناس أفقه من عمر، وهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مصيب في نهيه لأنَّ النهي عن مغالاة المهور جاء في الحديث عنه ﷺ[1]، إلَّا أنَّه أعجبه استحضارها الآية في ذلك المقام.

والآية ليست آمرة بمغالاة المهور بل جاءت على سبيل الفرض، كأنَّه قيل: ولو آتيتموهنَّ قنطارا، وليس وقوع الشيء منافيا لكراهته، فلو أعطى قنطارا لصحَّ وجاء عليه نهي التنزيه.

(1) قوله ﷺ: «إنَّ أعظم النكاح بركة أيسره مؤونة»، رواه **أحمد** في مسنده عن عائشة. **الشوكاني**: نيل الأوطار، ج6، ص168. وفي رواية: «إنَّ أعظم النساء بركة أيسرهنَّ صداقا» رواه **الطبراني** في الأوسط: ج10، ص205، رقم 9447، بلفظ: «أخفُّ النساء...»، من حديث عائشة.

[قلت:] وفي الآية جواز أن يقال: الحمد لله على ما أعطاني من العلم، بل لو قال: أنا عالم لأمرٍ داعٍ لقوله، بلا فخر ولا رئاء ولا ترفُّع لجاز، فإنَّ في قولك: الحمد لله على ما أعطاني من العلم، يتضمَّن: أنا عالم.

وما جاء من أنَّه «من قال أنا عالم فهو جاهل» لم يصحَّ حديثا عنه ﷺ، وإن صحَّ فمحمول على من قاله فخرا، أو رئاء، لأنَّ نحو الرئاء جهل وسمعة.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ أباه وراثة علم لا مال، لقوله ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة**»[1]. قال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يورِّثوا دينارا ولا درهما ولكن ورَّثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظٍّ وافر**»[2]، رواه أبو داود والترمذي، ومثله عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

ولنا أن نقول: ورث سليمان العلم والنبوءة والملك، ولا ينافيه الحديث المذكور، لأنَّ فيه إرث المال لا نفي إرث النبوءة والملك، وإطلاق الإرث على ذلك مجاز استعاري، لجامع القيام مقام من كان كذلك قبل، ووراثة غير المال في مواضع من القرآن: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ [سورة فاطر: 32]، ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ﴾ [سورة الأعراف: 169].

وأيضا لداود تسعة عشر ولدا، فلو كان إرث مال لم يذكر سليمان وحده، إلَّا أنَّه لا مانع من ذكره وحده لأنَّه خليفته، وقد جاز أن يقال: ورث فلان أباه، ولا يلزم أنَّه ورثه وحده، إلَّا أنَّه لو كان ذلك لترك الإيهام إلى القول: وقال سليمان بعد موت أبيه: يا أيُّها الناس.

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب الجهاد والسير، باب حكم الفيء، رقم 1757، من حديث عمر. في حديث طويل بدون ذكر لفظ: «معاشر الأنبياء».

(2) رواه **الترمذي** في كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم 2682. ورواه **أبو داود** في كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم 3641. من حديث أبي الدرداء.

وأيضا لا مدح فـي إرث المال والمقام للمدح بالديـن، وهو حين موت داود ابن اثنتيْ عشرة أو ثلاث عشرة سـنة، ويقال: أوصى له بالملك، ويقال: ولّاه في حياتـه، وربّما تقوّى بذلـك أنّ الملك غير داخل فـي الإرث، لأنّه بالإيصاء، أو في الحياة إلّا أنّ ما بالإيصاء يصحُّ عليه الإرث.

﴿**وَقَالَ**﴾ شكرا للنعمة وإعلاما وبرهانا للإعجاز، فلا بدّ من قوله ليصدِّقوه إذا قال عن الطير: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا**﴾ علِّمـت، وجمع لأنّه أعظم قومه، ومَا لَهُ يعود نفعه إليهـم بالانقياد إليه، لا عُلِّمت أنا وأبـي كما قيل، ﴿**مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ**﴾ علِّمنا مضمون نطقها.

[بلاغة] وتسـمية أصواتها نطقا اسـتعارة أَصلِيَّة، لأنَّ المصدر الميميَّ كسائر المصادر غير مشتقٍّ، أو سمَّاها أصواتا تسـمية للمطلق بالمقيَّد، فذلك مجاز مرسل أصليٌّ، أو شـبَّه الطير بالإنسـان، ورمز إلى ذلك بلازم الإنسان وهو النطق، فالنطق استعارة تخييليَّة.

[جملة مواعظ على ألسنة الحيوانات] [قيل:] صاح ورشان فقال: إنَّه قال: «لدوا للموت، وابنوا للخراب»، وصاحت فاختـة فقال: قالت: «ليت هذا الخلق لم يخلقوا»، تعني المكلَّفين من الجنِّ والإنس، وطاوس فقال: يقول: «كما تدين تدان»، وهدهد فقال: يقول: «اسـتغفروا الله يا مذنبون»، وروي أنَّه يقول: «من لا يَرحم لا يُرحم»، وقائل: «استغفروا الله يا مذنبون» الصرد، وطيطوى فقال: يقول: «كلُّ حيٍّ يموت وكلُّ جديد بال»، وخطّاف فقال: يقـول: «قدِّموا خيرا تجدوه»، وقيل: يقول الخطاف: «الحمد لله ربِّ العالميـن»، ويمدُّ كالقارئ، ورخمة فقال: تقول: «سـبحان ربِّي الأعلى ملء سـمائه وأرضه». وروي هذا لحمامة. وقمري فقال: يقول: «سبحان رَبِّي الأعلى»، وقيل: «سبحان ربِّي الدائم»، والغراب يدعو على العشار، وقال: تقول الحدأة: «كلُّ شيء هالك إلّا الله تعالى»، والقطاة: «من سكت سلم»، والببغاء: «ويل لمن الدنيا همُّه»، والديك: «اذكروا الله يا غافلون»،

والنسر: «يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت»، والعقاب: «في البعد عن الناس أنس»، والقنبرة: «اللَّهُمَّ العنْ مبغض محمَّد وآل محمَّد»، والزرزور: «اللَّهُمَّ أسألك رزق يوم بيوم يا رزَّاق»، والدراج: «الرحمن على العرش استوى».

ولا يختصُّ علمه بمنطق الطير فإنَّه مرَّ ببلبل على شجرة يحرِّك رأسه ويميل ذنبه، فعلم فعله بلا نطق، وقال بذلك: «أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء»، وقال: يقول الضفدع: «سبحان ربِّي القدوس»، وقيل: «سبحان المذكور بكلِّ لسان»، وليس طائرا، وتنطق له الشجر: «إنِّي أنفع لكذا». ولكن خصَّ الطير بالذكر لأنَّها من جنوده ويرسلها، وتظلُّ عليه.

وسأل جماعة من اليهود ابن عبَّاس عَمَّا يقول سبعة ذكروها؟ فقال: سلوا تفقُّها، فقال: إنَّ القنبر يقول: «اللهمَّ العنْ مبغض محمَّد وآل محمَّد»، والديك: «اذكروا الله يا غافلين»، والضفدع: «سبحان الله المذكور في البحار»، والحمار: «اللَّهُمَّ العن العشار»، والفرس إذا التقى الجمعان: «سبُّوح قدُّوس ربُّ الملائكة والروح»، والزرزور: «اللَّهُمَّ إنِّي أسألك قوت يوم بيوم يا رزَّاق»، والدراج: «الرحمن على العرش استوى»، فأسلموا وحسن إسلامهم.

﴿**وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ**﴾ النبوءة والملك وتسخير الجنِّ والإنس والشياطين والريح، أو ما يحتاج إليه الملك من آلات الحرب وغيرها، وما دخل من ذلك ـ على قول ـ في قوله: ﴿وَوَرِثَ...﴾ فغيره داخل هنا، وعن ابن عبَّاس: المراد هنا ما يهمُّه من الدنيا والآخرة. والمراد بالكلِّية الكثرة، كناية أو مجازا مشهورا، تقول: فلان يقصده كلُّ أحد ويعلم كلَّ شيء، تريد الكثرة. ﴿**إِنَّ هَذَا**﴾ أي هذا المذكور من التعليم والإيتاء ﴿**لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**﴾ من كلام سليمان كقوله ﷺ: «**أنا سيِّد ولد آدم ولا فخر**»[1]، أو من كلام الله.

---

(1) رواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، رقم: 4308. من حديث أبي سعيد.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ﴾ من الأماكن المختلفة القريبة والبعيدة، أي جمعها الله له ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالِانس وَالطَّيْرِ﴾ بيان لجنـوده، أي هم الجنُّ والإنس، و«ال» للحقيقة فصدق بأفراد أو أنواع، وليس المراد كلُّهم، ويجوز أن تكون للتبعيض، والمعنى واحد، ويجوز أن تكون للابتداء، أي حصل له منهم الجنود، وإن أريد الكلُّ فعلى من تكون جنودًا أَعَلَى الدوابِّ أو على ماذا؟ ليس الكلُّ مرادا.

[قلت:] ويبعد أن يراد بالكلِّ أو البعض الذهاب إلى مَكَّة شكرا على بناء بيت المقدس، كما زعم بعض، بل الجمع لقتال المشركين، وهذه بلقيس لم تكن من جنده إلَّا بعد مضيِّ خمسة وعشرين عاما من ملكه، وذكروا أنَّه يأتيه من كلِّ صنف من الطير واحد فكان يأخذ من كلِّ جنس من الطير والجنِّ والإنس رئيسا تنقاد له عامَّته.

وللطيور عقول يتعلَّق أمور بها دون عقول المكلَّفين، وكذا سائر الحيوانات. ومن قال: إنَّ للحيوانات والطير أنبياء منها فهو مشرك. ولم يسخَّر له سائر الحيوان. وقدَّم الجنَّ لأنَّهم أغرب تسخيرا لعتوِّهم، ووصل بهم الإنس لتقاربهم صورا وأكلا وشربا وكلاما وتكليفا، ولم يبق للطير إلَّا التأخير ولو كانت أغرب جمعا كالجنِّ.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أوَّلهم ليلحق آخرهم، فتستريح الأوَّلون بذلك، ولا يجهد الآخرون بالسير، أو لأنَّهم لا يقدرون على ما قدر الأوَّلون، المقدَّمون لقوَّتهم، وهذا لا يتصوَّر إذا سار بهم ريح الصبا مسيرة شهر في بساط، وكانت تسير بهم الريح.

[قصص] قيل: وحول سليمان الأنبياء في كراسي من ذهب، وحولهم العلماء في كراسي فضَّة، وحولهم العَامَّة، **والله أعلم بصحَّة كثرة الأنبياء في عهد سليمان، وفي غيره أولى بالمنع.**

[قصص] والبساط من ذهب وفضَّة صنعته الجنُّ فرسخا في فرسخ، ومرَّ على حرَّاث فقال: سبحان الله لقد أوتي سليمان ملكا عظيما، فألقى الريح



كلامه في أذنه، وقد أوحى الله ﷻ إليه أن لا يتكلَّم أحد شيئا إلَّا ألقته الريح في أذنك أي مِمَّا يهتمُّ به، فأمر الريح فسكنت ومشى إلى الحرَّاث تواضعا فسأله عمَّا قال، فقال له: **ثواب سبحان الله عند الله أعظم مما آتاني الله من الملك.**

وروي أنَّ الريح العاصف تحمله والرخاء تسير به، فبينما هو في الهواء، أوحى الله إليه: إنِّي زدت في ملكك أن لا يتكلَّم أحد كلاما إلَّا حملته الريح إليك، ومرَّ بحرَّاث وقال: لقد أوتي آل داود ملكا عظيما، فألقته الريح في أذنه فنزل إليه وقال: **لا تتمنَّ ما لا تقدر عليه،** وتسبيحة واحدة يقبلها الله منك خير من ذلك. والفرسخ اثنا عشر ألف خطوة، والبريد أربع فراسخ.

﴿**حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ**﴾ «حَتَّى» ابتدائيَّة، ولا تخلو عن غاية، وهو واد بالشام كثير النمل، أو بالسدير من أرض الطائف، أو بأقصى اليمن، وزعم بعض أنَّه واد تسكنه الجنُّ، والنمل مراكبهم.

ومعنى الإتيان عليه الحضور عنده والاطِّلاع عليه، ولذلك تعدَّى بـ«عَلَى»، أو أريد بالإتيان عليه قطعه عن آخره، أي حتَّى إذا أرادوا قطعه، ولذلك تعدَّى بـ«عَلَى»، أو لأنَّهم أتوا من موضع عال عليه، وذلك أنَّهم ساروا بالأرجل والدوابِّ، أو كانوا في الهواء وأرادوا النزول على الوادي.

[لغة] ﴿**قَالَتۡ نَمۡلَةٞ**﴾ تاؤه للوحدة لا لكون مسمَّاه أنثى. فتاء «قَالَتْ» لا تدلُّ على أنَّها نملة أنثى كما قال أبو حنيفة وهو شابٌّ: إنَّها أنثى بدليل تاء «قَالَتْ»، وليس كما قال، فهو لفظ مجمل يؤنَّث له الفعل والوصف ولو أريد به مذكَّر، تقول: هذه بقرة، وجاءت بقرة، ولو أردت ذكرا، قال ﷺ: «**لا يضحَّى بعوراء ولا عمياء ولا عجفاء**»[1]، فأنَّث الشاة أو الضحيَّة أو البهيمة

(1) رواه **الترمذي** في كتاب الأضاحي، باب ما لا يجوز في الأضاحي، رقم 1497. و**النسائي** في كتاب الضحايا، باب ذبح الناس بالمصلَّى، رقم 4371. من حديث البراء، مع اختلاف في اللفظ.

مطلقا، ولو أراد كبشا أو ثورا أو جملا، فتقول: جاءت الشاة ولو كبشا، ولا يصحُّ أن يقال: إذا أريد مذكر من ذلك لم يؤنَّث بعلامة التأنيث، وإذا أريد مؤنَّث وجبت، ولا يرد أنَّه لا يقال: جاءت طلحة أو حمزة، لأنَّ الأعلام لا بدَّ من اعتبار المعنى فيها، وأمَّا قولك: هذا بطَّة ذكر، وهذا حمامة ذكر، فعلى سبيل الجواز والبيان، لا على سبيل الوجوب، وإن شئت فقل: هذه، ومن أوجب أخطأ.

وهي كسائر النمل، وزعم بعض أنَّها كذئب، وأنَّها عرجاء، ويقال: لها جناحان، وأنَّ اسمها طاخية، أو جرمى، ولعلَّ أهلها سمَّوها، أو سليمان، وكيف يسمَّى ما لا ينطق ولا يصوِّت؟! وما نفع اسمه؟ إلَّا إن سَمَّاهُ ناطق.

إلَّا أنَّ هذه نَصَّ الله على أنَّها تكلَّمت، وأنَّه تعالى أفهم النمل كلامها، ولو لم يجر كلام في النمل قبل، والله قادر أن يجري فيه كلاما لا نسمعه، كما ألهمها مصالحها أن تدَّخر القوت للشتاء، وتشقَّ الحبَّة لِئَلَّا تنبت، والكزبرة والعدس أربعا لأنَّهما ينبتان ولو شقًّا نصفين. وتكلُّم النملة معجزة له عَلَيهِ السَّلَامُ، وقد قيل سمعها من ثلاثة أميال بإذن الله، أو بإرسال تعالى الريح إليه بكلامها.

﴿**يَآ أَيُّهَا النَّمْلُ**﴾ هنَّ عقلاء عندها، إذ فهمن كلامها، وغلَّبت ذكورهنَّ فقالت: ﴿**ادْخُلُوا**﴾ بضمير العقلاء للذكور، وكذا ما بعد هذا تبع له ﴿**مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ**﴾ إذا نزلوا إلى الأرض عن البساط للوضوء والصلاة، سمعها من ثلاثة أميال، ألهمها الله تعالى أنَّهم ينزلون، أو قالت ذلك حين رأتهم ينزلون. نهيٌ لسليمان وجنوده لفظا، والمراد نهيهنَّ عن عدم الحذر عن حطمهنَّ، وهو في المعنى تأكيد للأمر بدخول المساكن. والحطم: الكسر المؤدِّي إلى الإهلاك. ﴿**وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾ حال من الجنود وسليمان، ولا يصحُّ ما قيل: إنَّه دعاها أو أمر أن يؤتى بها، فقال: ألم تَرَيْ أنِّي لا أظلم؟ لأنَّه قد سمع: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كما سمع: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ

سُــلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾، ولا أنَّه قــال: عظيني، فقالت: ســمِّي داود لأنَّه داوى جراحة قلبه، وأنت [سُــمِّيتَ سليمان] لســلامة قلبك، والريح المسخَّرة لك إخبارٌ من الله تعالى بأنَّ الدنيا كلَّها كالريح لا عمــدة عليها. ولا يصحُّ أيضا أنَّها قالــت: أردت بقولــي لا يحطمنَّكم حطم قلوب النمــل بتمنِّي ملكك، وكفر ما هنَّ فيه من النعم، والاشتغال بالنظر إليك عن ذكر الله ﷻ، وقبَّح الله المتصوِّفة الموهمين تفسير القرآن بما ليس مرادا.

﴿**فَتَبَسَّــمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا**﴾ شــارعا في الضحك، أو مقدِّرا الضحك، وهما متنازعان في «مِن قَوْلِهَا»، وناسب جانب السرور قوله: ﴿**وَقَالَ**﴾ سرورا بأدبها إذ قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْــعُرُونَ﴾، وباهتدائها إلــى مصالح قومها. وذلك القول المذكور بعد دخول مساكنهنَّ، قيل: أحسَّت بالجنود فأمسك في الأرض وفي البساط لِئَلَّا يذعرن.

ولَمَّا دخلن قال: ﴿**رَبِّ أَوْزِعْنِيَ أَنَ اَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ**﴾ اجعلني وازعا شــكر نعمتك، أي كافله أن يذهب، أي موفَّقا لي على أن أشــكر، ورابط «التِي» محذوف، أي أنعمت بها، لأنَّ التحقيق جواز حذف الرابط بلا شرط إذا فهم المراد.

وذكر نعمة أبيه وأمِّه في مقام الشكر، لأنَّ النعمة على الوالدين نعمة على الولد، لأنَّهما يؤدِّبانه إلــى الخير، وبالعكس لنفع الولــد والديه في حياتهما وموتهما، والأوَّل أوفق للشكر.

﴿**وَأَنَ اَعْمَلَ صَالِحًا**﴾ عملا صالحا ﴿**تَرْضَاهُ**﴾ تقبله لصحَّته، وهو الشــكر بعمل الجوارح بعد الشكر باللسان والقلب المراد في قوله: ﴿أَنَ اشْكُرَ﴾.

﴿**وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**﴾ في جملتهم كناية عن دخول الجنَّة ولا يغني عنه: «أَنَ اعْمَلَ صَالِحًا»، إذ كم من عامل صالح ختم له بسوء،

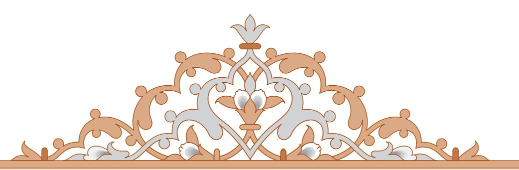
ومن عامل صالحا مخلط له بغير الصالح، فيراد: الاقتصار على العمل الصالح والمداومة بقوله: ﴿وَأَدْخِلْنِي...﴾.

وأيضا العمــل الصالح لا يجزي إلَّا برحمة الله ســبحانه، كما قال ﷺ: «**لن يدخل أحدكم الجنَّة بعمله**» فقيل: ولا أنت يا رســول الله؟ فقال: «**ولَا أَنَا إِلَّا أن يتغمَّدني الله برحمتــه**»[1]؛ ولذلك قال: ﴿بِرَحْمَتِــكَ﴾. وأمَّا ﴿ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [ســورة النحل: 32]، و﴿أَورِثْتُمُوهَــا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف: 43]، فمعناه أنَّ هذه السَّــبَبِيَّة برحمة الله تعالى، أو المعنى: أثبتني في عدادهم أُذكَرُ إذا ذُكِروا، أو فــي عبادك الأنبياء. ولا تنال النبوءة بالأعمال، وذلك غير العمل الصالح.

أو ﴿اَعْمَلَ صَالِحًا﴾: في حقِّك، وأدخلني في القائمين بحقوق العباد، أو حقوقهم وحقوقك، تعميما بعد تخصيص، أو يقــدَّر: أدخلني الجنَّة في جملة عبادك الصالحين.

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب المرضى، بــاب تمني المريض الموت، رقــم 5349، مع زيادة في آخره. ورواه **مســلم** في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجَنَّة بعمله، رقم 2816. من حديث أبي هريرة.



﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝٢١ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ۝٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ۝٢٤ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ۝٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢٦ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٢٧ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ۝٢٨﴾

ـ 2 ـ

قصَّة الهدهد مع سليمان عليه السلام

﴿**وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ**﴾ اختبر أحوالها إجمالا مراعاة للرعية ولا سيما الضعفاء كالطير، فلم ير الهدهد أو جاءته الشمس في جنبه الأيمن، وهو موضع الهدهد فوق في الإظلال، أو طلبه ليدلَّه على الماء في مفازة تحت الأرض، وكان الهدهد يرى الماء في داخلها فتخرق الجنُّ الأرض إليه في سرعة، فلم يره.

﴿**فَقَالَ مَا لِي لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ**﴾ مع أنَّه معنا، وأيُّ ساتر له، إذ قد يستتر بما هو أعظم ﴿**أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ**﴾ ولم أشعر بغيبته، واختار بعض أنَّ «أَمْ» منقطعة، أي بل أكان من الغائبين؟.

وما ذكر من أنَّ الهدهد يرى الماء تحت الأرض ذكر عن ابن عبَّاس، واعترضه نافع بن الأزرق بأنَّه ينصب له فخٌّ وتستر به حبَّة بالتراب فيصاد، وأجاب بأنَّه إذا جاء القدر حال دون البصر، فقال: لا أعارضك بعد، وأجبنا بأنَّه اختصَّ هدهد سليمان بذلك، أو يرى الحبَّة ولا يعرف أنَّ أخذها من الفخِّ يوجب صيده، أو يعرف ويظنُّ أنَّه ينجو بوجه، وصحَّح الحاكم ما ذكر من رؤيته الماء تحت الأرض.

[قصص] ويروى أنَّه سار إلى مَكَّة شكرا على تمام بناء بيت المقدس، والمشهور أنَّه مرَّ عليها في طريقه إلى اليمن، وقال: «يخرج من هنا نبيء عربيٌّ ينصر على من عاداه، ويسير النصر أمامه شهرا يجيء بدين إبراهيم، طوبى لمن أدركه وآمن به، وهو خاتم الأنبياء والرسل، فبلِّغوا ذلك لغيركم وبينكم وبينه ألف عام».

وسار منها إلى اليمن صباحا يؤمُّ سهيلا، فوافى صنعاء وقت الزوال، فرأى أرضا أعجبته خضرتها فنزل ليتوضَّأ ويصلِّي، فتفقَّد الطير للهدهد يدلُّه على الماء.

[قصص] وعن كعب الأحبار أنَّه سار من اصطخر يريد اليمن، فمرَّ على المدينة فقال: «هذه مهاجر نبيء يكون آخر الزمان طوبى لمن اتَّبَعَه» ورأى أصناما حول الكعبة فجاوزها، فبكت فأوحى الله إليها: ما يبكيك؟ قالت: نبيئك وأولياؤك لم ينزلوا عندي، ويصلُّوا وحولي أصنام، فأوحى الله تعالى أن سأعمرك بأفضل الأنبياء وأفضل الأمم، وأفرض عليهم الحجَّ، راغبين أشدَّ الرغبة فيك، يزفُّون إليك زفيف النسر إلى وكره، والحمامة إلى بيضها، والناقة إلى ولدها، وأطهِّرك من الأصنام.

[نقد القصة] وذكروا أنَّه تقرَّب كلَّ يوم في إقامته في مَكَّة على رواية دخولها بخمسة آلاف بقرة، وخمسة آلاف ناقة، وعشرين ألف شاة، وهذا بعيد،

وهل يوجد في الشـــام أكثر من هذا حتَّى أخذ منه هذا؟ وهل حمله في البساط أو وجده في مَكَّة؟ ولم خصَّ النوق؟ وهلَّا قيل: بعير فنؤمن بأنَّه أكثر القربان.

وأنَّه قصـــد اليمن وتفقَّد الطير ولم يـــر الهدهد فقـــال: ﴿**لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَـــدِيدًا**﴾ بنتف ريشـــه كلِّه أو نصفه أو ريش جناحيه، وذلك مع إلقائه في النمـــل، أو في الشـــمس، أو بطليه بالقطـــران وإلقائه فيها، أو بحبســـه في القفـــص، أو بتفريقه عن إلفه، أو بحشـــره مـــع غير جنســـه، ويقال: **أضيق السجون معاشرة الأضداد،** أو بإبعاده من خدمته، أو بإلزامه خدمة أقرانه، أو نحو ذلك، أباح الله له ذلـــك تأديبا كما تضرب الدَّابَّـــة، والعقاب على قدر الفعل لا على قدر الجسد.

﴿**اَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَاتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾ حجَّة ظاهرة، وفي اللفظ مناسبة لسببها في جلب سلطان هو بلقيس، والقسم على الأوَّلين متردِّدا أو مخيرا لا على الثالث، فإنَّه ساقه على طريق النجاة به عنهما.

﴿**فَمَكُثَ**﴾ الهدهد وقيل: سليمان ﴿**غَيْرَ بَعِيدٍ**﴾ مكث مكثا غير طويل، أو زمانا غير طويل خوفا من سليمان.

[قصص] لَمَّا نزل في الأرض حلَّ الهدهد، واســـمه يعفور، فرأى هدهدا اســـمه يعفير، فنزل إليه وأخبره بملك بلقيس، فذهب معه ليرى، فما رجع إلَّا بعد العصر، ولَمَّا فقده ســـأل عريف الطير وهو النســـر فلم يعلم، وقال لسيِّد الطير: عليَّ به، وهو العقاب، فارتفع العقاب فرآه مقبلا فقصده، فقال: ارحمني بحقِّ الذي قوَّاك عليَّ، فقال: حلف نبيء الله ليعذِّبنَّك أو ليذبحنَّك، ولَمَّا قال: أو تأتيه بسلطان، قال: نجوت، فلمَّا قرب من سليمان جرَّ جناحيه على الأرض مرخيا لهما تواضعا، فأخذ ســـليمان برأســـه يجرُّه إليه، فقال: يا نبيء الله اذكر وقوفك عند الله، فعفا وارتعد، وذلـــك لله ﷻ، لا لكونه يبرُّ أباه وأمَّه ويأتيهما بالطعام لكبرهما إن صحَّ.

﴿فَقَالَ﴾ بعد سؤاله ﴿أَحَطتُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ علما وأتقنته، وهذا استمالة لقلبه قبل أن يخبره ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ اسم بلد سُمِّيَ باسم مالكه، أو قوم سمُّوا باسم أبيهم، ذلك الملك سبأ بن يخشب بن يعرب بن قحطان.

[قصص] جاء الحديث بأنَّ له عشرة أولاد تيامن منهم سِتَّة: حمير وكندة والأزد وأشعر وخثعم، ومَذحِج، وتشاءم أربعة: لخم وجدام وعاملة وغسان. وقيل: سبأ لقب أبي الحيِّ قحطان، واسمه عبد شمس أو عامر، وهو أوَّل من سَبَى [في غزوِهِ].

[نحو] ودخول «ال» على سبأ وأندلس وصين وهند وسند خطأ، لأنَّها أعلام عجميَّة لا يصلح فيها لمح أصل، وسبب استعماله الغفلة والتقليد، ولو سئل عنه مستعمله من العلماء لأجاب بالمنع.

﴿بِنَبَإٍ﴾ خبر ﴿يَقِينٍ﴾ راسخ في الثبوت ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ تملك سبأ وهو قوم، أو أهل سبأ، تتصرَّف فيهم تصرُّف المالك للمال في ماله.

[قصص] بِلقيس (بكسر الباء) معرَّب بَلقيس (بفتحها) بنت شراحيل بن مالك بن ريان، من نسل يعرب بن قحطان، أو نسل تبع، وقيل: اسمها ليلى، فإن صحَّ فلعلَّ بلقيس لقب، وقيل: أبوها السرح بن الهداهد، ملك اليمن من أربعين أبا كلُّهم ملوك هو آخرهم، ولا ولد له غيرها، فغلبت على الملك بعده.

[قصص] وقيل: عصاها قوم، وملَّكوا رجلا أساء السيرة ويفجر بنساء رعيته ولم يقدروا على قتله، فدعته للزواج مكرا به فأجاب، وسقته الخمر ليلةَ جُلِبَتْ فسكر فحزَّت رأسه، وذهبت إلى منزلها، فأحضرت وزراءه فأرتهم رأسه وقالت: ملِّكوا غيره، فقالوا: لا نملِّك سواك، وجاء الحديث بأنَّ أحد أبوي بلقيس جنِّيٌّ، ويقال: كان أبوها ملك اليمن ويقول لملوك الأطراف: لا كفؤ لي منكم أتزوَّج منه، وكان كثير الصيد، وكان يصيد الظباء، فيتبيَّن له أنَّها جنٌّ، فيطلقها، وظهر له ملك الجنِّ، وشكر له فعله، وَاتَّخَذَه صديقا، وزوَّج له ابنته، وهي ريحانة بن

السكن، فولدت له بلقيس. وقيل: رأى حيَّة سوداء تغلَّبت على بيضاء، فقتلها وحمل البيضاء وصبَّ عليها الماء وأطلقها، ورجع إلى داره وقعد منفردا فإذا شابٌّ جميل فخاف، فقال: لا تخف أنا الحيَّة البيضاء، وأمَّا السوداء فعبد طغى قتل عدَّة مِنَّا، فعرض عليه المال، قال: لا حاجة لي فيه ولكن زوِّجني بنتك إن كانت لك بنت، ففعل، فولدت له بلقيس.

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ المراد الكثرة لا حقيقة الكلِّيَّة، أو المراد من كلِّ شيء يحتاج إليه الملوك.

[قصص] ﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾ سرير ﴿عَظِيمٌ﴾ من ذهب قوائمه من جوهر ولؤلؤ مرصَّع بالزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر، طوله ثمانون ذراعا وكذا عرضه على الأرض، وارتفاعه ثمانون، عليه سبعة أبيات بأبواب مقفلة، وليس لسليمان مثله، ولو كان ملكه أضعاف ملكها، يروى أنَّ تحت يدها أربعمائة مَلِك مع كلِّ مَلِك كورة وأربعة آلاف مقاتل، ولها ثلاثمائة وزير يدبِّرون ملكها، ولها اثنا عشر ألف قائد مع كلِّ قائد اثنا عشر ألف مقاتل. أخبر هدهد أرض بلقيس بذلك هدهد سليمان، وقال له: هل أنت منطلق معي لترى ذلك وترى بلقيس. وقيل: لها مائة ملك مع كلِّ ملك مائة ألف مقاتل. وعن ابن عبَّاس: أهل مشورتها ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلا، تحت كلِّ رجل عشرة آلاف، وحضروا كلُّهم في شأن كتاب الهدهد.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ بوجوههم ويعبدونها وهم مجوس يعبدون الأنوار ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ لا يعبدونه وحده ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ عبادة الشمس وسائر المعاصي ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ سبيل الحقِّ ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ للهِ﴾ لِئَلَّا يسجدوا فحذف لام التعليل، متعلِّقة بـ«زَيَّنَ» أو بـ«صَدَّ»، أو لا تقدَّر اللام، فانتفاء السجود بدل من «أَعْمَالَهُمْ»، وانتفاء السجود عمل، والقرآن حاكم بأنَّ ترك العبادة عمل، وعمل سائر المعاصي عمل، وذلك عموم قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

[سورة السجدة: 17]، وقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [سورة التوبة: 95]، ونحو ذلك. وأجيز تقدير «إلى» وزيادة «لا» متعلّقا بـ«يَهْتَدُونَ»: لا يهتدون إلى أن يسجدوا، وأن يكون خبرا لمحذوف، أي عادتهم أن لا يسجدوا[1].

﴿الذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ المخبوء فيهما، أي المغيَّب، فهو مصدر بمعنى «مفعول». وفسَّره بعض بالمطر والنبات، وبعض بالماء، ولعلَّ ذلك تمثيل والمراد العموم. ﴿وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ الواو للناس والجنِّ والطير وسائر الحيوان، وذلك في شأن علم الغيب مدحا به، أو للإنس والجنِّ وذلك في شأن الجزاء. ﴿اللهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ استحقار لعرش بلقيس، فإنَّ الكرسيَّ فيه كحلقة في فلاة، والسماوات والأرض في الكرسيِّ كحلقة فيها مع تفاوت الجسمين تفاوتا لا يعلم قدره إلَّا الله ﷻ.

﴿قَالَ﴾ سليمان للهدهد ﴿سَنَنظُرُ﴾ نستعمل فكرنا فيما ذكرت لنا. والسين للاستقبال، لأنَّ الأمر الفخيم هكذا لا يعاجل على فوره، ويجوز أن يكون للتأكيد، أو له وللاستقبال، والنون لسليمان ومن يتدبَّر معه، أو له وحده، إعظاما لِمَا أعطاه الله لا لنفسه، ومعمول «نَنظُرُ» هو مجموع قوله: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وقدَّم الصدق لأنَّه الأصل، ولم يقل: أم كذبت، للفاصلة مع التلويح بأنَّه لو كذب فيما قال مع النبوءة والملك الفخيم لكان من الراسخين في الكذب، لا لهذا وحده، ولا للفاصلة وحدها. وقال ذلك مع أنَّه لم يجرِّب عليه كذبا قطُّ إعظاما للمقام، وتخويفا لغيره على الزلل. أو أراد بالكذب الخلل في الأمر الذي حكاه له بنوع ما ولو بلا عمد، فإنَّ الكذب يطلق على ذلك أيضا. وفسَّر النظر المذكور بقوله: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا﴾ أشار إلى كتاب كتبه بعد حينه ذلك بمدَّة، أو عقب خطابه للهدهد، وهذا أيضا

---

(1) ويجوز أن يكون «ألَّا» كلمة تحضيضية، بمعنى هلَّا، فأبدلت هاؤها همزا، وقرئ بالتخفيف بمعنى ألا الافتتاحية، وهذا خلاف للقاعدة النحوية في حذف نون الأفعال الخمسة بدون موجب.

استقبال وخصَّ الهدهد به لأنَّه أشدُّ أمنا به من الجنِّ والإنس وسائر الطير، وللترهيب لهم بأنَّ ملكه جرى على الطير كما جرى على غيرها.

[فقه] والكتابة إلى ملوك الشرك أمر شرعيٌّ، كما كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وملوك العرب، وبلغ خبره أمم الشرك وأنعم الله ﷻ علينا بسلطان الإسلام التركي يقاتلهم ويغلبهم بإذن الله[1].

﴿**فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ**﴾ إلى القوم الذين ملكتهم المرأة، وذلك بإلقائه إليها ﴿**ثُمَّ تَوَلَّ**﴾ تنحَّ ﴿**عَنْهُمْ**﴾ بحيث تسمع ما تقول المرأة أو يقال عنها ويجهر به في قومها، ولا يأخذونك ولا يضرُّونك وذلك للمصلحة، قيل: وللتأدُّب مع الملوك ﴿**فَانظُرْ**﴾ تأمَّل، قيل أو انتظر ﴿**مَاذَا**﴾ اسم واحد مركَّب استفهامي مفعول مقدَّم لقوله: ﴿**يَرْجِعُونَ**﴾.

[نحو] والمجموع مفعول «انظُرْ» علِّق بالاستفهام، أو «مَاذَا» مبتدأ فخبر عند سيبويه، يخبر بالمعارف عن أسماء الاستفهام المنكرات ومن ذلك: من أنت؟ وما هذا؟ أو خبر فمبتدأ عند الجمهور، فاحفظه ولو لم أعده، و«ذَا» اسم موصول، والجملة معمول «انظُرْ»، و«يَرْجِعُونَ ذا» أي يرجعونه. وعلى كلِّ حال يكون المعنى: ماذا يرجعون في جواب الكتاب الذي تلقيه.

[قصص] علَّم الله هذا الهدهد لغة الناس المرسل هو إليهم. ختم الكتاب بالمسك، وطبعه بخاتمه، وعلَّقه في عنقه، أو أخذه بمنقاره، وطار به، ودخل كوَّة تسجد للشمس كُلَّ يوم إذا دخلت منها، فقامت إلى الكوَّة، فألقى الكتاب إليها، أو دخل وألقاه بين ثدييها وهي مستلقية، أو على نحرها وهو أعلى الصدر، أو نقرها فيقظت من نومها، أو رفرف وقت خروجها من البيت وحضور القواد والجنود وغيرهم فنظروا أو نظرت، ورفرف فألقاه في حجرها.

---

(1) يشير الشيخ إلى تكالب الدول الغَربيَّة على الدولة العثمانيَّة في حروب البلقان وغيرها في أيَّامه، وسيأتي ذلك أيضا في آخر السورة.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (31) قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (32) قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ (33) قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (34) وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ (35) فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ (37) قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ (40) قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41) فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ (43) قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (44)﴾

ـ 3 ـ

إسلام بلقيس وولاؤها وزيارتها لسليمان عليه السلام

﴿**قَالَتْ**﴾ بعد الذهاب والإلقاء، ولم يذكرهما لظهورهما، وإيذانا بالمسارعة في ذلك ﴿**يَآ أَيُّهَا المَلَؤُاْ اِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ اِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ السلام على من اتَّبَعَ الهدى ﴿**أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَاتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾ كتب إليها وهي قارئة، كاتبها بعربيَّة سبأ وأشكال حروفهم لأنَّ الهدهد أخبره أنَّها من سبأ ومن نسل يعرب بن قحطان، أو نسل تبع، وهو المشهور، وفيهم جودة الخطِّ، وتعلَّم أهل الحجاز منهم الخطَّ، وقد علَّم الله عز وجل سليمان نطق الطير فهو أحقُّ أن يعلِّمه لغة العرب وأشكال حروفها وهي أفضل لغة وحروفها أفضل أشكال، ويحتمل أنَّه كتب إليها بِالعَرَبِيَّةِ وأشكالها على يد ترجمان يترجم إليها لغته، أو لها ترجمان يترجم لها لغة سليمان وأشكال حروفها، أو كانت تعرف لغة سليمان وحروفه، واختار بعض أن لا يغيِّر لغته وحروفه إلى لغتها وحروفها. فزعت أوَّلا بالكتاب، ثمَّ اشتدَّ فرحها، ألا ترى إلى قولها: «إِنِّي» وقولها: «إِلَيَّ» وقولها: «كِتَابٌ كَرِيمٌ»، ومن كرمه أنَّه مختوم بالمسك، ففي الحديث: «**كرم الكتاب ختمه**»[(1)]، وفسَّره ابن عبَّاس به، فيستحبُّ ختم الكتاب لذلك، وهو أن يطوى ويغلق عليه بمانع كما نختمه بعلك، ويقال: من كتب إلى أخيه كتابا لم يختمه قد استخفَّ به.

ومن كرامته أنَّه باسم ملك عظيم، وأنَّه على غير معتاد إذ جاء به طائر، وأنَّه قصدها، أو لبدئه باسم الله عز وجل، فقد أقرَّت به ولو عبدت غيره، وإن لم تعرفه فقد استغربت ذكره، وقيل: من كرمه أنَّه من السماء، ويردُّه أنَّه من سليمان فلا تظنُّه أنَّه من الله عز وجل، ولا من الشمس التي تعبدها.

---

(1) أورده **العجلوني** في كشف الخفاء، ج2، ص109، وقال: «رواه القضاعي عن ابن عباس... وأخرجه الطبراني في الأوسط... بسند فيه متروك».

ولم تذكر اسم الملقي لجهلها به على أنَّه ألقي إليها وهي نائمة، أو لتحقيرها إِيَّاهُ على أنَّها أخذته من الهدهد في الكوَّة، أو يقظت حين ألقاه، وهو خلاف ما مرَّ أنَّه من الكرم، وذلك محتمل.

أو لإيهام قومها أنَّ لها اتِّصالا بأمور لا يعلمون طرقها، وعلى أنَّه ألقاه إليها بحضرة الناس فللعلم به ولعدم الاهتمام به، وهو خلاف ما مرَّ من الكرم.

وكأنَّه قيل: مِمَّن هذا الكتاب؟ وما مضمونه؟ فقالت مؤكِّدة لشأنه وللجواب: «إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ»، والهاء الأولى للكتاب، والثانية لمضمونه.

أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن رومان أنَّ لفظ العنوان: «بسم الله الرحمن الرحيم، من سليمان بن داود إلى بلقيس ابنة ذي شرح وقومها، أن لا تعلوا عليَّ...» فقدَّم اسم الله ولو لم تقدِّمه بلقيس في كلامها، أو ذكر في العنوان سليمان وحده وقدَّم عليه في داخل الكتاب البسملة، ولا ضعف في قول أبي حيَّان: إنَّه بدأ باسمه وقاية لاسم الله ﷻ عَمَّا قد يصدر منها إذ كانت كافرة.

[نحو] وقوله: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَاتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ لفظ واحد بالحكاية خبر لأَنَّهُ مفرد، وأمَّا قبل الحكاية فـ«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» متعلِّق بمحذوف خبر مقدَّم، و«أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ» مبتدأ بالتأويل، و«أَنْ» مَصدَرِيَّة، و«لَا» نافية، أي بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ انتفاء علوِّكم عليَّ. «وَاتُونِي مُسْلِمِينَ» جملة طلبيَّة معطوفة على خبريَّة، بل لا تخلوا هذه الخبريَّة عن طلب. ويجوز أن يكون «أن» تفسيريَّة لمضمون الكتاب و«لَا» ناهية.

وخصَّت هذه الأمَّة بالبسملة إلَّا سليمان، أو هي في كلامه بغير العَرَبِيَّة. ومعنى ﴿مُسْلِمِينَ﴾: مؤمنين بالله وحده وأنَّ سليمان رسوله، وهكذا دعاء الأنبياء وإن طولبوا بالحجَّة أقاموها، وهذا شأنه ولا يقدح فيه أنَّها سمَّته ملكا لجهلها.

﴿**قَالَتْ يَآ أَيُّهَا الْمَلَـؤُاْ اَفْتُونِي فِي أَمْرِي**﴾ كرَّرت نداءهم لشدَّة اعتنائها بالنازلة وشدَّة اعتنائها بأن يعينوها ويساعدوها، ولذلك أيضا قالت: ﴿**مَا كُنتُ قَاطِعَةً اَمْرًا**﴾ من أمور الملك ﴿**حَتَّى تَشْهَدُونِ**﴾ تحضروني فيه، والإفتاء: ذكر ما يجري عليه في الأمر الحادث والتقوية فيه، وكأنَّه من الفتوَّة وهي حداثة السنِّ ولا تخلو عن قُوَّة، وذكرت أنَّ من شأنها أنَّها لم تستقلَّ عنهم بأمر، وأنَّها إلى الآن كذلك، **وهكذا يستحبُّ في الشرع المشاورة في الأمر المهم.**

﴿**قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ**﴾ في الأجساد كما هو ظاهر، وفي الأعداد لجواز أن يقال: عدد قويٌّ، بمعنى أنَّه كثير لم يضعف لقلَّته. قيل: كان أهل مشورتها ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلا تحت كلِّ واحد عشرة آلاف.

﴿**وَأُولُواْ بَأْسٍ**﴾ ضربا لشجاعة ﴿**شَدِيدٍ**﴾ مفرط ﴿**وَالَامْرُ**﴾ أي الشأن، أو ضدُّ النهي ﴿**إِلَيْكِ**﴾ أي إليك لا إلى غيرك منتهٍ، أو موكول، وقيل: المعنى نحن من أبناء الحرب لا الرأي، والرأي إنَّما هو إليك ﴿**فَانظُرِي مَاذَا تَامُرِينَ**﴾ من صلح أو قتال، فنحن لك تبع. و«مَاذَا» مفعول مطلق لـ«تَامُرِينَ» أو ما الأمر الذي تأمرينه، ومعنى أمر الأمر إيقاعه، كما تقول: الضرب ضربته أي أوقعته، وأجاز بعض تقدير: ما الذي تأمرين به؟.

﴿**قَالَتِ**﴾ لَمَّا رأت ميلهم إلى القتال وهي مائلة إلى الصلح ﴿**اِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً**﴾ من القرى بالحرب ﴿**اَفْسَدُوهَا**﴾ بتخريب العمارة، وفصل المتَّصل، وإتلاف الأموال ﴿**وَجَعَلُواْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً**﴾ بالقتل والأسر والإجلاء، والاستعباد والاستخدام وغير ذلك، أحسَّت أنَّ ملكها مع قوَّته بالنسبة إلى ملك سليمان كالعدم، فأرشدتهم إلى ما هو خير لهم من الحرب التي مالوا إليها.

﴿**وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ من عادتهم ذلك، وهو تأكيد لِمَا قبله، وزعم بعض أنَّها أرادت بالملوك سليمان ومن تحته، وهو خلاف الظاهر بلا دليل، مع أنَّها

تحتاج في ذلك إلى أنَّها قد علمت أنَّ سليمان دخل قرى وأفسدها وجعل أعزَّة أهلها أذلَّة، وإن قيل: أرادت توقُّع ذلك منـــه بقي أنَّ الجري على ذلك خلاف الظاهر بلا دليل كما مرَّ.

وزعم بعض أنَّ قوله: ﴿وَكَذَٰلِــكَ يَفْعَلُونَ﴾ من كلام الله تعالى اعترض به في كلامها تصديقا لها.

﴿**وَإِنِّي مُرْسِــلَةٌ اِلَيْهِم**﴾ إلى ســـليمان ومن تحته ﴿**بِهَدِيَّةٍ**﴾ متعلِّق بنعت المفعول به، أي مرسلة إليهم رســـلا مقترنين بهديَّة، أو الباء صلة في مفعول به، أو بمعنى لام التقوية، أو ضمِّن «مُرْسِـــلَةٌ» معنى منتهية، والتنكير للتعظيم ﴿**فَنَاظِرَةٌ**﴾ منتظـــرة ﴿**بِمَ**﴾ متعلِّق بقولـــه: ﴿**يَرْجِعُ**﴾ مســـلَّط لـ«نَاظِرَةٌ» على العمل في مجموع قوله: ﴿يَرْجِعُ﴾ ﴿**الْمُرْسَـــلُونَ**﴾ فإن كان ســـليمان سلطانا دنيويًّا قبل الهدية وغضب فنعامله بما يليق، وإن كان نبيئا من الله ﷻ لم يقبلها وبشَّ ولا نخرج عنه.

﴿**فَلَمَّا جَآءَ سُــلَيْمَانَ**﴾ أي هو، أي المال، والهدية في معناه، فذكرها ولم يؤنِّثها، ويدلُّ لهذا قوله: ﴿**قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ**﴾؟ ولا يعود إلى الرســـول لأنَّه قال: ﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَـــلُونَ﴾ ولم يقل: بم يرجع الرســـول، ولو جاز تأويل ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ بجنس الرســـول، لأنَّه خلاف المتبادر، اللهمَّ إلَّا أن يعتبر كبير رسلها وهو المنذر بن عمرو، على أنَّهم لا يلقون سليمان كلُّهم، ويتقوَّى هذا بقوله: ﴿ارْجِعِ اِلَيْهِم﴾ بالإفراد، أو يلقونه ويخصُّه بالخطاب. والإمداد الزيادة، والخطاب لها ولرسلها، تغليب للحضور والذكورة.

[قصص] والهدية قيل: مائة وصيف على البراذين، أو خمســـائة، ألبستهم لباس النساء وأمرتهم أن يخنِّثوا كلامهم، ومائة وصيفة على الرماك أو خمسمائة ألبستهنَّ لباس الرجال، وأمرتهنَّ بتغليظ الكلام كالرجل، وحق فيه درَّة عذراء وخرزة جـــزع معوجة الثقب، وميَّز الإناث بأخذ المـــاء بيد وإلقائه في أخرى،

وغســـل الوجه بذلك وإلقائه الماء على باطن الساعد، والذكور بأخذه باليدين وغســـل الوجه بهما وإلقائه على ظهر الســـاعد، وأخذت دودة بيضاء شـــعرة فدخلت بها الثقب حتَّى خرجت من الخرزة، وثقبت الأرضة الدرَّة. ويروى أنَّه فرش تســـعة فراســـخ بلبن الذهب والفضَّة، وأخلى فيها مقدار ما أرسلت من اللبن كأنَّها سرقت من تلك الفراســـخ، وجعل على الفراسخ دواب أفضل مِمَّا أرســـلت من الدوابِّ، تبول على لبـــن الذهب والفضَّة وتـــروث عليها، وفي الهدية عصا توارثها ملوك حمير، وقالت: بيِّن لي رأســـها، فأرسلها في الهواء فما وقع على الأرض فرأسها، وقدر تريد ملأه بماء ليس من أرض ولا سماء، فأجرى الخيل وملأه بعرقها[1].

وبشّر بالرسل إذ جاءوا، ولَمَّا رأى الهديَّة أنكر عليهم، وقال: ﴿أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ﴾؟ ومعناه أنَّ هذا خطأ منكم، ولهذا علَّلـــه بقوله: ﴿**فَمَآ ءَاتَانِيَ اللَّهُ**﴾ من النبوءة والمال والملك ﴿**خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَاكُمْ**﴾ من مال وملك.

﴿**بَلَ اَنتُم**﴾ لا أنـــا ﴿**بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ**﴾ إضـــراب انتقاليٌّ إلى تنقيصهم بفرحهم بمـــا أهدوا إليـــه، واعتنائهم به، وعدِّهـــم إيَّاهُ بما يفـــرح به، أو إلى تنقيصهم بالفرح بما يهدى إليهم، أو إلـــى أنَّه أعطاهم تلك الهديَّة التي جاءوا بها فيفرحون، وفيه خفاء.

والخطاب للرسل، دخلوا عليه كلُّهم كما هو الظاهر، أو كبيرهم المذكور كما أفرد ضمير الرســـل فـــي قوله: ﴿**ارْجِـــعِ اِلَيْهِمْ**﴾ يا منذر بـــن عمرو، ولو حضروا، لأنَّ خطابه خطاب لهم، لأنَّه أعظمهم. وقرئ: «ارجعوا».

والهاء فـــي «إِلَيْهِمْ» لبلقيس ومـــن تحتها غير تلك الرســـل، وقيل: ارجع يا هدهد إليهـــم بكتاب آخر ينذرهم بقتال، وهو ضعيـــف، وقد أخبره الهدهد

---

(1) عجبا لهؤلاء القصَّاصين يخرفون بما لا يتصوَّر عقلا ولا يستقيم منطقا!.

بالهديَّة قبل أن تصلــه، وعلى كلِّ حال لم يردَّها إليها بل أمســكها كما طلب عرشها، وقيل: ردَّها، **وللإمام العدل الأصلح من قبول أو ردٍّ.**

﴿**فَلَنَاتِيَنَّهُم**﴾ لعدم إتيانهم مسلمين ﴿**بِجُنُودٍ**﴾ فأقسم بالله لنأتينَّهم، عطف على «ارْجِعْ» عطف إنشاء على آخر، لأنَّ القســم إنشاء، وهذا يغني عن جعل ذلك جوابا لمحذوف هكذا: إن لم يأتوا مســلمين فلنأتينَّهم بجنود من الجنِّ والإنس أصيِّرهم آتين، فالباء للتعدية، أو نأتــي مقترنين بهم فهي للمصاحبة ﴿**لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا**﴾ لا مقابلة لهم بها، لأنَّهم أكثر وأقوى جدًّا، وعبَّر بالقِبَل عن الطاقة، لأنَّها سبب المقابلة وملزومها.

﴿**وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ**﴾ من سبأ بالأسر والاســتعباد، لا بالقتل لقوله: ﴿**أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ اللهــمَّ إلَّا إن أريد بالعموم بالقتل والأســر، بأن يقتل بعضا ويأســر بعضا، ولا قتل إلَّا بعد ذلٍّ وصغر بعد عزٍّ وتمكُّــن، والمراد بالصغر خصوص ما ينالهم بالأسر والاستعباد.

﴿**قَالَ يَآ أَيُّهَا الْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَاتِينِــي**﴾ طلب فردا واحدا منهم، وهذا من القُوَّة بمــكان، إذ كان غير محتاج إلى تعــدُّد ﴿**بِعَرْشِــهَا**﴾ وفي الكلام حــذف، أي فرجع الرســول أو الهدهد إليهــا فأخبرها فآمنــت، وأقبلت بملوكها بعد أن جعلت عرشــها في بيت دار به ســبعة أبيات، ووكلت به حرسا. وروي أنَّها أرســلت إليه: إنِّي قادمة إليك بملوكي لأنظر ما تدعو إليه، ولَمَّا كانت على فرســخ من ســليمان رأى رهجا، فقيــل: له إنَّه من بلقيس، فقال: ﴿أَيُّكُمْ يَاتِينِي بِعَرْشِهَا﴾؟ ومراده إعزاز الإسلام به، وإقامة الحجَّة عليها بقدرة الله ووحيه.

﴿**قَبْلَ أَنْ يَّاتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾ مذعنين لِمَا أتصرَّف فيهم وعليهم، فيرقُّ لهم قلبي، أو مؤمنين بالله ورسله وشرعه، فلا يحلُّ لي، وليس هذا من أخذ الغنائم فضلا عن أن يعتــرض باختصاصها بســيِّدنا محمَّد ﷺ، بل شــيء أباحه الله

لسليمان عليه السلام بلا قتال، كما قبل الهديَّة، والجمهور على أنَّه لم يقبلها، وقيل: استدعى كرسيَّها ليرى قدر عقلها إذا رأته، أو ليرى قدر ملكها، لأنَّ سرير الملِك على قدر ملكه.

﴿**قَالَ عِفْرِيتٌ**﴾ خبيث مارد يخلط أقرانه بالعفر وهو التراب من الإنس أو الجنِّ، والمراد هنا أنَّه من الجنِّ كما قال: ﴿**مِنَ الْجِنِّ**﴾ صخر بن إبليس عند الطبري وابن أبي حاتم عن ابن عبَّاس، وهو كالجبل يضع قدمه عند منتهى طرفه، أو كوزن أو كوزى، روايتان لابن أبي حاتم عن غير ابن عبَّاس، أو ذكوان أو كوذى.

﴿**أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ**﴾ يحتمل أنَّه مضارع كما هو مضارع في قوله: ﴿أَيُّكُمْ يَاتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ والأولى أنَّه اسم فاعل للاستقبال، واسم الفاعل أبلغ من المضارع، مع أنَّه تكلَّم به من يدَّعي القُوَّة والقدرة على الإتيان به في مدَّة قصيرة مع بعده وثقله، والأصل في الخبر الإفراد، وهو أنسب بإفراد الخبر في قوله: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ اَمِينٌ﴾.

﴿**قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ**﴾ قيل: كان يمكث من الصبح إلى الظهر للحكم بين الناس، وهو المشهور، أو قبل أن تستوي قائما من موضع قيامك أي مكثك.

﴿**وَإِنِّي عَلَيْهِ**﴾ على حمله، أو على إحضاره، وهو أولى، لأنَّه يتضمَّن الحمل ويناسب «يَاتِينِي» من قوله: ﴿أَيُّكُمْ يَاتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ وقوله: ﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ﴾ وفي معنى ذلك أن تقدِّر: وإنِّي على حمله إليك، وتقليل المحذوف أولى. ﴿**لَقَوِيٌّ**﴾ القُوَّة صفة تصدر عنها الأفعال الشاقَّة فاختير قويٌّ على قدير، كذا قيل، وفيه أنَّ القدرة تصلح لذلك ﴿**اَمِينٌ**﴾ لا أخون بأخذ شيء منه، ولا أبدِّله أو بعضه.

﴿**قَالَ الذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَّرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ**﴾ أعاد القول بيانا لتفاوت القولين ورجحان الثاني، حتَّى إنَّه لا اعتبار للأوَّل،

إلَّا إذا فسَّـــرنا القيام من مقامك باســـتوائك واقفا، فإنَّه قريب من مقدار ارتداد الطرف، لكن يبقى التفاوت ببعض المدَّة، وبأنَّ ما مِنْ عِلْمٍ من الكتاب أقوى وأنســـب مِمَّا نُسِـــب لقوَّة البدن، والعلم إدراك، أو أمر معلوم أدركه يجاب به الدعاء. و«الكتاب» التوراة، أو الجنس، أو اللوح المحفوظ.

[قصص] وقيـــل: الذي أرســـل إلـــى بلقيس هـــو آصف بـــن برخيا بن شمعيا بن منكيل، وأمُّه باطور من بني إسرائيل، وهو وزير سليمان، وابن أخته يعلم الاسم الأعظم، وكان كاتبه، أو هو رجل اسمه أسطوم، وقيل: أسطورس، وقيـــل: رجل يقال لـــه ذو النور، وقيـــل: الخضر، وقيل: رجل اســـمه ملخ أو تمليخا، وقيل: رجل يقال له هـــود، وقيل: ضبَّة بن أد جدُّ بني ضبَّة من العرب يخدم سليمان، وكان على قطعة من خيله، وقيل: جبريل، وقيل: **ملك آخر من الملائكة أيَّد الله به سليمان** عَلَيْهِ السَّلَام.

والمشـــهور الأَوَّل آصف، دعا: «يا حيُّ يا قيوم، يـــا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيوم يا إلهنا وإله كلِّ شـــيء إلها واحدا إيتيني بعرشـــها» دعا بذلك فأتت به الملائكة مـــن تحـــت الأرض، ووضعته بين يدي ســـليمان. وكاف «ءَاتِيكَ» في الموضعين لسليمان. وقيل: هو سليمان لأنَّه أعلم أهل زمانه سجد ودعا، فالكاف الثانية وكاف «إِلَيْكَ» و«طَرْفُكَ» خطاب منه للعفريت استحقار منه لقوَّة العفريت بالنسبة لِمَا في العلم.

ومعنى إتيـــان ســـليمان به للعفريـــت اســـتحضاره في موضع هـــو فيه، والصحيح هو الأَوَّل، وتخصيص أحد مـــن أمَّة نبيء بما لم يكن لذلك النبيء لا يقدح فيه، لأنَّ لله أن يفعل ما شاء، وأيضا لم يخبرنا الله أنَّ سليمان لا يقدر على ذلك وأيضا ذلك الرجل مع عظم شأنه تحت سليمان، وخدم من خدمه. والموصول وصلته يجوز استعماله في غير معلوم للتعظيم، نحو ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [سورة طه: 78] فلا يلزم أن يكون هو سليمان.

وقوله: ﴿مِـن فَضْلِ رَبِّي﴾ حمـد على ما أجرى الله تعالـى له على من تحت يده، وأيضا جرى على يد آصف ليعلم الناس أنَّه خليفة بعده، ويعلموا فضله، وأنَّ ما ناله إنَّما ناله بصحبته سليمان. والمراد بارتداد الطرف مدَّة رجوع نظره إليه بحسب اختياره، لا إلى خصوص نفسه فإنَّك تنتقل من نظر شيء إلى ما شئت من إمساكه عن النظر ومن نظره إلى آخر، وفسَّره بعض بانضمام الجفن بعد فتحه.

ويروى أنَّ آصف بن برخيا قال لسليمان: مدَّ عينيك حتَّى ينتهي طرفهما فنظر نحو اليمين كذلك فحضره العرش، قبل ارتداده.

﴿**فَلَمَّا رَءَاهُ**﴾ بعينيه ﴿**مُسْتَقِرًّا عِندَهُ**﴾ الاستقرار كون خاصٌّ لا عامٌّ، ولذلك ذُكِر ولم ينب عنه الظرف، فإنَّ المراد به الثبوت مع الرسوخ وعدم التزلزل إلى جهة. وبين موضعه من الشام وموضع العرش من مأرب مسافة شهرين، وقيل: هو حينئذ في صنعاء فبينه وبين العرش ثلاثة أَيَّام. وجاء بين السماء والأرض، وقيل: انشقَّت به الأرض، وقال ابن العربي: أعدمه الله في محلِّه وأوجده عند سليمان، كخلق الميِّت بعد موته.

﴿**قَالَ هَٰذَا**﴾ ما ذكر من استقراره عنده ﴿**مِن فَضْلِ رَبِّي**﴾ لي أو عليَّ، من غير استحقاق ذاتي ﴿**لِيَبْلُوَنِي**﴾ خبر ثان، أو متعلِّق بقوله: ﴿مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ ﴿**ءَآشْكُرُ**﴾ هذه النعمة بزيادة العبادة وزيادة الإيمان، وزيادة التواضع والتبرؤ من حولي وقوَّتي وحول غيري وقوَّته ومن اعتبار الوسط ﴿**أَمَ اَكْفُرُ**﴾ عكس ذلك ﴿**وَمَن شَكَرَ**﴾ نعم الله ﴿**فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ**﴾ قصد الشكر لنفع نفسه بإدامة الموجود، وجلب غيره، وأداء الواجب، أو قصده تعبُّدا بدون قصد النفع، أي فشكره عائد إليه ﴿**وَمَن كَفَرَ**﴾ النعمة، جوابه محذوف أي فإنَّما أهلك نفسه، أغنى تعليله عنه بقوله: ﴿**فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ**﴾ أي لأنَّ الله غنيٌّ عن شكره لا نفع له فيه لا يضرُّه كفره، فإنَّه خالق النفع والضرِّ، ومن شأنه الكرم

على العاصي والمطيع، وحصلت المناسبة لقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾ لا يقطع النعم بكفرها، ولا يُعجِّل به الانتقامَ إلَّا قليلا. [قلت:] ولا تجز في القرآن أو غيره أن تكون «من» موصولة والفاء صلة في خبر المبتدأ إلَّا لداع صناعيٍّ أو معنويٍّ.

﴿قَالَ﴾ يعلم أنَّ ما بعده من كلام سليمان ولو لم يكرِّره لأنَّ الكلام قبلُ وبعدُ له، لكن كرَّره لأنَّ ما قبله في الشكر وما بعده لأمر الخدمة ﴿نَكِّرُواْ لَهَا﴾ أي عنها، أو اللام للبيان كـ﴿هِيتَ لَكَ﴾ [سورة يوسف: 23]، ليظهر أنَّ التنكير لأجلها خَاصَّةً، أي غيِّروا لها، ﴿عَرْشَهَا﴾ بحيث تنكر الجزم به، بالزيادة فيه أو النقص لجواهره أو بعضها مثلا، أو بجعل أسفله أعلى، أو مقدِّمه مؤخَّرا، أو بكلِّ ذلك.

﴿نَنظُرَ اَتَهْتَدِي﴾ إلى معرفته أو إلى الجواب اللائق، وتغييره لا يكون سببا للاهتداء للإيمان ولا لعدم الاهتداء، فلا يقال: ننظر أتهتدي إلى الإيمان أم لا، نعم إن فسَّرنا التنكير بالعبارة لا في نفس العرش بأن يبقى كما هو فتشاهده عنده كما هو، وقد خلَّفته في بيت وراءه سِتَّة، فهو داخل سبعة بيوت بحراس، فلعلَّ مشاهدته كما هو تكون سببا للإيمان.

﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى ما ذكر بأوجهه، أي أم تبقى على عدم الاهتداء للإيمان، أو تكون من الذين لا يهتدون إلى بيان العرش، إن قوبل به وقد عرفه قبل.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ بلقيس سليمان ﴿قِيلَ﴾ قال لها سليمان أو مأموره ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ قيل لها ذلك بعد تغيير في نفس العرش، وإن قيل لها بدون تغيير في نفسه فقد حصل التغيير بعبارة التشكيك، إذ لم يقل لها: أهذا عرشك بعبارة التلقين.

ومراده عَلَيْهِ السَّلَامُ إظهار المعجزة لتؤمن لا اختبار لها إذ قال له بعض الجنِّ: إنَّها مجنونة، وإنَّ يدها يد حمار وأعضاءها أعضاء الدوابِّ حسدا أن يتسرَّاها

فيلد منها ولدا في فطنة الإنس وخفَّة الجنِّ، فيملكهم ويضبطهم بعده، كما زعم بعض أنَّ ذلك سبب استكشافه عن ساقيها.

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أجابتهم بصيغة عدم الجزم مع جزمها بأنَّه هو، مقابلة لقولهم: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ بلا تغيير في ذاته، ومراعاة احتمال أن يكون لسليمان مثله، وإن كان مغيَّرا في ذاته فلم تجزم لهذا الاحتمال وهذا التغيير. و«كَأَنَّ» موضوعة لغلبة الظنِّ وَقُوَّة التشبيه.

﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ هذا من كلام سليمان، أو قومه شكرا للنعمة، والصحيح أنَّه من كلام بلقيس، والمراد بالعلم العلم بالله ورسوله سليمان عليه السلام، والضمير في «قَبْلِهَا» للمعجزة، وهي حضور عرشها عنده، أو للحالة هذه لمشاهدة أمر الهدهد، وما أخبرتنا به رسلنا إليك.

﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ قبل هذه المعجزة والحالة، ولا حاجة إلى اختبارك لي، إنِّي آمنت قبله، و«نَا» والجمع على عادة الملوك في كلامهم لا تعظيم لنفسها لأنَّها رضي الله عنها متذلِّلة لله عز وجل، ولا تكلُّمٌ عنها وعن قومها لأنَّ قومها كافرون، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ﴾ «مَا» مَصدَرِيَّة، والمصدر فاعل «صَدَّ»، أي صدَّها عن الإسلام قبل أو عن إظهاره إلى هذا الحال كونها تعبد غير الله سبحانه، أو «مَا» نكرة موصوفة، أو اسم موصول واقعة على «الشمس» فاعل «صَدَّ»، أي صدَّها عن الإسلام قبل ذلك شيء تعبده من دون الله، وهو الشمس، أو الشيء الذي تعبده من دون الله، أو الشمس التي تعبدها، والرابط في ذلك كلِّه مقدَّر كما رأيت. وإسناد الصدِّ إلى ما كانت تعبده مجاز عقليٌّ لعلاقة السَّبَبِيَّة، وحقيقته: وصدَّها الله بما كانت تعبده، وإسناده إلى العبادة على وجه المَصدَرِيَّة حقيقة على العرف ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ لَمَّا أسلمت لم تظهر الإسلام قبل هذا الحال لرسوخ كفرهم، وكأنَّه قيل: ماذا قيل لها بعد ذلك الامتحان؟ فأجيب بقوله:

﴿**قِيلَ**﴾ أي قال غير سليمان، أو سليمان ﴿**لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ**﴾ أو ذلك خبر ثان لـ«كَانَتْ» ولهذا ربط بالضمير من «لَهَا»، وأمَّا ما قيل من أنَّه جيء بـ«لَهَا» هنا دون «قِيلَ أَهَكَذَا» لمكان أمرها، فلا يتمُّ، لأنَّ «أَهَكَذَا» أيضا خطاب لها يستدعي جوابا، كأنَّه قيل: أجيبي.

والصرح: القصر العالي من معنى التصريح وهو الإظهار، وزعم بعض أنَّه هنا البركة، وبعض أنَّه صحن الدار أو ساحتها، ويناسبه قوله: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾.

[قصص] روي أنَّه أمر الجنَّ فبنوا لها الصرح من زجاج أبيض، وأجروا من تحته الماء ودوابَّ الماء، أو بنوا طبقات من الزجاج الذي هو كالماء بين كلِّ طبقتين ماء وحيوانه، وهذه المبالغة تنافي أنَّها أرادت أن تخوضه إلَّا إن تقاربت الطبقات، ووضع سريره في صدر المجلس، وجلس عليه، وعكفت عليه الطير والجنُّ والإنس، وذلك امتحان لها في الإيمان، وقيل: ليتبيَّن كذب من قال إنَّ رجلها رجل حمار إذا كشفت عن ساقيها تخوض اللجَّة، ولكن بان أنَّهما شَعْرَاوَانِ.

[فقه] وجاز لخاطب امرأة أن ينظر إلى وجهها وظهر قدميها، قيل: وشعرها وساقيها.

﴿**فَلَمَّا رَأَتْهُ**﴾ أي الصرح، أي أسفل الصرح ﴿**حَسِبَتْهُ لُجَّةً**﴾ ماء عميقا قدر ما تخوض فيه ﴿**وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا**﴾ أذيالها لِئَلَّا تبتلَّ ﴿**قَالَ**﴾ سليمان وقيل: قال القائل ادخلي، ويردُّه أنَّه لو كان ذلك لقال: قيل كما قيل أوَّلا، ﴿**إِنَّهُ**﴾ أي ما ترين من البناء كلِّه، أعلاه وأسفله ﴿**صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ**﴾ أو إنَّه بعض صرح ممرَّد، أي مجرَّد عمَّا يردُّ نفوذ البصر ﴿**مِن قَوَارِيرَ**﴾ قطعات زجاج، أو قطعات مجوَّفة منه، نعت ثان أو خبر ثان.

﴿قَالَـتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِـي﴾ بعبادة غيرك وكفري بسليمان، ومن أشرك فقد كفر بالأنبياء علم بهم أو لم يعلم، قبل علمه وبعده، ولا دليل يعلم به أنَّها أرادت أنِّي ظلمت نفسي بظنِّي أنَّ سليمان أراد إغراقي، أو بامتحانيه حتَّى امتحنني.

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلهِ﴾ مقتضى الظاهر: «لَكَ» وإسقاط «مَعَ سُلَيْمَانَ» ولكن أتت باسم الجلالة تعظيما لربِّها سبحانه بالألوهيَّة والتفرُّد باستحقاق العبادة والملك لكلِّ موجود، كما قال: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لَمَّا جدَّدت الإسلام بحضرته تزوَّجها، وأصدقها بعلبكَّ وأقرَّها على ملكها.

[قصص] وأمر الجنَّ فبنوا لها «سليحين» و«غمدان»[1] و«بيسنون»، ويزورها في الشهر مرَّة، ويقيم عندها ثلاثة أيَّام، وولدت له ابنا. أخرج البيهقي عن الأوزاعي في الزهد أنَّه كُسِر برج من أبراج تدمر فأصابوا فيه امرأة حسناء دعجاء مدمجة، كأنَّ أعطافها طيُّ الطوامير، عليها عمامة ثمانون ذراعًا مكتوب على طرفها بالذهب: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أنا بلقيس ملكة سبأ زوج سليمان بن داود عليهما السلام، ملكت من الدنيا كافرة ومؤمنة، ما لم يملكه أحد قبلي ولا يملكه أحد بعدي، صار مصيري إلى الموت، **فأقصروا يا طالبي الدنيا**».

[قصص] وما تزوَّجها إلَّا بعد أن أزال شعر ساقيها بالنورة، أخرجها له الشياطين بعد أن سأل الإنس وسائر الجنِّ فلم يجيبوا إلَّا بالحلق، فكرهه مخافة أن تجرح. وقيل: أمرها بالتزوُّج، فقالت: وأنا ملكة الملوك؟ قال: لا بدَّ في الإسلام منه، قالت: فزوِّجني ذا تبع، ففعل، وردَّها إلى اليمن وأمر زوبعة أمير جنِّ اليمن أن يخدمه. ويروى أنَّه لَمَّا مات سليمان نادى في اليمن: يا معشر الجنِّ ارفعوا أيديكم قد مات سليمان فتفرَّقوا.

(1) قصر في صنعاء اليمن، كان يعدُّ من عجائب الدنيا، خرَّبه الأحباش في حروبهم مع اليمن سنة 525م. لويس: منجد الأعلام، ص 373.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿45﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿46﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿47﴾ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿48﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿49﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿50﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿51﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿52﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿53﴾﴾

القصَّة الثالثة:

قصَّة صالح عليه السلام

﴿**وَلَقَدَ اَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا**﴾ عطف على ﴿وَلَقَدَ ءَاتَيْنَا دَاوودَ...﴾ أي ووالله لقد أرسلنا، أو وبالله، وتقدير باء القسم هنا أولى من الواو، لِئَلَّا يجتمع واوان، لقد أرسلنا بالتوحيد والأحكام الشَّرعِيَّة إلى ثمود، وهم عاد الثانية. ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿صَالِحًا انُ اعْبُدُواْ اللَّهَ﴾ «أَنْ» مفسِّرة لا مَصدَرِيَّة بتقدير الباء أو اللام، لأنَّ الأمر لا خارج له يعبَّر عنه بالمصدر ﴿**فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ**﴾ أي مضت مدَّة فإذا هم، فالتفريع بالمفاجأة على محذوف

لا على الإرسال، إذ لا يكونون فريقين يختصمون بأوَّل الإرسال، أو الفاء للترتيب بدون اتِّصال، أو يعتبر الترتيب في كلِّ مكان بحسبه.

و«هُمْ» عائد إلى «ثَمُودَ»، وقيل: إلى المذكورين فيشمل صالحا وهو فريق وقومه، وهم فريق آخر، وعليه فالاتِّصال ظاهر بلا حذف، ويردُّه قوله: ﴿قَالُواْ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ فأحد الفريقين صالح ومن معه لا صالح وحده، والآخر الباقون على الكفر ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ نعت «فَرِيقَانِ»، ولم يقل: يختصمان للفاصلة، وقيل: خبر ثان.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ﴾ نداء مخصوص بقومه الكافرين، كمن اجتمع عنده فريقان فقصد أحدهما بالخطاب بحيث لا يتوهَّم غيره، أو اعتبر المجموع لكثرة الكفرة، حتَّى كأنَّهم الكلُّ ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ الفعلة التي تسوؤكم وهي العقاب الذي هو فعل الله ﷻ، إذ قالوا: ﴿اِيتِنَا بِمَا تَعِدُنَا...﴾ [سورة الأعراف: 77]، أو بالقولة السَّيِّئة، وهي فعلتهم وهي قولهم: ﴿اِيتِنَا بِمَا تَعِدُنَا...﴾. ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ قبل الفعلة الحسنة، وهي التوبة التي هي فعلتهم يؤخِّرونها ويقولون: إن صحَّ الوعيد تبنا إذا حضر.

وقيل: ﴿السَّيِّئَة﴾: التكذيب، و﴿الْحَسَنَة﴾: التصديق فكلاهما شرعي، وعلى الأوَّل السيِّئة طبعيَّة إذ الطبع يأبى العقاب، وعن مجاهد: ﴿الْحَسَنَة﴾: رحمة الله تعالى لتقابل السيِّئة المفسَّرة بعقوبته ﷻ التي استعجلوها بقولهم: ﴿اِيتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾.

﴿لَوْلَا﴾ تحضيض ﴿تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ﴾ من شرككم وما دونه من المعاصي ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقبول الاستغفار، وزيادة الخير دنيا وأخرى ﴿قَالُواْ اطَّيَّرْنَا﴾ تطيَّرنا قلبت التاء طاء وأدغمت في الطاء فجيء بهمزة الوصل ليبدأ بها مكسورة إن لم يوصل الكلام بـ«قَالُوا». والتطيُّر: نسبة الشؤم وهو الشرُّ إلى شيء بأنَّه سببه، كانوا إذا خرجوا مسافرين اعتبروا طيران طائر يطير

عليهم، فإن مرَّ بهم يمينا رجعوا، وإن لم يطر عليهم أطاروا طائرا ماكثا فإن مرَّ يمينا رجعوا وأما إذا مرَّ يسارا فإنَّهم يمضون على سفرهم، وذلك أنَّه إذا مرَّ يمينا لم يمكن لهم رميه حتَّى يتحرفوا له، وقيل: يمضون إن طارا يمينا فنسبوا الخير والشرَّ إلى الطائر، إذ اعتقدوه سببا لهما من قدر الله ﷻ، أو من عمل العبد الذي هو سبب، ومعنى ﴿اطَّيَّرْنَا﴾: تشاءمنا ﴿**بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ**﴾ في دينك، إذ لزمنا القحط والافتراق من حين جئتمونا بدينكم، والمراد: حصل لنا ذلك بك خصوصا، وحصل أيضا بمن معك أو حصل بكونكم دفعة.

﴿**قَالَ طَآئِرُكُمْ**﴾ سبب ما ينالكم من الشرِّ ﴿**عِندَ اللهِ**﴾ هو قدَّره، أو عملكم السوء المكتوب عند الله ﷻ، وهو الذي قدَّره ﴿**بَلَ**﴾ إضراب انتقال ﴿**اَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ**﴾ تختبرون بالسرَّاء والضرَّاء، أو تعذَّبون، أو تصدُّكم أنفسكم عن الحقِّ، ويصدُّ بعضكم بعضا، ويصدُّكم الشيطان، وتتأثَّرون بالشرِّ من كلِّ من جاءكم به.

﴿**وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ**﴾ مدينة ثمود وهي الحِجر ﴿**تِسْعَةُ رَهْطٍ**﴾.

[لغة] من الترهيط وهو تعظيم اللقمة وشدَّة الأكل، يطلق على ثلاثة وعلى عشرة وما بينهما، وقيل: لسبعة وعشرة وما بينهما، وهو اسم جمع لا يضاف العدد إليه إلَّا سماعا وهو فصيح استعمالا، وقيل: يقاس على كراهة، وقيل: يقاس إن كان موضوعا لِمَا دون العشرة، وقيل: لها ولِمَا دونها وذلك كرهط ونفر وذود لأنَّه كجمع القلَّة، وكأنَّه قيل: تسعة أشخاص.

[قصص] قيل: هم الهذيل بن عبد رب، وغنم بن غنم، ودباب بن مهرج، وعمير بن كردية، وعاصم بن مخزمة، وسبيط بن صدقة، وسمعان بن صفي، وقدار بن سالف، وهم الساعون في عقر الناقة، وهم من أبناء أشرافهم وأعتى قومهم، وعن ابن عبَّاس: دعمى ودعيم وهرمى وهريم، ودواب وصواب ودباب، ومسطح، وقدار، وهو الذي تولَّى عقرها وتحت كلِّ واحد جمع، وقد قيل: الرهط في الآية الصنف، كأنَّه قيل: تسع جماعات.

﴿يُفْسِـــدُونَ فِي الاَرْضِ﴾ أرضهم وأرض غيرهم، نعت «تِسْعَةُ» أو «رَهْطٍ» ﴿وَلَا يُصْلِحُــونَ﴾ انقطعوا عن الخير كلِّه، أو لا يصلحون شــيئا ﴿قَالُواْ﴾ في مجمع تشــاورهم بعد عقر الناقة وقولِ صالح: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [سورة هود: 65] ﴿تَقَاسَــمُواْ بِاللهِ﴾ فعل أمر محكي مع ما بعده بالقول، أي قالوا: ليقسم كلُّ واحد منكم للآخر، أي أقسموا كلُّكم أن تقتلوه وأهله، كما قال:

[نحو] ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ وهذا جواب «تَقَاسَمُوا» مقرون باللام، أو «تَقَاسَمُوا» فعل ماض بدل من «قَالُوا» وما بعده جواب له، أو لـ«قَالُوا» لأنَّ معناه القسم، أو فعل ماض حال من واو «قَالُوا» على جواز كــون الجملة الماضويَّة المثبَتة حالا، ولو لم تكن قــد ولا واو الحال، و«لَنُبَيِّتَنَّهُ» والقســم المحــذوف وما بعد ذلك مفعول للقول، ويجوز أن لا يتعلَّق «بِاللهِ» بـ«تَقَاسَــمُوا» بل هو قسم منهم جوابه «لَنُبَيِّتَنَّهُ». والمعنى: لنقتلنَّه وعياله الذين معه في بياتهم ليلا وقت الغفلة.

﴿ثُمَّ لَنَقُولَــنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ وليِّ دمــه متعدِّدا أو واحــدا، فمرادهم الجنس، إن علموا تعدُّده، وفيه العهد، أو لم يعلمــوه، وإن علموا اتِّحاده فالإضافة للعهد، وقد يعلم بعض ويجهل بعض، فيعتبر الناطق ﴿مَا شَــهِدْنَا مُهْلَكَ أَهْلِهِ﴾ وهو مهلكه أيضــا، أو يقدَّر: مهلك أهله ومهلكه، أو يردُّ الهاء إلى الوليِّ، فيشــمل المهلك مهلك صالح ومهلك أهله، وهو غيــر متبادر، ولا يقال: لو أريد ذلك لقيل مهلك أهلك، لجواز ذلــك كما قرئ: ﴿قُــل لِّلذِينَ كَفَرُواْ سَــتُغْلَبُونَ﴾ [سورة آل عمران: 12] بالتاء والياء. والمراد: نفس الإهلاك أو مكانه أو زمانه.

﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ بحســب العرف في أنَّ القاتل لا يقال له شــهد القتل، فأوهموهم أنَّهــم لم يحضروا فضلا عن أن يكونــوا قاتلين. والجملة حال من ضمير «نقول»، أو من جملة المقول، فالواو عاطفة كأنَّــه قيل: نقول لوليِّه: ما شــهدنا، ونقول لهُ إنَّا لصادقون، وعلى كلِّ حال ترفَّعــوا عن الكذب مع أنَّهم مشركون، وهم واقعون فيه.

﴿**وَمَكَرُواْ مَكْرًا**﴾ اعتقدوا مكرا وهو ذلك الكيد، ولم يقدروا عليه ﴿**وَمَكَرْنَا مَكْرًا**﴾ جازيناهم على مكرهم، أو فعلنا ما يشبه المكر، وحقَّقناه وهو مكر عظيم، غير معهود ونكِّر لذلك ﴿**وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾ كيف مكرنا ولا شدَّته ولا من حيث يجيء.

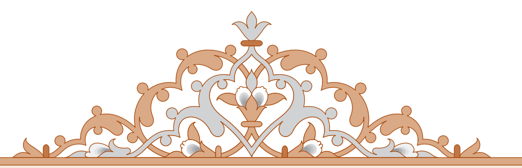
﴿**فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمِ**﴾ وفسَّر العاقبة بقوله جَلَّاللهُ: ﴿**إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ**﴾ أي هؤلاء الرهط الذين تقاسموا ﴿**وَقَوْمَهُمُۥٓ أَجْمَعِينَ**﴾ باقي كُفَّار ثمود خرجوا إلى صالح في مصلًّى له، وقالوا: نقتله وأهله قبل الأجل الذي أجَّل لإهلاكنا، فحبسهم بصخرة في فم شعب مصلاه، فماتوا بالحبس[1] قبل أن يجيء إلى مصلَّاه، وقيل: قصدوه ليلا بسيوف فقتلتهم الملائكة بحجارة ولا يرونهم، وقيل: أخبره الله بكيدهم فخرج واعتزل، وذلك يوم الأحد، وكلٌّ لم يشاهد عذاب الآخر، فإنَّهم عذِّبوا ببلع الصخر، أو بالحجارة وغيرهم بالصيحة، إلَّا القول الأخير فكلُّهم بالصيحة.

﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةَۢ**﴾ خالية عنهم، أو ساقطة أعاليها على أسافلها ﴿**بِمَا ظَلَمُواْ**﴾ بظلمهم ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ ما ينبغي تعلُّمه من الأحكام والمواعظ والقصص، وفي الآية **أنَّ الظلم يخرب البيوت**، وفي التوراة: «يا ابن آدم لا تظلم يخرب بيتك».

﴿**وَأَنجَيْنَا الذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ صالحا ومن معه ﴿**وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ الكفر والمعاصي، وهم أربعة آلاف، خرج بهم إلى أرض، وَلَمَّا وصلها مات، فسمِّيت حضرموت.

---

(1) في النسخة (د): «فبلعتهم قبل...» إلخ، وهو ما سيشير إليه بعدُ بقوله: «عُذِّبوا ببلع الصخر».



﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿54﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿55﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿56﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿57﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿58﴾﴾

القصَّة الرابعة:
قصَّة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه

﴿وَلُوطًا﴾ عطف على «أَخَاهُمْ» فقد انسحب عليه القسم، وكأنَّه قيل: ولقد أرسلنا لوطا إلى قومه.

[نحو] ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ «إِذْ» ظرف لصحَّة الإرسال للوط الجاري له فيها مع قومه ما جرى، أو «لُوطًا» منصوب بـ«اُذْكُرْ»، فـ«إذ» هو بدل اشتمال من لوط، والرابط ضمير «قَالَ»، ويجوز عطف «لوط» على «الذِينَ ءَامَنُواْ» وتعليق «إذ» به، أي وأنجينا الذين آمنوا ولوطا إذ قال، وذلك خروج عن المشهور في عطف القصص.

﴿أَتَاتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ الفعلة المتناهية في القبح إتيان الأدبار. والاستفهام إنكار ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تعلمون قبحها، والقبيح من العالم بقبحه أشدُّ من الجاهل به، أو تبصرون بأعينكم قبحها، وهذا مبالغة في تنزيل قبحها منزلة المحسوس، ولا يتبادر أن يقدَّر وأنتم تبصرون بأعينكم أو بقلوبكم أثر هلاك العصاة قبلكم، ويجوز: وأنتم تبصرون الفعلة ولا تستحيون.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ إنكار آخر مؤكَّد بـ«إنَّ» واللام، وكأنَّه قيل: لا عاقل يرضى ذلك، وفي ذكر ذلك بلفظ الرجوليَّة مزيد تقبيح لأنَّهم مكلَّفون، والمراد: آدميُّون، بخلاف لفظ الذكورة فإنَّها تشمل الطفولة وغير الآدميِّ. وحكم الجنِّيِّ حكم الإنسيِّ.

وزاد تقبيحا بتعليق إتيانهم ذلك بالاشتهاء في قوله: ﴿شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ﴾ أخطؤوا في اشتهاء ذلك، وإنَّما الذي يشتهى إتيان النساء في أقبالهنَّ.

[نحو] ومن العجيب إجازتهم كُلَّ ما يجوز في الجملة بلا داع ولا دليل، مع مخالفته للأصل، وهو خطأ، مثل أن يقال: «شَهْوَةً» حال على حذف مضاف أي: ذوي شهوة، أو على التأويل بالوصف أي: شاهين، أو بأنَّهم نفس الشهوة مبالغة، وربَّما قلت ذلك قبل تنبُّهي.

﴿بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تفعلون ما يقبح فِعْلَ مَن جَهِلَ بقبحه، أو تجهلون العاقبة، أو تسفهون كما قال:

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا[1]

والإضراب انتقالي، وذكر قوم تمهيد لما بعد كقوله: زيد رجل أخو عمرو، فليس مرادا بالذات، و«تَجْهَلُونَ» خبر ثان، والخطاب موافق لـ«أَنتُمْ»، فلا التفات، وإن جعلنا «تَجْهَلُونَ» نعت «قَوْمٌ» ففيه التفات من غيبة «قَوْمٌ» إذ هو اسم ظاهر من قبيل الغيبة إلى الخطاب بالتاء.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ خبر «كَانَ» محصور في اسمها من قوله ﷻ: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ أي إلَّا قولهم، و«أَنْ» مَصدَرِيَّة، أي لا يتجاوز إلى أن يكون غير قولهم: ﴿أَخْرِجُواْ ءَالَ لُوطٍ﴾ أي ولوطا، أو يستغنى عن الحذف بأنَّهم إذا

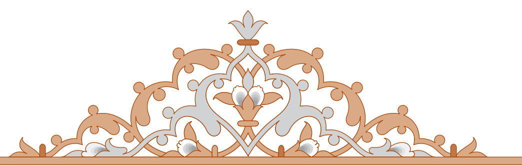
(1) البيت لعمرو بن كلثوم في معلَّقته. د/بديع يعقوب: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة العَرَبِيَّة، ج 8، ص 88.

أَمَرَ بعضٌ بعضا بإخراج آل لوط فأولى بالأمر بالإخراج لوطٌ، لأنَّه الإمام لهم، أو أرادوا بـآل لوط الصنـف الناهي عَمَّا هم فيه، فشـمل لوطـا، كما نقول: الملائكة جملة، والجـنُّ جملة، وبنو آدم جملة، ونريد هذا النوع الإنسـاني، فيشمل آدم وذرِّيَّته، ومرادهم غير امرأة لوط لأنَّها لا تخالفهم.

﴿مِن قَرْيَتِكُمُ﴾ إهانة للوط وآله، حتَّى كأنَّهم ليسوا من أهل القرية ﴿إِنَّهُمُۥٓ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ تعليل جملي للإخراج، أي لأنَّهم يسـتخبثون إتيان الأدبار، ويتنزَّهون عنه، ويصدُّون عنه، قيل: هذا اسـتهزاء بهم بأنَّهم اسـتقبحوا ما لم يقبح، ولا دليـل يقين أنَّه اسـتهزاء، والمتعيّن أنَّهم أنكروا اسـتقباحه، وهذا الجواب في أواخر مواعظه ومعالجتهم.

﴿فَأَنجَيْنَـاهُ﴾ من هلاكهـم ﴿وَأَهْلَهُ﴾ عياله، فالاسـتثناء فـي قوله: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ متَّصل، وإن فسّـر الأهل فـي الدين فمنفصل ﴿قَدَّرْنَاهَـا﴾ أي قدَّرنا كونها، لأنَّ هذا التقدير مختصٌّ بالحدث، كما قال: ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [سورة الحجر: 60]، أي قدَّرنا ثبوتها ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي الباقين للعذاب.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَـرًا﴾ هائلا غير معهود، ولذلك نكَّره إذ هو بالحجارة ﴿فَسَآءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ مطرهم.



﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿59﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿60﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿61﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿62﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿63﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿64﴾﴾

أدلة الوحدانيَّة والقدرة الإلهيَّة

﴿**قُلِ**﴾ يا محمَّد ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾ شكرا له على إنجاء لوط ومن آمن به ﴿**وَسَلَامٌ**﴾ من الله ﴿**عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ**﴾ لوط ومن آمن به اصطفاهم لدينه فأعقبهم النجاة من العذاب وهنَّأهم بهذا الكلام، ويجوز أن يراد عموم السعداء.

وقيل: المراد سيِّدنا محمَّد ﷺ والصحابة، وروى عبد بن حميد والطبري عن سفيان أنَّهم أصحابه ﷺ، ففيه جواز سلامه تعالى على غير الأنبياء ولو لم يجمعوا مع نبيء، وبه قال الحنابلة وغيرهم، وقيل: لا إلَّا مع نبيء، وروى عبد بن حميد والطبري وغيرهم عن ابن عبَّاس أنَّهم أصحابه ﷺ، اصطفاهم الله له ﷺ.

وقيل: عباده الذين اصطفى الأنبياء الصابرون على مشاقِّ الرسالة، كما قال في آية أخرى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الصافات: 181]، وقيل: الآية أمر له ﷺ أن يسلِّم على الأنبياء.

﴿ءَآللَّهُ﴾ الاستفهام للتقرير أو التهكُّم ﴿خَيْرٌ﴾ من الأصنام ﴿اَمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي ما تشركونه من الأصنام أَيُّهَا الكفرة، قريش وغيرهم، والمراد الخيريَّة بالذات أو ما يتحصَّل بها من الأفعال الحسان، وَالأَوَّل أولى، لأنَّ الأفعال تابعة.

[بلاغة] وإنَّما عبَّر بالتفضيل مع الأصنام مع أنَّه لا شركة لها ذاتا ولا فعلا تسفيها للخصم، وإلزاما للحجَّة وإيقافا عليها، و«أَمْ» متَّصلة، و«خَيْرٌ» خبر للفظ الجلالة، و«مَا» اسم موصول، وكأنَّه قيل: آللهُ الذي علمتم أنَّه النافع الضارُّ أم ما تشركونه خير؟.

وزعم بعض أنَّ المراد: أعبادة الله خير أم عبادة ما تشركون؟ وبعض: أتوحيد الله خير أم إشراككم؟ على أنَّ «مَا» موصولة حرفيَّة، ويغني عن القولين أم ما هو خير بالذات؟ فهو أولى.

وكان ﷺ إذا قرأ هذه الآية قال: «**الله خير وأبقى وأجل وأكرم**»[1]، وكذا في جميع القرآن يسنُّ أن يقال: لا أو نعم أو بلى، بحسب ما يناسب المقام، مثل أن يقال: لا، إذا قرئ: ﴿أَصْطَفَى البَنَاتِ...﴾ [سورة الصافات: 153]، ومن أنكر ذلك هلك، ويخاف عليه الإشراك لأنَّه ردٌّ للإجماع.

وكانت عائشة وابن عبَّاس وابن مسعود وغيرهم يقرؤون بعض الآية بالتفسير، ولا يتوهَّم أحد أنَّه من القرآن، وإن توهَّم بيَّن له الناس أو القارئ.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ﴾ «أَمْ» منقطعة بمعنى بل الإضرابيَّة

(1) رواه **البيهقي** في شعب الإيمان، تعظيم القرآن، فصل في قطع القراءة، رقم: 1915. عن عليٍّ ابن الحسين.

الانتقاليَّــة، والهمزة تقريريَّة، و«مَنْ» مبتدأ خبره محــذوف، أي خبر يقدَّر بعد «شَجَرَهَا»، وقدَّره بعض: يُشْرَكُ به، أو تُكْفَر نعمه، وبعض: كمن لم يخلقها.

﴿وَأَنــزَلَ لَكُم﴾ اللام للنفع ﴿مِّنَ السَّــمَآءِ مَآءً﴾ أي مقــدارا، أو نوعا من الماء، وذلك وجه التنكيــر ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ﴾ الفاء لمجــرَّد الترتيب بلا اتِّصال، أو الاتِّصال في كلِّ شــيء بحسبه، ومفيد الســببيَّة الباء في «بِهِ»، ولك جعل الفاء للسببيَّة والباء في «به» كالآلة، والمتبادر أنَّ الإنبات به بقدرة الله ﷻ، كما أضاء الدنيا بالشمس، وبعض يقول: أنبتنا عند الماء، وكذا نظائره، **والأوَّل أولى** جريا على الظاهر، مع أنَّا اعتقدنا أنَّ كلَّ شيء مستأنف من الله ولا يحتاج إلى شيء ولا يستقلُّ عنه شيء، وقد خلق ما شاء لا من شيء، ولا نقول يرد أمثالها.

﴿حَدَآئِقَ﴾ جمع حديقة، وهو البســتان، ولو لم يــدُر به حائط، كما أطلق ابن عبَّاس، ووجهه أنَّ الأرض ما لم تكن بستانا لا تضبط، وإذا كانته فشجرها هو الذي حدَّها وضبطها كحائط، وذلك كاف في معنى الإحداق وهو الإحاطة، وأيضا الشــجر المجتمع مثــل عين الوجه المســماة بالحدقة فــي الاجتماع، وحصول الماء، وأيضا من شــأنها تنظر إليها الأحداق، ومن شــأنها أن يحاط عليها، وقيل: لا يســمَّى حديقة بلا حائط إلَّا مجازا، والمنبت هو الشجر لا مع أرضه، فيقدَّر مضاف أي شجر الحدائق، أي نحن أنبتنا الشجر الذي هو بعض الحدائق، أو الإسناد مجاز عقليٌّ ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ حسن يسرُّ الناظر.

﴿مَّا كَانَ لَكُمُ﴾ ما يصحُّ لكم وما أمكن ﴿أَن تُنبِتُواْ شَــجَرَهَا﴾ فضلا عن ثمارها مع اختلافهــا طعما وريحا ولونا. صحَّ إضافة الشــجر للحدائق مع أنَّ الحديقة اسم للأرض والشــجر معا اعتبارا لإضافة البعض للكلِّ، أي الشجر الذي هو بعض الحدائق، كما تقول: يد زيد.

﴿أَ.لَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ ثابت مــع الله الذي ذكر بعض أفعالــه؟ لا يوجد، لأنَّه لا يفعل غيره أفعاله، فكيف يعبد معه؟ وكيف يســمَّى إلهــا؟ أو أإله مع الله في

خلق السـماوات والأرض وإنزال الماء وإنباته الحدائق؟ يقولون: لا، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ...﴾ [سورة العنكبوت: 61].

﴿**بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ**﴾ إضـراب وانتقال إلى بيان أنَّهـم ينحرفون في عادتهم عن الحقِّ مطلقا، وقيل: المعنى يسـوُّون غير الله بالله سـبحانه، وهو ضعيف، لأنَّه معلوم وغير مناسب لِمَا قبل.

﴿**أَمَّن جَعَلَ الْاَرْضَ قَرَارًا**﴾ إضراب انتقال إلى تبكيتهـم، لأنَّه لا قادر على جعـل الأرض قرارا سـواه ﷻ، فكيف يعبد سـواه؟. و«قَرَارًا» موضع اسـتقرار الإنسان والحيوان عليها، بحسب ما يريدون من المصالح، على حذف مضاف كما رأيت، وذلك يفيد كونها قارَّة في نفسها إذ لو كانت تتحرَّك لم يستقرُّوا عليها، فلا داعي إلى تفسيره بأنَّها قارَّة في نفسها، وأنَّ قرارهم عليها يؤخذ التزاما من قرارها.

﴿**وَجَعَلَ خِلَالَهَآ**﴾ أوسـاطها، جمع «خلـل» وهو الفرجة بين الشـيئين ﴿**أَنْهَارًا**﴾ مجاري للماء مستطيلة على الأرض وليس ثقب نبع الماء ﴿**وَجَعَلَ لَهَا**﴾ فيها، أو لصلاح شأنها، وهو أولى للدلالة على صلاح شأنها ﴿**رَوَاسِيَ**﴾ جبالا رواسـي ثوابت فيها مياه تمدُّ الأنهار، وفي أصلهـا عيون تجري وفيها معادن، وتؤخذ منها الحجارة للبناء وسائر المصالح، وتُنحت منها عَمَدٌ. وأمَّا منع الأرض بها عن الحركة ففي غير هذه الآية، ولو أريد ذلك هنا لقيل مثلا: أمَّن جعل الأرض قرارا بالرواسـي، ويجوز جعل ضمير «لَهَا» للأنهار بمعنى وجعل لإمدادها رواسـي ينبع من حضيضها الماء فيمدُّهـا، لكن فيه تفكيك الضمائر وتغييـر الجملة عَمَّا سـبق له ما قبلهـا، وفيه أنَّ شـأن ذكر الجبال الرواسي أعظم من أن تذكر لشان إمداد الماء فقط.

﴿**وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ**﴾ جنس البحر العذب وجنس البحر المالح فدخل النيل والفرات وسـيحون وجيحون وغيرها ﴿**حَاجِـزًا**﴾ مانعا من الاختلاط وهو القطعة من الأرض ولو أفاض الله ما يليهنَّ من البحور المالحة لفسدت،

وقيل: البحران بحر فارس وبحر الروم، وقيل: بحر العراق والشام ولو خلطهما لفات صلاح ما بينهما من العمران، وقيل: بحر السماء وبحر الأرض ولو خلطهما لغرقت الدنيا.

﴿أَ.لَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ يفعل ذلك أو بعضه، أو يخلق حبَّة من خردل أو أقلَّ؟ ﴿بَلَ اكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ رسخ فيهم الجهل حتَّى إنَّهم لم ينكروا الشرك مع ظهور بطلانه لبادئ الرأي، ولأصل الخلقة، ولا سيما مع تكرُّر الوعظ والبيان والحجج.

﴿أَمَّنْ يُّجِيبُ﴾ إضراب انتقال إلى الاحتجاج عليهم بأنَّه لا يدفع وقوع الضرِّ قبل وقوعه، ولا يزيله بعد وقوعه إلَّا هو. ﴿الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ لكشف الضرِّ، اسم مفعول من الإضرار.

[صرف] مصدر اضطرَّ أصله: المضطرر بفتح الراء الأولى بعد التاء، قلبت التاء طاء لتناسب الضاد، وسكِّنت الراء الأولى وأدغمت في الثانية من ضرَّه فاضطرَّ، أي ألجاه إلى الضرِّ والوقوع فيه، فطاوع إليه بالوقوع، بمعنى أنَّه لم يخالف ولو بلا اختيار.

[نحو] و«ال» في «الْمُضْطَرَّ» للجنس لأنَّ من الناس من لا يجاب كقوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [سورة الأنعام: 41]، أو للاستغراق بأن يجاب بنفس ما دعاه قريبا أو بعيدا، أو بمثله، أو خير منه، أو دفع ضرٍّ آخر، أو بثواب له بعد الموت أو عنده.

[أصول الدين] وحمل المعتزلة الاستغراق على المصلحة، وهو باطل، إذ لا يجب الصلاح على الله، ولا واجب عليه تعالى، وقيل: لعهد المشركين في دعائهم عند خوف الغرق وغيره من قوارع الدهر، كانوا إذا حزبهم أمر رفضوا ذكر الأصنام وذكروا الله وحده، وفي بعض الأحيان إذا أرادوا دخول السفينة قال لهم الملاح: أخلصوا. ولا ضعف في هذا القول لأنَّ فيه مقابلة لهم بما شاهدوا، مع علمهم وعلم المسلمين أنَّ الناس في ذلك سواء، وأيضا الضمائر بعدُ لهم.

وزعم بعض أنَّ المضطرَّ الملجأ إلى الاستغفار من الذنب، وهو باطل، لأنَّ المسلم لا مدخل لذكره هنا بالاستغفار مع أنَّ غير الله لا يعلم أنَّ الله أجاب إلَّا قليلا بوحي، والمشرك كذلك في كلِّ ذلك مع أنَّه لا يعتبر الذنب.

﴿**وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾ يدفعه عن الوقوع ويزيله بعد الوقوع، والعطف ـ قيل ـ عطف عامٍّ على خاصٍّ، على أنَّ المضطرَّ يختصُّ بالوقوع في الضرِّ، وعندي لا يختصُّ، فالعطفُ تفسير للإجابة، كما أنَّه تفسير إذا جعل «ال» نائبا عن ضمير المضطرِّ، أي ويكشف سوءه، أي سوء المضطرِّ، أو السوء عنه.

﴿**وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الاَرْضِ**﴾ تقومون مقام من قبلكم في ملك أموالهم بنحو الإرث، وبكونكم ملوكا، والإضافة بمعنى «في»، أي متخلِّفين في الأرض ﴿**أَ.لَهٌ مَّعَ اللهِ**﴾ يفعل ذلك أو بعضه أو يعينه حاشاه ﴿**قَلِيلاً مَّا تَذَّكَّرُونَ**﴾ تتذكَّرون تذكُّرا قليلا، أو زمانا قليلا تتذكَّرون.

[نحو] فـ«قَلِيلاً» مفعول مطلق، أو ظرف زمان، قدِّم للحصر والفاصلة، وأكَّد القلَّة بـ«مَا» وهي صلة للتأكيد، حتَّى إنَّه يجوز أن تكون القلَّة الانتفاء لبطلانها بالإشراك المصحوب لها، وحذف مفعول «تَذَّكَّرُونَ» للعلم به بأدنى توجُّه إلى نعمه الظاهرة، وهو أولى، أو السائرة إليكم، أو مضمون ما ذكر، كذلك قيل، ويبحث فيه بأنَّ التذكُّر علاجٌ لا يوافق أدنى توجُّهٍ، إلَّا أن يراد بالتذكُّر مقابل النسيان أو الغفلة.

﴿**أَمَّنْ يَّهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾ في الليل بالنجوم والقمر، وبطريق التبانين [المجرَّة]، أو هي نجوم صغار، وبقطب الشمال لأهل الشمال وهو ثقبة، وقيل: نجم، أو ظلمات البرِّ والبحر: متشابهاته الشبيهة بالظلمة ولو في النهار، أو مطلق ذلك الشامل للَّيل أيضا، استعمالا في الحقيقة والمجاز، أو في عموم المجاز.

وشـــملت الآية البحر المظلم ولو نهارا، وعلَّم الله الصنائـــع راكبيه حتَّى يخرجوا منه سالمين.

﴿وَمَن يُّرْسِـــلُ الرِّيَاحَ نُشُـــرًا﴾ علامات خير ﴿بَيْنَ يَـــدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ قدَّام المطر ﴿أَلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ لا إله معه البتَّة ﴿تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْـــرِكُونَ﴾ لأنَّه المتفرِّد بأوصاف الأُلُوهِيَّة، ولذلك ذكر نفســـه تعالى باســـم الجلالة، والمعنى: تعالى عَمَّا يشركونه بالله سبحانه، أو تعالى عن إشراكهم.

[قلت:] وتكرير كلِّ ما كرِّر في القرآن مثل: ﴿أَلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ و﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾ [سورة القمر] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمن] إنَّما هو حقٌّ وحكمـــة ولكلِّ مكـــرَّر معلَّق غير معلَّـــق الآخر، ومن ذلـــك الباب قول المهلهل يرثي كليبا:

على أن ليس عـــدلا من كليب	إذا مـــا ضيـــم جيـــران المجير
على أن ليس عـــدلا من كليب	إذا رجـــف العضاة مـــن الدبور
على أن ليس عـــدلا من كليب	إذا خرجـــت مخبَّـــأة الخـــدور
على أن ليس عـــدلا من كليب	إذا مـــا أعلنت نجـــوى الأمور
على أن ليس عـــدلا من كليب	إذا خيف المخـــوف من الثغور
على أن ليس عـــدلا من كليب	غـــداة تأثـــل الأمـــر الكبيـــر
على أن ليس عـــدلا من كليب	إذا ما حـــار جأش المســـتجير

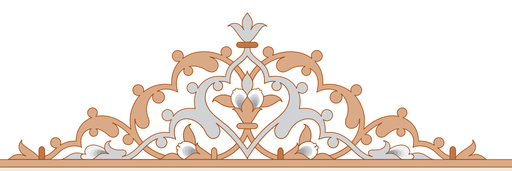
﴿أَمَّنْ يَّبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إضـــراب انتقال إلى الاحتجاج بالإحداث والإفناء والإعادة.

[أصول الدين] وكلُّ ما أفناه الله ﷻ من الأجســـام والأعراض ولو لم يبق شيء مَّا فإنَّه تعالى يردُّه بعينه، وذلك ظاهر الشـــرع، والقادر على خلق شيء من غير شـــيء يقدر على ذلك في البعث وغيره، في الدنيـــا والآخرة، إلَّا أنَّ

المشـــركين لا يقرُّون بالبعث، والجواب: أنَّ الكلام مع من أقرَّ به منهم، وفيه أنَّ المقرَّ به منهم غير معهود، وأنَّ المحلَّ للعموم.

وقيل: البعث متحقِّق الأدلَّة ولو عندهم فكأنَّهم معترفون به، ولو شـــهدوا أشـــياء تلفت ثمَّ عادت بنفســـها لحملت الآية عليه في الدنيا، وأمَّا أن تفسَّـــر بإفناء الأشياء ثمَّ إعادة مثلها كولد يموت ثمَّ يولد آخر فضعيف فيما قيل، ولا ضعف فيه إذا علموا أن المبدئ لها والمُفْنِيَ والمعيد لمثلها هو الله. و«ال» في الخلق للجنس ليشـــمل ما اختلف فيه كمطلق الحيوانات ﴿**وَمَنْ يَّرْزُقُكُم مِّنَ السَّـــمَآءِ وَالَارْضِ**﴾ ماء وثمارا وما يتولَّد من الأرض للحيوانات، سببا للحم واللبن والعسل وغير ذلك.

﴿**أَ.لَهٌ مَّعَ اللهِ**﴾ يقدر علـــى ذلك، ومن لم يقدر فليس بإلـــه ﴿**قُلْ هَاتُواْ**﴾ على دعوى الشـــركة ﴿**بُرْهَانَكُمُ**﴾ حجَّتكم عَقلِيَّـــة أو نَقلِيَّة، ولو ضعفت، ولا يجدونها، أو حجَّتكم القَوِيَّة، كما هو ظاهر لفظ «بُرْهَان»، فذلك استهزاء بهم، وليس المراد: برهانكم على أنَّ الله لا يفعل ذلك، لأنَّهم لا ينكرون ذلك ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ في دعوى الشركة.



﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿65﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿66﴾﴾

لا يعلم الغيب إلَّا الله

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن﴾ فاعل ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ الْغَيْبَ﴾ مفعول به ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ بدل مِن «مَن».

[نحو] والاستثناء متَّصل باعتبار أنَّ الله في السماوات والأرض بالعلم والخلق والذكرِ له فيهما، ولو اختلف كونه فيهما وكون غيره فيهما، وبهذا الاختلاف يكون منقطعا فيجب النصب، ولكن جاء على لغة تميم، وقيل: إن كان يخلف المبدل منه ما يعمُّ المبدل جاز الإبدال ولو عند الحجازيِّين.

وما علم بالجنِّ والكهانة والنجوم فهو ظنٌّ لا علم، ولو وافق، وما عُلم بإلهام أو ملك أو وحي فعلم بإخبار لا علم غيب. [قلت:] مِمَّا يتحقَّق إن شاء الله حدوث حادثة في مضاب عند ثلاث وأربعين سنة وثلاثمائة وألف تقريبا والحقُّ عند الله عز وجل.

وما ذكرته علم بأخبار لا إخبار بغيب، وذلك ذهاب الأجانب عنها ولا تنفعهم قوَّتهم، ولا بأس بحساب أو إخبار جنِّيٍّ صديق لك بلا جزم بل تنتظر هل يقع.

وقد حسب الإمام أفلح رضي الله عنه فقال: أوَّل ما يذبح في السوق غدا بقرة صفراء في بطنها عجل أغرّ، وحسبت أخته وقالت: صدق حسابك في البقرة ولونها والعجل، وأخطأ في الغرَّة فإنَّ العجل لا غرَّة له، وذلك البياض الذي

استظهرته من حسابك هو في رأس ذنب العجل اِلتَوَى حتَّى صار على جبهته، وَاتَّفَقَ ذلك من الغد كما قالت.

[قلت:] ولا يجوز ما يوهم الباطل [من اللعب بالكلمات] مثل أن تقول: الله لا يعلم الغيب، على معنى: لا يغيب عنه شيء فضلا عن أن يقال: لا يعلم الغيب، إذ لا غيب بالنسبة إليه، وأن تقول: أكره الحقَّ وأحبُّ الفتنة وأفرُّ من الرحمة، بمعنى الموت والولد والمال والمطر.

وروي أنَّه أخذ الحجَّاج حصيات عدَّها، فقال لمنجِّم: كم هي؟ فأصاب المنجِّم، وأخذ حصيات لم يعدَّها، فحسب المنجِّم وأعاد وأخطأ، وقال: يا أمير المؤمنين أظنُّك لم تعرف عددها، فقال: ما الفرق؟ فقال: أحصيت الأولى فخرجت عن من حدِّ الغيب ولم تحص الأخر فلم تخرج عنه، **ولا يعلم الغيب إلَّا الله** ﷻ[1].

﴿**وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾ أي الكفرة، وَلَكِنَّ غيرهم مثلهم في عدم الشعور ﴿**أَيَّانَ**﴾ متى، متعلِّق بقوله: ﴿**يُبْعَثُونَ**﴾ معلِّق لـ«يَشْعُرُونَ» له ﴿**بَلِ ادَّارَكَ**﴾ تدارك، أدغمت التاء في الدال فجيء بهمزة الوصل لسكون أوَّل الكلمة ﴿**عِلْمُهُم فِي الَاخِرَةِ**﴾ متعلِّق بـ«عِلْمُ» أي بشأن الآخرة، ولكن نزَّل دلائل العلم بالآخرة منزلة العلم، وإعراضهم عنها منزلة التدارك.

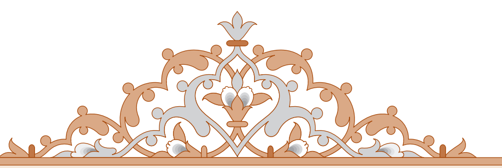
[لغة] و[التدارك] هو التساقط مطلقا، أو مع إهلاك، يقال: تداركوا تتابعوا وتلاحقوا في أمر مطلقا، وتداركوا تتابعوا في الهلاك. أو يقدَّر: اِدَّارك أسباب علمهم؛ أو متعلِّق بقوله: ﴿ادَّارَكَ﴾، تلاحق علمهم بصحَّة البعث إذا بعثوا بعد إذ ضيَّعوه في الدنيا، أو ﴿ادَّارَكَ﴾: استحكم علمهم فيه. والمضيُّ على الوجهين لتحقُّق الوقوع.

---

(1) زيادة انفردت بها نسخة «أ» من قوله: [قلت].

﴿**بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ**﴾ حيرة عظيمة ﴿**مِّنْهَا**﴾ من شـأن الآخرة، أو فيه ﴿**بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ**﴾ أي عنها، أو «مِنْ» للابتـداء بجعل أمر الآخرة مبدأ عماهم، والمراد: بل هم من دلائلها أو عن الحقِّ مطلقا عمون، فيدخل دلائلها أوَّلا.

وقدِّم عَمًّا بعده للفاصلة وعلى طريق الاهتمام. وتدارك علمهم في الآخرة مؤكِّد لعدم اعترافهم ولفحشـه، والشكُّ في الشيء بعد استشـعاره أقبح من مطلق عدم العلم به، والعمى مع وضوح الدلائل أقبح من الشكِّ.



﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٦٩ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝٧٠ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٧١ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ۝٧٢ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٤ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٧٥﴾

إنكار المشركين للبعث والردُّ عليهم

﴿**وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ إِذَا كُنَّا**﴾ أي أئِذَا بحذف همزة الاستفهام، كما دلَّ عليه ذكره في «أَيِنَّا» ﴿**تُرَابًا**﴾ حقيقة، أو مشبَّهين به، وذكروا التراب لتقوية الإنكار لا للتقييد، لأنَّهم أنكروا بعث من صار ترابا ومن بقي ولم يصر ترابا، ويمكن أن يكون قيدا بأن يتوهَّموا أنَّ ما بقي يسهل إحياؤه كما ينفخ الروح في الجنين، ولا صعب على الله ﷻ، والتقدير: أنخرج إذا كُنَّا ترابا؟ ولا يتعلَّق بـ«مُخْرَجُونَ» لصدارة الاستفهام مع امتناع تقدُّم معمول خبر «إنَّ» عليها.

﴿**وَءَابَآؤُنَا**﴾ عطف على «نا» ﴿**أَينَّا لَمُخْرَجُونَ**﴾ من القبور أحياء، أو من الموت إلى الحياة، والمعنى واحد، والأوَّل أولى لذكر القبور في غير هذه الآية.

﴿**لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا**﴾ هذا الإخراج من الله ﴿**نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ**﴾ أي قبل أن يعد به محمَّد ﷺ، هذا من جملة المحكيِّ، يقال: قالوه على طريق ذكر الشيء للتدبُّر لا للجزم وقد نفوه بقولهم: ﴿**إِنْ هَذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ الاَوَّلِينَ**﴾ أكاذيبهم المكتوبة، أنكروه لأنَّه لم يجئ به من يعتدُّ به قبله ﷺ عندهم، وقدَّم هنا «هَذَا» المشار به إلى الإخراج لأنَّ المقصود بالذات هنا الإخراج، وفيه عنادهم واحتجاجهم، بخلاف [سورة] «قد أفلح» [آية 83]، فقدَّم فيه «نَحْنُ» على الأصل لأنَّه تأكيد لـ«نا»، ولا مقتضى للعدول عنه إذ المذكور فيها مجرَّد اتِّباع أسلافهم.

﴿**قُلْ**﴾ يا محمَّد لقومك ﴿**سِيرُواْ فِي الاَرْضِ**﴾ أنشئوا السير في أرض الأوائل التي فيها أثر هلاكهم لتكذيبهم لنزوله إن لم تكتفوا بالإخبار، أو سيروا في الأرض لمصالحكم واعتبروا الأثر.

﴿**فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ**﴾ من الهلاك لإجرامهم، والإجرام أعمُّ من التكذيب، فالنهي عنه أرشد، ولذلك قال: ﴿**الْمُجْرِمِينَ**﴾ مع أنَّ الأنسب لِمَا قبله أن يقال: المكذِّبين، أو ذكر «الْمُجْرِمِينَ» لأنَّ تكذيبهم بالبعث يجلب كلَّ ذنب، إذ لم يثبتوا عقاب الآخرة.

﴿**وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن**﴾ يا محمَّد ﴿**فِي ضَيْقٍ**﴾ حرج صدر.

[صرف] وهو مصدر، وأجيز أن يكون وصفا مخفَّفا من «ضَيِّقٍ» بشدِّ الياء كما قرئ به، كميْت وميِّت، وفيه أنَّه يوجب أن يكون نعتا لمحذوف، أي أمر ضيِّق، وهو خلاف المتبادر، وأَنَّ ضَيْقًا لم يشهر استعماله نعتا فضلا عن أن يحذف منعوته كما شهر أمر سهل وسهل، وصعب وأمر صعب، وأمر خفيٌّ وخفيٌّ، وظاهر وأمر ظاهر، حتَّى كأنَّه تغلَّبت عليه الإسميَّة، وهذا كلام صحيح لا بحث فيه، اللهمَّ إلَّا أن يراعى جانب قراءة الشدِّ لَكِنَّهَا ضعيفة.

﴿**مِمَّا يَمْكُرُونَ**﴾ أي من مكرهم، فإنَّ الله يعصمك، ودينك هو القائم.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطف على «يَمْكُرُونَ»، أي من مكرهم وقولهم ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ متى يقع هذا الموعود به من البعث ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في الوعد، ولم يجبهم بمقتضى ذلك لكثرة تكرُّر الكلام في البعث، بل أجابهم بما يقتضيه إنكاره من العذاب الذي يلهجون به في سائر أحوالهم، إن كان القرآن حقًّا في البعث وغيره فأنزل علينا عذابا إذ قال:

﴿قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَّكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ يقال: ردفه وردف له كنصحه ونصح له، أو اللام لتضمُّن معنى «دنا»، ومعنى ردف اتَّبَعَ وقرب اللحوق ﴿بَعْضُ الذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وهو عذاب القبر، أو عذاب بدر، أو كلاهما، ولهذا كان الأولى أن نفسِّر هذا الوعد بالعذاب الموعود، ولو أشير إليه مع أنَّه غير مذكور ولكن شاع قولهم، وقولهم: إيتنا، استعجالٌ، مع أنَّ استهزاءهم كالاستعجال.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ كلُّ ما فيهم من النعم وإزاحة الأضرار فضل منه لا يستحقُّونه بالذات، ومن ذلك تأخير العذاب عنهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ ومن هذا الأكثر هؤلاء الكفرة ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ الله ونعمه ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ تخفيه ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يظهرون من أقوال وأفعال واعتقاد وحبٍّ وبغض، وإنَّما أخَّر عذابهم إلى أجله لا لخفاء شيء عنه، أو المراد: يعلم ما يكنُّون وما يعلنون، فيجازيهم، ولكون الصدر منبعًا ذَكَرَه ولم يقل: ليعلم ما يكنُّون وما يعلنون، وقدَّم الإكنان تأكيدا لِمَا قد ينكرونه من علمه الغيب، ولأنَّه بالصدر، والصدر منبع لِمَا يظهر.

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي السَّمَآءِ وَالَارْضِ﴾ اسم للأشياء الغائبة تغلَّبت عليه الِاسمِيَّة من أوَّلٍ بالوضع، فتاؤه ليست للتأنيث، بل للنقل من الوصفيَّة إلى الِاسمِيَّة، والفرق بين المنقول والمنقول عنه، أو للمبالغة ويجري على المذكَّر والمؤنَّث، كالراوية للرجل الكثير الرواية، أو مأخوذ من الوصف والمتغلِّب الِاسمِيَّة يجوز إجراؤه على موصوف مذكَّر، والمنقول من الوصف لا يجري

على موصوف، وقيل: الغائبة يوم القيامة وأحواله، وقيل: الحوادث والنوازل، وقيل: أعمال العباد، وقيل: أنواع عذاب السماء والأرض.

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ظاهـــر أو مظهر لِمَا يخفـــى بالوحي، أو بمطالعة الملائكة له.

[أصول الدين] والمراد: أمر الدين والدنيا لا كلُّ شـــيء، لأنَّ الأشياء لا تتناهى بعد البعث، فلا يســـعها اللوح نعـــم هي في علم الله كلُّهـــا مع أنَّها لا تتناهى، ومحصورة له مع عدم تناهيها، وهذا مِمَّا يختصُّ به الله.

وقيل: المراد علمه الأزلي الذي هو مبدأ لإظهار الأشياء بالقدرة والإرادة، وقيل: القرآن بحسب إدراكات العقول له.



﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿76﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿77﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿78﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿79﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿80﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿81﴾﴾

إثبات نبوءة محمَّد ﷺ بالقرآن الكريم وتأييده: القرآن هدى ورحمة وفضح لاختلاف بني إسرائيل وكذبهم

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ هم النصارى الإسرائيليُّون ومن تنصَّر معهم واليهود ﴿أَكْثَرَ الذِي هُم فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ النصارى فيما بينهم، واليهود فيما بينهم، واليهود والنصارى، يصرِّح القرآن بما يخالف بعضا ولا يتبعونه، كالمسيح هو رسول الله لا أب له، وقال بعض: النصارى، وبعض: إنَّه الله، وبعض: ابن الله، وبعض: ثالث ثلاثة، وبعض اليهود: إنَّهُ كاذب، ولد زنى، حاشاه.

والمبشَّر به في التوراة هو سَيِّدنَا محمَّد ﷺ، وقال بعض اليهود: هو يوشع، وقال بعض النصارى: هو عيسى، وقيل: يأتي آخر الزمان، وحَرَّمت اليهود الخنزير وأحلَّته النصارى.

﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ﴾ من هذه الأمَّة ومن بني إسرائيل، خصَّهم بالذكر لأنَّهم المنتفعون به، وإلَّا فهو هدى ورحمة لكلِّ أحد لَكِنَّ الكُفَّار ضيَّعوه فلم ينتفعوا به.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ هذا الاسـم رحمة له ﷺ ﴿يَقْضِي﴾ يحكم ﴿بَيْنَهُم﴾ بين بني إسـرائيل فيما اختلفوا فيه، أو بين المسـلمين والنـاس ﴿بِحُكْمِهِ﴾ أي بحكمه المعهود بِالقُـوَّةِ وَالصِّحَّـة، لا بحكم آخر، ولا بحكم البشـر، تقـول: ضربته بضربي، أي بضربي الغليظ المعهـود، كأنَّه قيل: عاملته بكـذا، وليس مفعولا مطلقا زيدت فيه الباء، ومنْعُ ذلك في العَرَبِيَّة غفلةٌ، قال الله تعالى: ﴿وَسَـعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [سورة الإسراء: 19] فإنَّه في معنى قولك: سعى لها بسعيها، وفي معنى ذلك:

أنا أبو النجم وشـعري شعري ....

فالحكم باق على المَصدَرِيَّة، والهاء للـربِّ، لأنَّه أقرب مذكور لا للقرآن كما قيل، بمعنى أنَّه يجازيهم بالعقاب المذكور فيه ويخطِّئهم، ويثيب المحسن ويصوِّبه، ويجـوز كون الحكم بمعنـى المحكوم، به وهو الحـقُّ، أو بمعنى الحكمة كما قرئ شـاذًّا: «بحِكَمِه» بكسـر الحاء وفتح الـكاف أي بحكمته. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ لا يُردُّ حكمه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكلِّ شيء فلا يختلُّ حكمه.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ الذي شأنه ذلك، فإنَّه يجب على كلِّ أحد التوكُّل عليه ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَـقِّ الْمُبِينِ﴾ الظاهر في نفسـه، أو المظهر الحـقَّ من الباطل والمحقَّ مـن المبطل، تعليل للتوكُّل: توكَّل عليه لأنَّـك محقٌّ، وهو لا يخذل المحقَّ، وعلَّله أيضا بقوله:

﴿إِنَّكَ لَا تُسْـمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ أي اقتصر على التوكُّل ولا تشتغل بهم، لأنَّهم كالموتى لا تسـمعهم، وهذا في طائفـة منهم، وقال في أخرى: ﴿وَلَا تُسْـمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ اِذَا وَلَّـوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ وفي الأخرى: ﴿وَمَآ أَنـتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِم﴾ وإنَّما قلت: طوائف، لأنَّه لا فائدة لذكـر الصمم والعمى بعد ذكر الموت الشامل لهم.

وإن شـئت فالموتى موت القلب فبقي موت الأذن والعين فذكرهما بعد، ولا يُعتَرَضُ بأنَّ شأن القلب العلم لا السمع لأنَّ المراد بالسمع العلم.

وإن شئت فهم كالموتى وعلى فرض حياتهم بعدُ أو من أوَّل فكالصُّمِّ والعمي. وأكَّد بالإدبار في التولِّي، الأصمُّ لا يسمع ولو ثبت عندك وقابلك بأذنيه، فكيف إذا أعطاك خلفهما وولَّى؟!. و«عَنْ» متعلِّق بـ«هَادِي» ﴿**إِن تُسْمِعُ**﴾ يؤثِّر كلامك بالهدى وينفع ﴿**إِلَّا مَنْ يُّومِنُ بِئَايَاتِنَا**﴾ إلَّا من قضى الله أنَّه يؤمن ويزول صممهم وعماهم وموتهم.

والمضارع على حاله لأنَّه لا يصحُّ أن يقال: قضى الله أنَّه آمن لأنَّه لم يؤمن في الأزل، فلا اعتراض، وقيل: من يؤمن بأنَّ القرآن من الله تبارك وتعالى فيجد فيه نبوءتك، ويبحث بأنَّ الكلام في نفس هذا الإيمان بالقرآن، وكلُّ ماض أو حالٍّ قد كان مستقبلا قبلُ. وقيل: الآيات المعجزات. وقيل: لم يقل: إن تهدي إلَّا من يؤمن بدل: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُّومِنُ﴾ مع أنَّ الهداية أقرب ذكرا، لأنَّ طريق الهداية إسماع الآيات القُرآنيَّة، وقيل: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ جواب لقول القائل: ما لهم لا يؤمنون بمن هو على الحقِّ؟ قلت: هذا قليل الفائدة، وأمَّا أن يخالفه ما قبله أو بعده فلا مخالفة.

﴿**فَهُم مُّسْلِمُونَ**﴾ منقادون أو مخلصون، تفريع باسميَّة على فِعلِيَّة، لا تعليل لإيمانهم، ولا لِمَا يدلُّ عليه الكلام من أنَّهم يسمعون إسماعا نافعا ـ كما قيل ـ لعدم تبادر ذلك.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (84) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (85) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86) وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (87) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89) وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (90)﴾

بعض أمارات يوم القيامة ومقدماته

إخراج الدابة من الأرض وحشر الظالمين وأهوال قيام الساعة

﴿**وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ**﴾ دنا وقوع القول عليهم، فذلك مجاز مشارفة، وهو استعارة لشبه القرب بالوقوع لجامع الاستحضار وانتفاء البعد، أو مجاز اللزوم، أو السببيَّة. و﴿الْقَوْلُ﴾ بمعنى المقول، وهو آية القرآن الدَّالَّة على العذاب المستعجل به، أو يراد مضمون القول، واختير ذكر ذلك بالقول ليكون تصديقا للقول، وقال: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لأنَّه صار لهم.

﴿**أَخْرَجْنَا لَهُمْ**﴾ لام استحقاق، كقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ﴾. والضميران لِلْكُفَّارِ مطلقا أو لِكُفَّارِ مكَّة ﴿**دَآبَّةً**﴾ مخلوقة من قبل، حتَّى قيل:

إنَّ موسى عليه السلام سأل الله عز وجل أن يريه إيَّاهَا فطلعت من الأرض ثلاثة أَيَّام إلى السماء ولم تتمَّ، فقال: يَا رَبِّ اردُدها، وقيل: تخلق يوم تخرج، والأدلَّة على الأوَّل، والتعبير بالخروج ظاهر في ذلك أنَّها مضمرة فأظهرت، وكيف قول ابن عبَّاس إذ ضرب الصفا بعصاه محرما، وقال: إنَّها تسمع قرع عصاي؟ وما قيل: إنَّها الثعبان الذي اختطفه العقاب حين أراد قريش بناء البيت فخرج ومنعهم.

[قصص] والصحيح أنَّ الدَّابَّة غيره، وفيها من هذه الأمَّة التكلُّم بِالعَرَبِيَّةِ، ومن كلِّ أُمَّة شيء، ورأس ثور، وعين خنزير، وأذن فيل، وقرن أيل، وعنق نعامة، وصدر أسد، ولون نمر، وخاصرة هرة، وذنب كبش، وقوائم بعير، بين كلِّ مفصلين اثنا عشر ذراعا بذراع آدم، وصوت حمار، وزغب وريش، قيل: ولون كُلِّ دَابَّة، وجناح الطائر ومنقاره، وبين قرنيها فرسخ، وقيل: كالطائر. وقيل: طولها سِتُّونَ ذراعا، ويقال: لها زغب وريش وأربع قوائم وجناحان.

[قلت:] **وأنا أذكر هذه الأمور كارها ليتروَّح إليها السامع ولو لم أصدِّقها،** وهي دَابَّة واحدة كما دلَّ عليه الإفراد في الإثبات نكِّرت للتعظيم، وقيل: لكلِّ أرض دابَّة، وهو ساقط، ومن أبعد ما قيل: إنَّها ترى من المغرب والمشرق مع أنَّا لا نرى ما على المشرق من السماء، ولا نرى الشمس والقمر والنجوم إذا غربت وقبل طلوعها، مع أنَّ السماء أعلى من الدَّابَّة.

﴿**مِنَ الَارْضِ**﴾ أرض الصفا، أو المسجد الحرام، أو بدو مَكَّة القريب منها أرض يابسة حولها رمل كما بيَّنه ﷺ، أو في اليمن، أو من جبل جياد، أَيَّام التشريق والناس في منى، أو من مدينة لوط، أو من أقصى البادية، أو تخرج في أقصى اليمن، ولا تشتهر، ثمَّ في البادية، ثمَّ في ناحية الركن الأسود، وباب بني مخزوم.

[قصص] وتنفض التراب عن رأسها، فيفرُّ الناس إلَّا طائفة من المؤمنين مع عيسى عليه السلام يطوف، وتجلو وجوههم كالكوكب الدرِّي، وتكتب فيها مؤمن

بخاتم سليمان، وتتحرَّك القنادل وتنكت الكافر في وجهه بعصا موسى، ويسودُّ وتكتب فيه كافر، ولا يلحقها طالب ولا يفوتها هارب، وتقتل إبليس، والصحيح أنَّه يقتله عزرائيل بكؤوس موت الأوَّلين والآخرين.

[قصص] وبعد موت عيسى والمهدي يرفع البيت ولا يدرى محلُّه، وينزع القرآن من القلوب والمصاحف والألواح وحيث كتب، فيرجعون إلى أمر الجَاهِلِيَّة، ولا قائل: لا إله إلَّا الله.

[قلت:] فأكثروا الطواف والقراءة، وادعوا الله ﷻ ينصر السلاطين العثمانية(1)، ويسدِّدهم، الله لا إله إلَّا هو ربُّ العرش العظيم، يا حيُّ يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام.

﴿**تُكَلِّمُهُم**﴾ تحدِّث المشركين المنكرين للبعث في عصر خروجها، أو المؤمنين والمنكرين، وذلك نصرة للمؤمنين. وهذه الجملة من الله.

﴿**إِنَّ النَّاسَ**﴾ بِأَنَّ الناس، وهم هؤلاء المشركون المنكرون، وصحَّ ذلك لأنَّ قوله: ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ من كلامها، كما أنَّ الجملة قبله من كلامها، أو الناس: منكرو البعث في عصرها أو غيره، أو الناس: مشركو مَكَّة على عهده ﷺ، شهدت بذلك ذمًّا لهم وتخطئة، وتزكية له ﷺ بحجَّة قَوِيَّة وهي نطق الدَّابَّة، وعلى كلِّ حال الآية زجر منها للمنكرين الحاضرين لها. أو ﴿تُكَلِّمُهُم﴾: تجرحهم جرحا شديدا، أي تذمُّهم كما يجرح الشاهد، ويناسبه قراءة فتح التاء وإسكان الكاف فاللام مخفَّفة.

﴿**كَانُواْ**﴾ ربَّما قوَّى هذا المضيَّ أنَّ المراد بالناس مشركو مكَّة على عهده ﷺ، ولكن لا يلزم ذلك لأنَّها خرجت والناس ماضون على الإنكار

---

(1) المراد بالسلاطين العثمانية أمراء الدولة العثمانية في تركيا في عصر الشيخ، كانت تكالبت عليها دول أوروبا وتخوض معها حروبا في البلقان وغيرها.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تعني الآيات الدالَّة على البعث ومبادئه، أو الآيات مطلقا، وفي نفس الأمر شملت خروج الدَّابَّة. و«نا» لله لأنَّ ذلك كلام منها عن الله ﷻ، ولا يحتاج إلى تقدير مضاف، أي بآيات ربِّنا، أو «نا» للدابَّة لجريان ذلك بها، فنسبت الآيات لنفسها كما ينسب الجنديُّ لنفسه ما للسلطان، لأنَّه في يده. وعلى معنى الجرح تكون الباء سببيَّة ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ بل يكذِّبون ويشكُّون.

﴿وَيَوْمَ﴾ اذكر يا محمَّد يوم ﴿نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ جماعة هم رؤساؤها في الكفر ﴿مِمَّنْ يُّكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فنحشر من أمَّتك أبا لهب وأبا جهل، والوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة ونحوهم، نجمعهم ونسوقهم إلى النار، كما قال: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أوَّلهم ويلتحق آخرهم، فيكبُّون فيها بعد عتاب، ويلحق أتباعهم. قيل: هذه العبارة تفيد الكثرة. و«مِنْ» الأولى للابتداء والثانية للتبعيض، لأنَّ المراد بعض من يكذِّب، وهم رؤساء المكذِّبين.

وإن قلنا: الفوج من كلِّ أمَّة كفَّارها مطلقا فالثانية للبيان فيما قيل، ولا يصحُّ ذلك لأنَّ المجموعين للنار كُفَّارهم فقط وهم الأكثرون لا فوج فقط، ولك جعل الأولى للتبعيض على أن لا تعلَّق بـ«نَحْشُرُ» بل بمحذوف حال من «فوج».

﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف غاية، وهي للابتداء ﴿إِذَا جَآءُو﴾ موضع العتاب ﴿قَالَ﴾ الله ﷻ سائلا لهم سؤال توبيخ ولا يخفى عنه شيء ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي﴾ بآياتي مطلقا، ودخلت آيات البعث بالأَوْلى، والمراد: آيات البعث، أو المعجزات ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ تمييز عن الفاعل، أي ولم يحط علمكم بمضمونها، ولا يجوز العطف، فالواو للحال، لأنَّهم لا يوبَّخون على عدم الإحاطة بها إذ لا يقدر أحد على الإحاطة بها، إلَّا إن أراد بالإحاطة القدر الذي يُطيقونه وكلِّفوا به، والواو للحال، فيجوز العطف، أي أكذَّبتم ولم تتدبَّروا.

﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لم يقل: تقولون لأنَّ منتهى القول العمل ويستلزمه، وكأنَّه لم يعملوا إلَّا التكذيب، مع أنَّ «تَعْمَلُونَ» بلفظه صادق بالتكذيب، على أنَّ «أَمْ» منقطعة بمعنى بل، لا على أنَّها متَّصلة، ويجوز على الاتِّصَال والانفصال أن يكون المعنى: ما كان لكم عمل في الدنيا إلَّا الكفر والتكذيب بآيات الله تعالى ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟.

[نحو] و«مَاذَا» مفعول «تَعْمَلُ»، أو «مَا» مبتدأ خبره «ذَا» وما بعده صلته، أي وما الذي تعملونه؟ ولا يجوز أن يكون «مَاذَا» مبتدأ خبره «تَعْمَلُونَ» على حذف الرابط، إذ لا يجوز أو لا يحسن: زيدٌ ضربت، برفع زيد، وتقدير الهاء.

﴿**وَوَقَعَ الْقَوْلُ**﴾ مضمونه، وهو العذاب، أو القول الحجَّة ﴿**عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ**﴾ أي بسبب ظلمهم لأنفسهم، وللأنبياء وأتباعهم.

﴿**فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ**﴾ لا يجدون ما ينطقون به، إذ لم يبق لهم عذر حقيق، ولا يتوهَّم، وهم قادرون على النطق، أو لا ينطقون نطقا نافعا أو يختم على أفواههم وهم يريدون النطق، وفي غير هذه أنَّهم ينطقون، فإمَّا أن يراد بنفي النطق نفي النطق النافع، أو ينطقون في موضع دون آخر، أو ينطق بعض دون بعض، أو يختم لهم بعدم النطق بعد النطق فيكون في النار.

﴿**أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ**﴾ خلقناه، فله مفعول به واحد، وقوله: ﴿**لِيَسْكُنُواْ**﴾ متعلِّق بـ«جعل»، أو متعدٍّ لاثنين أي مقرًّا للسكنى، فـ«لِيَسْكُنُوا» نعتٌ لـ«مقر» ولا يَضُرُّه عود هاء ﴿**فِيهِ**﴾ للمقر أو للَّيل، لأنَّ الليل والمقرَّ واحد، أو يقدَّر: جعلنا الليل مظلما ليسكنوا فيه كما دلَّ عليه ضدُّه في مقابله وهو «مُبْصِرًا» في قوله ﷻ: ﴿**وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا**﴾ على طريق الاحتباك، أي مبصرا للتحرُّك.

﴿إِنَّ فِـــي ذَٰلِكَ﴾ الجعل البعيد علوًّا في درجـــة الفضل ﴿لَأَيَاتٍ﴾ عظيمة كثيرة على البعث ﴿لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾ خصُّـــوا بالذكر مدحا لهم ونصرة، ولأنَّهم المنتفعون، وغيرهم كأنَّهم لم تنزل عليهم في عدم الانتفاع.

ووجه الدلالة أنَّ إبدال الظلمة بالنور على الوجه المخصوص المستمرِّ بأن جعل الشـــمس دائرة جارية لمصالحهم لا تمكث لحظة، شـــبيه بإبدال الموت بالحياة، ولا قادر على ذلك غيره، وكذلك النوم في الليل كالموت، والانتباه كالحياة بعده، تكرَّرت عليهم الآيات القُرآنيَّة والمعجزات والأخبار من أهل الكتاب يخبرون بألوف خرجوا من ديارهـــم، والذي مرَّ على قرية [في سورة البقرة آية 243 و259].

﴿وَيَوْمَ﴾ معطوف على «يَـــوْمَ»، ناصبه ناصب «يَـــوْمَ» الأوَّل، وقد يقدَّر: «اذكر»، معطوفـــا على «اذكر» الناصب للأوَّل للبعد ﴿يُنفَخُ﴾ ينفخ إســـرافيل، وقيل: له عون آخر، نفخة البعث ﴿فِي الصُّـــورِ﴾ قيل: هو قرن عظيم دائرة فيه كعرض السماوات والأرض، فيه ثقب على قدر ما يبعث من الحيوانات لكلِّ مَيِّت ثقبة تكون فيها روحه، ينفخ فيـــه فترجع كلُّ روح إلى بدنها، كالنفخ في المزمار المعروف الآن ليجمع الناس.

هو في فم إســـرافيل مذ خلق، يقظ لا تصيبه غفلة مخافة أن يؤمر بالنفخ، قال ﷺ : «**كيـــف أنعم وقد التقم إســـرافيل الصور**»، فاشـــتدَّ علـــى الصحابة فقال ﷺ لهم: «**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل**»[(1)].

وزعم بعـــض أن الصور جمـــع صورة لا قـــرن، فهو ينفـــخ الأرواح في الصورات التي هي كالأبدان، والأحاديث تردُّه صحيحا، ورُدَّ بقوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾ [ســـورة الزمر: 68]، ولو كان جمع صورة لقال: فيها، ولا يلزم، لجواز تذكير

(1) رواه **الترمذي** في كتاب صفة القيامة (8) باب ما جاء في شـــأن الصور، رقم 2431. و**الحاكم** في مستدركه: ج 4، ص 559. من حديث أبي سعيد.

ما مفرده بالتاء كهـاء «يَرْفَعُهُ» العائدة إلـى الكَلِم [في آية 10 من سورة فاطر]، وأمَّا تذكير الطَّيِّب وإفراده قد يقال: لشبهه بمصدر السير والصوت، ولا يقبل جعل الكلام من باب التمثيل بالنفخ.

﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الملائكة ومن شاء الله فيها، والمراد بالسماوات جهة العلوِّ فشمل العرش والكرسيَّ، ومن حول العرش وحملته، ومن في الجنَّة، فإنَّ ذلك كلَّه خارج عن السماوات السبع ﴿وَمَن فِي الاَرْضِ﴾ من الجنِّ والإنس وغيرهما، يفزعون أوَّلا بها ويحيون، ففزعهم وحياتهم مقترنان.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ اللَّهُ﴾ منهم فإنَّه يحيى بلا فزع وهم قيل: خازن النار ورضوان خازن الجنَّة، والحور والولدان، وقيل: الشهداء والولدان والحور وحملة العرش، وخزنة الجنَّة وجبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل وموسى، فقيل: موسى لأنَّه صعق في الدنيا.

ولم يذكر في هذه الآية نفخة الموت ولا نفخة الفزع قبلها، جاء بها حديث يختلط الجنُّ والوحش إلى الإنس استئناسا بهم، ولا يسمعها إلَّا من هو حيٌّ. وفزعها غير فزع البعث.

وذكر نفخة الموت ونفخة البعث في آية فيها: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ [سورة الزمر: 68]، وقيل: نفخة هذه السورة نفخة الموت، والذين لا يفزعون الملائكة الأربعة، وقيل: الولدان والحور وحملة العرش وخزنة الجنَّة، وبعد البعث تنشقُّ السماوات والأرض انشقاقا بصوت شديد سمَّاه بعضهم نفخة، وحمل بعضهم الآية عليها وسمَّاها نفخة الفزع، وتطوى السماوات بعد شقِّها قبل البعث، وقيل: بعده.

ويقال: يلقى الفزع على الخلق حتَّى يموتوا، ويقال: ينفخ إسرافيل في الصور نفخة الفزع ونفخة الصعق أي الموت، ونفخة القيام لربِّ العالمين.

سئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ اللَّهُ﴾ فقال: «**هم الشهداء متقلِّدين**

أســـيافهم حول العرش»[1] رواه أبو هريرة، قال ابن عبَّاس: الشهداء أحياء عند ربِّهم لا يصلهم الفزع، وقيل: جبريل وميكائيل وإســـرافيل وعزرائيل لا يبقى بعد النفخة إلَّا هؤلاء الأربعة، فيقول الله تعالى لعزرائيل: خذ نفس إســـرافيل فيأخذه، ويقول: من بقي؟ فيقول: سبحانك ربِّي تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام، وجهك الباقي الدائم بقي جبريـــل وميكائيل وملك الموت، فيقول: خذ نفس ميكائيل فيأخـــذه، فيقول: من بقي؟ فيقـــول: تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام بقي جبريـــل وملك الموت، فيقـــول الله تعالى: مت يا ملك الموت فيموت، فيقـــول لجبريل: قد علمت أنَّه لا بّد مـــن الموت فمن بقي؟ فيقول: بقي وجهك الدائم والعبد الفاني جبريل، فيقول: مت يا جبريل، فيخرُّ ساجدا يحرِّك جناحيه حتَّى يموت.

وقيل: تموت الثلاثة بتوسُّـــط عزرائيل، فيقول الله تعالى: لا بدَّ من الموت اذهب إلى ما بيـــن الجنَّة والنار فمـــت، فيموت بالله تعالـــى، وقيل: يبقى مع الأربعة حملة العرش فيموتون هم ثمَّ الثلاثة وعزرائيل رابعهم[2].

وقوله ﷻ: ﴿وَكُلٌّ ـ اتُوهُ دَاخِرِينَ﴾ يـــدلُّ أنَّ المراد في الآية نفخة البعث كلُّ واحد من المبعوثين حاضروه، أي حاضر موضع حســـابه، أذلَّاء أو مقرِّين بالبعث منقادين له لمشاهدته.

[نحو] و«آتُوهُ» اســـم فاعل جمع المذكر الســـالم حذفت النون للإضافة للهـــاء، والأصل: آتيوه (بكســـر التاء) ثقلـــت الضمَّة على اليـــاء فنقلت للتاء

---

(1) أورده **الآلوســـي** في تفســـير: مج 7، ص 34، بدون تخريج. وقال: صحَّحه ابن العربـــي. كما أورده **الآلوسي** في تفسيره أيضا: ج 5، ص 128، وقال: أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير عن أبي هريرة.

(2) من قولـــه : «وتطوى الســـماوات» إلى هنا، كله غير موجود في النســـخة (د) وهي مســـودة المؤلف بخطه. ولا يخفى على القارئ الكريم أنه لا يجب ـ بل لا يحسن ـ اقتحام تفاصيل غيبية بِلَا دليل قطعي. وعلينـــا الاكتفاء بالإيمان الجازم بمضمون قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَـــيْءٍ هَالِكٌ اِلَّا وَجْهَهُ﴾ [سورة القصص: 88] (المراجع)

فحذفت الياء للساكن بعدها، أو حذفت الضمَّة للثقل فجيء بأخرى للتاء. و«دَاخِرِينَ» حال من المستتر في «آتُوهُ» لا من الواو لأنَّها حرف.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ﴾ بعينيك عطف على «يُنفَخُ» داخل في حيِّز التذكير ﴿تَحْسِبُهَا جَامِدَةً﴾ ثابتة لا تتحرَّك، الجملة حال من ضمير «تَرَى» أو من «الْجِبَال» ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ بعد جمودها لا في حاله، لأنَّ المرور مزايل للجمود، والجملة الِاسمِيَّة حال من «ها» ﴿مَرَّ السَّحَابِ﴾ في السرعة بريح حثيثة، واختار السحاب في التشبيه لأنَّها طويلة متضامنة، وما كذلك كالجبال لا تظهر حركته مجموعا، لا لذهولهم للهول حتَّى حسبوها جامدة مع أنَّها تسير، كما قال بعض، وذلك كقول نابغة الجعدي في وصف جيش:

بأرعن مثل الطود تحسب أنَّهم وقوف لحاج، والركاب تهملج

والحاجُ بتخفيف الجيم اسم حاجة. وقيل: شبِّهت بالسحاب لكون سير السحاب متوسطا كقول الأعشى:

كَأَنَّ مشيتها من بيت جارتها مرَّ السحابة لا ريث ولا عجل

وفي الآية تلويح بتفتُّتها كتفتُّت السحابة حتَّى تفنى، والآية فيما بعد البعث لقوله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ إلى ﴿يَتَّبَعُونَ الدَّاعِيَ﴾ [سورة طه: من 105 إلى 108]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الَارْضُ غَيْرَ الَارْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾ [سورة إبراهيم: 48] لأنَّ اتِّبَاع الدَّاعي وهو إسرافيل، والبروز لله تعالى بعد البعث، تَصَدَّع الجبال وتندكُّ في نفخة الموت، وتسييرها وتسوية الأرض حتَّى كأنَّها أرض أخرى، أو هي أرض أخرى يكونان بعد البعث.

وقيل: الآية في النفخة الأولى فلا يكون الخطاب في «تَرَى» له ﷺ، بل لمطلق من يشاهد تلك الحالة، أو يرى ﷺ الجبال في حياته بعينه جامدة، ويوم القيامة تمرُّ مرَّ السحاب.

واليوم في هؤلاء الآيات عبارة عن الزمان المتَّسع لِمَا ذكر فيهنَّ، أو كما

تقول: جئته عام كذا أو شهر كذا، والمراد في بعضه، وذكر بعض أنَّ تبديل الأرض مرَّتان: مرَّة قبل النفخة الأولى ومرَّة بعد الثانية، وقال بعض: إنَّها ترجف.

﴿صُنْعَ اللهِ﴾ صنع الله ذلك صنعا، أي ذلك أمر عظيم ابتدعه لا يقدر عليه غيره، وما بالك بفعل من لا يصدر منه إلَّا ما هو حكمة متقنة كما قال: ﴿**الذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ قد خلقه فحذف الفعل والمفعول وأضاف المصدر إلى الفاعل.

[نحو] وهو مصدر مؤكِّد لقوله: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ أو لقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ نحو: ابني أنت حقًّا، وهو مؤكِّد لغيره، فإنَّ النفخ والمرور غير قوله: ﴿صُنْعَ اللهِ﴾ لا مؤكِّد لنفسه نحو: «له عليَّ ألف اعترافا»، فإنَّ قولك: «له عليَّ ألف» اعتراف بالألف، فقولك: «اعترافا» نفس ذلك.

[قلت:] ولا يصحُّ أن يقال: مؤكِّد لمحذوف ناصب لـ«يَوْمَ»، أي يوم ينفخ في الصور وكان كذا وكذا أثاب الله المؤمنين وعاقب الكافرين، لأنَّ التأكيد أن يذكر شيء ويزاد ذكر ما يقوِّيه، فالحذف ينافي التأكيد والاعتناء.

[أصول الدين] وإذا ورد مصدر أو فعل لله تعالى أخذ له منه اسم(1)، فنقول الله صانع، لكن هذا ورد في حديث الطبراني والحاكم: «**اتقوا الله تعالى فإنَّ الله تعالى فاتح لكم وصانع**»(2)، إلَّا أنَّه يحتمل أن يكون «صانع» في الحديث بمعنى منعم، وورد ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ﴾(3) [سورة ق: 9]، فنقول الله منبت، وما ورد مقيَّدا ولو بمقابلة استعمل كما ورد، نحو: ﴿ءَآنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [سورة الواقعة: 64]، وحديث: «**يا صاحب كلِّ نجوى أنت الصاحب في السفر**»(4)،

---

(1) كذا في النسخ ولعلَّ الصواب لا يؤخذ منه اسم؛ لأنه رحمه الله استدرك بـ«لكن».

(2) رواه **الطبراني** في (الكبير): ج 4، ص 66، رقم 3648. من حديث خبَّاب.

(3) فِي الأَصْلِ: «أنبتنا لكم»، والصواب ما أثبتناه، أو قوله تَعَالىَ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ﴾ (سورة المؤمنون: 19).

(4) أورده **الآلوسي** في تفسيره: مج 7، ص 36، بدون تخريج.

وقيل: يستعمل مطلقا. وأفعال المخلوق مخلوقة لله فهي متقنة، ولو قبيحة بالكفر أو بالطبع لأنَّ الحكمة اقتضتها.

﴿**إِنَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَفْعَلُونَ**﴾ تعليل جملي لكون النفخ وما بعده صنعا محكما، لأنَّه يجري على علمه بما تفعلونه من خير أو شرٍّ، جزاء واحتجاجا. والخطاب عامٌّ، وقيل: لِلْكُفَّارِ تهديدا لهم.

[أصول الدين] ﴿**مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ**﴾ جاء إلى الله ﷻ بها بالموت عليها غير مبطل لها في حياته بإصرار على ذنب، وجاء الحديث: «**إِنَّها شهادة أن لا إلـه إِلَّا الله**»[1]، والمجيء بها أن يجيء بمضمونها من أداء الفرائض وعدم الإصرار، فمن كفر برسول، أو لم يؤدِّ فريضة، أو أصرَّ ولو على صغيرة، لم يصدق أنَّه جاء بها بل أبطلها. وقيل: الحسنة على عمومها بشرط عدم الإبطال.

﴿**فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا**﴾ بالعدد وهو تسع معها فصاعدا إلى سبعمائة فصاعدا، ويدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا...﴾ [سورة الأنعام: 160]، و«خَيْرٌ» اسم تفضيل، و«مِنْ» تفضيليَّة، وقيل: «خَيْرٌ» بمعنى نفع وثواب و«مِنْهَا» نعت، و«مِنْ» للابتداء، أي ثواب حاصل منها.

﴿**وَهُم**﴾ عائد إلى «مَنْ» مراعاة لمعناها مع مراعاة لفظها ﴿**مِن فَزَعِ يَوْمَئِذٍ**﴾ إذ جيء بالحسنة، أو إذ نفخ في الصور، متعلِّق بقوله: ﴿**ـ امِنُونَ**﴾ قدِّم للفاصلة ولطريق الاهتمام. وفتح «يَوْمَ» مع إضافة «فَزَعِ» إليه لأنَّه بني لإضافته إلى مبنيٍّ، قيل: إضافة الفزع لليوم لعموم إفزاع اليوم.

وقيل: المراد الفزع الأكبر، وهو الصحيح، لأنَّ إفزاع اليوم يصيب المؤمن والكافر، والفزع الأكبر ما يحصل للكافر من مشاهدة العذاب بعد تمام الحساب، أو حين يؤمر به إلى النار، أو حين يصوَّر الموت كبشا وينادَى أهلُ

(1) أورده **ابن كثير** ونسبه لزين العابدين في تفسير الآية.

المحشر ويذبح بمنظرهم: «**يا أهل النار خلود لا موت، ويا أهل الجنَّة خلود لا موت**»[1] أو حين تطبق جهنَّم على أهلها.

[أصول الدين] ﴿**وَمَن جَآءَ بِالسَّـيِّئَةِ**﴾ كائنة ما كانت، ولو صغيرة لأنَّها بالإصرار كبيرة، والإصرار اعتقاد العود أو اعتقاد أن لا يتوب، أو التهاون بها. ولو فسَّرنا السيِّئة بالشرك كانت الآية لم تتكلَّم على غيره من الذنوب، والإتيان قيد، فلو عصى طول عمره وتاب آخره لم يصدق عليه أنَّه آت بالسيِّئة.

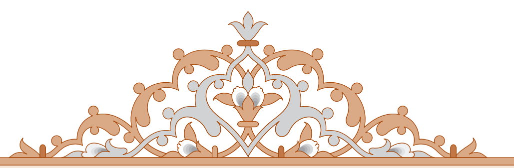
﴿**فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ**﴾ عطف على جواب محذوف، أي لم يعذروا، أو انقطعت حجَّتهم إذ لو كان جوابا لم يقرن بالفاء لصلاح أن يكون شرطا، والمراد: كبُّوا على وجوههم وما يليها من قدَّام إلى أقْدَامِهِم، وذلك مجاز لأنَّ الكبَّ على الوجه سبب وملزم لكبِّ باقي قُدَّامِهِم، أو لأنَّ الوجوه أبعاضهم، أو الوجوه بمعنى الأنفس، أي كبَّت أبدانهم فيها منكوسة.

وعن عمر بن الخطَّاب ﵁: «لا يغرَّنَّكم قول الله ﷻ: ﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّـيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [سورة الأنعام: 160] لأنَّ السيِّئة الواحدة تتبعها عشر خصال مذمومة: إنَّه أسخط الله بها، وإنَّه أفرح إبليس لعنه الله، وإنَّه تباعد من الجنَّة، وإنَّه تقَرَّب مِنَ النَّارِ، وإنَّهُ عادى أحبَّ الأشياء إليه وهو ذاته، وإنَّه بخس نفسه، وإنَّه آذى الحفظة، وإنَّه أحزن النبيء ﷺ، وإنَّه أشهد على ذنبه السماوات والأرض والمخلوقات، وإنَّه خان الآدميِّين».

﴿**هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ نائب فاعل لحال محذوف من ضمير «وُجُوهُهُمْ» أي مقولا لهم: هل تجزون؟ والخطاب لمن جاء بالسيِّئة، وإن جعلنا الجملة مستأنفة كان التفات من الغيبة إلى الخطاب، وصحَّ أن يكون لهم، وأن يكون لهم ولمن أتى بالحسنة.

(1) رواه **البخاري** في كتاب التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾، رقم 4453، في حديث طويل عن أبي سعيد الخدري.

[أصول الدين] والحصـــر إضافـــيٌّ منظور فيه إلى أنَّــه لا يعذِّب أحد بذنب غيره، [قلت:] وأمَّـــا الإثابة بعمل الغير فإنَّه يثاب الإنســـان من هذه الأُمَّة بما عمل له غيره، مثل أن تعمل نفلا مـــن صلاة أو صيام، أو حجٍّ أو عمرة، أو صدقة أو قراءة، أو ذكر، تنويه لحيٍّ أو مَيِّت فإنَّه يثاب، ولك من الله تعالى ثوابا على ذلك ما شـــاء، إلَّا الوالدين فلك مثله ســـواء، وأمَّا ما عمل اقتـــداء بك أو لأمرك أو لســـببك فإنَّه من عملك، ولمـــن مات صبيًّا حسناته ولا سيِّئة له.



﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

الاشتغال بعبادة الله وحمده وتلاوة القرآن

قل يا محمَّد لمن يتدبَّر من أمَّتك تلك الآيات، على طريق موادعتهم ومتاركتهم، إذ بلَّغت لهم ولم يتأثَّروا: ﴿**إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنَ اَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ**﴾ مكَّة، لا ما قيل: منًى، خصَّت بالذكر تعظيما لها وتلويحا بزيادة قبحهم بفعل أعظم المعاصي وهو الإشراك في أفضل البلاد، مع أنَّها أيضا شرف لهم، واحترام لهم ولصيدها وشجرها، كما قال: ﴿**الذِي حَرَّمَهَا**﴾ ولا عاقل يقول الحرم الآمن أو البلد الحرام أو نحو ذلك اسم لمنًى ﴿**وَلَهُ**﴾ وحده ﴿**كُلُّ شَيْءٍ**﴾ خلقا وملكا وتصرُّفا لا مكَّة فقط.

﴿**وَأُمِرْتُ**﴾ أوَّلا ﴿**أَنَ اَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ فكنت والحمد لله، ولم أخالف، أو أمرت بالثبات على الكون من المسلمين، والمراد بالمسلمين أهل التوحيد الجارين على مقتضاه، أو الذين أسلموا وجوههم لله خالصة، كقوله تعالى: ﴿**وَمَنَ اَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنَ اَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ**﴾ [سورة النساء: 125].

واسم الفاعل ولو كان أصله الوصف المحقَّق كما في هذا التفسير لا مانع من استعماله في مطلق الحدث، فيجوز أن يكون المعنى: أمرت أن

أكون مــن الموحِّدين مــن القائلين: لا إلــه إلَّا الله، هكــذا مطلقا وباقي الخصال من خارج.

﴿وَأَنَ اَتْلُوَ الْقُرْءَانَ﴾ أقرأه بالتكرير تذكُّرا لنفســي بما فيه، واستعمالا لها بما فيه، وإرشادا للناس، وتبليغا واســتنباطا لمعانيه، كما روي أنَّه ﷺ قام ليلة وكرَّر في صلاتــه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [ســورة المائدة: 118]، مســتخرجا لمعانيها حتَّى طلع الفجر. ولا يتبادر تفسير ﴿اَتْلُو﴾ بأتبع بالعمل، من قولك: تلوت كذا تبعته. والباء مقدَّر قبل «أَنْ» في الموضعين.

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ خرج عن الضلال والشرِّ بالقرآن تصديقا به وعملا بما فيه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِــهِ﴾ منافع اهتدائه راجعة إليه، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ تاه عن طريق صلاح نفســه بأن لم يؤمن به، أو لم يعمل بما فيه ﴿فَقُل﴾ له مضارُّ ضلالك عليك لا عليَّ ﴿إِنَّمَآ أَنَاْ مِــنَ الْمُنذِرِينَ﴾ إيَّاكَ؛ لأنِّي مــا عليَّ إلَّا إنذارك وقد أنذرتك، وجملة ﴿فَمَنِ اهْتَدَى...﴾ من كلام الله ﷻ لا من كلامه ﷺ، بدليل لفظ «قُلْ»، ولو كان من كلامه لقال: ومن اهتدى... إلخ فإنَّما أنا من المنذرين، ولا يصحُّ أن يكون من كلامه محكيًّا بالقول المقدَّر قبل ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ لأنَّه لو قيل: ومن ضلَّ... إلخ فقل إنَّما أنا... إلخ لم يصحَّ.

﴿وَقُلِ الْحَمْــدُ لِلهِ﴾ على نعمــه الدِّينِيَّة كالنبــوءة والتبليغ والاتِّباع، ونعمه الدِّينِيَّة وَالدُّنْيَوِيَّة اللاحقة لذلك. ﴿سَيُرِيكُمُۥٓ ءَايَاتِهِ﴾ الظاهرة لكم المصدِّقة لي حيث لا تنفعكم عند الموت وعند البعث، أو الدخان ويوم بدر، والخطاب لمعاصريه، ويبعد أنَّه للجنس الشامل لمن يحضر خروج الدابَّة وأشــراط الســاعة، ولمن يحضــر معجزات عصــره، وهي آيات الله ﷻ.

﴿**فَتَعْرِفُونَهَا**﴾ تعرفون أنَّها آيات الله حقًّا، ومن مات من أهل عصره أو بعده أيقن بها، ومن شاهدها حيًّا عرفها وأنكر بلسانه وعمله، أو المراد: سيظهرها لكم وتعرفون نفسها ولا تؤمنون أنَّها آياته، وقيل: تعرفونها بِالقُوَّةِ لا بالفعل، ومن مات عرفها بالفعل، زيادة على القُوَّة، ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ فيجازيك بحسناتك وإيَّاهم بسيِّئاتهم.

والله الموفِّق المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل.



28

تفسير سورة القصص

مكِّـيَّة إلَّا الآيات 52ـ 55 فمدنيَّة، والآية 85 نزلت بالجحفة أثناء الهجرة، وآياتها 88ـ نزلت بعد سورة النمل

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ طسٓمٓ ۝1 تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝2 نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝3 إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝4 وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝5 وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝6﴾

قصَّة موسى عليه السلام

ـ1ـ

نصرة المستضعفين في الأرض

﴿**طَسِمِّ تِلْكَ**﴾ أي هذه السورة أشار إليها بالبعد لغيبة أكثرها عنه ﷺ قبل نزولها، وللتعظيم، أو إلى الآيات مطلقا ﴿**ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**﴾ القرآن، لأنَّ السورة بعضه كما هو تلاوة السورة قبل هذه؛ أو اللوح المحفوظ، لأنَّ القرآن مكتوب فيه. ﴿**نَتْلُواْ عَلَيْكَ**﴾ نقرأ.

[لغة] سمِّيت القراءة تلاوة لأنَّ فيها تلو حرف لحرف، وتستعمل التلاوة بمعنى تتبُّع القرآن بالقول والعمل، وشهرت بمعنى القراءة فيحمل عليها، فالتلاوة أعمُّ من القراءة بعد شهرة التلاوة في القراءة، أو التغلب في القراءة تقول: قرأ بمعنى نطق، وتقول: تلا بمعنى نطق، وتلا بمعنى تبع بالعمل. والقراءة باعتبار أنَّها نطق بالقرآن أو بغيره أعمُّ من التلاوة المختصَّة به، عملا أو نطقا.

[بلاغة] وإسناد التلاوة إلى الله ﷻ مجاز عقليٌّ، لأنَّ الناطق بالقرآن جبريل عليه السلام، ولا يوصف الله بالنطق، أو مجاز لغويٌّ، إمَّا مجاز مرسل عن التنزيل لأنَّ تنزيله سبب للقراءة وملزوم، وإمَّا استعاريٌّ لأنَّ كلًّا من التنزيل والتلاوة طريق للتبليغ. أي ننزِّل عليك.

﴿**مِن نَّبَإِ**﴾ نعت لمفعول محذوف، أي شيئا ثابتا من نبأ ﴿**مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ**﴾ أي خبرهما، و«مِنْ» تبعيضيَّة، أو ابتدائيَّة، أو بيانيَّة، أي نتلو عليك شيئا هو نبأ موسى وفرعون، ويكفي في البيان ما ذكره منه بلا استقصاء ﴿**بِالْحَقِّ**﴾ بالصدق ﴿**لِقَوْمٍ يُومِنُونَ**﴾ نفع لهم، أو لأجلهم، يؤمنون بَعْدَ التلاوة بقُرْبٍ أو بُعْدٍ، ولو بَعْدَ موته ﷺ، وذلك شامل لمن تقدَّم إيمانه لأنَّ كُلَّ ما ينزل يؤمن به على حدة بعد نزوله، ولو تقدَّم إيمان عام.

وابتدأ ذكر الموعود بإنزاله بقوله: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا**﴾ طغى وتجبَّر ﴿**فِي الْاَرْضِ**﴾ أرض مصر ﴿**وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا**﴾ فرقا يشيعونه، أي تتبعه كلُّ فرقة فيما يريد من شرٍّ وفساد، ومنه الإغراء بينهم بالعداوة، وفي بناء وحرث وغرس، وعمل الآجور وسائر الأعمال الشاقَّة، وضرب الجزية على من لا يقدر على العمل، ويتتابعون في طاعته.

﴿**يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ**﴾ هي بنو إسرائيل، هم أقوياء يصيِّرهم ضعفاء بنزع أموالهم والشتم والاستخدام، وإهانتهم بكلِّ ما أراد، وسمَّى بني إسرائيل أنَّهم

من أهل مصـــر مع أنَّ أهلها القبـــط تغليبا للقبط، أو لأنَّهم كانـــوا فيها قبل ذلك العصر ولو كانوا في الشام أيضا، أو لأنَّهم كانوا فيها قبل ذلك زمانا طويلا.

[نحو] والمضـــارع لجعـــل الماضي حاضـــرا بتأخُّره إلـــى زمانه ﷺ، أو بتقدُّمه ﷺ إليه فيكون كالمشاهد. والجملة حال من المستتر في «جَعَلَ» أو من «أَهْلَ» أو نعت «شِـيَعًا»، أو اســـتئناف نحوي من جملة نبئهما، ولا يتبادر أنَّه جواب قائل: ماذا صنع بعد جعلهم شيعا؟.

﴿**يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ**﴾ شدَّد للمبالغة في الذبح وللتكثير ﴿**وَيَسْتَحْيِي**﴾ إسناد التذبيح والاستحياء إليه مجاز عقليٌّ ﴿**نِسَآءَهُم**﴾ يعالج حياة البنات الصغار، سمَّاهنَّ نساء لمجاز الأوْل، أو النساء الكبار استحياهنَّ من صغرهنَّ، أو يعالج النفساء، أو من شق بطنها لما فيه من جنين.

قال كاهن: يولد طفل فيهم يذهـــب ملك فرعون، أو رأى في نومه نارا من المقدس أحرقت بيوت القبط دون بني إسرائيل، ففسَّرها علماؤه برجل هلاك مصر على يده، فنازعته نفســـه إلى أنَّـــه يقدر على إبطال ما قيل لـــه إنَّه مقدَّر منتظر، وإذا أراد ذلك لـــم يقابل بقولك: إن صدق المقـــدَّر المنتظر فما فائدة القتل وإلَّا فما وجهه؟.

﴿**إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِـــدِينَ**﴾ اجترأ على ذلك، ولا سيما أنَّهم ذرِّيَّة للأنبياء لرسوخه في الفســـاد ﴿**وَنُرِيدُ**﴾ توجَّهت إرادتنا الأَزَلِيَّة إلى المنِّ، فهذه الإرادة إنفاذ للأزليَّة، وهي البدء في إيجاد ما ذكر في الآيات. والمضارع لإرادة الحال لأنَّ هذه الإرادة الإنفاذية لم تقع حال النزول ولا بعده، بل في زمان فرعون.

وأمَّا قوله: ﴿**أَن نَّمُنَّ**﴾ فينسحب عليه قوله: ﴿نُرِيدُ﴾ فهو للاستقبال بعده، فلا يحتاج إلى تأويل. والمنُّ: التفضُّل ﴿**عَلَى الذِينَ اسْـــتُضْعِفُواْ فِي الَارْضِ**﴾ نتفضَّل عليهم بالإنجاء من بأس فرعون، وجملة ﴿نُرِيدُ...﴾ معطوفة على ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ...﴾ عطف فِعلِيَّة على اسمِيَّة لجامع أنَّ كلًّا من تفسير النبأ.



﴿وَنَجْعَلَهُمُۥٓ أَيِمَّةً﴾ متصدِّرين بأن يقتدى بهم في الدين والدنيا، وبالدعاء إلى الخير، وبالنبوءة، وكونهم ملوكا ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمُۥٓ أَنبِئَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [سورة المائدة: 20]، وذلك على التوزيع بعضهم كذا وبعضهم كذا، والحكم بعد ذلك على المجموع، فإنَّ فيهم عَامَّة لم يتّصفوا بشيء من ذلك بل فيهم أهل فساد أيضا ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ الباقين بقاء كاملا بعد هلاك عدوِّهم الحائزين حيازة كاملة لجميع ما كان في يد عدوِّهم من الأملاك.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الَارْضِ﴾ نسلِّطهم على أرض مصر يتصرَّفون فيها تصرُّف المالك، إذ ملَّكهم الله إِيَّاهَا وأمَّا الشام فلهم قبل ذلك، والكلام في غيره، وقيل: أن نوسّع لهم بالكلِّ الشام ومصر، وذلك حقيقة عرفيَّة لغويَّة، أعني أنَّ ذلك ثابت في عرف اللغة وأصلها غير ذلك، وهو أن تقول: مكَّنت كذا للشيء جعلته مكانا له.

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ كان لهامان جند قبل أن يكون وزيرا لفرعون، أو بعد كونه وزيرا، أو اجتمع له قبل وبعد، فتمَّ له ولم ينازعه فرعون فيه، كما يترك السلطان للرجل أعوانه ومماليكه وحشمه، أو سمَّى جنود فرعون جنودا لهامان كما ينسب للرعيَّة ما لسلطانها.

﴿مِنْهُم﴾ من المستضعفين، و«مِنْ» للابتداء. والإراءة بصريَّة أو تعريفيَّة، أي نصيِّرهم رائين بعيونهم ﴿مَّا﴾ مفعول ثان، وهو المفعول الواحد لرؤية البصر أو المعرفة، صار ثانيا للإراءة منهما، والأوَّل لها بالهمزة[1] هو فرعون وما بعد ﴿كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ من زوال ملكهم على يد رجل من بني إسرائيل، والزوال يعرف ولا يبصر بالعين، لكن يطلق الإبصار بها على مشاهدة الأسباب والمقدِّمات.

(1) أي المفعول الأوَّل لرأى بزيادة الهمزة: «أرى» فرعون وما بعده.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿7﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿8﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿9﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿10﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿11﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿12﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿13﴾﴾

ـ 2 ـ
نشأة موسى في دار فرعون، وبشارة أمِّه

﴿**وَأَوْحَيْنَا**﴾ بملك غير جبريل، وقيل: جبريل، وهذا ليس إيحاء بشرع إلى قوم أو عامَّة، فليس من النبوءة، وأيضا إيحاء النبوءة مستمرٌّ، وهذا مرَّة واحدة، وأيضا هذا في غير الشرع خاصَّةً والمرأة لا تكون نبيئة، ويتقوَّى ذلك بقوله ﷻ: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ...﴾، أو بإلهام، ويضعف بذكر «إلى» والرد والجعل، ويجاب بأنَّ المعنى: أشرنا إليها بإلهام مائل إلى الردِّ والجعل لقوَّته، أو برؤيا أوقع الله بها في قلبها اليقين، أو قصَّتها على إسرائيليٍّ عالم فعبَّر بذلك، أو أوحى إليها بواسطة نبيء في عصرها.

﴿إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ اسمها محيانة بنت يصهر بن لاوي بن يعقوب، أو يوخابذ أو يارخا أو يارخت ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ما استطعت ولا تيأسي فتتركيه، أو تهاوني به، ما لم تخافي عليه أن يؤخذ بذبح ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من جاسوس ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ روي أنَّها ألقته ليلا في البحر، وهو هنا النيل، والأصل في اسم البحر الماء المالح المغرق الماكث، والمراد: ألقيه على الوجه المخصوص الموحى به، أو أجهدي رأيك في إلقائه مع سلامته.

﴿وَلَا تَخَافِي﴾ عليه ضيعة أو موتا أو غرقا أو شدَّة جوع ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ على مفارقته ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريب، كما يدلُّ له اللطف إليها بقوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ فتطمئنُّ إلى هذا اللطف وأنَّه إن طال الفراق خالف ما اطمأنَّت إليه، وكما يناسبه اسم الفاعل فإنَّه في الأصل للحال، ولو كان هنا للمستقبل.

ومن شأن الإنسان الحزن على مفارقة من ألفه. لَمَّا كان ﷺ خارج مَكَّة مهاجرا أوحى الله إليه إذ حزن على فراقها: ﴿إِنَّ الذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [سورة القصص: 85].

[ابتهال ودعاء] وأسأل الله العظيم الرحمن الرحيم بما هو اسمه العظيم عنده الذي لا يردُّ السائل به، مستشعرا سعة رحمته قدر وسعها عنده أن لا يجعلنا مِمَّن يكون يوم القيامة في النار ويتمنَّى الرجوع إلى الدنيا، وكلُّ أهل النار كذلك، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه في كلِّ لحظة.

﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جمعت الآية أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين. ﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ أي التقط موسى من التابوت، أو التقط التابوت ليكون موسى لهم عدوًّا وحزنا، والالتقاط: أخذ الشيء الموجود على الإطلاق، لا ما قيل: أخذ الموجود من غير طلب.

[قصص] أرضعته ثلاثة أشهر أو أربعة أو ثمانية، واشتدَّ إلحاح فرعون في طلب الولدان، فخافت عليه فألقته في اليمِّ، فالتقطه آل فرعون، روي أنَّه لَمَّا

رأته قابلة فرعون الموكَّلة بحبالى بني إسـرائيل دخل حبُّـه قلبها وكلَّ مفصل، وسألتها أمُّه الستر عليها للحبِّ الذي بينهما، فأنعمت لها، فقالت لأمِّه: احفظيه، فخرجت فدخل عيونُ [فرعونَ] فلفَّته في خرقة وألقته في تنُّور مسـجور دهشا ولم تدر، ولم يجدوا شـيئا فخرجوا، ولم يروا أثر النفـاس، وقالوا: لم دخلت عليك القابلة؟ فقالت: كانت مصافية لي وزارتني، وسـمعت بـكاء في التنُّور فأخرجته سالما، جعل الله له النار بردا وسلاما كجدِّه إبراهيم عليه السلام.

[قصص] ولَمَّـا خافت عليه صنعت لـه تابوتا طلت داخلـه بقار، قيل: جعلت مفتاحه من داخل، قلت: فمـن يفتحه من داخل؟ قيل: طلبت من نجَّار تابوتا تسـتر فيه صبيًّا فصنع لها، ذهـب ليخبر بها الذبَّاحيـن، فأخرصه الله، فجعل يشـير لهم فأعياهم أمره فضربوه وأخرجوه، ثمَّ رجـع إليه نطقه فرجع ليخبرهم فوصل إليهم فأخرصه الله تعالى وأعماه فضربوه وأخرجوه، فوعد الله لئن شفي ليؤمننَّ بهذا الطفل ويكوننَّ من أعوانه، فشفاه فخرَّ ساجدا.

[قصص] وألقته في النيل عند أحجار عند بيت فرعون، فخرجت جواري آسـية امرأة فرعون يغتسـلن فأخذنه إليها، ولم يجر الماء به على هذا، وظننه مالا ففتحنه، فأحبَّته آسـية حبًّا شـديدا فلم تزل تكلِّم فرعـون في تركه حتَّى تركه. وقيل: جـرى به الماء حتَّى تعلَّق بشـجرة فـرآه فرعون وآسـية وبنته وجواريها من الشاطئ، فقال: إيتوني به فابتدره أهل السفن فعالجوا فتحه ولم يطيقوه، وأرادوا كسره فكشـف الله عز وجل لآسـية بنور من داخله ففتحته، وبين عينيه نور يمصُّ لبنا من إصبعه، وألقـى الله محبَّته في قلبها وفي قلوب الكلِّ، وقالوا: هذا هو الذي حذِّرت منه ألقي في البحر، فاقتله، فلم تزل به آسية حتَّى تركه، ولَمَّا رأته بنت لفرعون وماله ولد سـواها برصاء برئت من حينها، وقد أعيى الأطبَّاء علاج برصها. وروي أنَّه قيل له: تبرأ بريق صبيٍّ يخرج من البحر يوم كذا من شهر كذا حين تشرق الشمس، فلطَّخت به فبرأت.

[لغة] والالتقاط: أخذ الشيء رغبة فيه لغرض كما هنا، كما علّله بـ«لِيَكُونَ» والآل أصله في الأشراف، وقلَّ استعماله في غيرهم كما هنا، أو هنا أشراف في الصورة، أو باعتبار ما عند فرعون، أو تغليب لآسية رضي الله عنها.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ سبب حزن أو نفس حزن، فيه مبالغة.

[بلاغة] شبَّه كونه عدوًّا وحزنا بكونه ابنا مرجوَّ النفع لجامع أنَّ كلًّا آخر رتبة[1]، كتشبيه الأسد بالنعجة، وذلك كناية، واللام قرينة على حقيقتها، أو شبَّه ترتُّب الحزن والعداوة بترتُّب التبنِّي والنفع على التبعيَّة، واللام قرينة ومجاز، تشبيها مبنيًّا على مطلق ترتيب ما لم يرد على ما أريد، بطريق الأصالة، أو شبَّه كونه عدوًّا وحزنا بكونه ابنا ونافعا، ويتولَّد من ذلك تشبيه ترتُّبه بترتب التبنِّي والنفع، فاللام مستعارة، ويجوز أن يكون المراد لظنٍّ أن يكون لهم عدوًّا وحزنا، فحذف المضاف، فلا مجاز، أي التقطوه من التابوت ليقتلوه لظنٍّ أن يكون لهم عدوًّا وحزنا.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَاطِئِينَ﴾ في رأيهم وسيرتهم، إذ قتلوا تسعين ألف وليد فيما قيل، ليوافقوا قتل من يزيل ملكهما، وربَّوه بأيديهم، أو [خاطئين] في دينهم فعاقبهم بتربيته في أيديهم، أو في أنَّهم لم يشعروا أنَّه الذي يذهب ملكهم، أو ﴿خَاطِئِينَ﴾: آثمين.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ حين أخرجته من التابوت أو بعد ذلك حين ألحَّ في قتله، وهي آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد فرعون يوسف في مصر، وقيل: هي من سبط موسى فتكون إسرائيليَّة، ويبعد ما قيل إنَّها عمَّته.

﴿قُرَّةُ عَيْنٍ﴾ هذا قرَّة عين، أو هو قرَّة عين ﴿لِّي وَلَكَ﴾ وأجابها فرعون بأنَّه قرَّة عين لك لا لي، إذ قضى الله بموته كافرا، ولكون مصلحتها أهمَّ عند فرعون قدَّمت «لي»، ولتأكيد كونه قرَّة لم تقل: قرَّة لنا بل قالت: «لِي وَلَكَ».

(1) العبارة غامضة هنا. وتوضيحها في روح المعاني للآلوسي، ج20، ص46 ـ 47.

﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ استئناف منها، وكان ذلك كلُّه منها لإلقاء الله تعالى حبَّه في قلبها، ولما رأت من نور من الصندوق وبين عينيه وشفاء بنت فرعون بريقه. والخطاب بالواو لفرعون تعظيما مثل ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [سورة المؤمنون: 99]، ويكون ذلك في الغيبة أيضا، ولا يختصُّ ذلك بالتكلُّم كما زعم بعض، وينبغي إبقاء الكلام على ذلك إذا تبادر، وقيل: لفرعون والحاضرين القائلين: اقتله، فإنَّه الموعود به، أو لفرعون ومن يريد القتل لو غائبا، أو للمأمورين الحاضرين بقتل الصبيان بعد أن استعطفت عليه فرعون، وهو أنسب إذ حضروا.

﴿عَسَىٰٓ أَنْ يَّنفَعَنَآ﴾ بعدُ لِمَا رأينا من حسن طلعته ببركته، كما نفعنا بشفاء البنت ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ فإنَّه لبركته وجماله أنسب بالملوك، علَّلت النهي عن قتله بما ينافي المترقِّب من العداوة والحزن وهو النفع والتبنِّي، إلهاما من الله تعالى، وكأنَّها قالت مثلا للحاضرين المأمورين بالقتل: لا تحرموا فرعون وإيَّانا من بركة هذا الولد وتبنِّيه، وأمَّا عدم قولها: أن ينفعني وينفعك، فليس لذلك، فإنَّها ولو قالت: «لِي وَلَكَ» لا يلزمها ذلك للطول لو قالت: عسى أن ينفعني وينفعك، ولا سيما لو قالت: وأتَّخذه ولدا ونتَّخذه ولدا.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّهم على خطأ عظيم في استبقائه، لأنَّه المفسد لملكهم والعدوُّ والحزن، وقيل: لا يشعرون أنِّي أفعل ما أريد.

[قصص] روي أنَّ فرعون لَمَّا نظر إليه قال: هذا عدوٌّ، غير أنَّه كيف أخطأ الذبح؟ واغتاظ، فقالت آسية: هذا الوليد أكبر من سنتين، وأنت أمرت بذبح ولدان هذه السنة، وقيل: قالت له: إنَّه ليس من بني إسرائيل بل هو غريب من أرض أخرى، ولعلَّها قالت القولين جميعا.

والجملة حال من «ءَال فِرْعَوْنَ» أو من «امْرَأَةٌ»، والضمير لها تعظيما، وهو خلاف الأصل لا من «امْرَأَةٌ» و«فِرْعَوْنَ» إذ لم يجمعهما عامل في ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ وذلك من كلام الله ﷻ.

ويجــوز أن يكون من كلامها علــى أنَّ الجملة حال من ضميــر «نَتَّخِذ»، وعلى أنَّ الضميرين في «هُمْ لَا يَشْعُرُونَ» للناس مطلقا، بمعنى أن نتَّخذه ولدا والناس لا يشــعرون أنَّه غير ولدنا، وفيه ضعف لشــهرة أنَّــه الذي أخرج من التابوت، وانَّه ليس ابنا لفرعون ومَا لَهُ ولد غير البرصاء.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ﴾ قلب ﴿أُمِّ مُوسَــىٰ فَارِغًا﴾ من كلِّ شيء، وقيل: خاليا من وحي الله تعالى إليها بنســيان وحيه تعالى إليها: ﴿وَلَا تَخَافِــي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْــكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَــلِينَ﴾ وقال لها الشــيطان: كرهت أن يقتله فرعون فيكون لك أجره وقتلتِه أنتِ بالبحر!.

وَلَمَّا وصلها الخبر أنَّ فرعون أصابه قالت: وقع في يد عدوِّه الذي فررت منه، واشــتدَّ ضيقها حتَّى نســيت الوحي، وعلى كلِّ حال: المراد فارغا من كلِّ شــيء سوى موســى لعدم الصبر عنه، ويدلُّ على اســتثنائه قوله ﷻ: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ تصرخ بموسى: وَاوَلَدَاهُ! إذ رأته في الموج ترفعه موجة وتحطُّه أخرى خوف الغرق، وإذ اشتدَّ عليها فراقه، أو إذ ســمعت بقبض فرعون له، وقيل: لَمَّا سمعت أنَّه ابن فرعون كادت تقول: هو ابني لا ابنه، وقيل: كادت تقول: إنَّه أوحي إليَّ أن سيردُّ إليَّ، وقيل: كادت تصرِّح به فرحا إذ سمعت أنَّ فرعون تبنَّاه ونجا من القتل.

وعدِّي «تُبْدِي» بالباء لتضمُّن معنى تصــرِّح، ولا بعد في جعل الباء صلة في المفعول، أي لتظهر موسى بالذكر، وأنَّه ولدها. ويبعد عود الهاء إلى تبنِّيه إذ نجا به أو إلى المذكور من الردِّ والجعل من المرســلين، أي تبدي فرحا، فالفراغ من الهمِّ، ووجه البعد أنَّ التبنِّي لم يذكر هنا إلَّا رجاءً، وأنَّ الردَّ والجعل بعيدا الذكر، و«إِنْ» مخفَّفة، واللام دليل على ذلك، أو نافية واللام بمعنى إلَّا، وهو ضعيف.

﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ لولا ربْطُنَا على قلبها بالصبر موجودٌ، وسمَّى التصبير ربطا على الاستعارة الأَصلِيَّة، واشتقَّ منه «ربط» على التبعيَّة، وأغنى عن جواب «لَوْلَا» ما قبلها.

﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُومِنِينَ﴾ الراسخين في التصديق، وإذا فَسَّرنا الفراغ بالفراغ من الهمِّ فالإيمـان بمعنى الوثوق أي من الواثقين بوعد الله وثوقا شـرعيًّا، لا خارجا عنه إلى ابتهاج فاسـد، [ويقال:] أمرت بشـيئين ونهيت عن شـيئين وبشِّرت بشيئين ولم ينفعها ذلك، حتَّى تولَّى الله إحاطتها بالربط على قبلها.

﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ﴾ واسـمها مريم أو كلثمة أو كلثـوم، لم يقل: قالت لبنتها إشـارة إلى أنَّها تجتهد في مراعاة شـأنه كما هو شـأن حقِّ الأخوَّة في الشفقة ﴿قُصِّيهِ﴾ تتبَّعي شـأنه وأخباره فتخبرها بها، لا لتعلم أقتلوه أم لا؟ إذ علمت بأنَّه يردُّ إليها ويجعل رسولا، ويجوز لخوفها من قتله إذ نسيت ما أوحي إليها، ولطبيعة البشر، أو لم تعلم أنَّ القائل لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ﴾ ملك، أو نسيت الإلهام، أو لم تصدِّق بتعبير رؤياها تصديقا كاملا، وكذا تقول فيما مضى، فقصَّته.

﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُـبٍ﴾ عن بعد لئلَّا تُتَّهم بـه، مصدر أو وصف، أي مكان جنب أي بعيد، أو عن جانب إذ كانت تمشي على الشاطئ، أو عن إيهام أنَّها لا تريده، أو عن شوق.

روى أبو عمرو بن العـلاء أنَّ قبيلة جذام يقولون: جنبـت إليك، بمعنى اشـتقت، قلت: لا يجوز تفسـير القرآن بغير لغة قريش ما وجدت. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّها من أهله وأنَّها تقصُّه، والفاصلة تَمَّت في قوله: ﴿نَاصِحُونَ﴾ لا هنا لقرب ﴿لَا يَشْـعُرُونَ﴾ الأوَّل. ﴿وَحَرَّمْنَا﴾ منعنا، أي قضينا أن لا يشـرب لبن امرأة بعد أمِّه ﴿عَلَيْهِ﴾ أي عنه.

[صرف] ﴿الْمَرَاضِعَ﴾ جمع مُرْضِع ـ بضمِّ الميم وكسـر الضاد ـ وهي المرأة التـي ترضع ولدا، كحائـض وطامث وطاهر من حيـض أو نفاس، وطالق ونحو ذلك مِمَّا يختصُّ بالنسـاء لا يحتاج إلى تاء، وذلك لشـهرته كاف عن التأويل بشـخص مرضع. أو جمـع مرْضَع ـ بضـمِّ الميم وفتح الضاد ـ أي إرضاع، أو بفتح الميـم أي رضاع، ويبعد أنَّه جمع مُرضع بضمِّ

الميم أو الفتح، بمعنى موضع الإرضاع أو موضع الرضاع، وهو الثدي. والجمع قيل لتعدُّد مَرَّات الرضاع.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي قبل قصّها أو إبصارها أو أخذ فرعون، أو من أوّل أمره بعد إرضاع أمّه، بمعنى لم يجع ولا يجوع من حيث فارق أمَّه ﴿فَقَالَتْ﴾ أخت موسى، أي فدخلت عليهم ورأتهم يلتمسون من يكفله فقالت: ﴿هَلَ اَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ﴾ يقومون به.

﴿لَكُمْ﴾ لنفعكم، أو لأجلكم، لم تقل: هل أدلُّكم على امرأة تكفله إشارة إلى أهل شرف فيهم امرأة تقوم به، كما هو شأن الملوك ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ لا يقصِّرون في حقِّه.

[قيل:] قال هامان: ما قالت هذا إلَّا لأنَّها من أهله أو تعرفهم فخذوها لتخبركم بحاله، قالت: إنَّما أردت ناصحون فيه لأجل الملك، ولحبِّ الاتِّصال به، أو قالت: أردت أنَّهم ناصحون للملك، بردِّ الهاء للملك لا لموسى، وجاز لها ذلك لضرورة التقيَّة، وفي قلبها ناصحون لموسى لذاته، لا لأجل الملك فيه، ولا للملك بذاته.

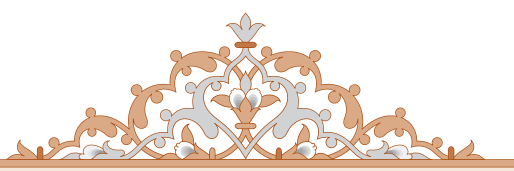
وقيل: قالت: ترضعه أمِّي وقد ولدت أخاه هارون في العام الذي لا ذبح فيه، وكان يذبح عاما ويترك عاما، فصدَّقوها ومضت به إلى أمِّه، وفي جميع اللغات أوجه العَرَبِيَّة بالترجمة، أو تكلَّمت بِالعَرَبِيَّةِ تبعا لهم إذ كانوا من العمالقة وهم يتكلَّمون بِالعَرَبِيَّة.

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِ﴾ فقبلوا منها الدلالة فدلَّتهم على أمِّه، فرددناه إلى أمِّه ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أمرها فرعون أن تأتي بمن يكفله فأتت بأمِّه وهو يبكي، ولا يقبل عن امرأة، وفرعون يعلِّله فلمَّا جاءته قبل ثديها، فقال: من أنت ما قبل إلَّا ثديك؟ قالت: إنِّي امرأة طيِّبة الريح طيِّبة اللبن لا أوتى بصبيٍّ إلَّا قبل عنِّي.

[قصص] فرجعت به إلى بيتها من يومها من حين ألقته إلى أن رجعت به يوم واحد، وقيل: ثمانية أيَّام، وأجرى لها في كلِّ يوم دينارا نفقة، وحلَّ لها أخذها كي تقرَّ عينها برجوعه إليها في أمن من فرعون بلا خوف، ولا حذر منه، إذ كان الرجوع بأمره لعنه الله بإذن الله ﷻ المقدِّر لذلك ﴿**وَلَا تَحْزَنَ**﴾ بعد ذلك لفراقه.

﴿**وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ**﴾ ليتجدَّد علمها بأنَّ كل ما وعد الله حقٌّ لا يتخلَّف في شأن موسى وغيره، فمن ذلك إرساله الموعود به وبردِّه، وقد وقع الردُّ فكذا يقع الإرسال بالقياس أيضا.

ولا يخفى أنَّ قوله ﷻ: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ يقوِّي الإيحاء في قوله ﷻ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ إيحاء بملك بل يتعيَّن، لأنَّا نقول: من أين تعلم بمجرَّد وقوع الموعود به بالإلهام، أو بالرؤيا أنَّ الإلهام أو الرؤيا وعد من الله؟ ولا إشكال ولا سيما مع قوله: ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ فإنَّه يبعد أن يكون المعنى: وَلَكِنَّ أكثر الناس لا يعلمون أنَّ الإلهام أو الرؤيا لا يتخلَّف، أو أنَّه حقٌّ، فإنَّ الإلهام والرؤيا مِمَّا يعذر الإنسان في عدم الجزم بتحقُّقه، إذ لا يدري أنَّهما من الله جزما، فالمعنى: لا يعلمون أنَّ ما وعد الله هكذا حقٌّ لا يتخلَّف، أو لا يعرفون وعده تعالى، ومن علم ذلك اختلَّ عند الملمَّة بطبع البشر.



﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿14﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿15﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿16﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿17﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿18﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿19﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿20﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿21﴾ ﴾

ـ 3 ـ

قتل المصري وخروجه من مصر

﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ**﴾ قوّته ﴿**وَاسْتَوَىٰٓ**﴾ فيه قلت: وذلك وقت واسع يبلغ أوّله، فعن ابن عبّاس: الأشُدُّ هو الثماني عشرة والثلاثون وما بينهما، والاستواء: ما بعد الثلاثين إلى تمام الأربعين، وينقص بعدها، وعنه: الأشدُّ ثلاث وثلاثون سنة، والاستواء أربعون ولا يجاوز أربعين.

وقد قيل: الاستواء أربعون، لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [سورة الأحقاف: 15]، وما ذكر من الروايات وما ذكروه من الأقوال جري على الغالب، فقد يكون الأشُدُّ سبع عشرة كما قال الزجَّاج، أو أقلَّ، وقد يكون فوق ولو إلى عشرين، باختلاف الأعصار والأحوال والمواضع.

[قلت:] والمتبادر أنَّ تفسير الأشُدِّ والاستواء على عموم لا على من ورد ذكرهما في شأنه كموسى هنا عليه السلام.

﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ نبوءة، أو علما من خواصِّ النبوءة، أو سنَّة، وحكمة الأنبياء سنَّتهم، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ ـ ايَاتِ اللهِ والْحِكْمَةِ﴾ [سورة الأحزاب: 34]، ﴿وَعِلْمًا﴾ علما بالدين والشريعة وهو أعمُّ مِمَّا قيل: العلم بالتوراة، قيل: آتيناه سيرة الحكماء والعلماء قبل النبوءة، لأنَّها بعد الوكز والهجرة إلى مدين ورجوعه منها، والتوراة بعد إغراق فرعون كما يدلُّ له قوله:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل فعلنا بموسى وأمِّه عليهما السلام ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ لإحسانهم فإنَّ النبوءة لا تكون جزاء على الإحسان بل هي أمر من الله مستأنف لمن يصلح له.

[قلت:] ولا يصحُّ ما قيل: إنَّه أوحي إلى موسى: «جعلتك نبيئا لأنَّك شفقت على شاة كسرت»، وأجاز بعض أن يكون مزيد قرب في الطاعة سببا في ركن منها، وإذا قيل: هذا الإيتاء قبل أوان النبوءة فإيتاء رياسة دِينيَّة ودُنيَوِيَّة في بني إسرائيل.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ عن ابن عبَّاس: قرية «منف»، وقيل: عين شمس، وقيل: حابين على فرسخين من مصر، وقيل: الإسكندريَّة، وقيل: قصر فرعون، والأولى أنَّها مصر، وهو أشهر ﴿عَلَىٰ حِينِ﴾ في حين ﴿غَفْلَةٍ﴾ عظيمة ﴿مِّنَ اَهْلِهَا﴾ ثابتة منهم، لا يتوقَّعون دخوله، وهو القائلة عند ابن عبَّاس، وعنه: بين المغرب والعشاء، وقيل: في عيد لشغلهم، كان مختفيا لإخراج فرعون له منها إذ جاهره وقومه بما يكرهون، فدخلها خفية إذ خرج فرعون منها راكبا إلى بلد.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ في أمر دينيٍّ، أو لأنَّ الكافر يستحمل الحطب على الإسرائيليِّ إلى مطبخ فرعون، والكافر خبَّاز له. [قلت:] ومن العجيب العدول عن كونه نعتا إلى كونه حالا لمجرد إجازة سيبويه حال النكرة بلا شرط.

﴿هَذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ أتباعه في الدين، أو في الدنيا ولو كافرا أو فاسقا، وشيعته: بنو إسرائيل، وليسوا كلُّهم موحِّدين ولا كلُّهم موفِّين، بل فيهم **فساد في مختلف العصور بعد يعقوب**، وقد قيل: إنَّ هذا هو السامريُّ.

﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ في الدين، وهم القبط أو غيرهم، واسمه قانون. وإشارة القرب استحضار للغائب ليكون كالمشاهد.

﴿فَاسْتَغَاثَهُ الذِي مِن شِيعَتِهِ﴾ بني إسرائيل، وكان بنو إسرائيل يَظُنُّونه أخا لهم من الرضاعة، وكان يركب إذا ركب فرعون على أفضل الدوابِّ، ويلبس لباسا أجود ما يكون، ثمَّ عرفوا أنَّه منهم أبا وأمًّا، وَلَمَّا بلغ أشدَّه كان يردُّ عن بني إسرائيل الظلم ﴿عَلَى الذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ عدَّاه بـ«عَلَى» لتضمُّنه معنى استنصر، كما قال: ﴿اسْتَنصَرَهُ بِالَامْسِ﴾ أو معنى استعان، كما قيل: قرأ به بعض، ومن العجيب تقدير: «الذي هو من شيعته على الذي هو من عدوه» مع عدم الدليل عليه مع الاستغناء عنه.

﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ﴾ ضربه برؤوس أصابعه، أو برؤوس الإبهام والسبابة والوسطى، أو بيده مضمومة الأصابع، وقيل: بعصا له، وهي غير المشهورة، فإنَّ المشهورة كانت له بعد حين كان عند شعيب. والهاء للذي من عدوِّه.

[قصص] ويقال: لَمَّا اشتدَّ الكلام قال القبطيُّ لموسى: لقد هممت أن أستحملك الحطب، وَإِنَّمَا استحملته الحطب إلى مطبخ أبيك، فاشتدَّ غضب موسى فوكزه، وهذا خطأ فإنَّه لا يجوز في حقِّ موسى ومن دونه أن يغضب لمثل هذا، حتَّى يقتل قائله، أو يفعل ما دون القتل، ومن نسب ذلك لموسى هلك إلَّا إن تأوَّل.

﴿فَقَضَىٰ﴾ موسى ﴿عَلَيْهِ﴾ أهلكه، وأصله: أنهى حياته، وَلَكِنَّ ذلك مقول للقتل فلا حاجة إلى تأويله بأوقع القضاء عليه، وذلك حقيقة، لأنَّ المعنى: قتله، ولو فسِّر بأماته كان مجازا، وقيل: قضى الله عليه بالموت، وقيل: قضى عليه الوكز، والأوَّل أولى. ولمَّا قتله [قيل] دفنه في الرمل.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ هذا الوكز أو هذا القضاء حصل لي من تزيينه، أو من أعماله التي يعملها تبعته فعملت مثل ما يعمل، أو هذا المقتول من أهل عمل للشيطان، أو عمل هذا المقتول من عمل الشيطان.

﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ﴾ لي ولسائر المسلمين ﴿مُّضِلٌّ﴾ لغيره ما استطاع ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر.

[نحو] خبران لـ«إنَّ» ثان وثالث، أو نعتان لـ«عَدُوٌّ». وأمَّا أن يكون «مُبِينٌ» نعتا لـ«مُضِلٌّ» فلا، لأنَّه صفة مثله فلا يطلب نعتا، ولا يتنازع «عَدُوٌّ» و«مُضِلٌّ» في «مُبِينٌ»، كلٌّ يطلبه نعتا لِمَا علمت أنَّ الصفة لا تطلب النعت حتَّى تنزل منزلة الجامد بوجه، ولأنَّه لا يقع التنازع في النعت، لأنَّ المهمل يضمر له، والنعت لا يكون ضميرا. وإن أريد بالتنازع مطلق الطلب لا النحوي فـ«مُضِلٌّ» لا يطلبه.

﴿قَالَ رَبِّ﴾ يَا رَبِّ ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بالوكزة، عدَّها من عمل الشيطان وظلما لنفسه مع أنَّها ليست ذنبا، ولعلَّه لَمَّا يبلغ، قال كعب: ذو اثنتي عشرة سنة لعظم شأن القتل ولو لكافر، أو لم تُعدَّ ذنبا لأنَّه دفع بها الظالم عن المظلوم بلا قصد، لشدَّة قوَّته، أو هي وقعة بلا عمد أوقعه فيها دخوله بينهما ليخلِّصه.

﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ لا تعاقبني عليها دنيا ولا أخرى ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ أي قال له: لم تذنب فلا عقاب، أو غفر له ما طلب غفرانه هكذا، وقيل: علم موسى أنَّه ليس ذنبا لأنَّه لم يتعمَّد، ولكنَّه أراد أنَّ الشيطان أوقعني في أمر يقتلني فرعون به، وجررت إلى نفسي مضرَّة فاستر عنِّي هذه الوكزة يَا رَبِّ، فسترها له، وهو خلاف الظاهر، ولا سيما مع قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فإنَّ هذا معروف في غفران الذنوب.

﴿قَالَ رَبِّ﴾ يا ربِّ ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ «مَا» مَصدَرِيَّة، والباء للقسم الاستعطافي، وهو ما جوابه طلب، أو في معناه، وفيه أبدا حنوٌّ فلا تهم، ألا ترى إلى لفظ الاستعطاف؟ ففي قولك: بالله لا تضرب زيدا، وبالله اضرب الكافر، معنى قولك: ارأف عليَّ بعدم ضرب زيد وبضرب الكافر.

والجواب محذوف تقديره: بإنعامك عليَّ احفظني عن مثل ذلك، أو لا أعود إليه، أو اعصمني، ولا يلزم الاستعطاف، ولا يقدَّر: لأتوبنَّ لأنَّه قد تاب فغفر له، إلَّا أن يراد لأتوبنَّ عن الركوب مع فرعون، وكان يركب معه إذا ركب، ويسمَّى ابن فرعون، لكن لا دليل على هذا، وليس المقام له.

﴿فَلَنَ اَكُونَ﴾ العطف على الجواب المحذوف، أو يقدَّر: إن عصمتني فلن أكون، ولا تُعلَّق الباء بـ«أَكُونَ» على غير القسم، لأنَّ «لَنْ» لها الصدر، والمراد: الإنعام بالدين أو بِالقُوَّةِ ﴿ظَهِيرًا﴾ معينا ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ قيل: لم يستثن فابتلي مرَّة أخرى. وهم فرعون وقومه وغيرهم، ودخل الإسرائيليُّ الذي من شيعته على أنَّه غير مسلم.

والإجرام: الإيقاع في الجرم وهو الذنب، أو ما يعسر، كما أدَّته معاونة الإسرائيليِّ. ويروى مرفوعا وهو صحيح: «**ينادى يوم القيامة: أين الظلمة؟ وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة؟ حتَّى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلما، فيجمعون في تابوت من حديد فيرمى به في جهنَّم**»[1]. وسأل خياط للظلمة عالما: هل أعدُّ من أعوانهم؟ فقال: لا بل أنت منهم، والذي يبيع لك الإبرة من أعوانهم[2].

---

(1) أورده **أحمد بن يحيى المرتضى** في البحر الزخَّار، في كتاب التكملة للأحكام والتصفية... فصل في الموالاة والمعاداة في الدين، فرع موالاة الكافر والفاسق. جامع الفقه الإسلامي (القرص المدمج).

(2) انظر: ج7، ص 49-50، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الذِينَ ظَلَمُوا﴾.

﴿**فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَآئِفًـا**﴾ أن يقبض عليه ويقتل في الذي قتله، أو أن يسلِمه قومه، ويقال: خائفا من ربِّه ﴿**يَتَرَقَّبُ**﴾ يتوقَّع أن يفتضح ويسعى به إلى فرعون أو نوابه، ويقال: يترقَّب المغفرة، ويقال: النصر على فرعون.

﴿**فَإِذَا الذِي اسْـتَنصَرَهُ**﴾ طلب نصرته ﴿**بِالَامْسِ**﴾ وهو الذي من شـيعته على ما مرَّ فإن كان اسـتغاثه قبل المغرب فلا إشكال، وإن استغاثه بعده وقبل العشاء أو عند العشاء فسمِّي الوقت أمسا لقربه من الأمس.

﴿**يَسْتَصْرِخُهُ**﴾ يستغيثه من عدوٍّ آخر قبطي، كما يتبادر، أو غير قبطي.

[لغة] والاسـتصراخ: رفع الصـوت بطلب النصرة، وهـو حقيقة عرفيَّة، وأصله: رفع الصوت مطلقا، ولا تخلو منه الاسـتغاثة فعرف فيها، أو المراد: إزالة الصراخ برفع الصوت وإذا أغيث سكت.

﴿**قَالَ لَهُ مُوسَىآ**﴾ للذي استنصره من شيعته ﴿**إِنَّكَ لَغَوِيٌّ**﴾ سفيه ﴿**مُّبِينٌ**﴾ ظاهر السـفه إذ قاتلت بالأمس رجلا وكثر جدالك فاسـتغَثْتَ بي حتَّى قتلتُه، فصرت في مخافة من تبعته إلى الآن، وزدت اليوم قتالا آخر!.

﴿**فَلَمَّآ أَنَ اَرَادَ**﴾ موسـى ﴿**أَنْ يَّبْطِشَ بِالذِي هُوَ عَـدُوٌّ**﴾ عظيم في الدين، والظاهر أنَّه قبطيٌّ، وأشدُّ الناس عداوة لبني إسـرائيل القبط مطلقا، أو للدين ﴿**لَّهُمَا**﴾ لموسـى والذي اسـتنصره ﴿**قَالَ**﴾ الذي هو عدوٌّ لهما، وقد علم أنَّ مريد البطش هو موسـى، وأنَّه الذي قتل الرجل بالأمـس، أخبره بعض بني إسرائيل أو غيرهم به مِمَّن عرفه، وقد كثرت بنو إسرائيل في مصر، وقد يخبره الذي استنصره.

﴿**يَا مُوسَىآ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالَامْسِ**﴾ في الأمس؟ وفهم الذي هو عدوٌّ لهما أنَّه المراد بالبطش لتوجُّه موسـى إليه بعينيه وجسده، ولا يردُّه عن هذا الفهـم لقوَّته بالتوجُّه قولـه للذي هو من شـيعته ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ

مُّبِينٌ﴾ وربَّما فهم أنَّ هذا القول له لا للذي من شيعته، ولو كان ضمير «قَالَ» للذي من شيعته ـ كما نسب للجمهور وابن عبَّاس ـ لقيل: فلمَّا أراد أن يبطش به قال: يا موسى أتريد؟...

وموسى قويُّ القلب شجاع، عظيم الشفقة على المظلوم، ولا سيما إن ظلم في الدين، فقول: «أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي»، لا يردُّه عن الإقدام على القتل، ولو كان تليينا، ويقال: فهم الذي من شيعته أنَّه المراد من «إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ». ويبعد ما قيل: إنَّ الضمير في «لَهُ» و«إِنَّكَ» للعدوِّ.

﴿إِن﴾ ما ﴿تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الَارْضِ﴾ تفعل ما تشاء لا تخاف عاقبة ولا تخشى الله ﷻ، ولا ينال منك الإنصاف، كما قيل: للنخلة التي فاتت اليد: جَبَّارة ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ بين الناس بالتي هي أحسن.

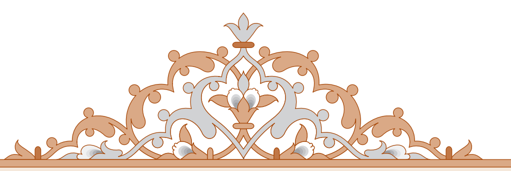
وشهر في المدينة أنَّ موسى فيها، وأنَّه قتل رجلا أمس، وهمَّ بقتل آخر اليوم من قوم فرعون، فنصحه رجل كما قال الله ﷻ: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنَ اَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ من أقرب طريق لخوف الفوت وطول المسافة، وهو مؤمن آل فرعون، واسمه حزقيل، أو شمعون أو شمعان، وقيل: غير مؤمن آل فرعون.

﴿قَالَ يَا مُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ﴾ وجوه قوم فرعون ﴿يَاتَمِرُونَ﴾ يفتعلون، من الأمر للمطاوعة، أي يتشاورون ويأمر بعض بعضا ﴿بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجِ﴾ من المدينة قبل أن يظفروا بك ﴿إِنِّي لَكَ﴾ ناصح لك، فحذف لدلالة قوله: ﴿مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ الراسخين في النصح.

[نحو] ولا نسلِّم عموم أنَّ ما لا يعمل فيما قبله لا يفسَّر عاملا قبله، وإنَّما لم أعلِّقه بـ«النَّاصِحِينَ» لأنَّ «ال» موصولة لا يتقدَّم عليها صلتها، وأجيز للتوسُّع في الظروف، وهكذا الوجهان في مثل هذا من القرآن، وهو متكرِّر

فيه، وأجاز بعض تقديم معمول صلة «ال» مطلقــا، لأنَّها بصورة الحرف. ولا يقال: اللام للبيان، أي: أعنــي لك، لأنَّه يقال: أعنيــك لا أعني لك، فلك أن تقول: خطابي لك، أو خطابا لك.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا﴾ أن يلحقه رسل فرعون أو نوابه ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ لحوقهم ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فرعون وقومه.



﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿22﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿23﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿24﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿25﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿26﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿27﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿28﴾﴾

ـ 4 ـ

ذهاب موسى عليه السلام إلى أرض مدين وزواجه بابنة شعيب

﴿**وَلَمَّا تَوَجَّهَ**﴾ قابل بوجهه منصرفا عن المدينة ﴿**تِلْقَاءَ**﴾ تفعال، من اللقاء مصدر، يستعمل ظرف مكان بمعنى ما يقابل جهة كذا ﴿**مَدْيَنَ**﴾ مدينة شعيب، سمِّيت باسم مدين بن إبراهيم عليه السلام.

[قصص] ولم يقصده موسى لكن خرج على وجهه قاصدا النجاة حيث تكون، وأطال الطريق ولم يقصره جانبا، ولم يطلب المكث مع أحد خوفا من

لحوقهم، كذا يتبادر لي، حتَّى اتَّصَلَ ببنتي شعيب، ثمَّ رأيت أنَّه قيل مشى بلا معرفة فهداه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مدين، وقيل: أخذ طريقا لا يتَّضح فجاءه ملك على فرس ومعه عصا في رأسها حديد، وقال: اتبعني فأوصله إلى مدين.

ويقال: استقبلته ثلاث طرق فأخذ أوسطها وأوضحها لأنَّهم لا يتوهَّمون أنَّه أخذها مع أنَّه هارب مستخف، فأخذوا غيرها، وقيل: أخذ غيرها، وقيل: قصد شعيبا لمعرفته به، وقيل: لقرابة له، وعلى كلِّ حال مدين خارجة عن حكم فرعون، وقيل: قصد مدين لظنِّه أنَّ فيها قرابة له إذ سمِّيت باسم مدين بن إبراهيم.

﴿**قَالَ عَسَىٰ رَبِّيَ أَنْ يَّهْدِيَنِي سَوَآءَ السَّبِيلِ**﴾ أي وسطه، أي أحسنه المؤدِّي إلى النجاة، وذلك توكُّل على الله سبحانه، ممزوج بترجٍّ كدعاء.

﴿**وَلَمَّا وَرَدَ**﴾ وصل، وأصل ورود الماء دخوله، أو الشرب منه ﴿**مَآءَ مَدْيَنَ**﴾ بئرها تسمية للمحلِّ باسم الحالِّ ﴿**وَجَدَ عَلَيْهِ**﴾ على شفيره، وليس حذفا للمضاف لأنَّ الوجود على الماء حقيقة عرفيَّة في الوجود عنده ﴿**أُمَّةً**﴾ عظيمة للتنوين في النكرة، كذا قيل، وليس بلازم ولا متبادر، بل يفيد الكثرة ـ على بعد ـ بقوله: ﴿**مِنَ النَّاسِ**﴾ إذ الكون من أخلاط الناس يشير إليها لكثرة الناس باختلاط كلِّ من جاء، بدون أن يخصَّ ذوو المروءة مثلا فيقلُّوا، فهم من مطلق الأصناف.

وقيل: ذكروا بالناس لأنَّه لا خصلة لهم يذكرون بها، أو لشبههم بالبهائم حتَّى كأنَّهم يميَّزون عنها ببيان أنَّهم من الناس، إذ لم يراعوا حقَّ النسوة الضعاف المتورِّعات بنات شيخ أعمى نبيء، ولكن أيُّ كثرة في الرعاء إذا كان الناس الرعاء؟ اللَّهُمَّ إلَّا أنَّ الكثرة أمر نسبيٌّ قد تعتبر بالنسبة إلى ما هو قليل.

﴿**يَسْقُونَ**﴾ منه مواشيهم ﴿**وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ**﴾ بعيدا عنهم أو قريبا ﴿**امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ**﴾ تدفعان غنمهما لِئَلَّا تختلط بغنم الناس أو مواشيهم، أو

تفترق، أو يدخل فيها غيرها، أو خوفا من السقاة، ومن أن تشرب من ماء تعنَّوا فيه دونهما، وقيل: تذودان الناس عن غنمهما، ولا يظهر أن يراد: تدفعان الناس عن النظر إليهما.

﴿**قَالَ مَا خَطْبُكُمَا**﴾ ما شأنكما؟ أو ما مطلوبكما؟ وأصل الخطب الطلب، الناس يسقون ماشيتهم وأنتما ماكثتان عن السقي؟ ﴿**قَالَتَا**﴾ معا، والظاهر أنَّه قالت إحداهما عن نفسها وعن الأخرى، وقولها قول الأخرى، ولعلَّ القائلة الكبيرة، وقد قيل: من بطن واحد كبرت إحداهما الأخرى بنصف النهار.

﴿**لَا نَسْقِي**﴾ عادتنا التباعد عن السقي، والمضارع للتكرار، ولم يتعلَّق الغرض بالمفعول وهو الماشية فلم يذكر، ﴿**حَتَّىٰ يُصْدِرَ**﴾ ينصرف ﴿**الرِّعَآءُ**﴾ بمواشيهم لِئَلَّا تختلط بالرجال مسًّا أو نظرا منهم، جمع راع، والقياس الرعاة كقضاة ﴿**وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ**﴾ عاجز لكثرة سنِّه، ولو كان غير شيخ أو كان شيخا غير كبير أو كان كثير المال ولو كان له ابن يصلح للرعي والسقي لتولَّاهما هو أو الابن، أو استأجر.

[قصص] وأبوهما: شعيب، وقيل: صاحب موسى «أثرون» بن أخي شعيب، وقيل: صاحب موسى هارون، وقيل: مروان، وقيل: أبوهما ابن أخي شعيب، وقيل: أخوه فسمَّتا العمَّ أبا، وقيل: يثرب صاحب مدين، وقيل: يثرون حبرها. وإنَّما سألهما موسى لمطلق التعجُّب من حالهما، ولَمَّا أخبرتاه رقَّ لهما مع ما رأى منهما من الديانة.

﴿**فَسَقَىٰ لَهُمَا**﴾ لوجه الله ولرقَّة قلبه لهما قبل صدور الرعاء، لا طلبا للأجرة، وقيل: سألهما ليميلهما إلى الاستعانة به فأجابتاه على ظاهر سؤاله، وعلى ما هو عندهما من التورُّع عن ملاقاة الرجال عموما، فكيف الرعاء ومن شأنهم السفه؟ ولم تجيبا بِأَنَّا ضعيفتان، إذ لو شاءتا لتجلَّدتا، ولكن منعهما الدين، مع أنَّ جوابهما يتضمَّن الاستعانة.

والمراد: فعل الاستقاء الذي كفَّتا عنه، ولم يتعلَّق غرض الكلام بالمفعول فلم يقل: فسقى لهما غنمهما.

[قلت:] ولا يصحُّ ما قيل عن عمر: إنَّهما تذودان حتَّى فرغ الرعاء، وأطبقوا على البئر بصخرتها التي تطاق بعشرة رجال، وقيل: بأربعين فرفعها موسى وحده، وسقى دلوا واحدة بارك الله تعالى فيها، وروت بها، لأنَّ ظاهر الآية أنَّه سقى لهما عقب جوابهما، والحال أنَّ الناس في السقي، وأيُّ داع إلى دعوى أنَّه وجد الامرأتين بعد صدور الرعاء، أو إلى اتِّساع الوقت إلى صدورهم؟ وإلى آخر ذودهما، وأوَّل صدورهم؟.

[قصص] وعن ابن عبَّاس: لَمَّا رأى ازدحامهم على الماء وذودهما قال: هل من ماء آخر؟ فدلَّتاه على بئر مطبق عليها بصخرة لا يطيقها نفر، قيل: يرفعها عشرة، فأزالها وسقى غنمهما بدلو واحدة، **ولا تخلو الأخبار عن تخليط إذ يحتاج إلى هذا العدد** وليس يوجد كُلَّ وقت، وكيف يتصوَّر لهم علاجها؟ وكيف لا تنهدم البئر بها؟.

﴿**ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ**﴾ ترتيب ذكري بلا تراخ، أو المراد علوُّ شأن ما يَتَرَتَّبُ على هذا التولِّي من الاتِّصال بشعيب ومعاملته. والتولِّي: مطلق الذهاب مجازا وأصله الذهاب إلى حيث كان قبل، ولعلَّه كان قبل في ذلك الظلِّ، ويقرب منه ما زعم بعض أنَّه جعل ظهره يلي ما كان يلي وجهه من الشمس ﴿**إِلَى الظِّلِّ**﴾ ظلِّ شجرة، كما روي عن ابن مسعود، فقيل: سمرة، وقيل: ظلُّ جدار لا سقف له.

﴿**فَقَالَ رَبِّ**﴾ يا ربِّ ﴿**إِنِّي لِمَآ**﴾ إلى ما، اسم موصول، أو نكرة موصوفة متعلِّق بـ«فَقِيرٌ» ﴿**أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ**﴾ بيان لـ«مَا»، نعت ثان لها أو حال منها، أو من الموصولة، أو من الرابط لهما ﴿**فَقِيرٌ**﴾ محتاج، والماضي لتحقُّق وقوع نزول الخير كأنَّه قد نزل، وهو الطعام ولو شقُّ تمرة، وقيل: سأل الخبز.



أو الماضي على ظاهره، وما أنزل إليه من الخير توفيقه إلى السقي لهما فهو يرجو لذلك ثوابا من الله ﷻ في الآخرة أو دينه؛ أو ﴿فَقِيرٌ﴾ إلى ثواب السقي، أو الخير: الخروج عن فرعون بدينه، أي فقير إلى طعام لخروجي عنه، وكان في ترفُّه معه، أو ذلك شكر لنعمة الخروج، فاللام للتعليل، وهما ضعيفان كضعف تفسير الخير بزيادة العلم والحكمة.

والحقُّ الحاجة للطعام لا باعتبار كونه عند فرعون كما فسَّره ﷺ[1]. ولا يعرف في العَرَبِيَّة: فقرته بمعنى طلبته، فضلا عن أن يقال: «مَا» مفعول لـ«فَقِيرٌ» واللام للتقوية. والجملة على كلٍّ للتضرُّع ودعاء.

ولَمَّا سمعتاه قال «رَبِّ إِنِّي...» إلخ أسرعتا إلى أبيهما شفقة لِمَا فهمتا من جوعه، ولكون أبيهما يحبُّ الضيف ويعتاده، فقال: ما هذه السرعة؟ قالتا: سمعناه يقول: «رَبِّ إِنِّي...» إلخ فقال لإحداهما: ادعيه.

﴿**فَجَآءَتْهُ إِحْدَاٰيهُمَا**﴾ قيل: الكبرى، لأنَّها أعلم بالكلام والملاقاة، وقيل: الصغرى لخفَّتها ﴿**تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَآءٍ**﴾ ثابتة على استحياء عظيم، ولو كانت الكبرى، وذلك لعظم مواجهة موسى، ويقال: وضعت كمَّها أو ثوبها على وجهها ﴿**قَالَتِ انَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا**﴾ أجر سقيك.

فاتَّبعها ليتبرَّك بالشيخ وليستفيد أخا يسكن إليه وليحقِّق كلامها في أخذ الأجرة، فإن كان حقًّا تركه وبيَّن له أنَّه سقى لهما لوجه الله ﷻ، وإن وجده مُعَدًّا للضيفان مطلقا لا لخصوص سقيه أكل.

[قصص] ولَمَّا دخل وجد الطعام مهيَّأ، فقال شعيب: كل، قال: أعوذ بالله، إنَّا قوم لا نأكل على عملنا لوجه الله أجرا، فقال شعيب: إنَّ من عادتي وعادة آبائي إطعام الضيف، وهذا منه، وقيل: تبعها لضرورة الجوع الواجبة، فتقدَّمته

(1) انظر: ابن كثير: قصص الأنبياء، ص308.

لتدلَّه على الطريق، فلعب بثوبها الريح وقال: تأخَّري، ودلِّيني على الطريق إذا أخطأت بكلام أو حصاة.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ جنس ما وقع له مع فرعون وفي طريقه ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فرعون ومن معه، علم من قبل أنَّ فرعون لا يجري حكمه في مدين كما مرَّ، وقيل: إلهاما من الله عَزَّوَجَلَّ لشعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا ينغص بذلك سقيه، لأنَّ ذلك أداء للواجب، حتَّى قيل: إنَّه رفع صوته بقوله: «رَبِّ...» إلخ لتسمعا، قيل: وصله وقت العشاء فوجد الطعام مهيَّأ، فقال: أعوذ بالله إنِّي مِمَّن لا يبيع أحدهم عمل الآخرة بملء الدنيا ذهبا، قال: هذه عادتي للضيف مطلقا، فأكل.

﴿قَالَتِ اِحْدَاٰيهُمَا﴾ شهر أنَّها الصغيرة التي تزوَّجها وهي التي دعته ﴿يَآ أَبَتِ اسْتَاجِرْهُ﴾ اجعله أجيرا عندك لغنمك، أو استأجر قوَّته مطلقا يستعمله في كلِّ ما أراد ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَاجَرْتَ﴾ أي من أردت استئجارته، قيل: ويحتمل أنَّه قد استأجر غيره قبله، ويبحث بأنَّه لا يعمل التفضيل بين من اتَّصف بشيء ومن لم يتَّصف به، فإنَّه لم يستأجر موسى قبل ذلك ﴿الْقَوِيُّ الَامِينُ﴾ عرفت قوَّته برفع الصخرة وحده، وأمانته بقوله: تأخَّري.

وإن قلنا: إنَّها الكبيرة فقوَّته برفعها، وأمانته بكلامه ونظره، أو الداعية أيضا الكبرى. وقيل: ﴿الْقَوِيُّ﴾: في دينه ﴿الَامِينُ﴾: في جوارحه.

ويقال: أفرس الناس ثلاثة: صاحب يوسف إذ قال: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَّنفَعَنَا﴾ [سورة يوسف: 21]، وبنت شعيب وأبو بكر في عمر إذ أوصى بخلافته.

وأمَّا كونه مع ذلك جائعا مضرور القدمين فقد تعلم به وقد لا تعلم. و«ال» في «الْقَوِيُّ» للعهد الذكري الحضوري أيضا، فإنَّه لا يتَصَوَّرُ أن تقول: «استأجره» وتنسب القُوَّة والأمانة إلى غيره، أو للجنس فيدخل موسى بالأولى، [قلت:] وفي الآية جواز الخلوة بامرأة أجنبيَّة إذا أمنا الفتنة.

وبدأت بِالقُوَّةِ على سـبيل الترقِّي من الفاضل إلى الأفضـل، أو بدأت بها لعلمها بها قبل علمها بأمانته.

[فقه] وفي الآية بَعْدَ هـذه الإصداقُ بالعناء، وهو جائز، وشـرع من قبلنا شرع لنا ما لم يمنع، وهو الصحيح، فيجوز الإصداق بكلِّ مباح نافع كعناء وغيـره، ولا يختصُّ بالمال، ولا يجوز بما هـو عبادة، واختلف في قراءة القرآن أو مقدار منه، وتعليمه، ويجوز بنسخه وهو من العناء، وجواز أكل الأب صـداق بنته لأنَّهـا أجازت له، أو سـيعوِّضها، ويقـال: الغنم للمتزوِّجة في الآية.

[قلت:] وفي قصَّة موسـى كلام وجد في التوراة. وأقول: لا يجوز مطالعة التوراة والإنجيـل لأنَّ أهل الكتابيـن يزيدون وينقصون ويقصـدون مخالفة القرآن ورسول الله ﷺ، ولا يؤخذ بما فيهما لذلك، ولو كان لا يرجع إليه أمر من الدين قال الله ﷻ: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُمْ...﴾ [سورة البقرة: 120].

﴿**قَالَ**﴾ شـعيب ﴿**إِنِّي أُرِيدُ أَنُ انكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ**﴾ تخيير له إذ لم يقل: أن أنكحك ابنتي هذه، وفي «هَاتَيْنِ» تلويح بأنَّ له غيرهما، وقد قيل: بناته ست، وقيل: سـبع، فتحرَّز بهاتين عن سـائرهنَّ، علم بهنَّ موسى أو لم يعلم، ثمَّ لا بأس بالتفنُّن في العبارة والتأكيد ولـو بلا تحرُّز، ولو لم يكن له إلَّا هما، وفي قوله: ﴿إِحْـدَى ابْنَتَيَّ﴾ بيان أنَّه ليس الغنـم للمتزوِّجة لأنَّه قد خيَّره فكيف يتزوَّج إحداهما باسترعاء غنم الأخرى؟ إلَّا أن يتأوَّل بأنَّه علم من الله أو بأمارة أنَّه يتزوَّج صاحبة الغنم ولو تلفَّظ بالعموم.

﴿**عَلَـىٓ أَن تَاجُرَنِي**﴾ تعاملني بالأجـرة لك منِّي، أو تكـون لي أجيرا، كقولك: أبوته صـرت له أبا، أو تثيبنـي على التزويج، تقـول: آجرك الله أي أثابك، ﴿**ثَمَانِيَ**﴾ ظرف متعلِّق بـ«تَاجُر» ﴿**حِجَجٍ**﴾ سـنين، أو المراد تثيبني رعي ثمان حجج، فـ«ثَمَانِيَ» على هذا مفعول ثان على حذف مضاف.

﴿**فَإِنَ اَتْمَمْتَ عَشْرًا**﴾ في الخدمة ﴿**فَمِنْ عِندِكَ**﴾ فإتمامها فضل من عندك، وهذا بيان للواقع وإفصاح بالمراد لا حصر، إذ لا يتوهَّم أحد أنَّ إتمام العشر فضل من شعيب، فضلا عن أن يقال: من عندك لا من عندي، اللهمَّ إلَّا أن يقال: ليس مرادي ما فوق العشر واقتصرت على العشر تفضُّلا.

﴿**وَمَآ أُرِيدُ أَنَ اَشُقَّ**﴾ أشدِّد ﴿**عَلَيْكَ**﴾ بإلزام العشر ولا بالمناقشة في أوقات الثماني، فقد لا ترعى يوما وقد تبطأ يوما، أو تسرع الرجوع، قيل: أصل المشقَّة تردُّد الرأي على شقَّين وهو صعب ﴿**سَتَجِدُنِيَ إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ بحسن العشرة والمسامحة واللين والوفاء بالواجب كالوعد. والاستثناء تبرُّك على أنَّه قد علم أنَّه معصوم، وإن لم يعلم ذلك فشرط، والأظهر أنَّه شرط باعتبار أنَّه قد يصدر من النبيء ما يكره في حقِّه وليس ذنبا.

[قلت:] وقد اعتقدت أنَّ من تاب من الرئاء يثبت له ثواب ما راءى به، ومن تاب من إهماله النية في عمله يكتب له ثواب عمله، على أنَّه منويٌّ لله مخلص إن شاء الله ﷻ.

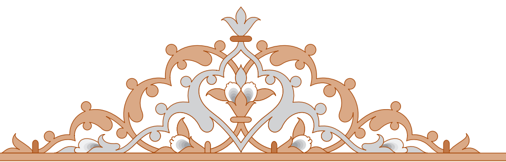
﴿**قَالَ**﴾ موسى ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ المذكور من الاقتصار على الثمان أو إتمام العشر، أو ذلك التخيير بين الثمان والعشر ﴿**بَيْنِي وَبَيْنَكَ**﴾ لازم أو ثابت بيننا لا أترك ولا تترك، ولا أقصِّر عن ثمان ولا تلزمني العشر.

﴿**أَيَّمَا الَاجَلَيْنِ قَضَيْتُ**﴾ أنفذت ﴿**فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ**﴾ لا يتَصَوَّرُ العدوان على موسى بإتمام العشر، ولكن نفاه بالمشاكلة، ولا يتوهَّم من شعيب أن يلزمه بعدم الزيادة عليها، بل ولا باقتصار على الثماني، إذ قد يقال: لم يعرف أنَّ شعيبا معصوم.

وقد قيل: المعنى لا أطالب بالزيادة على العشر، كما لا أطالب بالزيادة على الثمان، أو لا إثم عليَّ في قضاء الثمان فقط كما لا إثم عليَّ في قضاء العشر، وقد يقال: ـ وهو أولى ـ عدم اعتبار ذلك بل المراد تأكيد العقدة فقط.

[فقه] وتلك التوسعة بين الأجلين لا تعدُّ جهالة لأنَّهما على الثمان، وإن شاء أتمَّ العشر، كما أنَّه لا يضرُّ الإجمال في «إِحْدَى ابْنَتَيَّ»، لأنَّه بيَّن بعد ذلك واحدة وميَّزهـا، وجرى عليها العقد، ولا يضرُّ عدم بيـان زمان ابتداء الرعي، فإنَّ العقـدة إذا لم تؤجَّل كانت على الحلول، فهـو يبتدئه عقب العقدة، وهذا مِمَّا لا تختلف فيه الشرائع، ثمَّ إنَّه دخل عليها بعد العقدة ولم يؤخِّر إلى تمام الأجل كما قيل، ومذهب الشَّافِعِيَّة وَالحَنَفِيَّة جواز أن يصدقها بالرعي، ولمالك الإجازةُ والكراهة والمنع.

﴿**وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ**﴾ من الشـروط والعهود ﴿**وَكِيلٌ**﴾ شهيد، أو حفيظ، ولذلك عدِّي بـ«عَلَى»، وأصله الترك، وكَّلت الأمـر لله تركته له ﷻ، ويقال: توكَّلت عليه لتضمُّن معنى: اعتمدت.



﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿29﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَـٰلَمِينَ ﴿30﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْـَٔامِنِينَ ﴿31﴾ اسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿32﴾ ﴾

ـ 5 ـ

عودة موسى عليه السلام إلى مصر ونبوءته

﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ**﴾ عشر حجج صداقا للبنت الصغرى كما قاله الحسن بن عليٍّ، وابن عبَّاس، وأبو سعيد الخدري، وكما روي أنَّ رجلا من اليهود سأل سعيد بن جبير في الحيرة فقال: حتَّى أسأل حبر العرب، فسأل ابن عبَّاس فقال بذلك.

[قصص] وعن وهب بن منبِّه: أنَّه تزوَّج الكبرى، والجمهور على الأَوَّل، وروي عن أبي ذرٍّ مرفوعا: إذا سئلت فقل: تزوَّج الصغرى القائلة: «يَا أَبَتِ اسْتَاجِرْهُ»، كما روي عن أبي سعيد أنَّه سأله رجل عن ذلك فقال: لا أدري حتَّى أسأل رسول الله ﷺ، فسأله فقال: حتَّى أسأل جبريل، فسأله فقال: حتَّى أسأل ميكائيل، فسأله فقال: حتَّى أسأل الرفيع، فسأله فقال: حتَّى أسأل

إسرافيل عليه السلام، فقال: حتَّى أسأل ذا العِزَّة، فقال بصوته الأشد: يا ذا العِزَّة أيُّ الأجلين قضى موسى؟ فقال: أتمَّ الأجلين وأطيبهما: عشر سنين. والمعنى: تزوَّجها وكان ما كان فلمَّا قضى... إلخ.

[قصص] قيل: قال له شعيب بعد العقد: خذ عصا من عصيٍّ في هذا البيت، فأخذ العصا التي نزل بها آدم من الجنَّة، قيل: أخذها ليلا، وتوارثها الأنبياء حتَّى وصلت شعيبا، فقال: خذ غيرها فردَّها فتناول وما وقع في يده غيرها سبع مَرَّات فعلم أنَّ له شأنا. قلت: لو توارثها الأنبياء لشهرت عندهم ولوصلت أفضلهم ﷺ، وقيل: أخذها جبريل من آدم بعد موته وحفظها لموسى وأعطاه إِيَّاهَا ليلا، وكانت من آس الجنَّة أعطاه إِيَّاهَا جبريل، وقيل: أودعها ملك بصورة رجل شعيبا، ولَمَّا قال لابنته: أعطه عصا أعطته إِيَّاهَا، فقال: أعطه غيرها، فما تناولت سواها سبع مَرَّات فتركها، فندم لأنَّها وديعة، فجعل بينهما أوَّل آت فأتى ملك بصورة رجل فقال: ألقياها في الأرض فمن أخذها فله، فعالجها شعيب فلم يقدر وأخذها موسى.

وقيل: **هي عصا من سائر الشجر أخذها فجعل الله سبحانه فيها ما جعل** وقيل: من شجر العوسج التي نودي عليها، فتكون بعد فراق شعيب، والمشهور أنَّها عقب التزوُّج ورعى بها غنم شعيب.

[قصص] وروي أنَّه قال له: إذا بلغت مفرق الطرق فخذ اليسار فإنَّ اليمين ولو كان فيه الكلأ فيه تنين أخشاه عليك وعلى الغنم، ولم يقدر أن يردَّ الغنم عنه، فنام وخرج فقتلته العصا، فرجعت ملطَّخة، ولَمَّا استيقظ رآها والتِّنين مقتولا وارتاح لذلك، ورجعت الغنم ملأى البطون وأخبر شعيبا بذلك ففرح، وعلم أنَّ لموسى والعصا شأنا. ويقال: بكى شعيب حتَّى عمي فردَّ الله بصره ثلاث مَرَّات فأوحى الله تعالى إليه: أتبكي شوقا إلى الجنَّة أو خوفا من النار؟ فقال: بل شوقا إليك، فقال الله تعالى: هنيئا لك فلذلك أخدمتك كليمي.

﴿وَسَارَ﴾ نحو مصر لزيارة أمِّه وأخيه وأخته وقرابته ظانًّا يخفى أمره لطول مدَّة الجناية، كما دخلها حين قتل القبطي، والأولى أنَّه سار نحو بيت المقدس ﴿بِأَهْلِهِ﴾ زوجه وسـائر من تحت يده، فإن لم يخرج غنمه من ملكه فقد سار بها، فإنَّ شعيبا وهب له حين رجعت إليه الغنم ملأى من الجهة اليمنى كُلَّ ما تلده، من أدرع أو درعـا، وروي: أبلق أو بلقاء، فأوحـى الله إليه في النوم أن اضرب بعصاك مستقى الغنم أو ألقها فيه فكلُّ واحدة وضعت أدرع أو درعاء، وقيل: كلُّ ما خالف شية أمِّه.

وعنه ﷺ أنَّه لَمَّا أراد موسى فراق شـعيب أمر امرأته أن تسأل أباها من غنمه ما يعيشـون به، فوهب لها كلَّ ما ولدت على قالب واحد، وكانت غنمه سـوداء حسناء فوضع عصاه في الحوض فكان النتاج على قالب واحد إلَّا شاة أو شاتين، فلعلَّه أقام مقدار ما تستغني عن أمَّهاتها أو كان السؤال عند قرب تمام الأجل. وقد قيل: خرج وله ولدان الكبير جيرشـوم والأصغر العيـاز، ولدهما عند إقامته عند شعيب، وعن مجاهد أقام عنده عشر سنين أخرى، فاحتمل أنَّه ولد فيها ولو على القول بأنَّه لم يدخل حتَّى أتمَّ الأجل، واحتمل أنَّه ولدهما في العشر الأولى.

﴿ءَانَسَ﴾ أبصر بعينيه، وأصله الإحسـاس بعين أو أذن أو غيرهما، وقيل: الإيناس الإبصار البيِّن، وقيل: إبصار ما يسـكن إليه، ويناسـب الثاني تسمية موضع النظر من العين إنسان العين لأنَّه يُبَيِّنُ المنظور، والإنسان إنسانا لظهوره ﴿مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾ من جهة الطور حال من قوله: ﴿نَارًا﴾ أي ثابتة في جانب، أو متعلِّق بحال خاصَّة، أي لامعة من جانب الطور، وعليه فـ«مِنْ» للابتداء، أو بمعنى «في»، وهي نور في صورة النار، عبَّر باسـمها لأنَّ موسـى يظنُّه نارا، ولأنَّ مراده النار ليستدفئ بما يقبس منها، وليدلَّه صاحبها على الطريق.

وهو في ليلة مثلجة شديدة البرد، كما قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وزوجه حامل قريبـة الوضع لا يدري أتلد ليـلا أم نهارا؟ بل قيـل: أخذها الطلق

فقدح زناده فأصلد، فنظر تلك النار، وكان يأخذ على غير الطريق خوفا من ملوك الشام فيما قيل، ويقال: لأنَّه شـديد الغيرة يفارق الرفقة نهارا، فضلَّ عنها إلى الليل.

﴿قَالَ لأَهْلِهِ﴾ لم يقل: قال لهم، ليذكرهم باسم ما يوجب النفع لهم، وهو كونهم أهلا له، يسعى فيما ينفعهم من نار ودلالة على طريق، ولأنَّه في جواب سؤال كأنَّه قيل: فماذا فعل أو قال؟ فقيل: قال لأهله، أو لأنَّ أهله الأوَّل بمعنى زوجه، أي سار بزوجه لتمام الشرط والثاني بمعنى ما يعمُّها وما تحت يده، والله أعلم.

﴿امْكُثُواْ﴾ أقيموا ﴿إِنِّيَ﴾ المعنى لأنِّي ﴿ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيَ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ من أهلها على حذف مضاف، أو من النار إذ هي جهة يؤتى منها وإليها ﴿بِخَبَرٍ﴾ على الطريق، كما قيل: إنَّه ضلَّ عن الطريق، فإن وجد من يدلُّه عليها ـ مع أنَّ الذهاب إليها ليتَّصل بالرفقة أليق لهم ـ ذهب واستغنى عن الجذوة.

﴿اَوْ جِذْوَةٍ﴾ عود غليظ فيه نار كما قال: ﴿مِّنَ النَّارِ﴾ نستغني بها إذ لم نجد دالًّا على الطريق أو وجدناه، وكان الأليق عدم الذهاب. و«مِنْ» للبيان، لأنَّ الجذوة العود الغليظ ولو بلا نار، وَلَكِنَّ تسميته نارا مبالغة لأنَّ حقيقتها ذلك الجسم الملتهب، و«ال» للجنس، وقيل: نفس تلك الجمرة الغليظة في طرف عود حقيقة بلا لهب كما يستعمل بلا نار، وعليه فـ«مِنْ» للابتداء و«ال» للعهد ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون.

﴿فَلَمَّآ أَتَاهَا﴾ بلغها بعد الذهاب إليها، و«ها» للنار التي آنس ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ﴾ شفير ﴿الْوَادِ الاَيْمَنِ﴾ نعت لـ«شَاطِئِ»، أي نودي من الجانب الأيمن بالنسبة إلى إتيان موسى، ويجوز أن يكون من اليمن والبركة على موسى، فهو نعت للوادي أو لشاطئ ﴿فِي الْبُقْعَةِ﴾ متعلِّق بـ«نُودِيَ» أو حال من «شَاطِئِ». و«الْبُقْعَة»: الأرض التي تخالف الأرض التي بجنبها.

﴿الْمُبَارَكَةِ﴾ بآيات الله ﷻ وأنــواره، ودون ذلك ما قيل: مباركة بالأرزاق والثمار الطيِّبة، فنقول: المباركة بذلك كلِّه، ولو كان المقام لغير الرزق والثمار مع أنَّه مناسب لهما من حيث إنَّ موســـى وأهله في سفر، وهو محلُّ احتياج، كما أنَّه أنسب بالآيات والأنوار.

﴿مِنَ الشَّـــجَرَةِ﴾ الجــارُّ والمجرور بدل مــن قوله: ﴿مِن شَــاطِئِ﴾ بدل اشتمال، فيقدَّر الرابط، أي من الشجرة فيه، وفيه حال من الشجرة.

[نحو] ومن العجيب ما يقال: إنَّ «الشـــجرة» بدون «مِنْ» بدل من لفظ «شَاطِئِ»، وإنَّه أعيد العامل وهو «مِنْ» لأنَّ البدل على نية تكرار العامل، إذ لا يحتاج إلى هذا لأنَّه تبدل الكلمة من الكلمة، والكلمتان من الكلمتين، وهكذا، فأبدل الجــارُّ والمجرور من الجــارِّ والمجرور، مــع أنَّ العامل الأقوى «نُودِيَ».

والشجرة سمرة عند ابن مســعود، وعناب عند ابن عبَّاس، وعوسجة عند بعض، وعليقة عند بعض. ﴿أَنْ يَّامُوسَىا﴾ «أَنْ» تفســير للنداء، أو يقدَّر: بأنَّه يا موســى، حذفت الباء وضمير الشــأن وإحدى النونين، وفسَّر الشأن بقوله: ﴿إِنِّيَ أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ثمَّ تذكَّرت أنَّ بعد هذا ﴿وَأَنَ اَلْقِ عَصَاكَ﴾ فعيَّنتُ أنَّها تفسيريَّة، هذا نفس قوله: ﴿إِنِّيَ أَنَاْ رَبُّكَ﴾ [سورة طه: 12]، ونفس قوله: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ﴾ [ســورة النمل: 8]، والذي بورك فــي النار هو ربُّ العالمين، وهو ربُّ موسى، أو النداء ثلاث في تلك الليلة حكى في كلِّ سورة بعضها.

[أصول الدين] والنداء بصوت خلقه الله في الهواء، أو في الشجرة أو في الشاطئ، أو في جميع جســده، ويقال إنَّه قال: علمته من الله ﷻ لأنِّي سمعته من جميع الجهات وبجميع جسدي لا بأذني خَاصَّةً.

[قلت:] ولقومنا هنا تخاليط تؤدِّي إلى التشبيه، يردُّها المبتدئ المعتقد أنَّه لا يشبهه شيء، ولا يشبه شيئا، فيفتضحون، ويقولون: بلا كيف، كقولهم: ناداه

بكلامه القديم الذي لا صوت فيه، وقولهم: بالتجلِّي له بما شاء، حتَّى سمع كلامه بصوت، ومن وجبت مخالفته للحوادث سُبحانه وتعالى وجب أن لا تحسَّه الحوادث بأذن ولا عين ولا بغيرها، وإلَّا ناقض المخالفة.

﴿وَأَنَ اَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي فألقاها فصارت تتحرَّك وتهتزُّ ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ حيَّة صغيرة في خفَّة الحركة والسرعة، وكأنَّها ثعبان عظيم في عظم الجثَّة، أو تارة كالحيَّة المذكورة، وتارة كالثعبان، وهكذا يجمع بين الآيات ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ حال مؤكِّدة لشدَّة هروبه خوفا ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يرجع.

﴿يَا مُوسَىٰٓ﴾ نودي أو قيل: يا موسى، كما يناسب ما قبله، أو قلنا يا موسى كما هو أنسب بتعظيم الإخبار بالخطاب الذي أزال خوفه به ﴿أَقْبِلْ﴾ إلى حيث النار ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ مِنَّا ولا مِمَّا رأيت من العصا ﴿اِنَّكَ مِنَ اَلَامِنِينَ﴾ مِمَّن رسخ له تحقُّق الأمن من المخاوف، ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [سورة النمل: 10]، فذلك أقوى من أن يقال: إنَّك آمن.

﴿اسْلُكْ﴾ أدخل ﴿يَدَكَ﴾ اليمنى ﴿فِي جَيْبِكَ﴾ مخرج العنق والرأس من الجبَّة والقميص، وإطلاق الجيب على ما يخاط إلى ذلك حقيقة عرفيَّة في مضاب، وأصله المجاز لعلاقة الجوار والمراد في الآية: المخرج المذكور ﴿تَخْرُجْ﴾ وأخرجها تخرج ﴿بَيْضَآءَ﴾ كالشمس تلمع وتغلب الأبصار ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ عيب كبرص، وكدوامها كذلك، وكتوقُّع ضرٍّ منها بذلك.

﴿وَاضْمُمِ﴾ عطف على «أَلْقِ» بمعنى أنَّه أمر مطلقا بضمِّ اليد إلى الجناح مطلقا إذا خاف، لا بقيد الخوف من العصا أو بياض اليد ﴿اِلَيْكَ﴾ إلى بدنك والمراد: جانبه ﴿جَنَاحَكَ﴾ الأيمن وهو اليد اليمنى، واليدان للإنسان كالجناحين للطائر في الاستعانة، وأيضا يتَّقي بهما.

أمره بضمِّ يده اليمنى إلى ما يليها تحتها من البدن، أو إلى ما تحت الإبط من الجانب الآخر، أو أراد بالجناح الجنس فالإضافة للجنس، فشمل اليدين

يضمُّ كلَّ واحدة على ما يليهـا، أو على ما تحت إبط الأخـرى، أو إحداهما على ما يليها، والأخرى تحت هذه، وفي ذلك كلِّه زوال الخوف.

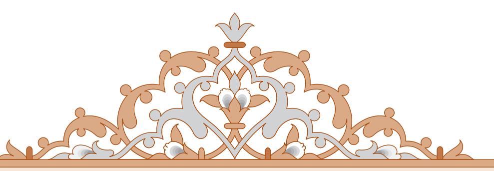
قيل: أو بإدخالهما معا في الجيب بحضرة العـدوّ كفرعون إظهارا بأنَّه لا تكترث به، وإذا ضمَّ إليه جناحـه زال خوفه من العصا فيقبضها بلا حاجة إلى لفِّ يده بشـيء، ككُمِّ قميصه بحضرة عـدوِّه، وإذا أخرجها بيضاء عقب فعل العصا أبهر العدوَّ بهمـا، والله ﷻ يعلِّمه ما يفعل بعد: ﴿سَـنُعِيدُهَا سِـيرَتَهَا الأُولَىٰ﴾ [سورة طه: 21]، أو ضمُّ جناحيه إليه عبارة عن أمره بالتجلُّد لا ضمّ اليد على الاسـتعارة بالكناية، شـبَّه تجلُّده بتجلُّد الطائر عند الخوف، ورمز إليه بضمِّ الجناح الذي هو فعل الطائر إذا خاف ﴿مِـنَ الرَّهَبِ﴾ لأجل الخوف إذا جاءك من العصا أو فرعون أو غيره.

﴿فَذَانِكَ﴾ اهتزاز العصا وبياض اليد، وهما مذكَّران، وإن أشـير إلى اليد والعصا وهما مؤنَّثـان فالتذكير لتذكير الخبر ﴿بُرْهَانَـانِ﴾ حجَّتان نيِّرتان، أو قاطعتان.

[لغة] من البَرَهِ بمعنى البياض، أو البُرْهِ بمعنى القطع، والنون زائد، وأمَّا قولهم: «برهن» بمعنى أتى بالحجَّة فكلمة مولَّـدة مبنيَّة من الأصل، وما زيد للإلحاق بالرباعي، كما يزاد حرف رابع إلحاقا بدحرج.

﴿مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ متعلِّقان بنعت واحد، أي مرسلان من ربِّك إلى فرعون وملئه على الاستمرار بعد، ولَمَّا كان ما في الآية وقع بغير حضرة فرعون احتاج بعض المحقِّقين تقدير: اذهب بهما إلى فرعون وملئه.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي فرعونَ وملأَه ﴿كَانُواْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ مبالغين في الخروج عن الحقِّ الدينيِّ والدنيويِّ، ويقوى تقدير اذهب بقوله:



﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (36) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37)﴾

ـ 6 ـ

نبوءة هارون تأييد لموسى وتكذيب لفرعون

﴿قَالَ رَبِّ﴾ يا ربِّ ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ بها، فإنَّه ولو ناسب قوله: مرسلان إلى فرعون وقومه إلَّا أنَّه أنسب بـ«اذْهَبْ»، إذ قد يخبر بالعصا واليد بلا ذهاب، وأراد موسى بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي...﴾ إلخ التضرُّع إلى الله ﷻ بأنَّه قد فعل فيهم ما يشتدُّ معه عليه لقاؤهم، وأن يمدَّه بما يبلِّغ الرسالة بلا إخلال.

[قلت:] ومن شأن اليهود الكفر، حتَّى زعموا عن التوراة كذبا عليها أنَّه قال: أرسل غيري، فيكون قال كقولهم: ﴿اِذْهَبَ اَنتَ وَرَبُّكَ...﴾ إلخ [سورة المائدة: 24]، وإنَّما ذلك منه استعداد كما قال:

﴿وَأَخِي هَارُونُ﴾ بدل ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي﴾ يقوِّ صدقي بِقُوَّة كلامه أو يظهره، وإذا قال مثل قوله، أو

زاد ما يناسبه، فذلك تصديق حقيقة وعرفا، ولا تختصُّ بأن يقول: صدقت أو صادق، كما قيل. «أَفْصَحُ» اسم تفضيل و«مِنْ» تفضيليَّة، فلموسى فصاحة فهو فصيح، الجواب: أنَّ المراد بالفصاحة هنا قدر ما يفهمون عنه ولو ببعض تكلُّف.

و«رِدًا» زيادة لموسى، من «رديت عليه» زدت، كما هو بصورة ياء، وإمَّا على أنَّه من الردء بالهمزة بمعنى المعين نقلت حركتها إلى الدال فمن شذوذ خطِّ المصحف إذ كتبت بالياء لا بالألف، ثمَّ تحقَّقت أنَّه بالألف في النسخ المغربيَّة.

﴿**قَالَ**﴾ الله ﷻ ﴿**سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ**﴾ كما طلبت أن يكون لك ردءًا.

[بلاغة] شبَّه تقوية قلبه ولسانه في علاج فرعون بالإنذار بتقوية العضد، وهو ما بين المرفق والمنكب المقوِّية لليد، واستعار لتقوية القلب واللسان الشدَّ، واشتقَّ منه «نَشُدُّ»، والقرينة «بِأَخِيكَ» وليس حقيقة، لأنَّ عضده من جسده لا يتقوَّى بأخيه، أو شبَّه تقويته وكونها بأخيه بتقوية اليد، وكون تقوية اليد بالعضد على الاستعارة التمثيليَّة.

﴿**وَنَجْعَلُ لَكُمَا**﴾ خاطب بها هارون معه تقوية لهارون ﴿**سُلْطَانًا**﴾ حجَّة غالبة لا يصلون معها إلى تكذيبكما إجابة لطلبك بقولك: ﴿إِنِّيَ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ كما قال: ﴿**فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا**﴾ بحجَّة ولا مضرَّة ﴿**بِئَايَاتِنَآ**﴾ متعلِّق بـ«لَا» النافية، انتفى بآياتنا أن يصلوا إليكما، أو بـ«نَجْعَلُ»، أو بـ«سُلْطَانًا»، أي تسلُّطا عليهم بآياتنا: اليد والعصا وغيرهما، أو قَسَمٌ جوابه الجملة الِاسمِيَّة بعده.

﴿**أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ**﴾ على فرعون وقومه لا العكس، فذلك حصر، ومرَّ كلام في التعليق بصلة «ال» بعد، وليس في اختيارنا أن نجعلها إذا شئنا حرف تعريف.

﴿**فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِئَايَاتِنَا**﴾ اليد والعصا، أطلق الجمع أو أراد غيرهما معهما وقد أريدتا في طه [آية23] ﴿**بَيِّنَاتٍ**﴾ واضحات الدلالة على دعواهما

﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ ما الذي جئت به ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ محدث لم يتقدَّم قبلك، أو تعلَّمته وكذبت به على الله، أو مموِّه، وكثيرا يكون السحر له حقيقة، فالنعت في ذلك كلِّه مخصِّص.

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ بمثل هذا الذي جاء به، أو بهذا النوع من السحر، أو بادِّعاء النبوءة، وكذبوا فقد سمع من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إن كان هو فرعون يوسف أو فرعونه غيره إن صحَّ قربه، أو ما سمعنا سماعا صحيحا بادِّعاء النبوءة، أو ما سمعنا بادِّعاء لها صحيح، فكان ينكر النبوءة رأسا كالبراهمة وكثير من الإفرنج. والباء للإلصاق، أي ما اتَّصلنا بهذا، أو صلة في المفعول به.

﴿فِي ءَابَآئِنَا﴾ في زمان آبائنا ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ لا يتعلَّق بـ«سَمِعْنَا» لأنَّ سمعهم بعد مضيِّ آبائهم لا يكون في زمان آبائهم، بل متعلِّق بحال محذوف، أي واقعا في آبائنا، أو بمضاف محذوف، أي بوقوع هذا في آبائنا.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ﴾ من عند الربِّ يعني نفسه، ولا مانع من أن يريد نفسه وأخاه ومن معهما، لأنَّه ولو اختصَّ بوحي ذلك لكن اتَّبعوه وقالوا به، والعطف على «قَالُوا».

﴿وَمَنْ﴾ عطف على «مَنْ» ﴿تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ هو أيضا موسى ومن معه، أو أراد في الموضعين المؤمنين عموما فيدخل هو ومن معه بالأولى. والعاقبة الجنَّة، أو الحالة المرضية من الوفاء بالواجب عليه من الله سبحانه، والدار الدنيا المخلوقة بالذات ليعمل فيها بذلك الوفاء الموصل للجنَّة، فهما عاقبة ونتاج منها، أو الدار الجنَّة فتكون الإضافة للبيان، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الأعراف: 128].

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ لا ينجون من عقاب الظلم، ولا ينالون خير الآخرة، أي فرعون وقومه، أو على العموم فيدخلون بالأولى.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣﴾

ـ 7 ـ
محاجَّة فرعون في ربوبيَّة الله تعالى وعاقبة عناده مع قومه

﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ**﴾ في جمع جمعه بعد كلام موسى وعجزه عن معارضته ﴿**يَآ أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّن اِلَهٍ غَيْرِي**﴾ لو كان لعلمته، وما يقوله موسى لا يصحُّ، وسأفحص فيما يقول من أنَّ له إلها فيتَبَيَّنُ بطلانه، أو إن كان فما علمته، وهذا مقنع لقومه، أو ما كان في الأزمنة الماضية وإن حدث لم أدر به.

﴿**فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ**﴾ أوقد النار على قوالب الطين لتتحجَّر، فتكون آجرا، وهذا الإسناد الطلبي عقليٌّ أو سببيٌّ، لأنَّ هامان آمر للجند بالإيقاد لا موقد ﴿**فَاجْعَل لِّي**﴾ منه ﴿**صَرْحًا**﴾ بناء صريحا أصل به إلى حيث كان إله موسى إن صحَّ.

﴿لَّعَلِّيَ أَطَّلِعُ﴾ الافتعال للمبالغة لا كالمجرَّد، لأنَّ هذا الطلوع ليس كغيره لعلوِّه ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ يعني إن كان، وهو لعنه الله يتوهَّم أنَّه إن كان فهو جسم حالٌّ في السماوات.

[أصول الدين] وهو ليس جسما ولا عرضا، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخبرنا عن نفسه أنَّه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: 11]، وأنَّه لا تحويه سماء ولا أرض، فكلُّ ما جاء بعد مخالفا بظاهره لهذا سَهُلَ تَأْوِيلُهُ، وأذعنت إلى تأويله قلوبنا إذعان نفس العطشان في الصيف إلى ما وجد من ماء بارد، ولا نجهل.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في دعواه، فبنى له وطلع وحده أو مع من يكتم الأمر فرجع فقال: لم أجد له ربًّا، وهذا لا يتمُّ له لأنَّه قد بلغ من يبنيه ذلك المبلغ فلم يختصَّ فرعون بذلك الموضع، وهو وغيره عاجزون عن الانتقال عنه إلى فوق.

وروي أنَّه ضرب منه بنبال فرجعت بدم من طير فزعم أنَّه قتل من هناك من إله موسى وغيره. قال ابن جريج وقتادة: أوَّل من صنع الآجر وبنى به فرعون. ورأى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قصور الشام فقال: ما علمت أحدا بنى بالآجر غير فرعون، بل أوَّل من اتَّخذه ولو بلا بناء فرعون، إذ قال لهامان: ﴿أَوْقِدْ لِي﴾ ولم يقل: اصنع، لأنَّه هو الذي علَّمهم صنعه، ولعلَّ عمر وقتادة وابن جريج أرادوا هذا.

﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ اعتقد العظمة ﴿هُوَ وَجُنُودُهُ﴾ والهوان لغيره وغيرهم، كان غيرهم عبيدا لهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر وما هي بالنسبة إلَّا شيء قليل حقير أو في الأرض هكذا، ولو لم يملكوا إلَّا مصر، وما افتخروا إلَّا بأسفل وهلَّا ملكوا في السماء.

﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بدون استحقاق، وإنَّما الاستكبار بالحقِّ لله سبحانه قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا**

منهما ألقيته في نــاري»[1] ﴿**وَظَنُّواْ**﴾ جزمــوا، وعبَّر بالظــنِّ احتقارا لهم، أو رجَّحوا ولم يجزمــوا، ولا يخلو فرعــون وعقلاء قومه المعتبريــن من العلم بالله ﷻ لكنَّه يجحد إبقاء على مملكته، وتكبُّرا عن أن يذعن لموسى، وهؤلاء كتموا خوفا وإبقاء لمراتبهم عنــده ﴿**أَنَّهُمُوَ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُــونَ**﴾ البتَّة مع أنَّهم يرجعون ويعاقبون، وقدَّم «إِلَيْنَا» للتعظيم والفاصلة.

﴿**فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ**﴾ للاستكبار والظنِّ ﴿**فَنَبَذْنَاهُمْ**﴾ طرحناهم ﴿**فِي الْيَمِّ**﴾ في البحر، شبَّه خلقه في أنفسهم أن يتبعوا موســى وقومه ليهلكوهم بالتسيير إلى البحر، ولَمَّا دخلوا البحر ورآهم أطلق عليهم الماء المتماسك، فشبَّه ذلك الإطلاق بالنبذ في البحر لجامع الإهلاك.

[بلاغة] وإن شئت فقل: شبَّههم بالشيء الحقير المستحقِّ للنبذ، كالزبلة التي لا تنفع وكالكناســة، فاستعار لهم اســمه ورمز إليه بما يلائمه وهو النبذ على أنَّه حقيقة، والاستعارة التخييليَّة في إثباته للمشبَّه المستعار له أو الكلام اســتعارة تمثيليَّة، شبَّه تسييرهم وإغراقهم بأخذ شــيء وطرحه، كقوله تعالى: ﴿وَالَارْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ...﴾ إلخ [سورة الزمر: 67].

﴿**فَانظُرْ**﴾ اعتبر يا محمَّد ﴿**كَيْفَ كَانَ عَاقِبَــةُ الظَّالِمِينَ**﴾ بتكذيب نبيئهم فاقصصها لقومك المكذِّبين لك منذرا لهم.

﴿**وَجَعَلْنَاهُم**﴾ بالخــذلان المؤدِّي إلــى الجعل، وهذا أولــى من معنى سمَّيناهم ﴿**أَيِمَّةً**﴾ يقتدى بهم في الضلال ﴿**يَدْعُونَ**﴾ بإضلالهم الناس ﴿**إِلَى النَّارِ**﴾ شبَّه ذلك الإضلال بالدعاء إليها، أو ســمَّى موجبات النار من الأفعال والاعتقادات نارا لأنَّها ســبب النار، وذلك أولى من تقديــر المضاف هكذا: يدعون إلى موجبات النار.

---

(1) رواه **أبــو داود** في كتاب اللباس، باب ما جــاء في الكبر، رقــم 4090. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع، رقم 4174. من حديث أبي هريرة.

[أصول الدين] والله خلقهم وخلق كفرهم، وكلُّ فعل مخلوق لله من طاعة أو معصية أو غيرهما من حيوان أو غيره، وأخطـأت المعتزلة إذ قالوا: الفاعل خالق لفعله خطأ فاحشا بسطته في محلِّه بإذن الله.

﴿**وَيَـوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ**﴾ بدفـع العذاب ﴿**وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِـي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً**﴾ إبعادا عـن الخير وما أصابهم من خير الدنيا، أو لعنا بألسـنة الملائكة والمؤمنين بخصوصهم، وبالدخول في لعن الظالمين عموما.

﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ معطوف على «هَذِهِ» ولو كان منصوبا، إذ المعنى: وفي يوم القيامة، أو بمقبوحين محذوف أي هم مقبوحون، دلَّ عليه ما أكِّد به رسوخا في قوله: ﴿**هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ**﴾ وفي تعليقه بـ«مَقْبُوحِينَ» بعده ما علمتَ.

ومعنى «مَقْبُوحِينَ» مطرودين، يقال: قبحـه الله ـ بالتخفيف ـ: طرده، ولا يتكرَّر مع «لَعْنَةً» لأنَّها في الدنيا والقبـح في الآخرة، أو طرد عن رحمة الدنيا والقبح عن الجنَّة، أو «الْمَقْبُوحِينَ» الهالكون، أو مشوَّهو الوجوه.

﴿**وَلَقَـدَ ـ اتَيْنَا مُوسَـى الْكِتَابَ**﴾ التـوراة، وهي أوَّل كتـاب فصِّلت فيه الأحكام، وما قبلها مواعظ، ويأتي الملَك بالأحكام. ﴿**مِـنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا**﴾ من بعد إهلاكنا ﴿**الْقُرُونَ الأُولَى**﴾ قوم نوح وعـاد وثمود وقوم لوط، أي كما أنزلنا التوراة بعد جهل الناس وهلاكهم ننزل القـرآن عليك يا محمَّد، لجهل أهل زمانك ومن قبلهـم، وفيه أخبارهم، وقـد حرَّفوا التـوراة. أو ﴿الْقُرُونَ الأُولَى﴾: من لم يؤمن بموسى والثانية من آمن به، ويقال: ﴿الْقُرُونَ الأُولَى﴾: الأمم قبله وفرعون وجنوده.

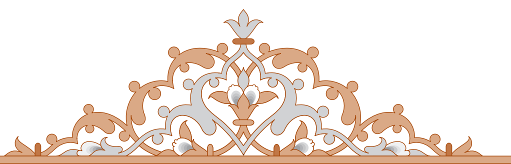
﴿**بَصَآئِرَ**﴾ حال، أي ذا بصائر ﴿**لِلنَّاسِ**﴾ أَنْوَارًا لقلوب الناس كنور العين، والناس أمَّته، وقيل: أمَّته ومن بعدهم إلى زمـان نبيئنا ﷺ، باعتبار من ينقلها بلا تغيير كعبد الله بن سلام ﵁، ومن بعد ذلك ككعب الأحبار. واجتمع لنا القرآن والتوراة.

وباعتبار نقلها بلا تغيير جاء قوله تعالى: ﴿قُلْ فَاتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾ [سورة آل عمران: 93]، ففيها ما لم يغيَّر مِمَّا يكون حجَّة على اليهود.

وباعتبار ما غيِّر منها وما لم يؤمَن عليه التغيير جاء نهيه ﷺ عمر عن جوامع يريد قراءتها من التوراة حتَّى عرق جبينه، وقال: «**لو كان أخي موسى حيًّا لم يسعه إلَّا اتِّبَاعي**»[1]، فرمى بها عمر، وينضمُّ بذلك أنَّ الناس حديثو عهد بكفر، وأنَّ الرجوع إليها يجسر المشركين.

﴿**وَهُدًى**﴾ إرشادا أو استخراجا منهم بها لِمَا لم يظهر ﴿**وَرَحْمَةً**﴾ لكلِّ أحد إلَّا من أبى ﴿**لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ كي يتذكَّروا. و«لَعَلَّ» في القرآن للتعليل إلَّا ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [سورة الشعراء: 129]، أو للترجية أو التمثيل أو لتشبيه الإرادة التي من الله ـ التي بمعنى الأمر لا إرادته الأَزَلِيَّة ـ بالترجِّي.

(1) تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج 6، ص 321.



﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿44﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿45﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿46﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿47﴾﴾

الحاجة إلى إرسال الرسل وبعثة محمَّد ﷺ

﴿**وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ**﴾ حين كان فيه موسى فتخبر قومك بما شاهدت وأنت لم توجد يومئذ، فما أخبرت بقصصه إلَّا بالوحي، والمعنى: بجانب الجبل الغربيِّ، وهو الطور، أو جانب المكان الغربيِّ، أو بجانب الوادي الغربيِّ، وذلك غرب لمسير موسى ﴿**إِذْ قَضَيْنَآ**﴾ أوحينا ﴿**إِلَىٰ مُوسَى الْاَمْرَ**﴾ من تحقيق النبوءة وإيتاء التوراة في الألواح في ذلك الجانب.

﴿**وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ من السبعين المختارين للحضور مع موسى عليه السلام، أو من الملائكة الجاري الوحي على أيديهم، أو مِمَّن يشهد بما أشهد عليه، ويتكرَّر مع قوله: ﴿**بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ**﴾ لو فسَّرناه بالحاضرين، إلَّا إن فسَّرنا ذلك بمطلق الوجود هنالك وهذا بالمشاهدة.

﴿وَلَكِنَّآ أَنشَأْنَا﴾ خلقنا ﴿قُرُونًا﴾ بعد موسى ﴿فَتَطَاوَلَ﴾ طال جدًّا ﴿عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أزمنة حياتهم في الجهل وتغيُّر الأحكام والشرائع، وتحريف التوراة والإنجيل، واشتدَّ ذلك وقت مجيئك وذلك قبل عيسى ومعه وبعده، وبينه وبين نبيئنا ﷺ خمسمائة وخمسون.

ولعلَّ هذا هو المراد بمعنى: لم يأتهم نبيء بعد الفترة، وقيل: المراد أنَّ العرب لم يأتهم نبيء بعد إسماعيل، على أنَّ أنبياء بني إسرائيل بعثوا إلى غير العرب، وقيل: بعثوا إلى العرب أيضا، وقيل: بعد عيسى ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب: خالد بن سنان، بعثوا إلى العرب وغيرهم، فأنزلنا إليك القرآن بقصص الأنبياء وبعض أحكامهم وبشرع جديد.

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ مقيما ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ شعيب عليه السلام والمؤمنون ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ﴾ على أهل مدين ﴿ءَايَاتِنَا﴾ تعلُّما منهم كما يعرض المتعلِّم ما قرأ على المعلِّم وتعليما، فتخبر قومك بما جرى، فما إخبارك قومك بما لم تحضر فيه إلَّا بالوحي، وقيل: ما كنت نبيئا في أهل مدين بل لكلِّ أمَّة نبيء، وفي هذه الآيات نفي لما قال المشركون: يعلِّمه بشر، كما قال سبحانه:

﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ موحين إليك بآيات موسى وآيات شعيب وما جرى بينهما ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى ﴿إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة القصص: 30]، أو بجانب الغربيِّ استنباء، وفي جانب الطور إنزال التوراة. وعن أبي هريرة عنه ﷺ في معنى الآية: «**يا أمَّة محمَّد أعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني، واستجبت لكم قبل أن تدعوني، وسبقت رحمتي غضبي**»[1] فذلك النداء من جانب الطور والرحمة المذكوران.

---

(1) أورده **السيوطي** في الدر المنثور، وقال: أخرجه ابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل... والديلمي عن عمرو بن عبسة.

ويروى أنَّه تعالى ناداهم فأجابوه من الأصلاب والأرحام: «لبَّيك اللَّهُمَّ لبَّيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» فقال لهم: «يا أمَّة محمَّد أعطيتكم»... إلخ.

ويروى أنَّ هذا النداء لهذه الأمَّة، إذ طلب موسى أن يسمع أصواتهم فأجابوا: أنت ربُّنا حقًّا ونحن عبيدك حقًّا، وفي ذلك اتِّصال بالمقام لا منافاة، ووقع الاتِّصال أيضا بباقي الآيات.

﴿**وَلَكِن**﴾ أنزلنا إليك القرآن المشتمل على ذلك، أو أعلمناك بذلك ﴿**رَحْمَةً**﴾ لأجل رحمة عظيمة ﴿**مِن رَّبِّكَ**﴾ مقتضى الظاهر: مِنَّا، وجعل مكانه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تشريفا له بخطابه، وإضافة الربِّ إليه إشعار بمزيد الرحمة والتأكيد. ﴿**لِتُنذِرَ قَوْمًا**﴾ قريشا ومن معهم وأهل عصرك.

[نحو] متعلِّق بـ«أنزل» أو «أعلم» الناصب لـ«رَحْمَةً»، فيلزم تعليل شيء بعلَّتين بلا تبعيَّة، فنقول: «لِتُنذِرَ» علَّة لمجموع «رَحْمَةً» ومعلَّلها الذي هو الإنزال أو الإعلام. أو علَّة لـ«رَحْمَةً»، أو ننصب «رَحْمَةً» على المفعوليَّة المطلقة، أي: لكن رحمناك رحمة، فتكون علَّة واحدة. أو علَّة لمحذوف، أي فعلنا ما ذكر من إنشاء القرون المتطاولة ومن الإرسال إليك بما وقع لمن قبلك وبالقرآن لتنذر قوما. ﴿**مَّا أَتَاهُم مِّن**﴾ صلة في الفاعل ﴿**نَّذِيرٍ**﴾ رسول، الجملة نعت قوما ﴿**مِن قَبْلِكَ**﴾ متعلِّق بـ«أَتَى»، أو نعت أو حال من «نَذِيرٍ».

﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ ليتذكَّروا بإنذارك، وإن جعلناها للترجِّي مجازا على ما مرَّ آنفا أو للترجية فذلك إنشاء محكيٌّ بحال محذوفة، أو نعت لـ«قَوْمًا» أي مقولا فيهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وكذا في مثله.

﴿**وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ**﴾ «لَوْلَا» امتناعيَّة، جوابها محذوف لدلالة الحال عليه، أي لولا إصابة مصيبة لهم بأعمالهم... إلخ ما أرسلناك، إنَّما قطعا

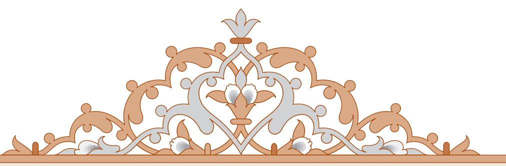
أرسلناك لعذرهم، ولا يقطع عذرهم إلَّا بإرسال، ويقدَّر مضاف أي لولا كراهة أن تصيبهم، أو لَمَّا كانت العقوبة سببا لقولهم: «لَوْلَا أَرْسَلْتَ» جعلت كأنَّها سبب للإرسال بواسطة قولهم المعطوف على الإصابة، وهو العمدة في السببيَّة، وكأنَّه قيل: لولا قولهم إذا عوقبوا: [ما أرسلت إلينا رسولا].

[نحو] ولا فرق بين قول النحاة: لولا حرف امتناع الجواب لوجود الشرط، وقول ابن المنير[1] جدِّ الدماميني: إنَّ شرطها مانع من جوابها، فمعنى قولك: امتنع الإرسال لفرض وجود السببيَّة، ومعنى قولك: فرض السببيَّة مانع من الإرسال سواء، لأنَّهم قصدوا بالوجود ما شمل الفرض. والمصيبة عذاب الدنيا والآخرة أو الاستئصال.

﴿**بِمَا قَدَّمَتَ اَيْدِيهِمْ**﴾ بسبب ما قدَّموه من أعمال القلب والجوارح، ونسب العمل للأيدي لأنَّ أكثر الأعمال في الجملة تزاول بالأيدي ﴿**فَيَقُولُواْ رَبَّنَا**﴾ يا ربَّنا ﴿**لَوْلَآ**﴾ جاءت على طريق حرف التحضيض، وذلك هنا شدَّة الرغبة في الطلب ﴿**أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً**﴾ بآيات ﴿**فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ**﴾ التي جاء بها ﴿**وَنَكُونَ مِنَ الْمُومِنِينَ**﴾ النصب في جواب «لَوْلَا» الأخيرة، والعطف على المعنى، أي لولا كان إرسالك رسولا فاتِّباعنا آياتك وكوننا من المؤمنين.

---

(1) ابن المنير الإسكندري أحمد بن منصور: ولد سنة 600هـ من علماء الإسكندرية وأدبائها، له تصانيف وديوان خطب، منها: الانتصاف على الكشَّاف، توفي سنة 683هـ. **الزركلي**: الأعلام، ج 1، ص 220.



﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ 48 قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ 49 فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ 50﴾

تكذيب أهل مكة بالقرآن وبرسالة النبيء ﷺ

﴿**فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ**﴾ القرآن ﴿**مِنْ عِندِنَا قَالُواْ**﴾ عنادا ﴿**لَوْلَآ**﴾ مثل لولا الثانية ﴿**أُوتِيَ**﴾ محمَّد ﴿**مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ**﴾ أي مثل ما أوتيه موسى من كتاب منزل بمرَّة، وهو التوراة، ومن اليد والعصا.

﴿**أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ**﴾؟ قبل مجيء محمَّد، أو قبل مجيء الحقِّ وهو القرآن ﴿**قَالُواْ**﴾ موسى ومحمَّد أو موسى وهارون ﴿**سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا**﴾ تعاونا في سحرهما وتوافق كتاباهما.

قيل: كان فرعون عربيًّا من أولاد عاد يَتَكَلَّمُ بِالعَرَبِيَّةِ، روي أنَّ أهل مَكَّة بعثوا رهطا يوم عيد لليهود يسألونهم عن رسول الله ﷺ، فأجابوهم بأنَّا نجده بصفته كما هو في التوراة، فقالوا: ساحران أي موسى ومحمَّد تظاهرا بخوارقهما وكتابيها.

﴿**وَقَالُواْ إِنَّا بِكُلٍّ**﴾ منهما، أو بالأنبياء مطلقا والكتب مطلقا ﴿**كَافِرُونَ**﴾ ويقوِّي أنَّ المراد بـ«كلٍّ» هو كلُّ ما أتيا به قوله: ﴿لَوْلَآ أُوتِيَ﴾ وقوله: ﴿أَوَلَمْ

يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ﴾ وقوله: ﴿**قُلْ فَاتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ في أنَّهما سحر، إلَّا أنَّ تكذيب الكتاب تكذيب لنبوءة الآتي به وتكذيب الآتي به تكذيب لها.

وهاء «مِنْهُمَا» للقرآن والتوراة، وقيل: للقرآن والإنجيل، والساحران محمَّد وعيسى، وعليه الحسن، وعنه: موسى وعيسى، فالهاء للتوراة والإنجيل، والذي في البخاري: ذلك موسى ومحمَّد والتوراة والقرآن.

وفي ردِّ الهاء للتوراة والإنجيل كراهة، كأنَّه يعتمد عليهما ولا اعتبار بالقرآن، وليس كذلك، بخلافها للقرآن وأحدهما، ففيه أنَّ القرآن وأَحدهما سواء متضافران من الله ﷻ، وقيل: أرسل موسى إلى العرب فكفروا، فقال الله ﷻ لمن في زمان محمَّد ﷺ من العرب: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾؟ بمعنى: أَوَلَمْ يكفر آباؤهم.

﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ**﴾ لم يأتوا بكتاب أهدى منهما، والمقام لهذا المعنى، فهو أولى من أن يقال: فإن لم يستجيبوا لك دعاءك بالإيمان، ومقتضى الظاهر: فإن لم يأتوا لك، لقوله: ﴿قُلْ فَاتُواْ﴾، إلَّا أنَّه ذكر الاستجابة تلويحا بأنَّه ﷺ لم يتوقَّف أمره على إتيانهم، وإنَّما دعاهم إلى أمر متعيِّن عليهم وهو الإيمان، والاستجابة تتعدَّى إلى الداعي باللام وبنفسها، تقول: استجبت له واستجبته، وإلى الدعاء بنفسه.

﴿**فَاعْلَمَ اَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ**﴾ ولو كان لهم شيء لأتوا به، والآية دلَّت على اعترافهم بأنَّ فيهما هدى، فالمراد: هو أهدى منهما أو مثلهما، واقتصر على ذكر الأهدى إذ لا وجه لانتقاله ﷺ عَمَّا عنده إلى ما هو مثله لا فوقه.

﴿**وَمَنَ اَضَلُّ مِمَّن اتَّبَعَ هَوَاٰيهُ**﴾ لا أضلَّ منه ﴿**بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ**﴾ حال من ضمير «اتَّبَعَ»، أي مقترنا بغير هدى ثابت من الله، وهي مؤكِّدة، لأنَّ الضالَّ

باتِّباع هواه هو أبدا بغير هدى مـن الله، وأمَّا ما قيل من أنَّهـا مقيِّدة، لأنَّه قد يوافق الهوى الهـدى من الله ﷻ فلا يتـمُّ، لأنَّه لم يوجد فـي القرآن إطلاق الهوى على الهدى، ولأنَّه قد يوهم أنَّه من هـواه واتَّبعه ضالٌّ ينظر ما ضلاله، وليس كذلك، لَكِنَّ هذا الإيهام بعيد.

﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ لأنفسـهم وغيرهـم باتِّباع الهوى والإعراض عن الآيات، [قلت:] **وكلُّ من أنكر حقًّا عن آت به فقد ظلمه، نبيئا أو غيره.**

[تمَّ بحمد الله وحسن عونه الجزء العاشر من تيسير التفسير، ويليه بحول الله الجزء الحادي عشر، وأوَّله تفسير قوله تعالى:

﴿**وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ (الآية: 51)]

الفهـارس

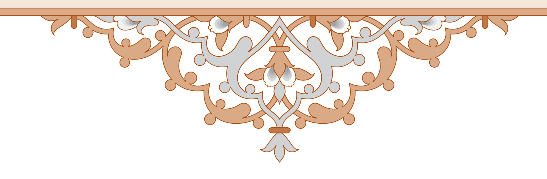
1 ـ الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية

2 ـ الفهرس التفصيلي للمســائل الفقهيَّة

3 ـ فهرس لبعــض مختــارات الشــيخ

4 ـ فهارس عامَّــة للموضوعات الفرعية

5 ـ فهرس الآيات والعناوين الرئيســية



الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية

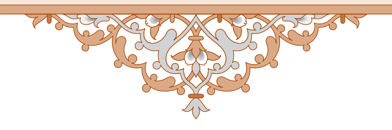
الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهية

فهرس لبعض مختارات الشيخ

فهارس عامة للموضوعات الفرعية

فهرس الآيات والعناوين الرئيسية

التعريف بالمفسِّر (*)



- في سنة 1237هـ/1818م بمدينة غرداية العريقة شمال صحراء الجزائر، وُلد الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش.

- في سنة 1243هـ/1827م حفظ القرآن الكريم في بني يسجن ـ بلده الأصلي ـ، واشتغل بحفظ المتون الدينية واللغوية على يد شقيقه الأكبر إبراهيم اطفيش، وعلى غيره من مشايخ المنطقة، ونبغ في فروع الثقافة الإسلامية نبوغًا كبيرًا.

- في سنة 1253هـ/1837م جلس للتدريس والتعليم في داره ببني يسجن، ثمَّ في مدينة بنورة لفترة من الزمن، ثمَّ عاد إلى بني يسجن وواصل نشاطه الدؤوب في معهده، وتولَّى مهمَّة الوعظ والإرشاد والفتوى في المسجد.

- منذ سنة 1300هـ/1882م قاوم الاستعمار الفرنسي عند دخوله إلى وادي ميزاب، وتولَّى إحباط خططه وتصرفاته، وله زيارات ميدانية للدعوة والإرشاد والتعليم إلى جميع قرى وادي ميزاب.

(*) انظر تفاصيل ترجمته في مقدِّمة الجزء الأوَّل من هذا التفسير.

- في سنة 1304هـ/1886م زار البقاع المقدَّســة للمرَّة الثانية، وفي طريقه زار جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة، واســتمع لعلمائها، وألقى دروسًا في الحرم المدني، تشريفًا وتقديرًا له من علمائه.
- له مراسلات هامَّة إلى علماء عصره جاب بها الشــرق والغرب، وترك في كلِّ فنٍّ تأليفًا أو أكثر يشهد له بالتفوق والإتقان.
- تخرَّج من معهده عــدد كبير من الدعــاة والقضاة والعلمــاء، وإليه يرجع الفضل الكبير في بثِّ الوعي الديني، ونشــر الروح العلمية في هذه الربوع وفي غيرها بأبحاثه وتآليفه القيِّمة، وبتفانيه في التدريس والتعليم.
- في سنة 1332هـ/1914م اختاره الله إلى جواره في مركز نشاطه ببني يسجن، رحمه الله وأرضاه وجعل الجنَّة مثواه.